

أحمد محمد الحوتى
المدرس بكتابة دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

الليالي العربية
من
الشعر الجاهلي

الطبعة الثانية

مزيّدة ومنقّحة



مستند للطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر ومطبعتهما

١٨ شارع كامل صدق باشا «النجالة سابقاً»

مطبعة نهضة مصر

أحمد محمد الحوي

المدرس بكتابة دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

الحياة العربية
من
الشعر الجاهلي

الطبعة الثانية

مزيدة ومنقحة



معتزم الطباعة والنشر

مكتبة النهضة المصرية وطبعتهما

١٨ شارع كامل مدني باشا «العجالة سابقاً»

مطبعة النهضة المصرية

الشكر موصول لمكتبة
نون بوك لتوفيرها الكتاب
لأول مرة مجاناً

www.noonbooks.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الأولى

عهدت إلى كلية دار العلوم في العام الجامعي الماضي أن أدرس لطلبتى تاريخ الأدب في العصر الجاهلي ، فرأيت أن السكتب المؤلفة فيه تتلاقى في منهج واحد يتناول العصر من حيث تاريخ أدبه ، وبيان أقسامه ، ودراسة أعلامه ، وخصائص كل منهم إلخ ... وما من شك في أنه نهج حسن ، وأصحابه خليون بالثناء .

لكني رويت طويلاً لآتلس منهجاً آخر في دراستي ، وأتخير هدفاً آخر لطلبتى ، فاهتمت إلى هذا المنهج الذى سلكته ، والذى أستطيع أن أجمله في أنه دراسة للشعر الجاهلي في شتى فنونه ، لا من حيث نشأتها وبواعثها وميزاتها ، وخصائص الشعراء في تناولها ، وأثر شاعر في شاعر ، وتأثر شاعر بشاعر ، بل من حيث إن الشعر الجاهلي صدئ قوى للحياة العربية : اجتماعية ، وأخلاقية ، ودينية ، وذات عادات ومعتقدات ، فهو ترجمانها وسجلها .

وقد قصدت من هذه الدراسة إلى أشياء : أن أثبت أصالة الشعر الجاهلي وصحته — إلا مانبه الثقة على وضعه — من طريق غير التى سلكها المناخون عن أصلته وصحته ، ولعلها أهدى وأقوم ، ذلك أن الأدب مرآة الأمة ، ومُجَنِّى عواطفها ، ومُعْرِض أخلاقها ، ومظهر معتقداتها وعاداتها ، والمعبر عن مثاليها وآمالها وآلامها ، والمتحدث عن صلة الأفراد والجماعات بعضهم ببعض ، وعن صلة الأمة بغيرها إلخ .. وهذا السكتاب قائم على أن الشعر الجاهلي وثيق الصلة بحياة العرب ، ما جَلَّ منها وما صَغُرَ ، هو جداول ورواضح نابعة من هذه الحياة تحمل في مجراها ما في الينايع

من صفاء ومن كُدرة ، ومن خير ومن شر ، فلو أنه كان موضوعاً مسطوعاً لناقض حياة العرب في كثير أو في قليل ، مهما تسكن براعة واضميه وناحليه ، ومهما نسكن خبرتهم بنظم الحياة العربية ، لأن طبائعهم لا بد أن تغلبهم ، ولأنهم لا يستطيعون أن ينسوخوا من بينهم انسلاخاً يجعل منهم عرباً أقباحاً وهم يخبون في الحواضر في القرن الثاني والثالث .

وقصدت إلى شيء آخر : أن أجوار الحياة العربية في شتى صورها جلاء لا يعتمد على التاريخ وحده ، وإنما يستند أولاً إلى الشعر الذي صور هذه الحياة فأحسن تصويرها ، ولست أنكر أنه عرضة لأن يتطرق إليه السكذب والمبالغة ، ولسكنى أرى أنهما يتطرقان أيضاً إلى التاريخ المدون والآثار المنقوشة ؛ لأن التاريخ تسجيل فرد أو أفراد ، فهو عرضة لأن يتأثر بالرواية المنقولة ، ولقد تكون مدخولة ، وعرضة لأن يميل مع الهوى والعاطفة ، ولسكن الشعر تسجيل آلاف من قبائل شتى ، في زمن طويل ، ففيه مجال أوسع لاستكناه الحقيقة من سجلات متنوعة ، خلفها شعراء عبروا عن عواطفهم صادقين ، وصوروا حياتهم العامة غير كاذبين ، وإذا كان في شعرهم ألوان من الخيال تضخم الواقع فإن من ميزات الأدب في العالم كله هذا التخيل والتجميل الذي لا ينحاز من تهويل .

على أن الشعر أدق تصويراً للحياة لأنه يتناول ما يهمله التاريخ .

وقصدت إلى شيء ثالث : أن نقف على حيوات العرب قبل الإسلام ، لأن معرفتها ضرورية لمن يدرس تاريخهم وأديبهم ونفسياتهم وعقليتهم في الجاهلية وفي الإسلام ، فقد بزغ الإسلام فوجد نظاماً وعادات ومعتقدات وأخلاقاً وصلات ، أبقى على بعضها ، وهذب بعضها ، واجتث بعضها من جذوره ، ولسكن ذلك لم يدم ضويلاً ، فما هي إلا حقبة من الزمن حتى تشعث بعض ما هذبه الإسلام ، ونجمت جذور من بعض ما اجتثه الإسلام ، فلا بد من دراسة الحياة الإسلامية ، وإلى أي حد كان

تأثيرها في العرب . ولا بد منها أيضاً لفهم ما خلفوا من أدب جاهلي وغير جاهلي .
وكان مقصدي الرابع أن أشوق إلى دراسة الأدب باتخاذ إحدى الطرائق
لدراسة المجتمع العربي ، ولست أشك في أن كثيراً من ضروب حياة العرب يبحث
إعجابنا بهم ، في كرمهم وتناصرهم وشجاعتهم وغيرتهم وحمائيتهم لنفسائهم ، الخ... ولقد
ينتهي بنا الإعجاب إلى الأسوة بهم .

وتسمت هذا الجزء إلى خمسة أبواب :

الباب الأول يشتمل على بحوث تمهيدية .

والثاني يتناول الحياة الاجتماعية .

والثالث يصور الحياة الخلقية .

والرابع يدرس الحياة الدينية .

والخامس يعرض أروانا من عاداتهم ومعتقداتهم .

وأرجو أن أكون قد اهتديت إلى طريق من النهج ، وجديد من الرأي ،

وماتوفيق إلا بالله .

أحمد محمد الحوفي

القاهرة في ٣ المحرم ١٣٦٩
١٢٥ أكتوبر ١٩٤٩

الطبعة الثانية }
ذو القعدة ١٣٧١
أغسطس ١٩٥٢

الأدب وتطوره

معناه في الجاهلية وصدر الإسلام . اشتقاق السكامة ، دلالتها الحقيقية . مناقشة آراءه في اشتقاق
المنى الحقى
معناه في العصر الأموى . دلالاته الثقافية . اشتقاق المنى الجديد
معناه في العصر العباسى الأول . اتساع الدلالة الثقافية
معناه في العصر العباسى الثانى . ضيق الدائرة الثقافية
دلالة أخرى للسكامة أحياناً في العصر العباسى

- ٩ -

دلت كلمة الأدب في العصر الجاهلى على الدعاء اللادبة ، فالأدب هو الداعى إلى
المآذب ، قال طرفة :

نحن في المشناه ندعو الجفلى لا ترى الآدب فينا ينتقر^(١)
ثم توسعوا في معناها فاشتقوا منها الآدب بمعنى الأخلاق السكرمة والسجايا
التييلة ؛ لأنه يادب الناس إلى المحامد ، وينهاهم عن المقابح ، وبين المعنيين صلة وثيقة ،
لأن العرب يحبون في بادية متفرة شحيحة بالزاد ، فتمدحوا بالقرى ، وبالغوا في
الحفاوة بالضيف حتى تحرق فيها بعضهم ، فكان من الطبيعى أن ينقلوا من معنى الآدب
الحسى المادى إلى ذلك المعنى النفسى الخلقى .

ولمنا نستطيع أن نحدد الوقت الذى نشأ فيه هذا التجوز ، وإن كنا نجد في
العصر الجاهلى نصوصاً تدل عليه منها قول بلعام بن قيس السكتانى - الذى شهده
حرب الفجار الثانى : -

أصبحت آنى الذى آتى وأتركه وبات أكثر رأى الناس مرُتابا
وإن أمت والفتى رهن بمصرعه فقد قضيت من الآداب آرابا^(٢)

(١) ديوان طرفة ٦٠

(٢) المؤلف والحذاف للأمدى ١٠٦ .

ومنها قول عتبة بن ربيعة لابنته هند يصف لها غاطبها - أبا سفيان ولم يذكر اسمه - : «يؤدب أهله ولا يؤدبونه» . وردها عليه : وإني لأأخذ بأدب البعل ، مع لزوم قبتي ، وقلة تلفتي» (١) .

وفي جهرة الأمثال لأبي هلال العسكري في كلامه على المثل : «ويل للشعبي من الحنلي» ، قوله : المثل لا كتم بن صيفي ، وذلك أنه ذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم فكشبه له كتابا جاء في رد المصطفى عليه قوله : «بآدابه المرسلين» (٢) ، ولعل أصل الجملة أدب أو بعث بآدابه المرسلين ، أو أدبني بآدابه التي أدب بها المرسلين .

وقد سائر السكامة مدلولها الحقائق إلى صدر الإسلام ، ففي الحديث الشريف «أدبني ربي فأحسن تأديبي» وقول النبي عليه الصلاة والسلام «القرآن مأدبة الله في الأرض» (٣) وقول سيدنا عمر لابنته : «يا بني انسب نفسك تصل رحلك» ، واحفظ محاسن الشعر بحسن أدبك» وقول علي رضي الله عنه : «وأدبتكم بسوطي فلم تستقيموا» وحدوتم بالزواج فلم تستوسقوا» (٤) وقوله : «وقد لبس للحكمة جنتها» وأخذها بجميع أدبها من الإقبال عليها ، والمعرفة بها ، والتفرغ لها» (٥) وقول حجر بن عدى الشهيد للإمام علي : «يا أمير المؤمنين نقبل عظمتك ، وتؤدب بأدبك» .

ولكن بعض الباحثين لم يظفروا إلى اشتقاق الكلمة من الأدب بمعنى الدعاء إلى المآدب ، وعرضوا آراء لا تقرهم عليها .

فالمستشرق الإيطالي الأستاذ نيليو يشتها من الأدب بمعنى العادة ، ويرى أن كلمة أدب جمعت على أداب ثم قلب الجمع إلى آداب ، كما جمعت بئر ورثم على آبار وآرام . واشتقت كلمة أدب من الجمع آداب .

(١) الأمالي ١٠٤/٢ .

(٢) جهرة الأمثال ص ٢٠٣ طبعة بمي . وفي طبعة المطبعة الخيرية على هامش أمثال الميداني بأذانه ، وله تعريف بآدابه .

(٣) لسان العرب مادة أدب .

(٤) شرح ابن أبي الحديد لهج البلاغة ص ٢٦ من ٥٣٦ تستوسقوا : تحببها .

(٥) المصدر السابق ٥٣٥/٢ .

وهذا فرض ، وتكلف لا نقره

١ - لأن كلمة آبار وآرام لم يشق منهما مفردان تكون الصلة بينهما وبين بر
ورم كالصلة بين أدب ودأب في الحروف والمعنى ، فيقال مثلاً لبر وآرام .
٢ - لم يذكر شيئاً في هذا الاشتقاق في اسم معنى قدمت عينه على فاته في الجمع
ثم اشتق منه فعل جديد .

٣ - لم يرد في معجم أو نص جمع كلمة الدأب أو الدأب على أدآب ، ولكن
ورد في كتب اللغة جمع بر على آبار وآبار ، وجمع رم على آرام وآرام .
٤ - لم يرد الدأب بمعنى الأدب ، لأن الدأب العادة والشأن والاستمرار حسناً
أو قبيحاً ، والأدب خلق كريم في أول معانيه .

والدكتور طه حسين كان في أول الأمر يدين برأى الأستاذ نلينو . ولكنه بعد
ذلك يحار في الاهتداء إلى مصدر الكلمة ولا يرتضى رأياً من الآراء ، فيفترض أنها
من لغة قبيلة عربية قديمة ، ولكن النصوص المثبتة لمعناها الأصل ضاعت . وهذا
رأى يعتمد على هدم البناء بمعول من الخيال والفرض لا يبنى ولا يهدم .
والأستاذ مصطفى جواد يرى أنها مشتقة من الهذب ، وقلبت الهاء همزاً كما في
هيا وأيا وهراق وأراق . ولكن يضعفه أن الكلمة لم تستعمل مرة على هذا الأصل
لا فعلاً ولا اسماً .

ويرى الأب أنستاس الكرملي أن الأدب « صنعة الأديب الوارد في اللغة
اليونانية . باللفظ والمعنى ، فن معنى الأديب عندهم الحسن الغناء اللذيذ المحادثة
والمنادمة والمجالسة ، المثير لهوى جلسائه بأنغامه المشجية وحديثه الريق ،^(١) لكن
هذا الرأي محتاج إلى دليل ، ومفتقر إلى إثبات أن العرب أخذوه من اليونان .
ويذهب الأستاذ أحمد حسن الزيات إلى أن (أدب) معناها الإنسان في لغة
السومريين الذين عمروا جنوبي العراق في فجر التاريخ ، وبما لا مساع للشك فيه أن

(١) المتكف مارس سنة ١٩٣٣ ص ٣٢٢ مقال الأستاذ مصطفى جواد .

قبائل سامية نزحت من الجزيرة العربية إلى أرضهم حوالي القرن الثلاثين قبل الميلاد فغزتهم وأخضعتهم واقتبست من لسانهم وأديانهم وعمرانهم ، فلماذا لا ننظر أن هذه الكلمة السومرية قد دخلت العربية بلفظها ومعناها ، ثم تحولت إلى آدم واستعملت كذلك في اللغات السامية ، وبقيت العربية وحدها محتفظة بالأصل لقدمها وعدم اختلاطها ، ثم استعملت هذه الكلمة في الوصف استعمال المصادر ، فأرادوا بها الرجل الذي استكمل مزايا الإنسانية من حرُّ الخلال وكرم الفعال ، وحسن السيرة ، كما نقول اليوم فلان آدمى وفلان إنسان ، ثم قلبها الزم من على وجوه الدلالات حتى صارت إلى ما صارت إليه . وما يساعد هذا الفرض قول التبريزي في شرح الحماسة كان الأدب اسما لما يفعله الإنسان فيزين به في الناس (١) .

ومع تقديري للأستاذ وتحريزه في عرض هذا الفرض أدفعه بأن المراد من الكلمة إذا الرجل الكريم الأخلاق أو الممتاز بصفات ، لا الخلق الكريم نفسه ولا الصفات المميزة لبعض الناس ، وليس في اللغة أنارة تؤيد هذا المعنى أو تشير إليه ، وحتى كلمة التبريزي نفسه صريحة في أن الأدب ميزة وحلية يزين بها الرجل في الناس ، على أن استعمال هذه الكلمة وصفاً كما تستعمل المصادر بعيد الاحتمال . وبعد فهذه آراء تبحث عن أمومة للكلمة في غير جنسها ، وأمها في اللغة العربية نفسها ، وبعضها ينصب شباكالاصطياد جديد، وأقوى منه ذلك الرأي التليد الوطيد

وفي العصر الأموي ظل هذا المعنى الخلق الصريف حياً شائعاً ، ومنه قول سالم ابن وابصة الأسدي :

إذا شئت أن تدعي كريماً مكرماً أديباً ظريفاً عاقلاً ما جداً حراً
إذا ما أتت من صاحبك زلةً فكأن أنت محتالاً لزلته عذراً

وقول مزاحم العقيلي في وصف الإبل :

وهي بصرف عن النوى بين عاجلٍ ونجران تصريف الأديب المذلل^(١)
ولكن الكلمة تطورت إلى معنى آخر ، هو الشعر والنثر ، وما يتصل بهما من
الشرح والأخبار والأنساب ، وهذا ضرب من الثقافة اختص بتدريبه لأبناء الخاصة
وأولياء العهد طائفة من الأساتذة سمو المؤدبين . ومن ذلك قول معاوية : « اجعلوا
الشعر أكبر همكم وأكثر آدابكم ، فإن فيه مآثر أسلافكم ، ومواضع إرشادكم ، ،
وقول عبد الملك بن مروان لمعلم ولده : « أدبهم برواية شعر الأعشى ، فإنه - قائله الله -
ما كان أعذب بحره ، وأصلب صحّره ، . وسُمي الملمون بهذه الثقافة أدباء أيضاً ، قال
أبو العيزار كما ذكر الجاحظ أو عبيدة بن هلال اليشكري كما ذكر المبرد في
مدح الخوارج :

أدباء إما جتتهم خطباء ضمنا كل كتيبة جرار^(٢)
على أنه كانت في العصر نفسه ثقافة أخرى لم تشملها كلمة أدب هي القرآن الكريم
والحديث الشريف ، وهذه هي الثقافة الشرعية أو الدينية
فن ابن اشتق هذا المعنى الجديد للأدب ؟

جرى الباحثون على أن المعنى الجديد وليد القديم ؛ لأن المؤدبين كانوا يتوخون
من الثقافة الأدبية تهذيب الأخلاق ، ورياضة النفوس على النبالة ، ولكنني أرى أن
المعنى الجديد إنما جاء من الأدب وهو الأمر العجيب ، قال الأصمعي : جاء فلان
بأمر أدب أي عجيب ، وأنشد :

سمعت من صلصل الأشكال أدباً على لبّاتها الحسوالى
أو من الأدب وهو العجب والدهشة ، قال منظور بن حبة الأسدی :
بشمعي المشي عجول الوثب غلابة للناجيات الغلب

(١) الأدب والمؤدب : البير المذال المنقاد .

(٢) البيان والتبيين ١/٣٠٩ .

حتى أتت أزيها بالأدب^(١)

فالآدب الأمر العجيب ، أو الدهشة والعجب ، والصلة بين الآدب بمعناه الفني وبين هذين الأصلين صلة وثيقة ؛ لأن الآدب عجيب يؤثر النفوس بعباراته ومعانيه وأخيلته ، وهو أيضاً نتاج عن عجب من منظر أو حادث أو شعور ، ونتاج يدعو إلى عجب القراء والسامعين ، ويعزز رأي هذا أن بعض الشعر الذى كان يدرس ويروى على أنه أدب حافل بالمجون والنزل الفاحش ، كشعر طرفة وامرئ القيس والأعشى ، فاشتقاق المعنى من الآدب بمعنى الأمر العجيب أو العجب والدهشة أكثر ملاءمة للآدب ومسايرة له من اشتقاقه من الآدب بمعنى الخلق الكريم .

وإذا فالآدب بمعنى الدعاء للبأدبة أصل الآدب بمعنى الخلق العظيم ، والآدب بمعنى العجيب والعجب أصل لذلك القرن الجميل الرفيع من شعر ونثر .

وفى أواخر العصر الأموى وأوائل العصر العباسى الأول أو ، فى القرن الثانى والثالث نشأت علوم اللغة العربية ، وتميزت بموضوعاتها وأسمائها فكان النحو والصرف واللغة ، واتسع نطاق كلمة أدب فشملت الشعر والنثر وما يتصل بهما من شرح وأخبار وأنساب ومسائل من النحو والصرف واللغة والنقد ، وألفت كتب بهذا المعنى مثل طبقات الشعراء لابن سلام المتوفى ٢٣٢ هـ والبيان والتبيين للجاحظ المتوفى ٢٥٥ هـ والسكامل للبرد المتوفى ٢٨٥ هـ والشعر والشعراء وعميون الأخبار وأدب السكاتب لابن قتيبة المتوفى ٢٧٦ هـ ونحن نجد مثلاً فى كتاب السكامل شعراً ولغة وصرفاً ونحواً وتاريخاً وبلاغة ، لأنهم فهموا الآدب على أنه ثقافة عربية لغوية جامعة .

ولم يكن الآدب ثقافة المسلمين الوحيدة فى ذلك الحين ، فإنهم كانوا قد ارتقوا وتحضروا وأجادوا فهم دينهم ، وقوى اتصالهم بغيرهم ، فازدهرت ثقافتهم الدينية ،

(١) لسان العرب مادة أدب . الدعوى : النافذة السريعة . الأذى : السرعة والغشاط . الناجيات :

النوق السريعة . صلاص الأَشْكال : وسوسة الخلى .

واتسعت دائرتها عما كانت عليه في القرن الأول ، ففرغت إلى القرآن الكريم وتفسيره وقراءاته ورسمه ، وإلى الحديث الشريف وعلوم الحديث ، وإلى الفقه وأصوله ، والسلام ومذاهبه ، كما ازدهرت ثقافتهم الدخيلة من منطق وفلسفة وطب وفلك ...

ولكن الأدب لم يشمل هذين الضربين من الثقافة ، فهذه فلسفية وتلك دينية ، على أن الدلالة الخلقية ما فتئت حية تدور على الألسنة وأسلات الأقلام ، فإن الجاحظ مثلاً في البيان والتبيين عقد فصولاً في الأدب منها (كلام في الأدب) ذكر به عدة حكم ووصايا مما يهذب الأخلاق^(١) ، وذكر لابن هرمة أبياتاً في الرثاء منها بيت يمدح المرثى بالكرم وحسن أخلاق الخدم في لقاء الضيوف :

هش إذا نزل الوفود يبابه سهل الحجاب مؤدب الخدم^(٢)

وإن المقفع المتوفى سنة ١٤٢ هـ سمي كتابين له في الأخلاق (الأدب الكبير) و (الأدب الصغير)

- ٤ -

وقد كان النقد يتدرج في نصجه وارتقائه منذ القرن الثالث ، ونهض علماً مستقلاً متميزاً من الأدب في القرن الرابع ، وسمى بلاغة حيناً وبيانا حيناً وبديعاً حيناً ، وكان رواة الأدب قد قللوا من الاستطراد اللغوي والنحوي فيما يروون ويدونون ، فضاعت دائرة الأدب التي كانت رحبة شاملة في القرنين السابقين ، وانحصر لفظ الأدباء عن العلماء واستقل به السكتاب والشعراء ، لأن الصلوم استقلت فاختص بكل علم رجاله ، حتى قالوا ختم تاريخ الأدباء بشعاب والمبرد وكانت وفاة المبرد ٢٥٨ هـ وثعلب ٢٩٢ هـ . وهم يقصدون بالأدباء هنا الملمين بالثقافة العربية جملة ، وصار الأدب يطلق على الجيد من الشعر والنثر وما يرتبط بهما من شرح ونقد وهذا هو معناه في كل اللغات الآن

على أن هذه الكلمة دلت في العصر العباسي أحياناً على معنى أوسع من هذا كله، دلت على الاستنارة والمهارة النظرية والعملية، فالفلسفة أدب، والصيد والشطرنج أدب، والسياسة وخدمة الملوك أدب، والأديب هو المثقف المستنير اللبق، قال الوزير الحسن بن سهل المتوفى ٢٣٦ هـ: «الآداب عشرة: ثلاثة شرجانية، وثلاثة أنوشروانية، وثلاثة عهرية، وواحدة أربت عليين. فأما الشرجانية فضرب العسود ولعب الشطرنج ولعب الصوالج، وأما الأنوشروانية فالطب والهندسة والفروسية، وأما العهرية فالشعر والنسب وأيام الناس. وأما الواحدة التي أربت عليين فمقطعات الحديث والسمر وما يتلقاه الناس بينهم في المجالس،»^(١)

ومن النصوص الدالة على أن الأدب هو المهارة وأن الأديب هو اللبق الحسن التصرف ما أنشده ابن أبي كريمة:

ألا زعمت عفرام بالشام أنني غلامٌ جوارٍ لا غلام حروبٍ
وإني لأهذي بالأوانس كالدمي وإني بأطراف القنسا للعوبُ
وإني على ما كان من عنجيتي ولوثة أعسرا بيق لأديبٍ^(٢)

وجاء في إحدى رسائل الجاحظ قوله: «إنا وجدنا الفلاسفة المتقدمين في الحكمة ذكروا أن أصول الآداب التي يتفرع منها العلم لذوى الأبواب أربعة: فمنها النجوم وأبراجها وحسابها، ومنها الهندسة وما اتصل بها من المساحة والوزن والتقدير، ومنها الكيمياء والطب وما يتشعب من ذلك، ومنها اللغون ومعرفة أجزائها ومخارجها وأوزانها، فأدخل في الأدب العلوم الرياضية وبعض العلوم الطبيعية، متأثراً بأرسطو فقد سمي العلوم الرياضية الأدب في تقسيمه للعلوم المأثور عنه»^(٣)

وأدخل إخوان الصفا في عمدة العلوم الرياضية التي سميت الأدب أحياناً

(٢) البيان والتبيين ١/١٤٩

(١) زهر الآداب ١/١٤٢

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ج ١ ص ٥٣٣

السحر والكهانة والكيمياء وغيرها إلى جانب اللغة والشعر والرياضة^(١) وكانوا يعتبرون معرفة النغم وعلل الأغاني من أرقى فنون الأدب ، وفيها وضع عبيد الله بن طاهر من ندماء الخليفة المعتضد بالله المتوفى ٢٨٩ هـ كتابه (الآداب الرفيعة) ، لذلك قال ابن خلدون : « وكان الغناء في الصدر الأول من أجزاء الأدب لأنه تابع للشعر ، إذ الغناء إنما هو تلحينه ، وكان السكاتب والفضلاء من الخواص في الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصاً على تحصيل أساليب الشعر وفنونه ، وقال : « يجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة من شعر عالي الطبقة ، وسجع مفساو في الإجابة ومسائل من اللغة والنحو ماثرة أثناء ذلك متفرقة ، يستقرى منها الناظر في الغالب معظم قواين اللغة العربية ، مع ذكر بعض من أيام العرب ، يفهم به ما يقع في أشعارهم منها ، وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة فالآداب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف ،^(٢)

وقد جمع أبو القاسم إسماعيل بن أحمد الشجري من شعراء القرن الرابع ضروب الآداب في قوله :

إن شئت تعلم في الآداب منزلتى وأنى قد عدداني الصن والنعم
فالطرف والسيف والأوهاق تشهدلى والعود والورد والشطرنج والقلم^(٣)

(١) الرسالة السابعة ج ١ .

(٢) المقدمة ص ٤٤٨ — ٤٨٩

(٣) الأوهاق : المجال القوية ترمى في أفتومة لتؤخذ بها الدابة والإنسان ، وغرض الشاعر بحرف السكدة التي يتال بها المال

تاريخ الأدب

وهل للأدب تاريخ؟ نعم فإن الأدب كائن حتى يتناول العصر، فلا بد أن يؤرخ، لا بد أن نعرض لحالته من قوة أو من ضعف، وأن نحيط خبراً بالمؤثرات العامة في حياته من بيئة طبيعية واجتماعية وحرية أو عبودية وثقافة أو جهالة وحرب أو سلم الخ، لنعرف النبايع الأولى التي استتقت منها النفوس والعقول، ولا بد أن ندرس الحركة الفكرية في كل عصر وتأثيرها في الأدب، وتأثر أديب بغيره وتأثيره في غيره، ونعلم خصائص كل أديب وخصائص الأدب في كل إقليم الخ.

فمؤرخ الأدب إذاً لا بد من أن يلم بتاريخ العلوم والفلسفة والفنون الجميلة، ولا بد أن يدرس الحالة السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية للعصر الذي يدرسه دراسة تمكنه من فهم الأدب وظروفه، ومن المعرفة بالأدب وإنتاجه، على أنه فوق هذا كله لا بد أن يكون هو نفسه أديباً ذا ذوق، ليتشبع ذوقه وثقافته، فليس تاريخ الأدب علماً صرفاً، وإنما هو مزيج من العلم ومن الذوق، وكيف تريد من محرم نعمة الذوق الأدبي أن يؤرخ هذا الذوق؟ ولو أن مؤرخ الأدب اقتصر على ذوقه وحده دون أن توازره الثقافة العامة لصل، قال رجل خلف الأحمر: إذا استحسننت أنا الشعر فما أبالي ما تقول فيه أنت وأصحابك، فقال خلف: أرأيت إذا استحسننت أنت درهماً قال لك الصراف: إنه رديء، أكان ينفعك استحصانك له؟^(١)

وقد تتساءل ما قيمة تاريخ الأدب وما أثره؟ ولو نظرنا إلى العصور الأدبية كلها لاجبتنا بأن هذا التاريخ يبصرنا بحياة الأدب والحركة العلمية والفكرية وما أثر فيها فرقاها أو هبط بها، ثم هو يبصرنا بأثر الأديباء والعلماء والمؤثرات في أديبهم

وعلمهم ، لنسترشد بذلك في فهم إنتاجهم ، ونوفر الجهد الذي كان مضطراً كل منا أن يبذله لو انفرد بالبحث والدرس ، وهيات أن يتسع له وقته أو تمكنه وسائله ، على أنه يبحث فيما الشوق إلى مواصلة الدراسة ، ويهدينا إلى طرق البحث القويمة المجدية .

ومن حق الأدب علينا أن ندرسه ؛ لأنه ميزة تميز بها الإنسان ، ولأنه لغة الروح وترجمان القلب وصقال النفس ، وهو بعد ذلك وسيلة بلاغ الرسل إلى العباد ، والإرهاص الذي يتقدم ثورات الأمم على عسف طال ، أو خمود استطال ، فتتفقت من قيودها ، وتنطلق من خمودها ، وتثب على أنغام الأدباء إلى أعلى مُثُلها .

اللغة العربية

اللغات السامية

اللغة العربية سامية

أسوار رقيبا وتهذيبها وعوامل التقريب بين اللغات

- ١ -

اللغات السامية هي لغات الجنس السامي الذي اتصلت شعوبه اتصالاً وثيقاً ، واتحدت في النشأة ، والبيئة ، واللون ، وارتبطت بروابط طبيعية واجتماعية جعلتها جنساً من البشر متميزاً ، سواء رجعنا إلى تقسيم التوراة أم إلى التقسيم الطبيعي (١) وأول من أطلق على لغات هذا الجنس (اللغات السامية) المستشرق الألماني شلوتزر ١٧٨١ م ولكن هذه التسمية على ذبوعها وخفتها غير جامعة وغير مانعة ، لأن بعض من يتكلمون بها ليسوا من الجنس السامي مثل الأحباش فلقنهم سامية وهم حاميون (٢)

- ٢ -

واللغة العربية المستعربة سامية ، ولا بد أنها استمدت كلمات من أخوانها الساميات كالحبشية والحيرية والعبرية والآرامية القديمة .

ذلك أن إسماعيل عليه السلام تعلم العربية من جرهم الثانية التي كانت قد هاجرت

(١) فالتوراة ترجع النوع الإنساني كله إلى أبناء نوح الثلاثة . سام ، حام ، يافث ، فنقسمه إلى ثلاثة أجناس . والتقسيم الطبيعي يعتمد على طبيعة الناس من اللون والقطر ، والبيئة . . . الخ . والجنس السامي في رواية التوراة هو نفسه في رأى العلم .

(٢) بعد أن نقررت من اللغة الأثيوبية الحديثة لهجات حامية امتزجت بالعربية السامية امتزاجاً عاماً الأولى وأبقى الثانية حتى سارت اللغة الأثيوبية أو الحبشية تعد من اللغات السامية ، كما أن اللغة المصرية القديمة امتزجت باللغات السامية حتى خرجت من طبيعتها الأولى وعدها بعض القنويين من السامية (مقدمة الأساس في الأمم السامية ولغاتها)

من اليمن إلى مكة ، وامتزج بهم وأصهر فيهم . ويقال إنه كان لإسماعيل لغة أخرى عبرية أو كلدانية ، فقد كانت أمه هاجرة مصرية ، وأبوه يعرف السكلدانية ، ومن البعيد أن يندى لإسماعيل لغة أبيه ولغة أمه ، بل القريب أن تمتزج لغة أبويه بلغة أصهاره ، ونشأ من إسماعيل ومن ذرائبه جيل عربي جديد هم العرب المستعربة .

وانتسب المضربون - العرب المستعربة - إلى أيهم لا إلى أهم ، وإن كان النسب إلى الأم شائعا في العصر الجاهلي ، ورفض النبي صلى الله عليه وسلم أن ينسب المضربون إلى آكل المرار ، وذلك أن وفد كندة قدم على النبي برياسة الأشعث ابن قيس ، وقال الأشعث للنبي : « يارسول الله نحن بنو آكل المرار وأنت ابن آكل المرار ، فبسم النبي وقال : « ناسبوا بهذا النسب العباس بن عبدالمطلب وربيعة بن الحارث ، وكانا تاجرين يوغلان في بلاد العرب ، فإذا سئلا من هما ؟ قالوا : نحن بنو آكل المرار يتميزان بذلك - لأن كندة كانوا ماوكا - ثم قال لهم : « لا بل نحن بنو النضر ابن كنانة ، لانفقوا أمنا ، ولا نفتق من أيدينا »^(١)

ويقال إن القحطانيين هاجروا من الفرات أو الخبشة إلى اليمن وعمروها وأضافوا إلى لغتهم من لغة أسلافهم المهيذيين الذين هم من بدو الآراميين أو بقايا البابليين ، عبروا إلى اليمن قبل القحطانيين ، وكانت لهم بها دولة قبل سبأ وحيمر ، وهم الذين اقتبسوا الحروف الفينيقية التي تطورت إلى الخط المسند أو القلم الحيري .

فاللغة العدنانية استرطفت من هنا كله ، وقد تطورت إلى المضربية الفصحى في الوقت الذي زالت فيه الدولة الحيرية حوالي أوائل القرن السادس للميلاد ، وفي الوقت

(١) سيرة ابن هشام ٢٥٤/٤ وآكل المرار : الحارث بن عمرو بن حنجر السكندى ، والمرار نبات مر إذا أكلته الابل تقيت ، شافرها ، وسمى الحارث بذلك لأن عمرو بن الهذيلة الفصاني أغار عليهم والحارث عاتب فغم وسمى وكانت في سببه امرأة الحارث قتلت لعمرو في سيره : لسكاني برجل أحلم - مترخي الشفتين - أسود كأن مشافره مشافره بئر آكل مرار قد أخذ برقبتك ، فنى الحارث ، فسمى آكل المرار ، ثم تبعه الحارث وقتله واستنفذ امرأته وما كان أصاب (سيرة ابن هشام ٢٥٥/٤)

الذى بسطت فيه سلطانها على أكثر أرجاء الجزيرة ، وتوحد اللسان العربى إلا ما ينجم عن طريقتة النطق ويسميه العلماء اختلاف اللهجات .

وعلماء اللغات بفضول اللغات السامية على الحامية والآرية بكثرة مفرداتها ، وتووع أساليبها ، واطراد قياسها ، ووضوح مخارج حروفها ، وهم أنفسهم يقدمون العربية على أخواتها السامية بهذه الميزات وبغيرها ، حتى رأى كثير منهم قدماء ومحدثون شريون وغربيون أن العربية أصل اللغات السامية أو أقربها إلى السامية الأولى ؛ لنشأتها في أقدم موطن للساميين ، وبقيتها بعزل عن الاحتكاك باللغات الأخرى . وهم قد وازنوا بين العربية والسريانية والعبرية فانضح أنهما متأثرتان بها ، بدليل أن السكيات التى بها ضاد — وهو حرف خاص بالعربية — نقلت إلى العبرية بالصاد ، وإلى السريانية بالعين ، ولو كانت العربية هى الناقلة لبقيت الصاد أو العين على أصلهما لأن الحرفين فى العربية فلا مدعاة للإبدال .

لسنا نستطيع أن نزع من أن اللغة العربية قد ولدت ناضجة كما وصلت إلينا لأن هذا مخالف لقوانين التطور ، وطبيعة اللغات تأباه ، فلا بد أن مرت بهذه اللغة أطوار ومؤثرات رقتها وأنضجتها وأوصلتها إلى درجة من الكمال جعلتها خليفة أن ينزل بها كتاب الله .

وأهم أطوار التهذيب هى :

١ — نزل إبراهيم بالحجاز وترك هنالك ابنه إسماعيل عليهما السلام ، وأصبح إسماعيل فى جرهم الثانية وهى قحطانية ، فكان لسانه ولسان نسله متأراً ببلغة أبيهم وبلغة قحطان .

وكان من الطبيعى أن تمتزج لغة إسماعيل ببلغة جرهم ، وأن ينطلق لسانه فى مجال أوسع ويشقق عبارات أوضح ، لسبب كاله الفطرى الذى لا يقتصر إلى تلقين ولا تعليم ، وجرى على لسانه بنوه من بعده ، وامتد الزمن بالبلغة ينميا ويكملها حتى ظهر عدنان

أبو العرب المستعربة ، فنشأ جيل جديد ذو لغة أعظم ثروة ونوعاً ، أسهم فيها الجميع ، لأن دارهم وبيوتهم وأخلاقهم وشيمهم واحدة ، وبينهم تصاهر وتشابك واجتماع لا ينقطع .

ب - ثم انشعبت قبائل من أولاد إسماعيل ، وجعلت لغتها تنمو وتتطور ، وساعدها أنها لم تُسكَب فتتأني في تطورها أو تجمد ، لأنها لغة قوم أحرار ذوي فطر سليمة يُصَرِّفون لغتهم كما يُصَرِّفون أزممة نوقهم وأعنة خيلهم ، وكان يأخذ بعضهم عن بعض بالمخالطة والمجاورة والتلاقي في الأسواق ، فتنقل الكلمات من قبيلة إلى أخرى كما تنتقل العروض .

ج - ولقريش وحدها في هذا المضمار نصيب عظيم من الجهد والفخار ، فإن التطور الأول كان عمل القبيلة الأولى ، والثاني كان من صنع القبائل جميعاً ، أما هذا فجهد قریش ، وقد أعانتها على ذلك أمور :

(١) أعانها الدين ، فالقرشيون يقيمون بواد غير ذي زرع ، وهم مفتقرون إلى أن تهوى أفئدة الناس إلى البيت الحرام ، وقد استجاب الله دعاء سيدنا إبراهيم ، فجعل السكعبة الشريفة وجهة العرب أجمعين يحججون إليها أو يعتمرون ، وكانت القبائل التي تفتد على مكة للحج ذات لهجات منها الجبد ومنها الرديء ، وقريش تستمع إلى الوافدين وتستصفي من لهجاتهم ما يروقها ، وكان النازلون ينقلون عن قریش وبيثون في الجزيرة ما نقلوا .

(٢) وساعدها التجارة ، فقد كان القرشيون يرتحلون في كل عام رحلتين ، رحلة في الشتاء إلى اليمن ، ورحلة في الصيف إلى الشام ، وكانوا أحياناً يضرّبون في الأرض ويمشون في منابكها إلى فارس وإلى الحبشة كما سيجيء . وهم قوم صناعتهم السكلام ، يضيفون إلى لغتهم ما يغديها ، ويزودونها بما يسميها ويرقيها .

وقد ساعدهم على التجارة موقع بلادهم الجغرافي ، وأهم أهل السكعبة التي يدين العرب لها فلا يعتدى عليهم أحد في رحيلهم . وإن اطمئنتهم على حياتهم وأموالهم ،

وإن امتيازهم بالرحلات التجارية لجديران بأن يكونا نعمة يذكرهم الله بها ، قال تعالى :
« لا يلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم
من جوع وآمنهم من خوف » ، قال الزخشري : « إنهم كانوا آمنين في رحلتهم ،
لأنهم أهل حرم الله وولاية بيته فلا يتعرض لهم ، والناس غيرهم يتخطفون
ويغار عليهم ، قال تعالى : « أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجيء إليه ثمرات كل شيء رزقاً
من لدنا ، ولكن أكثرهم لا يعلمون » (١)

(٣) وظاهرهما المسكاة السياسية التي استمدتها من نفوذها الديني والاقتصادي ،
حتى قال أبو بكر في رده على الأنصار يوم السقيفة مؤيداً حق المهاجرين في الخلافة :
« ... وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ، ولا ينازعهم
ذلك إلا ظالم » ، وقال في خطبته الثانية : لا تدين العرب إلا لهذا الخي من قريش ،

(٤) وكانت لهجة قريش أغنى اللهجات وأطوعها وأقدرها على التعبير ، لأن أهلها
أرقى ، ولأنهم أغنوها بما أضافوا إليها

(٥) على أن الأسواق المشهورة - وهي عكاظ ومجنة وذو الحجاز - كانت على
مقربة من مكة ومن موسم الحج تغد إليها القبائل ، وعكاظ خاصة مجتمع العرب
جميعاً يتوافدون إليها من كل حدب وصوب ليتفادوا أسراهم ، ويتحاكوا في
خصوماتهم إلى بني تميم ، ويتفاخروا بأحسابهم وحامدهم وشجاعتهم ، ويقباهوا
بالبلغ الرائع من القول ، فينشد الشاعر قصيدته ، ويتخطب الخطيب خطبته . في عكاظ
أنشد عمرو بن كلثوم مطولته ، وفيها كانت تضرع للناطقة قبة من آدم ليتحاكم إليه
الشعراء ، وقد أنشده الأعشى والحسناء وحسان في قصة مشهورة (٢) وفيها خطب قس
بن ساعدة خطبته التي سمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورواها ، ذلك أن وفد
بكر بن وائل قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما فرغ من حوائجهم قال :

هل فيكم أحد يعرف قس بن ساعدة الأيادي؟ قالوا: كنا نعرفه، قال: فما فعل؟ قالوا: هلك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كأذى به على جبل أحمق يحكاظ قائماً يقول: دأبها الناس اجتمعوا واستمعوا، وعوا، كل من عاش مات، وكل من مات فات، وكل ما هو آت آت، إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبرة، مهاد موضوع، وسقف مرفوع، وبحار تروج، وتجارة تروج، وليل داج، وسما ذات أبراج، أقدم قس حقاً لئن كان في الأرض رضا ليكون بعده سخط، وإن لله عزت قدرته دينا هو أحب إليكم من دينكم الذي أتمم عليه، مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا فأقاموا أم زكوا فناموا؟ ثم أنشد أبو بكر رضى الله عنه شعراً حفظه له وهو:

في الغاهمين الأوليين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مسواردا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قوسى نحوها يسعى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضى إلىسى ولا من الباقين غابر
أيقنت أنى لاجحاً لة حيث صار القوم صائر^(١)

وكانت عكاظ ملتقى الجميع، حتى إن من أراد أن يثار ولم يعثر على واثره طلبه في الموسم، ومن أراد أن يعمل عملاً تعرفه العرب ويشهدا عليه عمله في عكاظ^(٢) وقد عمرت من ٥٤٠ م إلى أن نهى الخوارج الحرورية ١٢٩ هـ وكانوا يجتمعون (بسوق عكاظ) من أول القعدة إلى العشرين (في بجة) قرب مكة بقية القعدة، وفي (ذى الحجاز) بجانب عرفة أول ذى الحجة، ومنها ينصرفون إلى عرفات حيث الموقف الأعظم.

وكانت لهم أسواق بين بلادهم وبلاد المعجم يلتقون فيها للتسوق والبيع، وهى

(١) مجمع الأمثال للبديانى ٩٩/١

(٢) الأغاني ١٣/٢

أوسع أبواب الدخيل والمغرب ، ذكر منها الجاحظ (سوق الآبلة) (وسوق الأنبار) (وسوق الخيرة) .

وكانت لهم أسواق أخر تتوالى ، ينزلون في (دومة الجندل) أول ربيع الأول ثم يفتقون إلى (هجر) بالبحرين حيث السوق في ربيع الآخر ، ثم يتحلون إلى (عمان) بالبحرين أول جمادى الأولى ، ثم ينزلون سوق (المشقر) بالبحرين أول جمادى الآخرة ، ثم ينزلون سوق (صُحار) بعض أيام من رجب ، ثم تقوم سوقهم في (الشحر) بين عمان وعدن في نصف شعبان ، ثم في (حضرموت) نصف ذي القعدة ، ومنهم من يجوزها وينزل (بسوق صنعاء)

فالأسباب التي كانت تقرب بين طهجات العرب أثرت وأتمجت قبل أن تصير لتقريش السيادة في الإسلام ، وللشعر نصيب في هذا التقريب ، قال الدكتور شورز والاستاذ ليورنارد كنج في تاريخ هارمزورث العالمي ص ١٨٩٢ : « وقبل أن تؤسس مكة بزمن طويل كان من عادة الحاج أن يجتمعوا في بعض الأماكن في الأشهر الحرم يقيمون أسواقا يتبادلون فيها السلع كما يتبادلون منتجات القرائح ، وكان أشهرها عكاظ ، يجتمع فيها من قبائل العرب شجعانهم وفصحاؤهم يتنافسون في الأشعار ، ينشدونها غمرا بعشائرهم وإشادة بأعمال رجالهم ، أو اجتهدا في الفوز بالجائزة التي كانت تعطى لأحسنهم غزلا ونسبيا ، وكان مشايخ القبائل يرأسهم من ينصبونه (أمير الشعراء) يتكلمون في تلك المسابقة التي كانت تقام في أشهر السلم ، والتي كان يُقشوف إلى نتيجتها في جميع أنحاء بلاد العرب .

وقد عرض هذا الكتاب نفسه لسوق عكاظ وبين أثرها فقال :

« وفي أيام ما قبل الإسلام على بعد يوم فقط من مكة كان يقام السوق والمجتمع السنوي العظيم : سوق عكاظ ، نسبة إلى السهل الذي كان يقام فيه ، كان يأتيه الناس من جميع الطبقات من كل فج في الجزيرة ، ويستمر شهر ذي القعدة الذي كان يسبق شهر الحج في الجاهلية كما يسبقه في الإسلام ، فيه كانت المسابقات بين الحيل ، والألعاب

وتتأشد الأشعار ، وجميع أنواع الملامح تروح على الناس عناء الأعمال التجارية في سوق عام يكاد في شموله واتساعه يكون معرضاً قومياً ، وفيه أيضاً كان الرؤساء من عرب الشمال ينظرون بينهم في أمهات الأمور من حرب وسلم وحلف وتعاهد ونأر وتفاض ، فكان أولاد زار - كما كانت العرب المستعربة تحب أن تدعى - يجتمعون في نوع من منتدى عام لا يقل عراقة في القدم عن منتدى طيبة ، وإن كان أثره ما دام قائماً أكبر في بلاد العرب كلها مما يمكن أن يكون قد أتيج لمنتدى طيبة في قديم اليونان ، وكان لرؤساء قريش المقام الأول في ذلك المجتمع ، لقربه من ديارهم ، ولما كان لهم من ثروة وشجاعة وحسن خطاب ،^(١)

فلا بد أن لهجات العرب في ذلك الوقت كانت متقاربة بسهل التفاهمها ، وتستطيع أن تتصور زحمة الأسواق بالوافدين عليها وكثرتهم إذا ما نظرنا إلى أسواقنا في الأقاليم ، وإلى اجتماعات الناس في الموالد كملولد الأحمدى والندسوقى ، ثم إذا ما علمنا أن للهنود سوقاً يقيمونها في هرदार على ضفاف الكنج في كل سنة ويجتمع فيها نحو ثلاثمائة ألف نفس ، و يقيمون حجاً في ذلك المكان مرة كل ١٢ سنة يبلغ فيه عدد الحجاج نحو مليون نفس

وشأن العرب في أسواقهم شأن اليونان القدماء في الجناسيوم (الملعب الرياضى) إذ كانوا يجتمعون للألعاب البدنية وفيهم الفلاسفة والعلماء ، فيجتمعون فرصة الاجتماع ويتباحثون ويتناظرون كما كان يفعل العرب في عكاظ

وبعد ، فقد كانت هذه الأسواق على مقربة من مكة ، والعرب جميعاً يديون لقريش بسبادة دينية ولغوية كما قدمنا ، فهم يحاكون لهجتها ، ويتأثرون منطلقها ، وقريش أيضاً تتقى من لهجاتهم أفصحها ، ومن كلماتهم أعزها .

فليس فيها شيء من معيب اللهجات ، قال معاوية يوماً : من أفصح الناس ؟ فقال قائل : قوم ارتفعوا عن الخُلخالية الفرات ، وتيامنوا عن عَمَّنة تميم وتياسروا عن

كسكسة بكر ، ليست لهم عَمْفَمَةٌ قضاة ، ولا طُمَطَانِيَّة حير . قال : من هم ؟ قال :
قريش . قال : من أنت ؟ قال : من حِزْم (١)

وقالوا أيضا إن لغتهم سلمت من عنعنة تميم ، وكشكشة ربيعة ، وكسكسة هوازن ،
وتضعج قيس ، وعجرفية ضبة ، وتلتة بهراء (٢)

وبذلك كله بلغت اللغة درجة من الرقي والوحدة أعدتها لأن ينزل القرآن الكريم
بأسمى لهجاتها لهجة قريش ، فتمت به الوحدة اللغوية ، وما زال القرآن الكريم هو
الحفيظ على هذه الوحدة والدِّرَّة لهذه اللغة ، يصونها من أن تمحوها التوازل ، أو
تنشعب منها لهجات مختلفات تنقطع صلتها بالنوع الأول فينضب ويحذف

موقع سوق عكاظ

استعرض الأستاذ حمد الجاسر من الرياض ، أقوال المؤرخين القدماء في تحديد
موقع عكاظ :

١ - محمد بن إسحاق (المتوفى ١٥١ هـ) من كتاب شفاء الغرام بأخبار البلد
الحرام تأليف أبي الطيب الفاسي ، مخطوط في مكتبة الشيخ عبد الستار الدهلوي بمكة
٢٦ ص ٤٩٢

٢ - محمد بن عمر الواقدي (١٣٠ - ٢٠٧ هـ) نقلا عن معجم البلدان ٢٠٣/٦
٣ - أبي عبيدة معمر بن المثنى (١١٠ - ٢٠٩ هـ) نقلا عن معجم ما استعجم
للبيكري ص ٦٦٠ طبعة باريس سنة ١٨٧٧

(١) البيان والتبيين ٢/٣١٢ لغاتناية الثورات : لهجة لأعراب الشعر وعمان باليمن يحذفون بعض
لحروف اللينة كقرظهم مشاء الله يريدون ما شاء الله والظلم أن بعضهم نزلوا بسط الثورات بعد الإسلام .
المنعة : قولهم أن في موضع عن السكسكة : لهجة لبني بكر بن وائل أو ربيعة ومضر أو تميم يلغفون
بعد كاف الخطاب سيناء . العفمة : الكلام اللهم . الطمطانية : لهجة لحير يبدلون لام التعريف بما مثل
أصيام في الصيام .

(٢) مجالس معالم / ١٠٠ - ١٠١

- ٤ - الأصبغى (١٢٣-٥٢١٦هـ) عن معجم البلدان ٢٠٣/٦
٥ - ابن هشام (المتوفى ٢١٨هـ تقريباً) عن كتاب التيجان في ملوك حمير
ص ٢١٠ طبعة حيدرآباد
٦ - الأزرقى (المتوفى ٢٤٤هـ تقريباً) عن كتاب المحبر لابن حبيب ص ٣١٥
المطبوع في الهند
٧ - محمد بن حبيب البغدادي (المتوفى ٢٤٥هـ) عن كتاب المحبر ص ٣١٥
المطبوع في الهند
٨ - عرام بن الأصبغ السلمي عن كتاب (أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها
من القرى وما نبت عليها من الأشجار وما فيها من المياه) نسخة خطية ملك الشيخ
محمد نصيف بجدّة، وقد نقل البكرى وياقوت معظم هذا الكتاب
٩ - ابن واضح اليعقوبى (المتوفى ٢٩٢هـ) عن تاريخ اليعقوبى ص ٢٧٧
طبعة العراق
١٠ - الهمداني (المتوفى ٢٣٤هـ تقريباً) عن (صفة جزيرة العرب) طبعة
ملر في لندن ص ٢٦٢ و٢٦٤ و٢٦٤ و١٦٦
١١ - أبي عبيد البكرى (المتوفى ٤٨٧هـ) عن كتابه معجم ما استمعهم
ص ٦٦٠ - ٦٦٢ طبعة أوروبا سنة ١٨٧٧
١٢ - الشريف الإدريسي (المتوفى ٥٦٥هـ) عن كتابه نزاهة المشتاق في اختراق
الآفاق ورقة ١٠٢ ج ١ مخطوط بدار السكتب المصرية رقم ٢٦٣ جغرافية
١٣ - ياقوت الحموى المتوفى ٦٢٦هـ عن كتابه معجم البلدان ١١٣/٦ و٢٧١/٧
١٤ - الحميرى مؤلف الروض المعطار، نسخة مكتبة عارف حكمت شيخ الإسلام
المخطوطة بالمدينة المنورة
١٥ - الفيومى (المتوفى ٧٧٠هـ) عن كتابه المصباح المنير ٢/٤٩ بولات

والمختص منها

- ١ - أن موقع سوق عكاظ في أعلى نجد ، فليس في تهامة ولا في الحجاز
 - ٢ - أنه في بلاد قيس عيلان من مضر ، ثم في بلاد بني نصر بن معاوية بن بكر ابن هوزان بن قيس عيلان
 - ٣ - أنه يبعد عن الطائف مسافة تتراوح في تقدير المتقدمين بين عشرة أميال أو بريد (١٢ ميلا) أو مسيرة يوم
 - ٤ - أنه على طريق اليمن من مكة بين المناقب وكلاخ ، وليمن إلى مكة طريقان : تهامى يأخذ على الساحل ، وآخر يأخذ على أطراف السراة مارا ببلاد عسير وهو الذى يقع عكاظ فيه
- مساهرته الخاصة:

تنطبق الأوصاف السابقة على الأرض الواسعة الواقعة شرقي الطائف بميل نحو الشمال خارج سلسلة الجبال المطيقة ، وتبعد تلك الأرض عن الطائف نحو ٣٥ كيلو ، ويمدها غربا جبال بلاد عدوان ، وجنوبا جبال أسفل وادى لية . . وشرقا صحراء ركة وشمالا طرف ركة ... (١)

(١) عن مجلة المجمع العلمي العربي ج ٣ مجلد ٢٦

١ تموز ١٩٥١ - ٢٧ رمضان ١٣٧٠

اللغة العربية واللهجات

لغة الشمال ولغة الجنوب
اختلاف اللهجتين مبين
اللغة واحدة وإن اختلفت اللهجة
لماذا لم يظهر اختلاف اللهجات في الشعر الجاهلي ؟
بعض الشعر المروي يسجل اللهجات . القراءات واللهجات . اللغة واللهجات
رحلات القحطانيين إلى الشمال قديمة وثابتة
معنى كلمة أبي عمرو بن العلاء

لغة الشمال واللهجة الجنوب

ذكر الدكتور طه حسين بك في شكه في الشعر الجاهلي أن لغة الشمال غير لغة الجنوب ، معتمداً على كلمة لأبي عمرو بن العلاء : « ما لسان حمير وأقصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم كعربيتنا » ، ومعتمداً على أن الكشف الحديث قد أثبت خلافاً جوهرياً بين اللغتين ، فكيف جاء الشعر الجاهلي كله بلغة أهل الشمال ؟ ثم قفي أن يتخذ القحطانيون لغة الشمال تزيهنا عن عواطفهم ولغة أدبية لهم ، مع أن السيادة السياسية والاقتصادية ، والحضارة — وهي أمور من شأنها أن تفرض اللغة على الشعوب — قد كانت للقحطانيين لا للعدنانيين .

ورد على من يقول إن أهل الجنوب هاجروا إلى الشمال ، وتأقلبوا واصطنعوا لغة الشمال بأنه يشك في صحة نسب الذين هاجروا ، بل يشك في الهجرة نفسها : متى كانت ؟ ومن المهاجرون ؟ وإلى أين هاجروا ؟ (١)

ثم قرر أن العدنانيين أنفسهم كانت لهم لهجات ، فكيف جاء الشعر المروي كله بلهجة قريش ، مع أن في الشعراء يمينيين وقيسيين وربيعيين الخ ؟ وقد قرأ العرب القرآن

السكريم بلهجاتهم ، فأملوا حيث لم تكن تميل قريش ، ومدوا حيث لم تمد الخ .
وعجب من أنه لم يحدث مثل هذا في الشعر المروى .
ورد على من اعترض عليه بأن اللهجات كانت قائمة بعد الإسلام فلماذا لم
تظهر في الشعر الذي قيل بعده ؟ بأن العرب قد اتخذوا بعد الإسلام لغة قريش
دستورهم ٩١

اختلاف اللهجتين طبعي

ولا يمارى أحد في أن لهجة الشمال كانت مغايرة لهجة الجنوب ، ولا يدفع أحد
أن لهجات القبائل في الشمال كانت تختلف إلى حد ما ؛ لأن هذا وذاك راجعان إلى
طبيعة المنطق وتأثير الوراثة والبيئة ، فليس بعجيب أن اختلفت اللهجات ، بل كان
العجيب لو أنها اتحدت ، فما زالت اللهجات تنشعب من اللغات وتتباعد وتتقارب
حسب العوامل المؤثرة في الناطقين بها وفي اللغة نفسها .
والأمثلة على ذلك كثيرة جدا ، فالأمة العربية تصطنع لهجة قريش الآن
وتتخذها لسانها الأدبي والرسى ، ولكننا نجد أن لهجة المصرى مغايرة لهجة السورى
والعراقى والحجازى ، وهذه المغايرة قائمة حتى في النطق باللغة الفصحى
شعراً وخطابة .

بل اللغة المصرية العامية ذات لهجات ، مع أن أصلها واحد ، فللصعيد لهجة
وللدلتا أخرى ، ولقد تختلف لهجة الناس في قريتين من (مركز) واحد على
قرب ما بينهما .

كانت اللهجتان مختلفتين إذاً ، واسكنه خلاف بين لهجتين أو لهجات من لغة
واحدة ، وقد تقاربت اللهجات في أواخر العصر الجاهلى حتى كان أهل الحجاز
ونجد يفهمون عن أهل اليمن ويفهمونهم ، كما يفهم الآن سكان الصعيد وسكان

الوجه البحري أو سكان السودان وسكان مصر ، وكما يتفاهم أهل باريس وسكان بروكسل .

أريد من هذا أن أقرر أن لا عجب في أن يروى الرواة أن لهجة الشمال كانت غير لهجة الجنوب ، وأن هذا لا يطعن في صحة ما قرره التاريخ أن لغة الشمال ولينة لغة الجنوب .

وقد جليّ ابن خلدون هذه الفكرة في قوله : « ولعلنا لو اعتدنا بهذا اللسان العربي لهذا العهد واستقرنا أحكامه نعتاض عن الحركات الإعرابية في دلالاتها بأمر أخرى ... ولعلها تكون في أواخره على غير المنهاج الأول في لغة مضر . » ولقد كان اللسان الحميري بهذه المثابة ، وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميري وتصاريف كلماته ، تشهد بذلك الأتقال (النقوش) الموجودة لدينا ... ولغة حمير لغة أخرى مغايرة للغة مضر في الكثير من أوضاعها ، وتصاريف وحركات إعرابها ، كما هي لغة العرب لعهدنا مع لغة مضر ،^(١)

لم ير ابن خلدون إذأ في اختلاف اللهجتين دليلاً على أن العدنانية لم تنشأ من القحطانية ، بل احتج لهذا الخلاف بأنه يشبه ما بين لغة عصره ولغة مضر التي نزل بها القرآن الكريم .

اللغة واحدة وإن اختلفت اللهجة

على أن النقوش التي تظهر اختلافاً بين لهجة الشمال ولهجة الجنوب غير القديمة ليس تاريخياً محددأ ، والخلاف في جملة قليل طفيف لا يقطع الصلة بين اللغتين ، بل إنه يميزها ؛ لما بينهما من كثير من وجوه الاتحاد ، وليس معنى الخلاف أن لغة الجنوب ليست أصلاً للغة الشمال ، فلغتنا العامية انشعبت من العربية ولكنها تبايرها والإنجليزية الحديثة تولدت من الانجلوسكسونية وهي تبايرها ، وفي فرنسا لغات

لها خصائصها ومع ذلك فإنها لا أثر لها في إنتاج الأدباء من أبناء هذه الأقاليم ، ف لغة النقوش محلية ليست بذات صبغة أدبية ، فالنوبيون يكتبون اليوم بالعربية مع أنهم يتكلمون غيرها فيما بينهم ، والأمة العربية الآن تتكلم لغة وتكتب أخرى ، وما من شك في أن اللغة الإنجليزية واحدة ، ولكن اليون عظيم بين الإنجليزية تشوسر وإنجليزية ما كولي ، وبين الإنجليزية ألفرد الملك وإنجليزية تشوسر .

وربما كانت لهجة الشمال في ذلك الوقت أيضاً مقاربة جداً لهجة الجنوب ، ولو عثرنا على نقوش بلغة الشمال من عهد نصوص الجنوب لوجدنا اللغتين متشابهتين ومتقاربتين تقارب الفصح وأصله ، لأن الموازنة بين لهجة عدنان التي رويت قبيل الإسلام بقرن ونصف قرن وبين لهجة قحطان التي كانت قبل ذلك بنحو خمسة عشر قرناً^(١) موازنة تغفل البيئة والزمن وأثرهما في اللغة ، وتهمل ما تعرض له سكان الجنوب من خلط بالأجاش والفرس ، ثم هي موازنة بين لغة عدنان في الشمال وبين لغة من بقوا من قحطان في الجنوب ولم يرتحلوا إلى الشمال ، ونحن نعلم أن كثيراً من القحطانيين قد هاجروا إلى الشمال ، وتربوا في بيئة أخرى ، ولهجت بلغة الشمال ألسنتهم ، وانقطع بلغة الجنوب عهدهم ، شأنهم شأن الأسر التركية الكثيرة التي وفدت على مصر ، وأقامت بها في العصر الحديث ، فها هو إلا رده من زمن حتى نسوا تركيتهم ، وانطلقت باللغة العامية العربية ألسنتهم ، ولم يعد لهم بالتركية إلا نسب يحفظونه ، وكثير منهم ينسونه ، هذا مع اليون الشاسع بين التركية والعربية العامية ، ومع القرابة الوثيقة بين لهجة الجنوب ولهجة الشمال ، وفي تاريخ اللغات مثل كثيرة تعزز هذا الرأي .

ونحن نعلم أن العرب كانوا يتشاهمون ، ولا يجدون مشقة في تفاهمهم ، سواء اتفقوا فرادى أم جماعات في نواحيهم أو أسواقهم أو مواسمهم أو حروبهم ، فمثلاً

(١) يرى جالزر أن أقدم النقوش هي العينية وأن أقدمها يرجع إلى القرن الخامس عشر أو السادس عشر قبل الميلاد وأحدثها يرجع إلى القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد . ويرى مولر أن أقدمها يرجع إلى ما بين القرن التاسع والثامن قبل الميلاد (النقد التعليق لسكتاب الأدب الجامعي ص ١٧٢)

كانت قریش ترحل إلى الشمال وإلى الجنوب قبل الإسلام فتتخاطب هؤلاء وهؤلاء فتفهم عنهم ، ويفهمون عنها ، واستهل الإسلام وعرض النبي عليه الصلاة والسلام الدين الجديد على القبائل ، ووفدت عليه وفودهم من أنحاء الجزيرة فنكلموا وتكلم معهم دون حاجة إلى ترجمان ، ونجد تفصيلا عن وفد كندة برئاسة الأشعث بن قيس ، وعن وفد همدان وما دار بينهم وبين الرسول عليه الصلاة والسلام من قول ، ولا نجد إشارة إلى صعوبة في التفاهم^(١) وبعث النبي كتابا إلى جهات كثيرة بلغة قریش ، وأوفد إلى اليمن علي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل فلم يحتاجا في التفاهم إلى وسيط ، وأتاب عنه بعض المسلمين ليفقهوا القبائل في الدين ويجمعوا الزكاة ، ولم يرو التاريخ أن صعوبة في التفاهم نشأت في حالة من هذه الحالات .

حقا كان لأهل اليمن لهجة تختلف بعض الاختلاف عن لهجة الحجاز وتجد في بعض مظاهر الصوت والدلالة ، والقواعد والمفردات ، فالنقوش التي قرئت تدل على أن لغة الجنوب أقدم من لغة الشمال ، وعلى أن الأولى أصل الثانية وليس بينهما فرق كبير .

فن حيث اهجاء ترسم التاء المربوطة مفتوحة في اليمن كما في (كلبت) الحميرية وكتابة العدنانية ، ويحذف حرف المد غالبا من أواسط السكلمات وأواخرها كما في (ذ) الحميرية بمعنى (ذو) العدنانية و (ذن) بمعنى (دان)

على أن هذه المغايرة الهجائية ليست فرقا حاسما ، لأن الكتابة رمز للغة ، وقد تنقص عما ترمز إليه ، ونحن الآن نكتب (ذلك) بدون ألف بعد الذال (وهذان) بدون ألف بعد الهاء ، ونكتب إسماعيل وإبراهيم أحيانا بغير الألف الوسطى ، وكان العرب في صدر الإسلام يكتبون بغير نقط ولكنهم يقرءون ما يكتبون .
ومن حيث القواعد بعض الخلاف صغير كرمس القحطانيين نون التنوين ميمًا مثل

(نعمتم) في (نعمه) والنون والميم متقاربا المخرج، وبعضه كبير مثل إثبات حرف العلة في الفعل الناقص إذا اتصل بواو الجماعة كما في (هَمَّيْنَا) الخيرية وأَقْنُوا العدائية بمعنى أعطوا في اللقطين .

ومن حيث المفردات بعض الخلاف طفيف كما في (هَمَّيْنَا) السابقة إذ قلبت الهاء همزاً في لغة الشمال، وهذا القلب شائع عندهم نحو هراق وأراق وهياو أيا، وكما في عَدَوَ بمعنى اجتاز، وبعضه كبير كوجود كلمات في العينية ليست في العربية الشمالية مثل (حجن) بمعنى لأن .

ومن المستطاع رد هذا الخلاف كله إلى أنه تطور في اللغة .

ولكن ماذا نقول في وجود كلمات في الجنوب وليست في الشمال ؟

الجواب على ذلك أن المعاجم قد ألفت بعد الإسلام، فمن المحقق أن تَسَدَّ من جامعها كلمات مستعملة، وقد وجدت كلمات في الشعر الجاهلي ولم يسجلها معجم .

أما اختلاف الدلالة فإنه تطور أيضاً . وتمش مع الزمن والاستعمال والتجوز، فمثلاً (بعل) معناها في الجنوب صاحب وفي الشمال زوج، و(وَقَة) معناها في الجنوب أجاب وفي الشمال أطاق، وبين المنين ارتباط وثيق كما ترى .

وأما التغيرات المبني على التخفيف فكثير كإبدال الهاء همزاً في أفعل الرباعي، وكحذف آخر الفعل الناقص المسند إلى واو الجماعة كما سبق، وكحذف الإشباع من الضمير المتصل الغائب نحو (أخوه) في لغة الشمال و(أخوه) في لغة الجنوب، وهذا التخفيف دليل واضح على أن عربية الشمال تطورت من عربية الجنوب، لأن التطور يمتد دائماً إلى التخفيف والتسهيل، ونحن نرى ذلك في لغتنا العادية المولدة من العربية، ونراه في الإنجليزية فمثلاً Large كانت تنطق في عصر تشوسر (1340-1400م) بتحريك الآخر و Have كانت تنطق في عصر مارلو وشكسبير

بتحريك الآخر أيضا . وكانت علامة المضى تنطق متحركة في الأفعال الضعيفة فيقال
 . Loved

أما التشابه بين اللغتين فقوى وكثير جداً كاتحاد الضمائر واسم الإشارة واتحاد
 بعض الكلمات لفظاً وإن لم يتفق المعنى تماماً ، واتحاد بعضها معنى وإن تغير اللفظ
 بعض التغير ، واتحاد بعضها لفظاً ومعنى ^(١) ، وهذا الاتحاد وهذه المغايرة الناشئة عن
 التطور تعزز رأى العرب القدماء في أن لغة الشمال وليدة لغة الجنوب ، وتعزز
 ما قاله ابن خلدون من أن المضربة نشأت من الحميرية كما نشأت لغة العرب في عصره
 من اللغة المضربة .

ومن الأمثلة على الاتحاد (بورك وتبارك اسم الرحمن الذى بالسماء) و (نذرت
 الذى بالسماء نذرا لأنها أخطأت بيته ومحرمه ، ولأنها وطنت موطنا غير طاهر)
 وهناك مئات من الكلمات المشتركة بين اللغتين في أقدم النقوش مثل أخ وأخت
 وركب ووشن وشبل وأسد وسبع وشهر وشيب وقلب وقليل وحادة وغلام وممن
 وفرس وإبل وحره وخيس وخريف ومقتور بمعنى مساعد الخ ^(٢) . وإذا كانت
 اللغات السامية متقاربة في أول أمرها فأحرى بلهجة الشمال ، ولهجة الجنوب أن
 تكونا متقاربتين بصورة أوضح وأقوى ، يقول الأستاذ جرجى زيدان : « وقد
 ساعد العرب على التوسع في وسائل التجارة فضلا عن توسط بلادهم أنهم كانوا
 يتكلمون لغة قريبة من لغات أكثر الأمم المتمدنة في ذلك الحين ، لأن اللغات
 السامية كانت يومئذ لاتزال متقاربة لفظاً ومعنى ، فالعربي والسكنداني والآشوري
 والعبراني والحبشي والفينيقي كانوا يتفاهمون بلا واسطة ، لقرب عهد تلك اللغات
 من الشعب بما يشبه حال اللغات العامية العربية اليوم من اللغة الفصحى ، فكان العربي
 من حمير أو مضر إذا جاء العراق لا يحتاج في مخاطبة السكنداني أو البابلي أو الآشوري

(١) النقد النبطي لكتاب الأدب الجاهلي ١٨٢-١٨٦

(٢) النابتة الذهبية عمر الدسوقي ١٢

إلى ترجمان ، وكذلك إذا يمّ فينيقية أو الحبشة فإنه يفهم لسان أهلها كما يفهم الشامي لسان أهل مصر اليوم ، ويؤيد ذلك ما جاء في التوراة عن إبراهيم الخليل ، فإنه تزوج من بلاد الكلدان في نحو القرن العشرين قبل الميلاد ، فاجتاز سوريا و فينيقية وبلاد العرب وخالط أهلها ولم يفترق في مخاطبتهم إلى مترجم ، وكذلك بنو إسرائيل في تيههم حوالي القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، فإنهم قضوا أربعين سنة في أعلى جزيرة العرب ولم يحتاجوا إلى مترجم بينهم وبين أهلها^(١) .

لماذا لم يظهر اختلاف اللهجات في أكثر الشعر المروى ؟

وهذا سؤال يدور بالحد ويستعري النظر ، معتمد أعلى ما سبق من تقرير المخالفة بين اللهجات ، ولكن الإجابة عنه مبسرة ، ومستمدة من حقائق مقررّة :

١ - علمنا في تهذيب أطوار اللغة أنها بتاريخ الزمن وتطاوله وجهود أبنائها ، واختلاط بعضهم ببعض تتأربت حتى كادت تحمي فروقها قبيل الإسلام إلا ما بقي من لهجات خاصة لم تستطع الألسنة أن تنفلت منها ، وقد نبه عليها العلماء ، ولو كان هناك خلاف جوهرى ما استطاع الإسلام في سنوات قليلة أن يلوى ألسنة الحميريين إلى لسان قريش ، ولما استطاع أن يستلّفى العرب كافة بلهجة قريش .

٢ - والتاريخ يحدّثنا بأن سيادة اليمن كانت منذ أواخر القرن الرابع الميلادى قد زالت ، وتناوشتها الفتن والمنازعات الداخلية ، ومنيت بالاحتلال الأجنبي الحبشى ثم الفارسى بينما شرع نجم القرشيين يتألق وشرع سلطانهم التجارى والثقافى والدينى يمتد على جيرانهم وعلى اليمن ، ولغة العدنانيين كانت حينئذ أرقى من لغة القحطانيين ، وقد خلفهم الحجازيون في مكاتبتهم التجارية منذ القرن السادس للميلاد .

على أن انتصار لغة على أخرى ليس ناشئا عن الغلب السياسى وحده ، بل يرجع إلى عوامل أخرى أيضا منها رقى اللغة ، وثروتها الأدبية والعلمية ، فالرومان أخضعوا

اليونان سياسيا ولسكنهم خضعوا لهم أدبيا وثقافيا، والاتراك لم يستطيعوا أن يثبتوا لغتهم في بلد من البلدان التي فتحوها .

٣ - على أن الرواة والعلماء لم يرووا الشعر ، ولم يدروا اللغة على نطق القبائل قبل تهذيب قريش للغة ، ولسكنهم تناقلوا ما كان قبيل الإسلام ، وفي صدر الإسلام إذاً الأدب بلغة قريش في الأعم الأغلب ، ولم تحفظ العرب من أشعارها إلا ما كان قبيل الإسلام^(١) ، وهم أرادوا من جمع اللغة وتدوينها تسجيلها وتسهيل تعلمها ، وتحليداً أدهم ، وخدمة عارم القرآن والحديث ، واللغة السكيفية بتحقيق ذلك كله قرشية وهي مصرية راقية ، ينقل فيها الاختلاف .

وأقدم ما وصل إلينا عن الأدب الجاهلي لا يعدو قرنين قبل الإسلام ، وكانت لغة الشمال قد تغلبت على لغة الجنوب ، واستأثرت بالمحادثة مع بعض تحريف ، وبالآداب دون تحريف والموازنة بين لغة الشعر الجاهلي الذي وصل إلينا منذ أول القرن الخامس الميلادي وبين لغة النقوش التي ترجع إلى قرون قبل ذلك موازنة فيها تعسف ، وليس من الصواب أن يحكم باحث - بناء على ما بين اللهجتين المتباعدتين الزمن من بعض الفروق - أن شعر امرئ القيس كله منحول لأنه بلهجة قريش وامرؤ القيس يعني الأصل

وكيف ينسى أن لغة اليمن في عهد امرئ القيس كانت غير لغة اليمن التي ترونها النقوش وهي قبله بقرون ، وأن امرأ القيس وأضرابه قد اصطنعوا لهجة الشمال لغة أدبية لهم ؟

٤ - ذلك أن اللغة العربية الشمالية جاورت اليمنية القديمة وصارعتها صراعا انتهى في أواخر العصر الجاهلي بانتصار العربية الشمالية ، لأنها كانت أرقى ثقافة وأدبا ، وأغزر مفردات ، وأدق قواعد ، وكان نفوذ عرب الشمال التجاري والسياسي والثقافي والأدبي والديني قد شرع يتغلغل في اليمن التي كانت ضعيفة في ذلك الوقت

فكانت جميع الظروف الملائمة للتغلب اللغوي عونا للغة الشمال على لغة الجنوب ، وهذا الحالة شبيهة بحال اللغة الألمانية في صراعها مع لهجات المناطق السويسرية المجاورة لألمانيا ، وبحال اللغة الفرنسية في صراعها مع لهجات المناطق البلجيكية والسويسرية المجاورة لفرنسا ، فقد انتصرت الألمانية والفرنسية كما انتصرت لغة العدنانيين على لغة القحطانيين ؛ لأن الظروف متشابهة ، بل إن القرابة القوية بين العربية الشمالية والجنوبية قد سلحت الأولى بسلاح لم يكن للألمانية والفرنسية لأن قوة القرابة بين اللسانين المتصارعين تذلل لأرقاهما سبل الانتصار^(١) .

وقد صرعت العربية الفارسية ، واستعرب كثير من الفرس ، وكان من ذراريهم أدياء شعروا ونثروا بلسان عربي مبين كما شعر ونثر العرب الخُلص .

وكان للدوريين من اليونان شعر وأوزان ، ولليونانيين شعر وأوزان ، فلما ظهرت أثينا على البلاد اليونانية ذاع الشعر اليوني والأوزان اليونية ، وجرى عليهما الدوريون إذا شعروا أو نثروا ، وعدلوا عن لغتهم ولهجاتهم وأوزانهم وأساليبهم إلى لغة الأثينيين ولهجاتهم وأوزانهم وأساليبهم .

ولم يكن اصطناع اللغة السائدة للتمييز الشعري نهج الشعراء وحدهم ، بل شاركهم رعاه هذيل الضاربون قرب مكة ، فاعطنعوا في شعرهم لغة تغاير لغة التخاطب ، على أنها مستمدة من جميع اللهجات ، والعرب يفهمونها في كل مكان ، ويبدو أن هذه اللغة الغنائية أو الشعرية لم تُسد في الحجاز ونجد وحدهما ، بل امتدت إلى قلب البلاد العراقية أيضاً ، وصارت بعد أم العربية الفصحى^(٢)

وقد اتخذ شعراء الجزيرة في شتى أماكنهم وعلى الرغم من اختلاف قبائلهم لغة مشتركة ، تدل سماتها على أنها لغة شعرية ... وهناك أمثلة عدة تدل على وجود لغات

(١) نقه اللغة على عبد الواحد بتصرف من ٦٠-٦٣

(٢) العرب والامبراطورية العربية . بروكلمان ٣٢

أدبية في الأمم البدائية مع وجود لهجات مختلفة القبائل الشمالية لم نجدنا النجاة إلا عن قليل منها (١)

تفلبت لغة الشمال في ميادين الأدب كما تفلبت في الخطاب ، غير أن لغة الأدب دامت خالصة فصيحة لا تكاد تغار لغة الشمال في شيء ، وهذه طبيعة اللغات المنتصرة في كل عصر وكل أمة ، يصيبها التحريف في لغة الحديث ولا يكاد يمسها في لغة الأدب . فاللغة اللاتينية تطورت تطورا كبيرا في لغة المحادثة في البلاد التي دانت لها ، فنشأت منها لهجات مغايرة لأصلها وهي : الفرنسية والإيطالية ، والإسبانية ، والبرتغالية الخ . ولكنها ظلت لغة أدب وكتابة حتى فاتحة العصر الحديث دون أن يقرها تغيير كبير ، واللغة العربية القرشية مازالت لسان الأدباء إلى اليوم ، ولم تتأثر باللهجات المحلية والقومية ولكنها في لغة المحادثة خاضعة لتأثير البيئة والنطق .

وفي إنجلترا اليوم عشرات من اللهجات التي يشق على كثير من الإنجليز فهمها ، والإحاطة بها كلها ، بيد أن هناك لهجة واحدة ينطق بها الجميع حين يتقابلون أو يتعلمون أو يكتبون ، وهي لغة الأدب والصحافة ولغة الطبقة الراقية واسمها اللهجة التعليمية العامة Public School Dialect (٢)

بعض الشهر المرورى يسجل اللهجات

على أنهم دونوا لهجات شافهم بها الأعراب في البادية ، وهي بقايا من اللهجات المتباينة التي كانت في الجاهلية ، وقد اقتصروا في تدوينهم على ما يحتاجون إليه في تصاريف السلام ، أو إقامة الدليل على قاعدة أو منطلق ، ولم يتوسعوا ليدونوا اللهجات كلها ، وتاريخها ، ولو قد فعلوا ذلك لجمنا علم كثير .

وقد وصل إلينا كثير من اللهجات المختلفة حفظها التاريخ على أنها مناح من النطق

(١) النابغة الذبياني ص ١٧ . عن بروكلمان

(٢) النابغة الذبياني ١٦

اختصت بها بعض القبائل ، وقررها كثير من العلماء ، وروا عليها شواهد ، ويمتد بنا البحث لتقصينا كل ما قيل ، فنجزى ببعض إشارات لتكون مثالا لهذا الاختلاف الذى قال الدكتور طه إنه لا أثر له فيما روى من شعر .

وكتب اللغة والأدب والنحو حوافل بهذا الاختلاف .

وسنضرب أمثلة لبعض أنواعه معتمدين على نصوص تمثل هذه الأنواع :

١ - قد تختلف دلالة اللفظ على معنى ، كهذه الأبيات من قصيدة خنافر الحميرى

التي رواها أبو علي القالى :

ألم تر أن الله عاد بفضله فأنقذ من نوح الزخبيخ خنافرا
وكشف لي عن جحمتي عماهما وأوضح لي نهجي وقد كان دائرا
دعاني شصار فلتى لو رفضتها لأصليت جمرأ من لظى الهوب واهرا

وفسر الزخبيخ بالنار ، والجحمتين بالعينين ، والهوب بالنار ، والواهر بالساكن مع شدة الحر ، وقال إنها كلها كتابات يمانية .

وأورد لشاعر يمني أيضاً قوله في أمه التي أكلها الذئب :

فيا جحمتا بكى على أم واهب أكلة قلوب ببعض المذائب

وفسر القلوب بالذئب ، وهو القليب أيضاً ، والكلمتان يمانيتان (١)

وقال لسان العرب : القليب والقلوب والقلوب والقلوب والتلاب : الذئب ،

يمانية ، وذكر البيت السابق (٢)

وقال القالى في موضع آخر : السرحان الأسد بلغة هذيل ، والذئب بلغة غيرهم

من العرب (٣)

وتستعمل ذو اسما موصولا عاما في لهجة طيء ، قال مجير بن عمنة الطائي :

(١) الأملال ١٣٥/١-١٣٦ (٢) لسان العرب مادة قلب

(٣) الأملال ١٠٦/١

وإن مسولاي ذو بصيرتي لا إحنة عنده ولا جرمة
ينصرفي منك غير معتذر يري ورأى بالسهم والسيلة^(١)
وفي رواية لسان العرب بأنهم وامسلة
وقال سنان بن الفحل الطائي :

فإن الماء ماء أبي وجسدي وبئري ذو حفرت وذو طوبت^(٢)
وأهل الجنوب يعرفون بأبم لا بال كفا في رواية اللسان لبيت بجير .
٢ - وتختلف القواعد النحوية نفسها اختلافاً كان له ضجيج وعجيج . فمثلاً بعض
اللهجات على إعراب المثنى بالآلف ، ومنه :

ترود منا بين أذناه طعنة دعته إلى هان التراب عقيم^(٣)
وبعضها على لزوم الأسماء الخمسة الآلف ، ومنه قول أبي النجم العجلي
أورؤية^(٤)

إن أباه وأبا أباه قد بلغا في المجد غايتها
وهذيل تستعمل متى بمعنى من ، ويحرون بها ، ومنه قول أبي ذؤيب :
شربن بماء البحر ثم ترفعت متى ليج خضر لمن نثج
وبعض القبائل لا يجرمون الفعل بلم ، ومنه :
لولا فوارس من نعم وإخوتهم يوم الصليفاه لم يوفون بالجار^(٥)
وبعضها تحذف النون من المضارع المرفوع ، ومنه :

أبيت أمرى وثيبي ندلكي وجهك بالعنبر والمسك الذكي^(٦)
والطائيون يحدفون آخر الفعل الناقص في غير إسناد إلى ضمير بارز ، ومنه .
نستوقد النبيل بالحضيض ونص طاد نفوساً بُنت على الكرم^(٧)

(١) المؤلف والمختلص للأمدى ٥٨ جريمة : جريمة . سلعة : حجارة (٢) حساسة أبي تمام ٢٣٦/١

(٣) فقه اللغة لابن فارس . تاريخ آداب العرب لرافعي ١٤٥/١

(٤) الدرر الأوامع ج ١ ص ١٢ (٥) الحصاص لابن جني ٣٩٢ والمغني والأشموقي

(٦) الحصاص ٤٩٤ (٧) شرح حساسة أبي تمام لمرزوقي ١٦٥/١

وقد وردت كلمة (أملوك) دالة على الجمع في مدح حجة بن المضرب ليعفر
ابن زُرعة ملك رُدْمان - قبيلة من عرب اليمن : -

فإن كنت سآلا عن المجد والملا وأين العطاء الجزل والنائل الغمر
فتقب عن الأملاك واهتمف بيعفر وعش جار ظل لا يغالبه الدهر^(١)
وقالوا إن الأملاك اسم جمع بمعنى الملوك ، وفي رأي أنها ليست اسم جمع بل هي
جمع لملك ، وهذه الصيغة البنية ومثيلاتها متأثرة بصيغة حبشية مماثلة لها ، فالأحباش
يستعملون (أفعول) للدلالة على الجمع ، والعرب قد ضموا أول الجمع ، على أنه نادر
في العربية ، فلم يذكر السيوطي منه إلا ثلاث كلمات : أموز للقطيع من الظباء ،
وأحوش لجيل الحبش ، وأركوب لجماعة الركاب^(٢) .

٣ - وقد يقع الاختلاف في بنية الكلمة نفسها بإبدال حرف مكان حرف
فمثلا أعطى لغة في أعطى ، ومنه قول الأعشى :

جياذك في الصيف في نعمة تُصان الحلال ، وتُعطى الشعيرا^(٣)
وفي لعل لغات منها لعن ولغن ، ولأن ، ولون ، وتقول العرب : لعلك ، وعلك
ولعنك ولغنك ، أنشد أبو النجم :
أعد لعننا في الزمان نرسله^(٤)

وتتعاقب السين والثاء ، ومنه قول أبي ذؤيب :
قَصَرَ الصبوح لها فَشَّرَحَ لها بالئى فهى تتوخ فيها الإصبع^(٥)
وتتعاقب العين والهمزة فتبدل الهمزة عينا في لغة قيس ، ومنه قول ذى الرمة :
أَعْنُ توَسَّمت من خرقاء منزلة ماء الصباية من عينك مسجوم؟^(٦)
وتبدل العين همزة مثل قول : حطاطط بن يعفر أو دريد
أرىني جواداً مات هزلاً لآئى أرى ماترين أو بخيلاً مخلداً^(٧)

(١) الأملال ١/٤٣
(٢) الأملال ٢/١٣٤
(٣) الأملال ١/٥٧
(٤) الأملال ٣/١١٤ شرح : خاطط . التى :
(٥) الأملال ٢/٧٩
(٦) لسان العرب مادة عين
(٧) الأملال ١/٥٧

وتبدل السين تاء ، ومنه :

يا قبح الله بنى السحلاة عمرو بن يربوع شرار الثات
ليسوا أعفاه ولا أكيات

ويروى غير أعفاه ولا أكيات (١)

وتبدل كاف الخطاب للأثني شينا ، وأنشد ابن الأعرابي :

علّيٰ فيما أبغى أبغيش بيضاء تُرضيني ولا تُرضيش
وتطبي ود بنى أيش إذا دنوت جعلت تُنْديش
وإن نأيت جعلت تُنديش وإن تكلمت حثت في فيش

حتى تنق كذقيق الديش (٢)

وخضعت كاف الديك لما خضعت له كاف الخطاب فانقلبت شينا أيضا .

وتبدل أو اخر بعض الكلمات المجرورة ياء ، مثل الثعالى فى الثعالب ، والأراني

فى الأرانى ، قال النمر بن تولب اليشكرى فى وصف عقاب :

لها أشاربر من لحم تهمره من الثعالى ، ووخز من أرائها (٣)

وذكر المبرد فى السكامل أن بنى سعد بن زيد مناة ، ولحم ، ومن فارها يبدلون

الحاء هاء لقرب المخرج ، فيقولون فى مدحته مدهته . ومنه قول رؤبة

، لله در الغانبات المده ، أى المدح

وقوله فى الأارجوزة نفسها :

« براق أصلاذ الجبين الأجله ، أى الأجلح (٤) »

وتختلف حركة المنقوص ، فمثلا تيمم نقلاب ياء المنقوص ألفا وفتح ما قبلها ،

فتقول فى بقى بقى ومنه قول زيد الخيل

(١) الأمالى ٦٨/٢ (٢) مجالس مثالب ١٤١/١

(٣) سر الصناعة لابن جنى . تاريخ آداب العرب للرافعى ٥٥/١

(٤) الأمالى ٩٧/٢ أصلاذ : جمع صاذ وهو الحجر الصلب . الأجلح : الذى انحسر شعره من مقدم

رأسه فرق الصدغين

نصول بكل أبيض مشرفي^١ على اللاتي بقي فيهن ماء
وأهل الشمال يقولون هو خلب نساء أى يلبق بقلوبهن ويحل هنهن محل
الخلب وهو حجاب القلب، وأهل اليمن يقولون هو خلم نساء، والخلم عندهم
الصديق^(١)

القراءات واللهجات

على أن قراءات القرآن الكريم إن هي إلا مظهر لتسجيل هذه اللهجات وهي أمثلة
تاريخية لا ريب فيها.

ذكر المبرد أنه قد قرئ^٢ (ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) بدل رأفة^(٢)
وقرئ^٣ (أفتمروا على ما يرى) بمعنى أفندفمونه بدلا من أفتمارونه^(٣) وذكر أن في
مصحف ابن مسعود (ودوالو تدهن فيدهنوا)^(٤) والقراءة فيدهنون على
العطف. وقرأ عبد الله بن مسعود (ما ينظرون إلا زقية) والقراءة (إلا صيحة)
والمعنى واحد^(٥).

وذكر الطبري أن قراءة زيد بن ثابت (إن آية ملكه أن يأتيكم التابوه) وأن
قراءة أبان بن سعيد وعثمان (التابوت)، وقرأ عيسى الثقفي قوله تعالى (يتواری
من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون) (على هوان) وقرأ الأعمش
(على سوء)^(٦)

اللغة واللهجات

ولم تشمل اللهجات فيما روي من شعر فحسب، بل تمثلت أيضا في اللغة المروية

(٢) السكامل ١/٣٢٤

(٤) السكامل ٢/

(٦) القرطبي ١٠/١١٧

(١) الأمالي ١/٢٤

(٣) السكامل ١/٣٥١

(٥) تفسير الطبري والسكامل للمبرد

نفسها ، فالضاد ، والترادف ، وكثرة الجموع للكلمة الواحدة ، وتغيير بنية الكلمة بتقديم حرف وتأخير حرف - هذه كلها من آثار اللهجات .

فمن أسباب الترادف في اللغة أن اللهجات امتزجت فصارت أشبه ببحيرة . امتزج بياها الأصلية مياه أخرى انحدرت إليها من جداول كثيرة ، وإلى هذا يشير ابن جني في كتابه الخصائص إذ يقول : وكما كثرت الألفاظ على المعنى الواحد كان ذلك أولى بأن يكون لغات جماعات اجتمعت لإنسان واحد من هنا وهناك ، ويشير إليه ابن فارس في كتابه الصحاح إذ يقول : وفكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يقدون إلى مكة للحج ، ويتحاضرون إلى قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها ، فإذا أتتهم الوفود من العرب يتخيرون من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفي كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلامتهم التي طبعوا عليها ، ^(١)

وكثرة صيغ جموع التسكير للكلمة الواحدة كعبد وناقدة ناجمة عن اختلاف اللهجات ، وأن لكل قبيلة وزنها القياسي المطرد غالباً ، وشبهه بهذا اختلاف أوزان الأفعال الثلاثية ، وتعدد مصادر الفعل الثلاثي ، وليس من الصواب في شيء أن يعدد قوم جموع الكلمة الواحدة ويعددوا مصادر الفعل الواحد ، ويختلفوا هذا الاختلاف في بنية الفعل نفسه ، لأن اللغات وسائط الإيفام لا للتنمية والإيهام .

ثم إن الكلمة قد تكون واحدة في الأصل ولكن اللهجات تختلف فيها بتقديم حرف أو وضع حرف مكان حرف ، كأن تقول قبيلة فاظ وتقول أخرى فاض ، وتقول قبيلة عاث وتقول أخرى عثا الخ ، وواضح أن أصل الكلمة واحد .

وفي كل هذه الأحوال التي أسبقنا جمع مؤلفو المعاجم مفردات اللغة جمعاً لامراعاة فيه لنسبة كل كلمة لقبيلتها ، فخيّل إلينا أنها كلها لهجة واحدة .

على أن جامعي اللفظ من النصوص ومن مشافهة العرب في البوادي قد توخوا العرب الفصحاه الخالص الذين لم يفسد لسانهم بخلاط ولا حضارة ، وآثروا أن يرووا عن قيس وتميم وأسد ، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يأخذوا عن غيرهم من بقية القبائل ، أو ممن تأثروا بالحضارة ، أو ممن كانوا يتأخمون الأمم المجاورة .

رحلات القحطانيين إلى الشمال

أما أن القحطانيين نزحوا من الجنوب إلى الشمال حتى قيل عصر إبراهيم عليه السلام فإن التاريخ يثبت ، فقد كانت قبائل يمنية الأصل في شمالي الجزيرة قبل الإسلام مثل : لحيم وغسان والأزد ، وهو جو فنكلر ، وليونارد كنج قررا في الفصل الذي كتباه عن بلاد العرب قبل الإسلام في المجلد الثالث من تاريخ هارمزورث العالمي : « أن نفس سيل الأمم الممكن تتبعه في العصر الإسلامي من جنوبي شبه الجزيرة إلى الممالك المتعدية حول البحر الأبيض المتوسط كان جاريا في الوقت الذي طغى فيه السكنعانيون ثم الآراميون على الشرق ، ، والذي كتب تاريخ العرب القديم في المجلد الثامن من تاريخ المؤرخ العالمي يقول : « إن للمحات الأولى المنبعثة من أول شيء يستحق أن يسمى تاريخا تكشف لنا عن بلاد العرب تخاضعة جملها أو كلها تقريبا لحكم جنس جنوبي الأصل هم العرب الصرحاء أو العرب القحطانيون ، والأستاذ سيس A. H. Sayce العالم الأثرى الكبير يقول في الفصل الذي كتبه عن الامبراطوريات الأولى في العراق ومصر في المجلد الثالث من تاريخ هارمزورث : « إن تاريخ الشرق القديم الذي كان منذ أقل من قرن لا يملأ إلا صفحات ، قد كشف البحث الأثرى الآن عنه فصار المؤرخون يعرفونه كما يعرفون تاريخ القرون الوسطى ، وإن أول ذلك التاريخ المعروف سابق على الألف الثالث قبل المسيح ... ونحن نستطيع أن نقرأ الخطابات التي كتبها الملك البابلي الذي جاهد إبراهيم ، وعصر

موسى بل إبراهيم أخذ يبدو لنا في أدق تفاصيله ، كما يبدو منظر طبيعى من خلال
تلك كوب وبعض ما كتبه الأقدمون تخليداً لمجد بابل ، يذهب إلى ما وراء عصر
حمورابى معاصر إبراهيم ... وكثير من خطابات حمورابى وخلقاته من بعده محفوظ
اليوم فى متاحف أوربا وكانت مصر خاضعة للهكسوس وكانت الساميون
السكنعانيون يعبرون الصحراء ذاهبين آيين ، ويجدون لدى بلاط قومهم الهكسوس
ما وجدته إبراهيم من الترحاب ، ولم يكن عجباً أن يرقى عبرى مثل يوسف إلى
مقام وزير ، (١)

ونحن نعلم أن الهكسوس قد حكموا مصر نحو خمسة قرون حتى أخرجهم
أحمس الأول حوالى ١٦٠٠ ق . م وأن عهد إبراهيم جد يوسف عليهما السلام
كان قبل المسيح بمالا يزيد على ألفى عام .

والعرب العاربة كانوا يسودون شبه الجزيرة قبل ذلك كما اتضح من قبل ، وإذا
فما يقوله تاريخ الأدب عن أصل اللغة العدنانية متفق مع الحقائق التاريخية ،
وسيادة القحطانيين على البلاد العربية ، فكانت قبل عهد إبراهيم عليه السلام
بأمد بعيد .

والتوراة تحدثنا بصلة الجنوب بالشمال ، فنذكر أن ملكة سبأ وفدت على سليمان
عليه السلام حوالى ٩٥٠ ق . م ، والقرآن الكريم عرفنا هذه الوفادة .

ثم إن المراجع التاريخية الإفريقية تقرر أن فى العُلا شمالى بلاد العرب نقوشاً
معينية تدل على صلة المعينيين بهذه الجهة .

وكان العميون يحترفون بالتجارة ، وينقلون متاجر الهند إلى مصر والشام ،
مارين فى طريقين من الجنوب إلى الشمال ، أحدهما يجوب الحجاز ، وقد أقامت قبيلة
جرهم بالحجاز قبل وفادة لإسماعيل ، وقيل إنها وفدت عليه ، وكان ذلك قبل الميلاد
بنحو ألفى عام .

(١) التمدد الجليل لسكناب فى الأدب الجاهلى للندراوى ص ١٦٤-١٦٦

، وقد ثبت من النقوش التي كشفت أواخر القرن الماضي أن قبائل مبيفة هجرت الجنوب ويمتد الحجاز وشمال الجزيرة في الألف الثاني قبل الميلاد، وهي القبائل التي عرفت في التوراة باسم (مموينيم) وفي الكتابة الهيروغليفية باسم (ممين مصران) وغزت بطون منهم جنوب فلسطين، وأنشأوا لهم دولة في منطقة غزة، وظلوا إلى عهد الإسكندر الأكبر،^(١)

ولما انهيار سد مأرب حوالي ١١٥ ق.م وغمر البلاد هاجر كثير من سكان اليمن إلى الشمال، والقرآن الكريم يسجل هذا، وكان من المهاجرين بنو ثعلبة (ومهم الأوس والخزرج) وخزاعة وقد جاؤوا الحرم، وأجلوا عنه قبيلة جرم الأولى. والأزد وقد استوطن بعضهم عُمان، وبعضهم استوطن تهامة، وهم أزد شنودة، وأقام حفنة بن عمرو وأبناؤه بالشام، ومنهم الفساستة، وطبي قد استوطنوا جبيل أجا وسلمى الخ.

وهؤلاء المهاجرون قد حملوا معهم لغتهم إلى المناطق التي هاجروا إليها، وامتزجت اللغتان بالجمهورية، والمصاهرة، والمعاشرة، والمتاجرة، والمخالطة، امتزاجاً جعلها لغة واحدة، إلا ما كان ينتج عن بعض العادات الكلامية.

معنى كلمة ابن العنقاء

أما كلمة ابن عمرو بن العلاء: وما لسان حير وأقصى اليمن بلساننا ولا عريبتهم بعريتنا،^(٢) فهي صالحة لأن يكون معناها:

١ - أن الحميرية الموزعة في القدم - وكانوا كثيراً ما يعبرون عن القحطانية بالحميرية - هي التي تغاير لغة قريش، فليست حميرية القرن الخامس الميلادي - وهو

(١) النابتة الديباني ص ١١

(٢) طبقات الشعراء لابن سلام ٨

عهد الأدب الجمالي المروى - هي المفارقة للغة قریش ؛ لأن النصوص التي عثروا عليها في النقوش وفيها اختلاف بين اللغتين ، نصوص معينة أو سبئية أكثرها غير مؤرخ . وفي رأى جلازر أن أقدمها هي المعينية ، وأقدم هذه يرجع إلى القرن الخامس عشر أو السادس عشر قبل الميلاد ، وأحدثها يرجع إلى القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد . وفي رأى مولر أن المملكة المعينية والسبئية كانتا متجاورتين وأن أقدم تلك النقوش يرجع إلى ما بين القرن التاسع والثامن قبل الميلاد .

٣ - أن اللغتين عربيتان ، ولكن التطور والمكان والزمان والأحداث والألسنة النخ قد شققت من اللغة الواحدة لهجتين ، بدليل : « ولا عربيتهم بعربيتنا ، والعرب يطلقون على اللهجة اللسان .

اتصال العرب بغيرهم

التجارة . اتصالهم بالفرس بطرق شتى . اتصالهم باليونان والرومان . اتصالهم بالحبيشة . آثار هذا الاتصال في اللغة والأدب .

لم يكن العرب بمعزل عن العالم القديم ، فقد تبيّننا صلاتهم بالعالم القديم في بعض ما مر بنا ، وكان لهذا الاتصال طرق شتى ، وله في اللغة والأدب والعقليات آثار .

التجارة

١ - اتصل العرب بالأمر منذ عهد قديم اتصالاً تجارياً ، فكانوا يقدمون على الفرس بالتجارات والبياعات ، ويمتارون من عندهم الحب والتمر والثياب وغيرها (١) وكانوا إذا أُجذبوا قصدوا العراق وفرنس فيعطيهن الفرس التمر والشعير ، ويمودون إلى بلادهم خوفاً من الذلّة في سلطان دولة أعجمية (٢) . واستعان الفرس بعرب الحيرة على خفارة قوافلهم التجارية التي كانت تنغزل في الجزيرة العربية ، ولاسيما إلى سوق عكاظ ، لقاء جعل يقدمونه لأشراف القبائل الذين يحمون القوافل من العدوان ، وكثيراً ما كانوا يردونه إن اعتدى معتد على القافلة وعجزوا عن حمايتها (٣) ، وقد يجرّ الاعتداء على القافلة المحمية حرباً كما حدث في يوم السلان ، إذ قامت حرب بين النعمان الثالث أبي قابوس بن المنذر الرابع (٥٨٥ - ٦١٣ م) وبنو عامر ابن صعصعة ، لأن العامريين اعتدوا على لطيمة كسرى أبرويز المتجهة إلى عكاظ ، فغضب النعمان واستنفر أخاه لامة وبرة بن رومانوس الكلبي ، وجمع بني تميم ، والتقى الجيشان بالسلان ، واقتل قتالا شديداً ، وكان النصر لبني عامر على جيش النعمان (٤)

(٢) السكامل لابن الأثير ٢/٢٢٨

(٤) السكامل . لابن الأثير ١/٣٩١

(١) تاريخ الأمم والملوك ، العنبري ١/٢٩١

(٣) فجر الإسلام ١٤

٢ - وكان في جزيرة العرب طريقان للتجارة بين المحيط الهندي والشام ، أحدهما يسير من حضرموت شمالاً إلى البحرين على الخليج الفارسي ثم إلى صور ، والآخر يسير من حضرموت موازياً للبحر الأحمر متجنباً صحراء نجد اللاقحة وهضاب الشاطئ الوعرة ، وعلى هذا الطريق مكة .

وكانت التجارة قديماً في قبضة اليمنيين ، حلقة الاتصال بين أوروبا وبقاع الشرق القاصية ، ولم يقتصروا على منتجات بلادهم بل شملت مناجرهم ، السلع التي كانوا يجلبونها من إفريقية والهند أيضاً ، وكانت النفائس كالعاج والعطور والأفاويه والحجارة السكرية والتبر والأرقاء وغيرها أهم ما يتاجر به العرب ، واستعانوا بالفينيقيين زمناً طويلاً لبيع سلعهم ، لأن لغة هؤلاء وهؤلاء متقاربة ، فكان الفينيقيون يخزنون سلع العرب في مدنهم الكثيرة كمدينة صور ، ثم يمشون بها إلى الخارج لبيعها . وكان العرب والبابليون يتنافسون في الاتجار مع الهند ، (١)

وكان لسبأ أسطول بحري يبحر البحر الأحمر ناقلاً البخور إلى مصر لحاجة الهياكل إليه ، وقد ورثت سبأ من معين هذا المركز التجاري ، كما كانت لها قوافل تخترق الصحراء إلى الشام وفلسطين لنقل السلع التجارية (٢) .

كان السبئيون إذن هم حلقة الاتصال التجاري بين الهند والحيشة وبين شمالي آسيا وإفريقية وجنوبي أوروبا ، وكانت عمان مركزاً لهذه المناجر ، إليها ترد ومنها تصدر ، وكانت المناجر تنقل أول الأمر في البر إلى البحر الأحمر ثم تحملها السفن إلى مصر والشام والعراق ، وبعد حين قضت صعوبة الإبحار في البحر الأحمر أن تنقل التجارة برّاً من شبوت في حضرموت إلى مأرب حاضرة سبأ ثم إلى مكة ، ثم بطرافنزة .

فلما تغير طريق التجارة حوالي القرن الأول للميلاد ضعفت سبأ وتدمر سدها ،

(١) حضارة العرب ، جوستاف لوبون ١١٩

(٢) تاريخ الإسلام السياسي ١/٤٤١ ، من 3-4 P. P. Heil, Cultur der Araber

وتفرق سكانها والراجع أن تحويل تجارة الهند إلى طريق البحر كان في أيام البطالسة، لأن دولتهم قامت في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد بمشروعات تجارية الغرض منها السيادة على التجارة الشرقية. ومنها تعبيد الصُريق بين قنا والقنصر، وإعادة بطليموس الثاني (٢٨٥ - ٢٤٦ ق) فتح القناة التي تصل النيل بالبحر الأحمر، وبذلك صارت السفن تأتي من الشرق إلى مصر، واستطاع التجار المصريون من البطالسة أن يخرجوا من البحر الأحمر إلى المحيط الهندي، وأن ينافسوا التجار العرب منافسة خطيرة^(١). وخطفتها حمير، وامتد سلطانها على قبائل العرب الشمالية إلى القرن الخامس الميلادي، ولكنها لم تصل إلى مكانة سبأ في بسطة ملكها وعظم ثرائها، لأن الحميريين فقدوا مصدر ازدهارهم عند ما تحول قسم من التجارة الهندية إلى مصر^(٢).

وقد أرى التيميون من مركزهم التجاري، ومن خصوبة أرضهم، فعاشوا في سعة من العيش لم ينعم بها غيرهم من سكان شبه الجزيرة العربية، ولا سيما كبرائهم الذين كان لهم حظ من رفاهية العيش والتنعم والتفنن في الأكل، يطبخ في بيت الرجل منهم عدة ألوان، ويعمل فيها السكر والقلوب، وتُطَبَّب أو انبها بالعطر والبخور، ويكون لأحدهم الحاشية والغاشية، وفي بيته العدد الصالح من الإمام، وعلى بابه جملة من الخدم والعبيد والخصيان من الهنود والحبوش، ولهم الديارات الجليلة، والمباني الأنيقة^(٣).

٣ — وإذا ما رجعنا إلى بزوغ الدعوة إلى الإسلام وجدنا المشركين يضطهدون المسلمين اضطهاداً يلجئ مئات منهم إلى القسرة بدينهم، فإلى أين فروا؟ فروا إلى الحبشة التي تربطهم بها صلوات تجارية، ومنهم من هاجر بأهله كعثمان بن عفان وأبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وبعث قريش في أثرهم مندوبين عنها ليزينا للتجاشي ألا يقبل

(١) عصر ما قبل الإسلام ٧٤

(٢) العرب والأمراء لوربة العربية: بروكلمان ١٤ (٣) صبح الأعشى ٧/٥ الغاشية: الزوار والأصدقاء. القلوب: جمع قلب ممتدة القالب وهو شجرة النخلة ولها يؤكل، وهو تجارها (لسان العرب)

في مملكته هؤلاء الوافدين هما عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص، وجمعت قريش لها هدايا للنجاشي ولبطارقه، وتناور حندوبا قريش والمسلمون في مجالس النجاشي وبطارقه، وانتصر المسلمون وطاب لهم المقام في بلاد الحبشة مدة من الزمان (١)

ولم يكن اختيار النبي بلاد الحبشة مهاجراً للدسليين ناشئاً عن أنها تدين بدين سماوى ففى لا تتعدى عليهم ولا تضطهد الإسلام لأنه دين سماوى، فقد كانت الحيرة وغسان بلاداً مسيحية، وكانت الين يهودية ومسيحية، فلماذا لم ينجأ إليها المسلمون؟ إنما كان هذا الاختيار الموفق ناشئاً عن صلوات وثيقة تجارية بين العرب والحبشة من ناحية، إذ كانت أرض الحبشة لقريش متجراً ووجهاً (٢) وناشئاً عن شيء آخر هو أن الحبشة مسيحية مستقلة، أما الحيرة فمسيحية خاضعة للفرس الجوسانية، والين فيها مسيحية ويهودية ولكنها خاضعة أيضاً للفرس، والغساسنة مسيحيون خاضعون للدولة الرومانية، فكيف يحمون ديننا بغير دين سادتهم؟ ثم إن المناذرة والغساسنة والينيين كلهم عرب، وقريش التي تناوى النبي وتناصبه العداء عربية، فهم ينفسون على رجل عربى أن يستلب منهم نفوذهم كما نفست عليه قريش.

٤ - ومنذ القرن السادس الميلادى آتت التجارة إلى عرب الحجاز، وسهلت لهم مكائهم الدينية أن يجوسوا خلال الصحراء آمينين، واشتروا برحلتى الشتاء والصيف لإيلاف قريش لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فليجبدوا رب هذا البيت الذى أطمعهم من جوع وآمهم من خوف،

وقسد اعتمد الروم على تجار مكة في حاجاتهم حتى فيما يترهبون به كالحزير، ويستظهر بعض مؤرخى الإفرنج أنه كان في مكة بيوت تجارية رومانية تزاوّل الشؤون التجارية للرومان، وكان فيها أحباش يرعون مصالح قومهم التجارية (٣)

(١) سيرة ابن هشام ١/٣٤١ - ٣٦١ (٢) الأغاني ٥٠/٨ ساسى
(٣) عن فبر الإسلام س ١٥ Arabia Befor Mohammad

وصارت مكة تعج بالتجار من كل ناحية ، وكانت تهيمن على المتاجر التي تنبج من الجنوب إلى الشمال وتربها ، وتتقاضى عليها ضرائب . وكانت حياة المسكين قائمة على التجارة ، ومن أجل ذلك كانوا لا يجدون من وقتهم ما يمكنهم من الانخراط في أعمال الشرطة أو الجيش ، فاستأجروا جنداً مرتزقة من إفريقية ومن الأحباش ، ليقوموا بحراستهم . واصطبحت مكة بصيفة دولية ، فساحت المجال أمام ألفاظ رومية وفارسية وحبشية ، ولذلك سماها بعض المستشرقين بندقية بلاد العرب (فينيسيا) . وذكر المستشرق أو ليري في كتابه (بلاد العرب قبل الاسلام) أن مكة أصبحت مركزاً للمصيرفة ، يمكن أن يدفع فيها التجار أثمان السلع التي ترسل إلى بلاد بعيدة ، كما كانت عملية الشحن والتفريغ لهذه التجارة الدولية تتم هناك ، كذلك كان يتم التأمين على المتاجر وهي تجتاز الطرق المحفوفة بالمخاطر .

وكان للدول المجاورة كيزنطة وفارس بثلون في قلب مكة كما ذكر ذلك الواقدي والمستشرق لا مانس (١) .

وكانت القوافل التي تقصد الشام تنسوق من أسواق عينتها لهم الحكومة الرومانية ، لتحصل منهم على الضرائب ، ولترقب الوافدين من الأجانب ، فمثلاً كانت تنزل في أيلة (العقبة الآن) ومنها إلى غزة حيث تنصل بتجار البحر الأبيض ، ومن غزة يذهب بعض التجار إلى بصرى . وقد رأى سترابو هذه القوافل ، وشبه القافلة منها بجيش . وذكر الطبري أن قافلة منها بلغت خمسمائة بعير وألفاً ، وقد كانت عير قريش يوم بدر ألف بعير (٢) .

وكان بنو عبد مناف أول من سنَّ الرحلتين لقريش ، رحلة الشتاء والصيف ، فقد أخذ هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل العيصم لقريش ، فانتشر القرشيون من الحزم ، أخذ لهم هاشم حبلان من ملوك الشام الروم وغسان ، وأخذ لهم عبد شمس حبلان من النجاشي الأكبر فاختلفوا إلى أرض الحبشة ، وأخذ لهم نوفل حبلان

من الأكرسة فاختلفوا إلى العراق وفارس ، وأخذ لهم المطلب جيلا من أولئك حمير
فاختلفوا إلى اليمن فجزَّ الله بهم قریشاً وأصاح أحوا لها قسموا المجيرين (١) .

وكانوا يفتخرون باتساع متاجرهم ، فثلا سهول بن عمرو الذي رفض النبي عليه
الصلاة والسلام أن يزع ثقيته أسلم وحسن إسلامه ، وسكن الناس يوم قبض الرسول
بقوله . إن أكثركم قتباً في بر وجارية في بحر (٢) .

هـ - وهذا الاتصال التجاري آثار في اللغة والعقلية ترجى الحديث عنها في
بيان الاتصال بكل أمة ، ولكننا نذكر هنا أثر اتصالهم بالهند .

كانت السيوف ترد إليهم من الهند ، فقالوا هندي وهندواني ومهند ، وكانت
الفتائنقل من الهند إلى الحظ على ساحل البحرين فقالوا حطية ، ونسبوا إلى الهند المسك
فقالوا داريني لأنه كان يجلب من الهند إلى دارين .

وكانوا يجلبون من الهند عطرأ وبخورأ ، من مندل وقار وغيرهما .

قال امرؤ القيس :

وبانأ وألويأ من الهند ذاكأ ورندأ ولبي والكبأ المقترأ (٣)

وقال ابن هرمة :

كان الركب إذ طرقتك باتوا مندل أو بقارعتي قمارا

وقال العجير السلولي :

إذا ما مشيت نادى بما في ثيابها ذكي الشذي والمندلي المطير (٤)

وفي اللغة العربية كلمات هندية مثل مسك محرب مشكا وإن عدها السيوطي
والفيروز ابادي فارسية ، وقال ابن جنى في التذليل على أصلاتها العربية إنها
مشتقة من أمسكت الشيء ، كأن المسك لطيب رائحته يسك الحامسة عليه ولا يعدل

(١) تاريخ الأمم والملوك . الطبري ١٨٠/٢ وجميع الأمثال ٦٦/٢

(٢) البيان والتبيين ٢٥٣/١

(٣) ديوان امرؤ القيس ٦٦ المقتر : الساطع الراشح . (٤) لسان العرب مادة طير

بها صاحبها عنه ^(١) ، وفي هذا تكلف وتمحل ؛ ، لأن الكلمة سنسكريتية أصلها (مشكا) ، ^(٢) . وذكروا الكافور على أنه فارسي ، وهو هندي على لغة أهل ملقا ، ولفظه عندهم (كابور) ^(٣) .

وليس أدل على وثاقة الصلة التجارية بين الهند والعرب من أن نواحي البصرة كانت تسمى في صدر الإسلام أرض الهند ، وسميت الأبلّة كذلك ، وما نشأت هذه التسمية إلا لتردد كثير من السفن إلى هناك حاملة متاجر الهند .

الاتصال السياسي والحربي بالفرس

الاتصال قبل إنشاء إمارة الحيرة . الاتصال عن طريق الحيرة . الاتصال عن طريق اليمن . الاتصال عن طريق العمروم . آثار الاتصال .

انصل العرب بالفرس قبل أن تنشأ إمارة الحيرة بزمان طويل . فقد أدوا الجزية لذلك قورش (٥٥٠ ق . م) بخوراً ولباناً ، ألف وزنة كل سنة ، وكانوا أعواناً لقميين في فتحه مصر ٥٢٥ ق . م بعدون له الماء في البادية ، وكانوا في حملة الفرس على اليونان ٤٩٢ ق . م يساعدون الفرس وهم في مؤخره الجيش لثلاثين عاماً ^(٤) ، ويذكر المسعودي أن سامان بن بابك جد أردشير كان يهجر إلى السكبة ويهدى إليها ^(٥) وكان ذلك قبل تأسيس إمارة الحيرة . وفي عهد سابور الأول بن أردشير (٢٤١ - ٢٧٢ م) كان بين دجلة والفرات مدينة يقال لها الحضرة ، وكان بها رجل من الجرامقة يقال له الساطرون ، والعرب تسميه الضيّن ، ويرى ابن الكلبي أنه

(١) الخصائص ٥١١/١

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية . جرجي زيدان ٤١/١ (٣) المرجع السابق ٤٢/١

(٤) العرب قبل الإسلام . جرجي زيدان ١٠١ نقلاً عن عبودوت

(٥) مروح الذهب ١١٦/١

من قضاة وأنه كان ملك أرض الجزيرة وكان معه من بني العبيد وقبائل قضاة
ملا يحصى ، وقد بلغ ملكة الشام ، ثم إنه أثار على بعض السواد ، وافترج هذه
الإغارة عمرو بن إله من قضاة :

لقتيناهم بجمع من علاف وبالحيل الصلادمة الذكور
فلاقت فارس منا سكالاً وقتلنا هراً بذاً شهر بور
دلّفنا للأعاجم من بعيد بجمعهم الجزيرة كالسمير^(١)
وقد شخص سابور إلى حصن الضيزن محاصره حولين : قال الأعشى :

ألم تر للحضر إذ أهله بنعمى وهل خالده من نعيم ؟
أقام به شاهبور الجذر د حولين يضرب فيه القدم
فما زاده ربه قسوة ومثل محاوره لم يقم
فلما رأى ربه فعله أناه طروقاً فلم يتقم
وكان دعا قومه دعوة هلدوا إلى أمركم قد صرم
فوتوا كراماً بأسيافكم أرى الموت يحشمه من جسم^(٢)

ثم فتح سابور الحصن وقتل الضيزن ، وأباد الذين كانوا معه من قضاة ، فقال
عمرو بن إله وكان مع الضيزن :

ألم يحزنك والآنباة تسمى بما لاقت سراًة بنى العبيد
ومصرع ضيزن وبني أبيه وأحلاس السكتائب من تزيد
أناهم بالفيل مجلات وبالإبطال سابور الجنود

(١) تاريخ الطبرى ٦٢/٢ والأغاني ١٤١/٢ الدار . المرابطة : خدام ناز الجوس الواحد هربذ
شهر بور : هو سابور الأول وكان من أسائه شاه بور ومعناها ابن الملك كافي الطبرى ٦٠/١
ولسكتبا وردت بحرفة في الشعر هكذا شهر زور . والعرب يسمونه سابور الجنود
علاف : علاف بن حلوان بن عمران ابن الحالف بن قضاة وهو ريان أبو جرم من قضاة وإليه
نسب الحيل الملاية . الصلادمة : القوية الشديدة

(٢) تاريخ الأمم والملوك . الطبرى ٦١/٢ وابن هشام ٧٨/١

فهدم من أواسي الحصن صخرًا كأن ثقالة زبر الحديد^(١)
ويفسح الرواة لحياتهم المجال فيزعمون أن ابنة الصدي بن عشقت سابور وعشقاها ،
وأنها دلته على حيلة ليقوض الحصن بها ، ثم غدر بها^(٢) .
وفي أيام سابور الثاني المسعوي بنى الأكتاف (٣٠٩ - ٣٧٩ م) اتهم العرب
فرصة صغر سنه فأغاروا على أطراف مملكته ، كما طمع فيها الترك والروم . وكان
العرب أقرب إلى بلاد الفرس ، وكانوا من أحوج الأمم إلى تناول شيء من معاشهم
وبلادهم ، أسوء حالهم وشظف عيشتهم . فسار جمع عظيم منهم في البحر من ناحية
بلاد عبد القيس والبحرين وكاظمة حتى تخوم الفرس وغلبوا أهلها على مواشيهم
وحروثهم ومعاشهم ، وأكثروا الفساد في تلك البلاد ، ومكثوا على ذلك مدة
لا يحصونها أحد من الفرس . فلما كبر سابور انتخب ألف فارس من صناديد جنده
وأبطالهم وسار بهم فأوقع بين أتباع بلاد فارس من العرب ، وقتلهم تقتيلا ، وأسره
أسرا عنيقا ، ولم ينج منه إلا من هربوا . ولم يكتف بذلك ، بل اجتاز البحر إلى بلاد
العرب فورد الخط والبحرين وقتل أهلها ، ثم ورد هجر فأروى الأرض بدماء من
هنالك من تميم وبكر وعبد القيس ، حتى كان الهارب منهم يرى أنه لن ينجيه غار
في جبل ولا جزيرة في بحر ، ثم عطف إلى بلاد عبد القيس فأباد أهلها إلا من هرب
منهم ، ثم أتى النخعة فأسرف في القتل ، ولم يمر بماء من مياه العرب إلا غوره ، ولا
بئر إلا طمسها ، ثم أتى قرب المدينة فقتل وأسره ، ثم عطف إلى بلاد بكر وتغلب فيما
بين مملكة فارس والروم بالشام فقتل وسبي واتقم ، وأسكن الأسرى من العرب من
بكر بن وائل كرمان ، ومن بني حنظلة الأهواز .
وعاش سابور حياته حاريا بقتل العرب ، ونزع أكتاف رؤسائهم ، وكان ذلك
سبب تسميتهم بإياه ذا الأكتاف^(٣) .

(١) الطبري ٦٢/٢ والأغانى ١٤٢/٢ ومعجم البلدان ٢٩١/٣ ونسب الشعر لجدي بن الدهان

(٢) الطبري ٦٣/٢ والمسعودي ٢٩٢/١

(٣) تاريخ الأمم والملوك الطبري ٦٦/٢ - ٦٦١ م وروج الذهب ١٧٢/١ - ١٢٤

وقد انضم العرب بعد إيقاعهم إلى خصمه لليانوس ملك الروم ، في الحرب التي قامت بينهما ، حتى قالوا إن العرب كانوا في جيش لليانوس مائة وسبعين ألفاً^(١) وتحدد دائرة المعارف الإسلامية حلة سابور على العرب بأنها كانت حوالي ٣٥٠ وتذكر من نتائجها أنه أسكن العدد العظيم من الأسرى في الأهواز وتوَّج وكرمان^(٢) وكان هذا العداء المستحكم بأبي لإلأن يفز والبحرين أردشير الثاني (٣٧٩ - ٣٨٥ م) وكان من جرائها أن ألقي ملكها بنفسه في البحر^(٣) .

- ٢ -

رأى الفرس أن خير وسيلة لانتقام هذا الغزو أن يقيموا من القبائل العربية المجاورة للحدود درءاً يقيهم غزوات العرب ، ويمحجز بين حدود الفرس والروم ، فأنشؤا إمارة الحيرة .

والحيرة مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على بحيرة التنجف وعلى حدود البادية ، وكان أهلها منذ القرن الثالث الميلادي ثلاثة أصناف تنوخ وهم العرب أصحاب المظال ويوت الشعر ينزلون غربي الفرات ، والعباد وهم السكان الأصليون الذين سكنوا المدينة وبنوا فيها ، والأحلاف وهم النازلون بالحيرة من غير هؤلاء جميعاً ، وسموا بذلك لتحالفهم مع العباد .
وهؤلاء السكان جميعاً من العرب .

وأول من تأمر على هذه النواحي مالك بن فهم الأزدي ، وخلفه ابنه بنديمة الأبرش ، ثم خلفه ابن أخته عمرو بن عدى (٢٦٨ - ٢٨٨ م) ، وهو أول الأمراء اللخمين آل نصر ، وأول من اتخذ الحيرة منزلاً ، وأول من يعده أهل الحيرة من ملوك العرب بالعراق^(٤) .

(١) الطبري ٦٨/٣ (٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة بصكر

(٣) العبر . ابن خلدون ١٦٩/٢

(٤) تاريخ الأمم والملوك . الطبري ٣٧/٢

وكان تأسيسها في عهد سابور الأول بن أردشير ملك الفرس ، حوالي ٢٤٠م إذ أسس الفرس إمارة الحيرة على نهر الفرات وأمروا عليها عمرو بن عدى^(١) ، أو كان تأسيسها في عهد أبيه أردشير بن بابك مقيم الطبقة الرابعة من ملوك الفرس المعروفين بآل ساسان أو الأكاسرة (٢٢٦ - ٢٤١ م) ثم توالى الأمراء من بعد عمرو^(٢) . وكان ملوك الحيرة يمتنعون للفرس خضوعاً اسمياً ، والفرس يعفونهم من الإتاوة كفاء حمايتهم للحدود بمن يعير عليها .

وبلغ من إعجاب الفرس بهم أن يزدجرد الأول (٢٩٩ - ٤٢٠ م) الملقب بالأثيم دفع ابنه بهرام جور إلى النعمان بن امرئ القيس بن عمرو (النعمان الأعور ٤٠٣ - ٤٣١ م) لربيه تربية عربية ، وأمره ببناء الخورنق مسكننا له ، وأن يخرججه إلى بوادى العرب^(٣) ، وفي رواية أخرى أن الذي تعهد تربيته بهرام المنذر بن النعمان^(٤) (٤٣١ - ٤٧٣م) ولكن هذه الرواية لا تتماشى مع سنوات حكم يزدجرد والمنذر ، فالأقرب إلى الصواب أن يكون الذي تعهد بهرام النعمان لا ابنه . ومهما يكن من شيء فقد رضع بهرام من امرأتين عربيتين وامرأة فارسية ، وتلد على أساندة من الفرس ومن العرب ، وقد أعانه العرب في أن يخلف أباه على عرش فارس^(٥) ، وتوسط عظماء الفرس وأهل بيوتاتهم بالعرب ليتجاوز بهرام عن مسألتهم إليه^(٦) . وقالوا إن بهرام أجاد اللغة العربية ولغات أخرى ، وقرض الشعر العربي والفارسي^(٧) ، وذكر شمس الدين الرازي في كتابه « المعجم في معايير أشعار المعجم » أن بهرام جور أول من نظم شعراً فارسياً ، وأنه أخذ الشعر عن العرب في الحيرة ، وأن علماء الفرس استهجنوا منه قرض الشعر ، ونهوه عنه .

(١) فجر الإسلام ١٨

(٢) تاريخ الطبري ٣٧/٢ وتاريخ الإسلام السياسي . الدكتور حسن إبراهيم ٤٨

(٣) الطبري ٧٢/٢ (٤) الطبري ٧٤/٢

(٥) الطبري ٧١/٣ - ٧٦ (٦) الطبري ٧٨/٢

(٧) مروج الذهب ١ / ١٢٦

وكان ملوك الحيرة أحياناً يصلون من القوة إلى حد يسوى بينهم وبين الفرس والروم ، فهم في قليل من الأحيان يجارون الفرس ، وفي كثير منها يجارون الروم منتصرين للفرس وموالين لهم ، وقد حدثوا أن النعمان الأعور كانت عنده كتيبتان يقال لإحدهما دوسر وهي عربية لتنوخ ، ويقال للأخرى الشهباء وهي فارسية ، فكان يفتزو بهما بلاد الشام ومن لم يدن له من العرب (١) ، وعظمت مكانة الحيرة في عهد المنذر الثالث الملقب ببن ماء السماء (٥١٤ - ٥٦٣ م) حتى إنه لما عقد الصلح بين الفرس والروم في عهد الامبراطور جستنيان عام ٥٢٢ م كان من شروطه أن يدفع الرومان غرامة لملك الفرس ، وللمنذر .

وقد تنصرت الحيرة في عهد النعمان بن المنذر أبي قابوس (٥٨٥ - ٦١٣ م) على يد الجاثليق صبر يشوع (٢) ، ويقول العرب إن النعمان تنصر على يد عدى بن زيد العبادى ، ومن السهل التوفيق بين الروايتين ، فرمى حجب إليه عدى النصرانية ، وعمده الجاثليق .

على أن في تاريخ الكنيسة الشرقية ما يثبت أن الحيرة عرفت النصرانية قبل ذلك فقد كان عليها أسقف سنة ٤١٠ م وأن ملكها حتى النصرانية ٤٢٠ م ، وإذن فقد كانت النصرانية معلومة في الحيرة وديننا معتقاً قبل النعمان بن المنذر . ولكن لا بورت Labourt يقرر أن ملوك الحيرة كانوا على الوثنية إلى أواسط القرن الخامس الميلادى ، وأن المنذر بن امرئ القيس بن ماء السماء (٥١٤ - ٥٦٣ م) كان يقدم ذبائح من البشر إلى العزى (٣) ، وكان من نسائه امرأة من غسان - اسمها هند الكبرى أم عمرو ابن هند مضطرب الحجارة - مسيحية . وقد بثت الميل إلى دينها في نفس ابنها فنشأ نصرانياً ، كما أنها بنت ديرا

ويظهر أن النصرانية لم تعمر بعد عمرو بن هند ، لأن خليقته قابوس أو لأن

المنذر الرابع (المنذر بن المنذر بن ماء السماء) (٢٨٢ - ٥٨٥ م) صَبا إلى الوثنية ،
ونشأ ابنه النعمان وثنيا ثم تنصر .

وكان آخر ملوكهم الأقوياء النعمان الثالث بن المنذر (٥٨٥ - ٦١٣ م) أو (٥٨٠ -
٦٠٢) وهو أبوقابوس ، وصاحب النابغة ، وقاتل عبيد بن الأبرص وعسدي
ابن زيد في إحدى الروايات ، وقد مات في حبس كسرى ٦١٣ م .

ثم أقام كسرى إياس بن قبيصة خلفا للنعمان على الحيرة ، ولم يكن من أهل بيت
النعمان ، وأشرك معه رجلا فارسيا في الحكم اسمه النخير جان . وكان من أثر ذلك
ضعف الحكومة في الحيرة ، وقيام حرب ذى قار بين الفرس يؤيدها إياس بن قبيصة
وبعض العرب ، وانتصر العرب . ثم انفرد بملك الحيرة آزاد بن يابان الهمداني
سبعة عشر عاما ، ولم يمكث بعده المنذر بن النعمان الذي يسميه العرب
المغزور إلا ثمانية أشهر إذ قدم خالد بن الوليد ففتح الحيرة ٦٣٣ م^(١) .

ولم يقتصر اتصال العرب بالفرس على تلك الغزوات المتبادلة ، ولا على الحيرة
والصلات التجارية ، فقد تغلغل نفوذهم إلى اليمن وحكومتها ، فالمؤرخون جميعاً على
أن سيف بن ذى يزي استنجد بكسرى أنوشروان (٥٣١ - ٥٧٨ م) لطرد الأحباش
من اليمن فأنجده ، وكان قد استنجد بقيصر فلم ينجده ، لاتفاق الدين المسيحي بين
الروم والأحباش ، ولرغبة قيصر في بقاء اليمن في حكم أحلافه الأحباش لتسكون
طريقا إلى تجارته وقضائه على تجارة الفرس منافسيه .

اتجه سيف بن ذى يزن إلى النعمان بن المنذر ليتوسط له لدى كسرى ،
فقبل بعد لآى أن يمدّه بجيش ، وخلصت اليمن من حكم الحبشة ، وخضعت لحماية
الفرس^(٢) .

(١) تاريخ الأمم والملوك . الطبري ١٥٦/٢ - ١٥٧

(٢) الطبري ١١٥/٢ - ١٢٤ وسيرة ابن هشام ٦٥/١ - ٧٣

وقد وفدت وفود العرب على سيف بن ذي يزن تهنئة بطرد العبيشة، وسجل أبو الصلت والد أمية بن أبي الصلت هذا بقوله :

لا يطلب الثأر إلا كان ذي يزن	في البحر خيم للأعداء أحوالا
أنى مرقل وقد شالت نعمته	فلم يجد عنده النصر الذي سالا
ثم اتحن نحو كسرى بعد عائرة	من الستين بين النفس والمالا
حتى أتى بيني الأحرار يقدمهم	تحالم فوق من الأرض أجبالا
من مثل كسرى شهشاه الملوك له	أو مثل وهرزبوم الجيش إذ صالا؟
له درهم من فتية صبروا	ما إن رأيت لهم في الناس أمثالا
بيض مرازبة، غلب، أساورة	أسد تربب في الفيضات أمثالا
أرسلت أسد أعلى سود الكلاب فقد	أضحى شريدهم في الأرض فلالا
فاشرب هنيئا عليك التاج مرتفعاً	في رأس غمدان دار أمك محلالا
وأطل بالمسك إذ شالت نعمتهم	وأسبل اليوم في بردك إسبالا ^(١)

وبنو الأحرار الذين عنانهم أمية في شعره هم الفرس الذين قدموا مع سيف بن ذي يزن، وهم إلى الآن يسمون بني الأحرار بصنعاء، ويسمون باليمن الأبناء، وبالسكوة الأحامرة، وبالبصرة الأساورة، وبالجزيرة الحضارمة، وبالشام الجراحة^(٢). وذكر ابن هشام قصيدة لسيف بن يزن، وأخرى لعدي بن زيد في الابتهاج بإجلاء العبيشة عن اليمن.

(١) أخبار مكة للأزرقي ٩٣/١ والطبري ١٢٠/٢ وابن هشام ٦٩/١ مطبوعة حجازي وابن فتية ١٧٧ وابن سلام ١٠٢ والأغاني ٧٣/١٦ ونسب الشعر إلى أمية لا إلى أبيه.
المرعات : سال : غلب : جمع أغاب : قوى شديد . أساورة : جمع أسوار بضم الهمزة وكسرهما وهو قائد الفرس أو فارسهم أو مجيد الرمي بالسهم . تربب : برى الفيضات : جمع بغيضة وهي المسكان اللثف الشجر ويصكون ماوى السباع . فلال : جمع فل وهو المهزوم . غمدان : نصر عجيب الصنعة بين صنعاء ومأودة . شالت نعمتهم : هلكوا . أسبل : أوح ثوبك مختللاً
(٢) الأغاني ٦/٧٣

رلاشك أن اليونان والعرب عامة كانوا متورين من سوء حكومة الأخباش ،
وحاولتهم استعمار الحجاز ، وهدم البيت الحرام ، ولذلك فرحوا بالخلاص منهم ، ورحبوا
بالفرس ، ثم إنهم - وإن لم يستقلوا استقلالاً تاماً في عهد الحكم الفارسي - كان
لهم النفوذ والسلطان ، لأن سيف بن ذي يزن كان يحكم اليمن ويدفع الجزية كل عام
لسكسرى ^(١) . وما من شك في أن العرب كانوا يأنفون أن يحكمهم الأخباش ، ونحن
نتبين ذلك في قصـول سيف بن ذي يزن لسكسرى : ه أيها الملك غلبتنا على بلادنا
الأغرية ، فجتكت لتصرفني عليهم ، وتخرجهن عني ، ويكون ملك بلادي لك ، فأنت
أحب إلينا منهم ^(٢) ، فهو يعبر عنهم بالفريان ، ويؤثر أن يحكمهم الفرس على أن
يحكمهم هؤلاء الفريان .

وقد مر بنا قول أبي الصلت (أرسلت أسداً على سود الكلاب) وهو يعني
الفرس بالأسد ، ويعني الأخباش بالكلاب السود

وقد آمن سيف بن ذي يزن في الأخباش تقتيلاً حتى أفناهم إلا بقايا ذليلة
قليلة ، فاتخذهم عبيداً له وجازين يسعون بين يديه بحراهم ، ومكث على ذلك زمناً غير
طويل ، فأغاثوه ، ووثب إلى الحكم رجل من الحبشة فأخذ يقتل ويفسد ، فأرسل
كسرى جيشاً بقوده وهرز ، وأمره أن يقتل كل من باليمن من الأخباش ، ففعل ،
وأمره كسرى على اليمن فتولى حكمها وكان يجبي ما لها إلى كسرى ، ولما مات ولي
كسرى ابنه المرزبان ، ولما مات ولي كسرى ابنه البيتجان ، ولما مات ولي بعده
ابنه سخر شمسه ، ثم عزله وولى بعده باذان ، ولم يزل عليها حتى بعث الله النبي عليه
الصلوة والسلام ^(٣) .

ولقد كان اتصال العرب بالفرس ذا آثار في الشعر العربي ، من حيث إنه فسح

(٢) الطبري ١١٦/٢

(١) الطبري ١١٧/٢

(٣) الطبري ١٢٠/٢ - ١٢١

بجبال اللؤلؤ ، تحميسا على الاستقبال ، أو إشادة بالانتصار ، فكثيراً ما كان يشتمك
العرب والفرس في حرب ، إذ يثير العرب على حدود الفرس فيرد الفرس إغارتهم ،
وقد يتعمقونهم إلى أعماق الصحراء ، وقد أسبقنا ما فعله سابور ذو الأكتاف .
وفي عهد كسرى حدث ما يشبه هذا ، إذ غزت إباد سواد ، العراق ، واعتدت على
ملوك آل نصر ، وعلى امرأة من شريفات العجم ، فغزاهم كسرى ، ولكنهم انتصروا
أول الأمر انتصاراً ميبناً ، حتى قالوا إن جماجم الفرس وأجسادهم كانت كالتل العظيم ،
وكان إلى جانبهم دير فسمى دير الجماجم . ولكن كسرى لم يلبث هذه الهزيمة فبعث في
آثارهم مالك بن حارثة ومعه أربعة آلاف من الأساورة ، فبعثهم ، واقتلوا قتالا
شديداً حتى ظفر بهم ، وهزمهم ، واسترد منهم ما كانوا قد أصابوا من الأجاجم
يوم الفرات .

وكان لقيط بن يعمر قد حذر إباد بعد النصر بقصيدة طويلة منها :

يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غيراً	على نساتكم كسرى وما جمعا
هو الخلاء الذي تبق مذلته	إن طار طائرهم يوماً وإن وقعا
هو العفاء الذي يجتث أصلهم	فمن رأى مثل ذا يوماً ومن سمعا ؟
وقد بذلت لكم نصحي بلاد سحل	فاسميتوا إن خير العلم ما نفعنا ^(١)
وحذرهم مرة أخرى بقوله :	

سلام في الصحيفة من لقيط	على من بالجزيرة من إباد
فإن الليث آتاكم دليفاً	فلا يحسبكم سوق النقاد
أتاكم منهم ستون ألفا	يزجون السكتائب كالجراد ^(٢)

وهم قد تحاربوا أيضاً في يوم الصفقة ، وسببه في رواية أن باذان عامل كسرى

(١) الأغاني ٢٠/٢٣ - ٢٤ ساسي

(٢) اللؤلؤ والخفاف ١٧٥ والأغاني ٢٤/٢٠ النقاد : صغار الغنم أو الغنم الفبيحة الشكل

بالين أرسل إلى كسرى عبراً تحمل ثياباً من اليمن ومسكاً وعنبراً ومناطق محلاة ، وكان يخفرها بنو الجعيد المراديون ، فلما كان ببلاد بني حنظلة بن يربوع أغار عليها هؤلاء وغيرهم ، وقتلوا حمايتها ومن معهم من الفرس واقتسموها ، وعلم الفرس الذين بهجر فساروا إلى بني حنظلة وقاتلوهم قتالاً شديداً انهزم الفرس فيه ، واستشاط كسرى غضباً ، فانتقم من العرب بضرب أعناقهم غيلة في الحصن المسمى المشقر .

وفي رواية أخرى أن العير كانت تحمل رماحاً أرسلها كسرى إلى اليمن وكان العرب يخفونها بالتناوب كل في منطقته لقاء جمل ، ولكن هودّة بن علي الحنفي تعهد بخفارة العير في المناطق كلها على أن يأخذ وحده الجمل ، فعضب بنو سعد من تميم وهاجموا العير واقتسموها ، وقتلوا الأساورة وأسروا هودّة حتى فدى نفسه ، وفي ذلك يقول شاعر بني سعد :

ومنا رئيس القوم ليلة أدلجوا بهودّة مقرون اليدين إلى النحر
وردنا به نخل اليمامة عانيا عليه وثاق القدِّ والحلق السمر
وسار هودّة إلى كسرى فأرسل معه جيشاً ، ونزلوا المشقر من أرض البحرين ، وبعث إلى العرب ليمتاروا بما معه ، وكان أعظم من أتاه بنو سعد من تميم ، وكانت الحيلة للقضاء عليهم أن يدخلوا من باب المشقر رجلاً رجلاً فتضرب أعناق الداخلين ، ولكن العرب ككشفتوا الحديدية وثاروا ، فاضطر هودّة والأساورة إلى الهرب ، وتجهم بنو سعد والرباب يقتلون من يلحقون به ^(١)

ويروى صاحب العفو الفريد أن الذي كشف المسكيدة ونبه قومه إليه وضرب سلسلة باب المشقر بسيفه فقطعها اسمه خيبري بن عبادة ^(٢) ويروى الطبري أن اسمه عبيد بن وهب ، وقد افتخر بعمله في قوله :

(١) الأغانى ١٦/٧٥ - ٧٦ ساسى

(٢) العقد الفريد ٣/٣٥٤

ألاهل أقي قومي على الزأى أني حيت ذماری يوم باب المشقر
ضربت رتاج الباب بالسيف ضربة تفرج منها كل باب مضبر^(١)
وقد مدح الأعشى هودثة بن علي ، وأشار إلى مكرهه يوم المشقر ، لأنه لما رأى
ثورة القوم وأنهم قد نذروا به كرم المسكعبر - قائد الفرس - في أن يعفوا عن مائة
من خيبارهم ، فوهبهم له يوم الفصح :

لسا رآهم أسرى تلهم ضرعاً
رسلاً من القوم مخفوضاً ومارفحاً
وأصبحوا كلهم من غله نطحا
يرجو الإله بما أسدى وما استما

واقترح المجذام التميمي بأسر هودثة ، فقال :

وهن عصبن هودثة يوم حجر فقليل ينزاع المسد المضار^(٢)

وأشهر الوقائع بين الفرس والعرب يوم ذي قار ، فقد غضب كسرى على
النعمان انتقاماً منه لأنه قتل عدى بن زيد ، وحبسه في سجن بخانقين أو بساباط حتى
مات ، وقيل إنه أذناه تحت القيلة فداسته حتى مات ، فجمعت بكر بن وائل تغير على
السواد ، فوفد قيس بن مسعود بن قيس بن خالد على كسرى ، وسأله أن يجعل له
أجر أعلی أن يضمن له ألا يدخل البكريون السواد ، فأقطعها الأبله وماوالاهما ،
ولكن البكرين أغاروا ، فحقق كسرى عليهم وغضب على قيس فحبسه بساباط ،
وعبأ كسرى جيوشه ، فقال قيس ينذر قومه :

ألا ليتني أرشو سلاحي وبعاتي لمن يُخبر الأنباء بكر بن وائل^(٣)

وعلم كسرى أن أسلحة النعمان وماله وولده عند هاني بن مسعود الشيباني

(١) تاريخ الطبری ١٣٤/٢ مضبر : سمك معین (٢) معجم الشعراء ٤٧١ رسلاً : في لين من القول

(٣) هذه رواية الأغانى للبيت الأول من القصيدة ورواية معجم الشعراء ٣٢٥ : لأن تعلم الأنباء

والعلم وائل . وهي أسخ لأنها لا اقواء فيها بالنسبة لبقية الأبيات

فبعث إليه يطلبها ، فرفض هاني ، ودعا كسرى إياس بن قبيصة العلاءي وكان عامله على عين التمر وما والاها إلى الحيرة ، فأناه بصنائه من العرب الذين كانوا بالحيرة ، واستشارهم في الإغارة على بكر بن وائل ، ثم جيش من العرب ثلاثة آلاف رجل ومن الفرس ألفين ، وجعل على الفرس قائدين هما الهامرز وخنابرين ، وبعث اللطيمة مع الجيوش - وهي غير كانت تخرج من العراق فيها البز والعطر والألصاف إلى عامله باليمن وقال إذا فرغتم من عدوكم فسيروا بالمير إلى اليمن - وبلغ الخبر هاني بن مسعود وبكر بن وائل ، فاتهوا إلى ذى قار ، ولما التقى الزحفان قال هاني : يا قوم مهلك مقدور خير من نجاء معرور ، وإن الحذر لا يدفع التقدر ، وإن الصبر من أسباب الظفر : المنية ولا الدنية ، واستقبال الموت خير من استدباره ، والظعن في السفر أكرم من الظعن في الدبر ، يا قوم جدوا فما من الموت بد ...

وحسم عمرو بن جبلة اليشكري بقوله :

يا قوم لا تنزركم هذه الحرق ولا وميض البيض في الشمس برق

من لم يقاقل منكم هذا العنق فخبوه الراح واسقوه المسرق

وقطع العرب ووضن رواحل نسائم حتى يقسروا نفوسهم على الثبات ، دفاعا عن الحرائر اللاتي لا يستطعن الفرار على رواحل قد تقطعت أحزمة رحالها ، وانجالت المعركة عن هزيمة الفرس ، واقفني البكريون آثارهم إلى السواد ، وغنموا وقسموا لطيمة كسرى على نسائم ، فذلك قول الدهان بن جندل :

إن كنت ساقية يوما على كرم فاسق فوارس من ذهل بن شيبانا

واسق فوارس حاموا عن ديارهم واعلى مفارقهم مسكا وريحانا

وكانت الموقعة لتمام أربعين سنة من مولد النبي وهو بمكة بعد أن بعث ، وقيل بعد أن هاجر ، وقيل كانت بعد غزوة بدر بأشهر ، ولما علم رسول الله صلى الله عليه

وسلم بانتصار العرب قال : هذا يوم انتصفت فيه العرب من المعجم ونصرت عليهم^(١)

وقد أشاد الشجرام بهذا النصر أياً لإشادة ، من ذلك قول الأعشى :

فدى لى ذهل بن شيبان ناقي وراكبها يوم اللقاء ، وقلت
هم ضربوا بالخنس حنو قراقير مقدمة الماسمز حتى نولت^(٢)

ولم تقتصر آثار هذا الاتصال على الأدب الذى أذكته الحروب ، بل لأنها تجاوزت ذلك إلى ضروب أخرى من الأدب ، وإلى ضروب من التأثير فى العقلية والعقيدة ونظام الحياة .

فقد كان ملوك الحيرة ينافسون أكاسرة الفرس وقياصرة الروم فى الترف ومظاهر العظمة ، فقصور الحيرة مؤثثة بأمن الأثاث ، وحدائقها مستورة بأعز الأزهار ، وقواربها الأنيقة الساطعة الأنوار تشق الفرات ليلاً حاملة أغنى الأبرام وأمهر الموسيقين ، وأطلق العرب لأنفسهم عنان الخيال ، فقصوا علينا أبناء القصور الساحرة المعجبية التى أضحت أجمل مساكن الشرق وأطيبها^(٣)

وعاشت دولة الحيرة أربعمائة سنة ، أى مدة تعدد طويلة لدولة ، ولا شك أن عرب الحيرة كانوا أرقى عقلاً ومدنية عن عرب الجزيرة ، لتأثرهم بالفرس ، وكان منهم من يعرف الفارسية ، فزيد والد عدى كان يقرأ العربية والفارسية ، وعدى بن زيد كان من تراجمه كسرى أبرويز (٥٩٠ - ٦٢٨ م) أو من تراجمه كسرى أنو شروان (٥٢١ - ٥٧٨ م) ، وابنه زيد كان من تراجمه كسرى بعد أبيه .

وقد تسربت إلى الفارسية كلمات عربية ، وتسربت إلى العربية كلمات فارسية ،

(١) و(٢) الأغانى ٢٩/٣ و ١٣٢/٢٠٠ - ١٤٠ سلسوى ومروج الذهب ١/١٣٤

(٣) حضارة العرب جوستاف لوبون ١١٦

ورد بعضها في شعر الأعشى، وعدي بن زيد العبادي، فن السككيات الفارسية: السكوز
والجرة والإبريق والسكرجة والخوان والسندس والسكك الخ من ذلك قسول
عدي بن زيد :

ثم ناروا إلى الصبوح فقامت قينسة في يمينها لإبريق
وعرف العرب كثيراً من أخبار الفرس وقصصهم كقصّة رستم واسفندياذ ،
وقد ذكر ابن هشام أن النضر بن الحارث كان من شياطين قريش ومن يؤذون
النبي عليه الصلاة والسلام ، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس
وأحاديث رستم واسفندياذ ، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً
فذكر فيه بالله وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله ، خلفه في مجلسه
إذا قام ، ثم قال : أنا والله بامعشر قريش أحسن حديثاً منه ، فسلم إلى فأنا أحدثكم
أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفندياذ ، وهو الذي قال
سأنزل مثل ما أنزل الله ، وفيه نزلت ثمان آيات من القرآن الكريم . منها قوله
تعالى : إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين (١) ،

وروي أن النضر اشترى كتب الأجم ليحدث منها ، ويرى بعض المفسرين أنه
هو الذي نزلت فيه الآية الكريمة ، ومن الناس من يشتري هو الحديث ليصل عن
سبيل الله بغير علم ، ويتخذها هزواً أو لثك لهم عذاب مهين ،

وعرف بعض العرب الجوسية ، ودان بها بعض تميم ، وسموا أبناءهم بأسماء
فارسية . فالنمان سمي ابنه قابوس ، ولقيط بن زرارة التميمي سمي بنته (دخنوس)
وقيل أنه تزوجها كما يفعل الفرس ، وغيرته العرب بذلك (٢)

وقد دون مؤرخو الفرس تاريخ العرب واستقى منه كثير من أرخوا

(١) سيرة ابن هذا ١/٣٢٠

(٢) المعارف لابن قتيبة ، ٢ ، والأعلاق النبوية لابن رسته ٧/٢١٧

للغرب ، فالطبرى مثلاً يقول : وكان أمر آل نصر بن زبيدة ومن كان من ولادة ملوك
الفرس وعماطهم على نضر العرب الذين هم بيادية العراق عند أهل الجزيرة متبعاً لما
كان مثبناً عندهم فى كنائسهم وأشعارهم ، وقد حدثت عن هشام بن محمد الكلبى أنه
قال : لى كنت أستخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن زبيدة ومبالغ أخبار
من عمل منهم آل كسرى وتاريخ سنينهم من بيع الخيرة ، وفيها ملكهم
وأموارهم كلها ،^(١)

وقد ذكروا أن الأعشى زار كسرى ومدحه ، وأن كسرى مر به وهو
يتغنى بقوله :

أرقت وما هذا السهاد المؤرق وما من سقم وما من تمشق
فسأل عن معناه فلما ترجم له لم يعجبه^(٢)

والأعشى يذكر أسفاره فى كثير من شعره : ومن ذلك «هناك اليتان اللذان
ذكرهما ياقوت فى معجم البلدان :

وَطَوَّفْتُ للشعر آفاقَهُ عَمَّانَ وحصن وأوريشلم
أثبت التجاشى فى أرضه وأرض التديط وأرض العضم
ويقول :

قد سرت ما بين بانقيا إلى عدن وطال فى العجم تكرارى وتسيارى^(٣)
وقد أدخل الأعشى فى شعره كلمات فارسية ، وغير فارسية ، منها هذه الأسماء
الفارسية للأزهار التى وردت فى حديثه عن مجلس من مجالس طوره :

يطوف بها ساق علينا مؤوم خفيف رفيق ما يزال مقدماً
بكأس وإبريق كأن شرايه إذا صب فى المصحاة خالط بقاً

(٢) دراسة الشعراء للمصنف ٩٢

(١) تاريخ الأمم والملوك . الطبرى ٣٧٢/٢

(٣) معجم البلدان ١/٢ •

لها جُلسانٌ عندها وينفجج ويسيسنبر والمرزجوش منضاً
وأسس وشيبري وورد وسوسن بصبنا في كل دجن تقيماً^(١)
وقد أثر اتصال العرب بالفرس في خيال الشعراء ، فالمرقش الأكبر يشبه البقر
الوحشي الذي يرعى في الأطلال عثملاً مطمئناً مختالاً برجال من الفرس يمشون
مزدهين في قلائمهم .

أمتت بخلاه بعدد سكانها مقفرة ما إن بها من أرم
إلا من الصين ترعى بها كالفارسيين مشوا في السكم^(٢)
والحنساء تقول في رثاء أخيها صنخر إنه كالرشح ، وبمشى مختالاً كأنه قائد من
قواد الفرس :

مثل الرديني لم تنفسد شيبته كأنه تحت طلي البرد أسوار^(٣)
وقد ذكر شارح الديوان أنها شبت أخاها بسوار من الذهب أو الفضة في حسنه
وضمره ، ولسكني أرى أن التشبيه بقائد الفرس أولى .

والجئبل السعدى يشبه وجهه بحييته بالصحيفة ملاسة ولينا ، ويقول إنه ليس
ضامراً ولا مكتزراً ، وإنه يشبه الدررة النادرة التي أضاء بها السعيم صدر مجلس عزيزهم ،
وقد اشتراها العزيز بثمان غان ، لأنها نادرة جهد الغواص في العثور عابياً ، فقد جاء
بها من أعماق البحر المتناوج الواسع غواص دقيق العظام كأنه سم في سرعته
وتحواله ، وقد دهن جسمه بالزيت ليقبه من ملوحة البحر :

(١) الرصني ١٠٠ نوم : مقرط أو لايس القلاة . المصعاة : إناه نحو الحمام يشرب فيه . البقم :
خشب شجر كبير ورقة كورق اللوز وساقه أثمر يصبغ بطبيعته . الجلسان : معرب جلسان أو كلسان وهو
نوع من الرمان . البنفسج : معرب وهو زهر طيب الرائحة . السيسنبر : الرضغان الذي يقال له
التمام ، وهو معرب . المرزجوش : اليابسين أو غيره ، معرب . وكذلك الأس والحيري والسوسن أسماء
فارسية لأزهار .

(٢) المقضيات ٩/٢ : شاكر وعارون . أرم : أحد . السكم : الفلاس

(٣) ديوان الحنساء . الأب لويس شيخو ٨٢

وتريك وجها كالصحيفة ، لا ظلماتٌ مختلجٌ ولا نجومٌ
كعقبة الدرِّ استضاء بها بحرابٍ عرشٍ عزيزها المعجمُ
أغلى بها ثمنا وجاء بها شختُ العظامِ مكانه سهم
يلبَّنه زيتٌ وأخرجها من ذى غواربٍ وسطه اللحمُ (١)

وعرفوا الدروع الفارسية ، واقتضوا بها ، قال عمر بن امرئ القيس إن كتيتهم
لا يربعها أسود تسكن في الغياض ، فهم شجعان لا يرهون أعداءهم إذا ما مشوا في
الدروع الفارسية كأنهم نحول في الإبل بطاء السير ، وهم يمشون إلى الموت سراعا :

والله لا يزدني ككتبتنا أسدُ عرينٍ مقبلها عُرفٌ
إذا مشيتنا في الفارسي كما تمشى جمالٌ مصاعبٌ قطفٌ
تمشى إلى الموت من حفاظنا شياً ذربعا وحكنا نصفُ (٢)

وقال دريد بن الصمة إنه نصح أخاه عارضا وأصحابه وأنذرهم أن يأخذوا حذرهم
من أعدائهم المهاجرين في دروع فارسية ، فمضوه ، ووقعت الواقعة فأنضم إليهم :

نصحت لعارض وأصحاب عارض ورهط بنى السودان والقوم شهدي
فقلت لهم ظنوا بألقى مدججٍ سراتهم في الفارسي المسرد
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى نحوايتهم وأنى غير مهتد
أمرتهم امرئ بمنعرج اللوى فلم يستقيثوا النصح إلا ضحا الغد
وهل أنا إلا من غزيرة إن غوت غويت وإن ترشذ غزيرة أرشد (٣)

(١) الفضليات ٤٣ السندوبي . مختلج : هزبل . نجوم : كثير اللحم . أغلى بها ثمنا : اشتراها بثمن
قال . شخت : دفيق . لبانه : صدره . غوارب : أمواج . القغم : السمك الكبير .
(٢) حمرة أشعار العرب ٢٦٢ . يزدني : يستخف . عرف : المراد بها الغابة . الفارسي : الدرع .
مصاعب : ضلوع . قطف : بطيئة للمشي .
(٣) الحمرة ٢٧٥ . بنو السودان : أصحاب أخيه الأشعر عبد الله الذي يرثيه . ظنوا : أيقنوا .
الفارسي المسرد : الدرع المثبته بالنسج الضيقة الخلق . غزيرة : قومه

وهذه صورة فسكية في خطاب أعمى همدان لخالد بن عتاب بن وركاء ، يذكر له ما أصابهم إذ غزوا أصهبان ، ويذكره بظله الحقير المشثوم الذي يتردى في الوحل فيركب رأسه ، والذي يهثر في الطريق السوي الممهده ثم يذكره برثائه ملابسه البالية :

أَتَيْنَا أَصْهَابَ فَهَزَّاتْنَا وَكُنَّا قَبْلَ ذَلِكَ فِي نَعِيمٍ
أَتَذْكُرُنَا وَمَرَّةً إِذْ غَرَوْنَا وَأَنْتَ عَلَى بَغِيضِكَ ذِي الشُّثُومِ
وِيرْكَبُ رَأْسِهِ فِي كُلِّ وَحْلٍ وَيَهْثُرُ فِي الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ
وَلَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا طَيْلَسَانُ نَصِيصِي وَإِلَّا سَحَقِي نِيمٍ^(١)

وكانت القيان في العصر الجاهلي فارسيات وروميات يغنين الشعر العربي بألحان فارسية أو رومية ، فيؤثر في النفوس تأثيراً عجيباً ، وفيهن يقول عمرو بن الإطنابة في مقدمة رثائه لخالد بن جعفر ، وقد دعا بشرابه وقيامته ، فغنين له بتصيدته التي أولها

عَلَلَانِي وَعَلَلَا صَاحِبِيَا وَاسْقِيَانِي مِنَ الْمَرُوقِ رِيَا
إِنْ فِينَا الْقِيَانُ يَعْرِفُنَ بِالْدَفْنِ لِقِيَانَنَا وَعَيْشَا رَحْبَا
يَتْبَارِينِ فِي النَعِيمِ وَيَصْبِ بَيْنَ خِلَالِ الْقُرُونِ مَسْكَ ذَكَا
إِنَّمَا هَمَّيْنِ أَنْ يَتَحَلِبَ مِنْ سُمُوطَا وَسُبُلَا فَارِسِيَا
مِنْ سُمُوطِ الْمَرْجَانِ فَصَلِّ بِالْأَدْرِ فَأَحْسِنْ بِحَلِيمِنِ حُلِيَا^(٢)

(١) البيان والبيان ٣/٤١١ طيلسان : حزام . نصيبي : نسبة إلى نصيبين قاعدة ديار ربيعة . سحقي

نيم : فروخلى بال .

(٢) الأغانى ١/١٦٤ الهار

الاتصال السياسي والحربي بالروم واليونان

حاجه رومانية إلى اليمن . دولة الأنباط . دولة نهمر . إمارات عمان . حضارة الفسيفساء ومنازلهم . أثر اليونان والروم في اللغة والآداب

١ - الحمير

عزم الإسكندر على فتح بلاد العرب التي كان الإغريق يعتقدون غنى سكانها ، وكانت الغزوة التي قام بها نيبارك حول بلاد العرب نذير تصميم الإسكندر على غزوها ، ولكن بلاد العرب نجت من تطوع الإسكندر بعد موته ، ثم بعث القنصل أغسطس إلى اليمن جيشا يقوده إليوس غالوس ، كانت الهزيمة بصيرته سنة ١٨ ق . م .

٢ - الأنباط

كان مقر دولة الأنباط في الجنوب الشرقي من فلسطين ، تمتد من حدود فلسطين إلى رأس خليج العقبة ، يحدها من الغرب وادي العرابية ، ومن الجنوب بادية الحجاز ، ومن الشرق بادية الشام ، ومن الشمال فلسطين .

نشأت هذه الدولة قبل القرن الرابع قبل الميلاد ، وظلت قائمة إلى أن دخلت في حوزة الرومان ١٠٦ م ، وعاصمتها بعلبعا

ولما مات الإسكندر قسمت دولته لشايخ الأنباط بطليموس صاحب الإسكندرية على أتقيون خليفة الإسكندر ، وكان أحد قواده قد فتح بلاد الحجاز بغنمة ببد أن أصبح سيد سوزبة وفينيقية ، وأباد الأنباط بعدئذ جيش أتقيون المكون من ٤٦٠٠ جندي ، فساق إليهم جيشا آخر بقيادة ابنه ديمتريوس . وخاطب عرب بلاد الحجاز - كما روى ديودور الصقلي - الأمير ديمتريوس عندما بلغ ديارهم بقولهم : « لماذا تجارنا أيها الملك ؟ ونحن من سكان الصحارى التي لا تُسدُّ فيها حُلة ، ترانا نقتن في هذه البقاع القاحلة فرارا من العبودية ، فاقبل هديتنا وارجع إلى حيث

كنت ، فسكنون من أوفى الأصدقاء لك ، واسكنك إذا رغبت حصرنا حرمت كل
منامة ، ورأيت عجزك عن إكراهنا على تبديل ضرق حياتنا التي تمر دنائها منذ نعومة
أظفارنا ، وإذا قدرت على أسر بعضنا أيقنت أنك لن تجد واحدا من الأسرى
يستطيع أن يألف حياة غير التي ألفناها ، فرأى ديتر يوس أن يقبل هدية الأنباط
وأن يرضى بالثأب خاتما بالسلم حربا أبصرها ملومة بالمصاعب^(١)

واستقبل أمر الأنباط بعد ذلك - بعد انسحاب ديتر يوس - حتى أنشئوا
دولة منظمة وولوا عليهم ملوكا ضربوا النقود واستوزروا الوزراء ، وكان ملوكهم
يسمون في الغالب باسم (الجارث) أو (عبادة) أو (مالك) . وأقدم من وقف
الباحثون على اسمه من ملوكهم الجارث الأول حكم نحو سنة ١٦٩ قبل الميلاد ، وكان
آخرهم مالك الثالث ، وقد غلبه الرومان وذهبوا بدولته ١٠٦ م
وفي أيام عبادة الثالث كانت حملة إليوس غالوس القائد الروماني على بلاد السرب ،
سنة ١٨ قبل الميلاد ، وقد استعان فيها بالأنباط .

انتسعت مملكة الأنباط في عهد أولئك الملوك حتى شملت جزيرة سينا من الغرب ،
وحوران إلى حدود العراق من الشرق ، وبلغت إلى وادي القرى في الجنوب .
ولما استولى الرومان على مصر والشام طمعوا في مملكة الأنباط فحاربوهم في عهد
أغسطس ولكنهم ارتدوا عنهم .

وظلت مدينة بطرا مركزا تجاريا بين الشرق والغرب والجنوب والشمال حتى
أعادوا الطريق من التصير على البحر الأحمر إلى قفط على النيل فأخذت تتقهقر .
وكان الأنباط قد تحضروا ومالوا إلى النزف ، فلما أفضت الدولة الرومانية إلى
الإمبراطور تراجان عجزوا عن مقاومته فغلبهم سنة ١٠٦ م ، فاختلط الأنباط بأهل
البلاد الأصليين من سريان وآراميين . وتحولت التجارة إلى تدمر^(٢)

(١) حضارة العرب . لوبون ١١٤ والغرب قبل الإسلام . زيدان ٧٢

(٢) العرب قبل الإسلام ٦٨ - ٧٦ جرجي زيدان

والمؤرخون مختلفون في أصل الأناط ، ولكن الرأي الراجح أنهم عرب :

١ - ذكر مؤرخو اليونان أنهم عرب

٢ - أسماء ملوكهم عربية كالفارث وعبادة ورتبال ومالك وجميلة

٣ - كانوا يتكلمون بالعربية ، ولا عبارة بما وجدوه على أنفارهم باللغة الآرامية فإنها لغة الكتابة في ذلك العهد مثل اللغة الفصحى في أيامنا . وذلك كان شأن الدول

القديمة بالشرق ولا سيما فيما يتعلق بالآثار الدينية أو السياسية (١)

٢ - مرمم

والقول بأهمية هذه المدينة ووجودها منذ العصور المتغلغلة في القدم أمر لا يحتمل

الشك ، ويؤيد هذا القسول تلك النقوش المنسوبة إلى تيجلت بلزر الأول

Tiglet - Bileser الملك الآشوري ، إذ أن هذه النقوش ذكرت هذه المدينة - في

القرن الثاني عشر ق.م (٢)

وقد راجت تجارة تدمر وراجا كبيرا بانضمامها إلى الامبراطورية الرومانية ،

واستغل تجار تدمر العداوة التي كانت بين روما والبارثيين . وتلبس أثر الإغريق

في تقدم الذوق الفني لأهل تدمر عندما تشاهد آثار معبد الشمس الفخمة وما إليه من

أبنية جميلة (٣)

وفي بداية القرن الثالث قامت أميرة آل ساسان الجديدة من الفرس فتجدد

النزاع الشديد القديم مع الرومان ، وأتيح لأهل تدمر فرصة لإظهار مقدرتهم

السياسية . وقد أثار Odenathus (أذينة) أمير تدمر أن ينضم إلى الفرس بزعامة

سابور (٢٤١ - ٢٧٢) فلما أعرض عنه انضم إلى القائد الروماني بالستا Ballista

في آسيا الصغرى ، وأوقع بالفرس المتتقمقين هزيمة منكرة ، وأصبح في عهد

(١) العرب قبل الإسلام ٦٨ - ٨٣ جرجي زيدان

(٢) حاضرة المعارف الإسلامية ١٣/٥

(٣) المرجع السابق ١٤٠١٣/٥

جالينوس Gallienus الحاكم الفعلي للشرق كله ، ومنحه الامبراطور لقب أغسطس Augustus . وقد انتقلت السلطة إلى ابنه فيلاتوس Vabalathus بعد قتله عام ٢٦٦ م — ٢٦٧ م ولكن النفوذ الفعلي بقي لأرملة زينويا ، وقد وسعت رقعة مملكها وخاصة بفتح مصر ، ولكن سرعان ما شبت في تدمير ثورة ضد الرومان ، وهزمت زنويا ٢٧٠ م وسدت تدمر وفرت زنويا (١)

ثم بعد موت زنويا أخذت المسيحية تنتشر بتدمر ، وعاش بها بعض الأساقفة وشيد بها جستانيان كنيسة ، واستمرت تدمر تحت حكم الرومان زهاء ثلاثة قرون إلى أن أخذها العرب (٢)

وقد هال الرومان بنصرهم على الزباء وانتشوا به لأنه نصر كان ميثوسا منه ، حتى إنهم زعموا أن ملكاً نزل من السماء وأزر الامبراطور وجيشه في معركة الزباء ، فانتصروا ، ثم انتهت حياة الزباء في شرقي مملكها على يد قصير بعد نزاع بينها وبين جذيمة الأبرش كما تقص الرواية العربية .

على أن الرومان يزعمون أنهم أسروها إلى روما ، ولكن اختلافهم في اسم الملكة الأسيرة ، وتفجهم بالنصر والغنمية ، وإجماع الروايات العربية على أنها ماتت في العراق كل ذلك يجعلنا لانصدق مزعمهم

وكان العرب يهددون سلامة آسيا الصغرى ولم يقصروا عنها إلا بهدم تدمر في عهد أورليانس ٢٧٢ م ونحويل سورية إلى ولاية رومانية وتبعية بعض سكانها للغساسنة العرب الذين كانوا تحت حماية القياصرة .

٤ — إمارة غسان

نزل الغسانيون مشارف الشام ، وفيها الضجاعة من قضاة فغلبهم على ما في أيديهم ، وأنشوا لأنفسهم دولة في حماية الروم ، فيما هو الآن البلقاء وسوران ،

عرفت بدولة الغساسنة أو بني غسان ، وكانت عاصمتهم بصرى في حدودان (١) وقد اتهموا في هجرتهم من الجنوب إلى الشمال إلى ما عدا غسان فأسبوا إليه . وقد اختلف المؤرخون اختلافاً بيناً في عدد ملوكهم ، وسنى حكمهم ، والراجح أنهم حكموا نحو أربعائة سنة (٢)

منذ سقطت تدمر عام ٢٧٢ م انتهى عهد الدول العربية المستقلة في الشمال ، وصار الرومان وخطافهم البيزنطيون يستعينون بالعرب في صد غارات البدو على التخوم المتحضرة ، ولذا اصطنعوا الغساسنة في الشام . وتحالف الامبراطور أنستاسيوس البيزنطي مع الحارث الرابع كي يرداً عن الشام غارات القبائل العربية . وانصرف هم الحارث وقبائله إلى الإغارة على المملكة اللخمية بالجزيرة ، وهزم بعيش النعمان الثالث ، واستولى على جن مملكاته ما عدا الجزيرة نفسها عام ٤٠٣ م وعقد قباض ملك فارس مع الحارث معاهدة نزل له بمقتضاها عن دخل ناحية من نواحي الجزيرة في نظير أن يصرف بنى بكر وأحلافهم عن الإغارة على فارس . ثم تمكن المنذر الثالث في عهد كسرى الأول أنو شروان من جزيرة الحارث ، والقبض عليه ، وأطاح برأسه عام ٤٢٩ م (٣)

٥٥٥

وأعظم أمراءهم الحارث بن جبلة المعروف بابن أبي شمر ، والملقب بالأعرج (حوالي ٥٢٩ - ٥٦٩ م) وقد عينه الامبراطور جوستينيان أميراً على جميع قبائل العرب في سوريا ، ومنحه لقب فيلارك . أى أمير ، أو رئيس قبيلة ، ثم لما حارب المنذر بن ماء السماء عام ٥٢٨ م وأعان الروم في واقعة السامرة رقبه ٥٢٩ م

(١) العرب قبل الاسلام . جرجس زيدان ١٨٤ (٢) أبو الفداء ٧٦/١

(٣) دائرة المعارف الإسلامية العدد الأول من المجلد الرابع ٤٣

وسموه باسيلوس أى الملك أو الأمير (١) ، ثم بعد ذلك منحوه لقب بطريق وهو لقب الأشراف ، وأرفع لقب بعد الإمبراطور ، وكان الحارث نصرانيا يعقوبيا وحاميا للكنيسة ، وكان من أكبر أعوان بليزاريوس القائد الرومانى فى محاربة الفرس ٥٣١ م لرد هجراتهم هم والمناذرة عن مملكة الروم

وفى سنة ٥٦٢ م شخص الحارث بن أبى شمر إلى القسطنطينية ليمهد الولاية من بعده لابنه المنذر ، وليتفق على الوسيلة التى ينامل بها عمرو بن هند مضطرب الحجابة صاحب الحيرة . وقد أدهشه مارأى فى القسطنطينية من عظمة وحضارة ، كما دهش أهلها من منظره المهيب ، فطالما سمعوا به وخوفوا أبناءهم باسمه .

والحارث هذا هو الذى توسط لامرئ القيس الشاعر فى ذهابه إلى قيصر بعد أن أودع السمومل أذراعه .

وتوفى الحارث ٥٦٩ م وخلفه ابنه المنذر ، وأعان الروم فى مواقع كثيرة ، وشخص إلى القسطنطينية سنة ٥٨٠ م فاحتفى به الروم والقيصر طيباريوس ، وألبسه التاج ، ولم يلبس أبوه قبله غير الإكليل ، وسماه بعض مؤرخى الروم لذلك (المننذر ملك العرب) .

ثم انقسمت المملكة إلى إمارات صغيرة ، ولما انتصر البيزنطيون على الفرس تركوا حكم غسان لأهلها ، ولم يوفقوا ملك غسان آخر إلى إخضاع جميع السوريين لسلطته لإقبيل الفتح الإسلامى . وآخر ملوكهم جيلة بن الأيهم صاحب القصة المشهورة مع عمر .

وكان الغساسنة مقصد كثير من شعراء العرب ، يمدحونهم وينالون حياتهم ، كالنابغة ، والأعشى ، والمرقس ، وعلقمة ، وحسان ، وكانت المنافسة الشديدة

والعداء المستحکم بينهم وبين اللخمين في الحسيرة بأعنا على التنفس أيضا في
تقريب الشعراء وإذاعة المديح ، يدل على ذلك أن قيس بن رفاعة كان من عادته
أن يقد سنة على النعمان اللخمي بالعراق ، وسنة على الحارث ابن أبي شمر الغساني
بالشام ، وقد سأله الحارث : بلغني أنك تفضل النعمان على ؟ فأجابته بالتعظيم من قدره
والتهوين من قدر النعمان ^(١) ، ويدل على ذلك اعتذار النابغة للنعمان إذ غضب منه
لمدحه الغمامة :

ملوك وإخوان إذا ما أتيهم أحكم في أمواتهم وأقرب

كفعلك في قوم أراك اصطفتهم فلم ترهم في فعل ذلك أذنبوا

وقد توسط امرؤ القيس بن حنجر بالحارث بن أبي شمير الغساني المعروف
بإبن جبلة (٥٢٩ - ٥٦٩ م) إلى قيصر ، فأكرم وفادته ومدته بالجند ، ولسكن خصمه
الطاح الأمدى تخوف على قومه ذلك الجند الكشيف ، فوشى بامرؤ القيس عند
قيصر فاسترد جنده ، وزعم الرواة أن قيصر أهدى إلى امرؤ القيس حلة مسمومة
فلبسها فساقط جلده ^(٢)

وكانوا على قسط عظيم من الحضارة ، فثلا يروى الأصفهاني أن حسان بن ثابت
تحدث عن بعض لياليه عند جبلة بن الأيهم في الجاهلية ، فقال : « إنه رأى عشر
قيان ، منهن خمس روميات ، يغنين بالرومية بالبراط ، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة ،
وكان يقد إليه من يغنين من العرب من مكة وغيرها ، وكان جبلة إذا جلس للشراب
فرش تحته الآس والباسمين وأصناف الرياحين وضرب له العنبر والمسك في صحاف
الفضة والذهب ، وأتى بالمسك الصحيح في صحاف الفضة وأوقد له العود المتدى إن
كان شاتيا ، وإن كان صائفا بطن بالتلج وأتى هو وأصحابه بأكسية صيفية يتفضلون
بها في الصيف ، وفي الشتاء يلبسون فراء الفلك وأشباهه » ^(٣)

(١) الأمل ٢٥٧/١

(٢) الأغاني ٩٩/١٩ ودراسة الشعراء لدرسي ١٢ (٣) الأغاني ٢٤/١٦ ساسي

١ - وكان اتصال العرب بالروم منفذا لكلمات يونانية ولاينية ، دخلت اللغة العربية . كالفردوس ، والقسطاس ، والدرهم ، والدينار ، والأوقية ، والقيراط ، والقسطل ، والبطريق ، والترياق ، والصراط ، والخنديس معرب خندروس

ب - واستورد العرب السيوف أحيانا من بلاد الروم ، ونسبوا إليها . قال عامر المحاربي :

تُرَاحُ بِالصَّخْرِ الْأَصْمِ رَمَوْسِهِمْ إِذَا الْقَلْعُ الرَّومِيُّ عَنْهَا تَثَلَّى (١)

ج - وأثرت صلة العرب بالروم في خيالهم ، فثلاثا عكمة بن عبدة يشبه استدعاء الظليم النعامة برطانة الروم :

يُوحِي إِلَيْهَا بِإِنْقَاضِ وَتَقَنُّعَةٍ كَمَا تَرَاظُنُ فِي أَقْدَانِهَا الرَّومُ (٢)

وطرفة يشبه مرفق ناقته القويين بقنطرة الرومي قد دعمها وشادها :

كقنطرة الرومي أقسم رُهبًا لُتْسَكْتَنَنَّ حَتَّى تُشَادَ بِقِرْمِدٍ (٣)

ورأت امرأة الزبير فقالت : من هذا الذي كأنه أرقم يتلظظ ؟ ورأت عليا فقالت : من هذا الذي كأنه كسر ثم جبر ؟ ورأت طلحة فقالت : من هذا الذي كأن وجهه دينار هرقل ؟ (٤)

د - وهذه قصة عربية نسجت على غرار قصة يونانية سابقة لها :

زعموا أن المنذر بن امرئ القيس الملقب بابن ماء السماء (٥١٤ - ٥٦٣ م) الملك اللخمي عرض له في يوم بؤسه حنظلة الطائي ، فمهم بقتله ، فاستمهله ريثما يعود إلى أهله

(١) الفضليات . السندوقي ٦٥٣ القلع : السيف . المعنى : ضرب رموسهم بالمحاربة الصلدة إذا تسكمت السيوف الرومية .

(٢) الفضليات . شاكر وهارون ٢/٢٠٠ الإيقاض : التصويت . القنفة : صوت الظليم . الأندلس : ج ندن وهو القصر

(٣) ديوان طرفة ٢٤ (٤) عبون الأخبار ٤/٢٥ والمجوان للبحاظ ٤/٢٥٢

ويصلح شأنهم ، وكفله شريك بن عمرو ، ثم عاد آخر يوم من العام ، في قصة طويلة ، وكان بره بوعده سبياً في إبطال يوم البؤس^(١) . وهي تشبه شيئاً قوياً قصة يونانية هي أن دامون كان له صديق اسمه فنتطياس ، وكانا معاً على مذهب فيثاغورس ومن أصحابه ، وقد اتهم فنتطياس بتهمة ، لحكم عليه الملك ديونيسيوس بالإعدام ، فرجا أن يسمح له بالعودة إلى أهله ، حتى يدبر شئونهم ، ثم يعود ، فطلب الملك من يضمه ، فضمته صديقه دامون ، ثم وفي فنتطياس بوعده ، وعاد قبل الموعد بيوم واحد ، فأعجب ديونيسيوس بأريحية دامون ووفاء فنتطياس ، فعفا عنه ، وقرب الصديقين إليه ، وجعلهما من خاصته^(٢) .

ويبدو لي أنهم عزوا القصة إلى المنذر اللخمي لا إلى ملك غسان . لأن المنذر هو الذي قتل نديمه في سكره ، فلما أفاق ندم ، وبني لهما الغريين ، وكان له يومان : يوم بؤس يقتل فيه أول من يراه ، ويطلق يده الغريين ، ويوم نعيم يحبو فيه ويكسو أول من يطالعه ، وكان عبید بن الأبرص من قتلى يوم البؤس^(٣) ، فنسب القصة إليه لبيان السبب في إبطاله يوم البؤس ، ويزيد بعضهم عليها أن الخيرة تنصرت بسبب ذلك ، ناسباً القصة إلى النعمان بن المنذر ، كما في مجمع الأمثال للميداني . ولكن الخيرة كانت قد تنصرت من قبله ، على أن نسبة القصة إلى المنذر ملك الخيرة دليل على أن تأثير اليونان وصل إلى الخيرة أيضاً .

(١) الأغاني ٨٧/١٩ - ٨٨ ساسي ومجمع الأمثال للميداني ٦٣ وقد نسب القصة إلى النعمان بن المنذر

(٢) الحرب قبل الإسلام . جرجي زيدان ٢٠٨

(٣) الأغاني ٨٨/١٩ ومجمع البامان ٤٢٦/٧ - ٤٢٨

اليهودية

ونود اليهود الى يثرب . قبائلهم القبائل العربية التي خالفتهم في يثرب والحجاز . اليهود في اليمن .
تأثير اليهود في العرب . تأثروا أكثر مما أثروا . السبب في ضعف تأثيرهم .

- ١ -

وفد اليهود على يثرب من قديم ، يروى أبو الفرج أن سيدنا موسى عليه السلام كان قد بعث جيشاً من بني إسرائيل إلى العماليق - سكان يثرب - فانتصر عليهم وأفناهم ، ثم أقام بنو إسرائيل بيثرب بعد وفاة موسى وانتخذوا بها الآطام والأموال والمزارع ، ولبثوا فيها زمناً طويلاً .

ثم لما ظهر الروم على بني إسرائيل في الشام ، فوطئوهم ، وقتلواهم ، واعتدوا على نسائهم خرج بنو النضير وبنو قريظة وبنو همدان وبنو هارين منهم إلى إخوانهم بالحجاز ، وكان ذلك بعد ظهور النصرانية وانتصار القياصرة لها ، فتوافدوا على يثرب عشائر وأفراداً ، وتكاثروا بها .

ويظهر أنهم اتخذوها مهاجراً لهم ، لأن الأوس والخزرج نزلوا بيثرب وفيها قبائل عدة من بني إسرائيل ، فيها بنو عكرمة وبنو ثعلبة وبنو سحر وبنو زغورا وبنو قينقاع وبنو زيد وبنو النضير وبنو قريظة وبنو همدان وبنو عوف وبنو الفصيص ، وهم جميعاً من أهل الشرف والثروة والعز على سائر اليهود .
وكان يسكن اليهود بطوناً من العرب منهم بنو الحرمان من اليمن وبنو مرثد وبنو نيف من تيمناً وبنو معاوية من بني سليم ثم من بني الحارث بن بهثة ، وبنو الشظية من غسان .

وكان يقال لبني قريظة وبني النضير خاصة من اليهود السكاهنان نسبة إلى جددهم الذي يقال له الكاهن بن هارون بن عمران ، كما يقال العمران والحسنان والقمران . قال كعب ابن سعد القرظي :

بالسكانيين قررتهم في دياركم جداً ثراكم . ومن أجدلكم جديداً
فلما أرسل الله سبيل العرم على أهل مأرب وهم الأزدي تفرقوا في البلاد ، ونزل
الأوس والخزرج يثرب ، وعاشوا دهرأ في شظف حتى استنجد مالك ابن العجلان
بأبي جبيلة الفسائي فتضى على أشراف اليهود ، فصار الأوس والخزرج سادة يثرب (١)
ويرى باقوت أن سكان يثرب الأولين من اليهود عرب تهودوا (٢) . وسواء
أكانوا عبرانيين استعربوا أم عرباً تهودوا فقد كانت لهم مستعمرات يهودية في
الجزيرة العربية : تيماء وفدك وخيبر ووادي القرى ويثرب .

وهم أهل مدينة وذكاء ، وبراعة في التجارة وتسمير المال ، سرعات ما اقتنوا
الصياغ وزرعوا ، واحتكروا تجارة يثرب فاغتنوا ، واشتهروا بصناعتهم كالحداثة
والصياغة وصنع السلاح .

وقد انكشوا على أنفسهم في أحياء منعزلة ، ولكنهم استنصعوا من غير شك
أن يحملوا نفراً من العرب على اعتناق دينهم ، وكانوا يتكلمون باللغة نفسها التي
يتخاطب بها السكان ، (٣)

جد اليهود في نشر دينهم في جنوبي الجزيرة ، فتهود كثير من اليمن منهم ذونو اس
صاحب الأخذوذ .

ونشروا في الجزيرة تعاليم التوراة وما يتصل بها من شروح وأساطير كالتى
أدخلها بعدد من أسلم منهم مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه .
وكثيرا ما جاد لهم القرآن الكريم وسقته آراءهم ، مما يدل على انتشارها

(١) الأغانى ١٩/٩٤ - ٩٨ ساسي

(٢) معجم البلدان ٤/٤٦١

(٣) العرب والإمبراطورية العربية . بروكلمان ٢٩

وأدخلوا في اللغة العربية كثيراً من الكلمات والمصطلحات الدينية مثل : جهنم
والشيطان وإبليس والحج والكاهن وعاشوراء .

وقد تأقلم اليهود الساكنون في الحجاز ، واصطبغوا بالصبغة العربية ، واتخذوا
اللغة العربية لغة أدهم ، وكان منهم شعراء كالسموأل بن غريص بن عادياء ، وأوس
ابن دقن من قريظة ، والربيع بن أبي الحقيق من أشرافها ، وكعب بن الأشرف من
بنى النضير .

والسموأل صاحب الحصن المعروف بالأبلى بقباء ، وهو مضرب المثل في الوفاء
وصون الأمانة ، لأنه أمر أن يقتل ابنه ولايسلم أذراع امرئ القيس إلى الحارث
ابن أبي شمر أو الحارث بن ظالم (١) ؛ ومن شعره في ذلك :

وفيت بأدوع الكندي إني إذا ما دمّ أقسوامٌ وقتُ
وأوصى عادياء يوماً بالألا تُهدمُ يا سموأل ما بنيت
بني لي عادياء حصناً حصينا وماء كلما شئت استقيت

وقد أشاد الأعشى بوفاء سموأل إذ استجار بشريح ابنه ومدحه (٢) .

ومن غزل أوس بن دقن القرظي :

أني تذكرُ زينب القلبُ وطلابُ وصلِ عزيمة صعبُ
ماروضةُ جاد الربيعُ لها موشيةٌ ماحولها جملبُ
بالذُّ منها إذ تقول لنا سيراً قليلاً يلحقُ الركبُ (٣)

والربيع بن أبي الحقيق شاعر حاضر البديهة أجاز أبياتاً للناطقة الذيباني حين أقبل
الناطقة يريد سوق بني قينقاع ، فلحقته الربيع بن أبي الحقيق نازلاً من أطمه ،
فلما أشرفا على السوق سمعا الضجة ، وكانت سوقاً عظيمة ، فحاصت (قهرت) بالناطقة
ناقته ، فأنشأ يقول .

(١) الأغاني ١٩/٦٨ - ١٩/٦٩ ماضي

(٢) الأغاني ١٩/٦٩ (٣) الأغاني ١٩/٦٣

كادت تُجال من الأصوات راحتي
ثم قال للربيع : أجز ياربيع . فقال :
وانفّر منها إذا ما أوجستْ حُلُقُ
فقال النابغة : مارأيت كال يوم قط . ثم قال :
لولا أنهمها بالسوط لا اجتذبت
أجز ياربيع . فقال :
مضى الزمام وإلى ركب لبيق .
فقال النابغة :

قد ملت الجبس في الأظام واشتعتت
أجز ياربيع . فقال :
إلى مناهلها لو أنها طُلُق .

فقال النابغة : أنت ياربيع أشهر الناس (١)

وكعب بن الأشرف من طي وأمه من بني النضير ، وقيل هو من بني النضير ،
وكان شاعراً فارساً ، وله مناقضات مع حسان بن ثابت وغيره في الحروب التي كانت
بين الأرس والحزرج ، وهو شاعر فحل فصيح كان عسداً للنبي صلى الله عليه
وسلم يهجو ويهجو أصحابه ، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم نفرأ من أصحابه
فقتلوه في داره (٢)

ولم تستطع اليهودية أن تسكتح الوثنية الجاهلية ، لأن كثيراً من أحكامها شاق
على العرب لايسلسون لها ، ولأنها لا تبيح الانتفاع بضائم الأعداء بل توجب

(١) الأغانى ٦٢/٢١ اشتعتت : اشتقت . طاق : مطاوعة

(٢) الأغانى ١٠٦/١٩ سلسي

إحراقها ، والعربي يقاقل ليثار وينتم وينفضح بالمسال والأسرى .
على أن اليهود كانوا أهل صناعة وزراعة ، والعرب يحتمرون الصناعة ويزدرون
الزراعة ، فليس بغريب أن يعصوا عن دين الصناع والزراع ، يدل على ذلك تعليل
الجاحظ لتعظيم العوام النصارى وازدراهم لليهود في الإسلام ، وهو صالح أيضاً
لتعليل ضعف اليهودية عن النصرانية في الجاهلية ، وبما عظم النصارى في قلوب العوام
وحبيبتهم إلى الطغاة أن منهم كتّاب السلاطين وقرّاشى المساوك وأطبباء الأشراف
والنظارين والسيارة ، ولا تجد اليهودى إلا صباغاً أو دباغاً أو جعاً أو قصاباً أو
شباباً ، فلما رأيت العوام اليهود والنصارى كذلك توهمت أن دين اليهود في الأديان
كصناعاتهم في الصناعات . (١)

والذى يعلم تاريخ اليهود يشهد بأنهم لم يميلوا إلى إرغام الأمم على اعتناق دينهم ،
وأن نشر الدعوة الدينية من بعض الوجوه محظور عليهم .

ثم إن اليهودية هي خلاصة القانون التلوى بعقائده وتعاليدده ، وقد أدخلت
عليه تغييرات تلائم الأحوال الجديدة التي طرأت على اليهود . ونجم عن ذلك أن
الذين أرادوا أن يقبلوا جوهريات ضعف التوراة دون أن يخضعوا للناموس
التلوى وعقائده لم يؤذن لهم باعتناق اليهودية . وكان هذا من أهم الأسباب في
اعتناق السريان واليونان للنصرانية ... كذلك تأثر كثير من العرب بتعاليم اليهودية
وخضعوا لبعض الأصول الجوهرية من التوراة دون أن يتقادوا لبعض الآخر ،
فلم ترض منهم اليهودية ذلك . وهناك أمر آخر أن التوراة والتلوى كلنا الإنسان
تكاليف صعبة لم يأنفها ، فلم يستطع العربي الذى لم يكن يعرف للنظم المعقدة قيمة أن
يدركها بسهولة ، وعسر على نفسه أن تقبل التقييد بأغلال لا تحصي (٢)

(١) رسالة الرد على النصارى ١٢

(٢) تاريخ اليهود في بلاد العرب ٧٢ إسرائيل وفنتون

النصرانية

انتشارها في بلاد العرب . آثارها . عجزها عن اكساح الوثنية

انتشرت النصرانية في شمال بلاد العرب حيث الغاصبة الخاضعون للروم وعم نصارى ، فكان أكثر ربيعة — وهم يقيمون في شمال الجزيرة — يدينون بالمسيحية^(١) وكانت تغلب مسيحية ، وظلت على مسيحتها إلى عهد عمر بن الخطاب ، فقد أبوا أن يدفعوا الجزية ، فضعف عليهم الخراج . وكان بعض البدو مسيحيين إلى زمن عمر بن عبد العزيز .

وانتشرت المسيحية في شرقي بلاد العرب حيث المناذرة ، الذين تنصروا . وكان جميع البدو في الشمال على اتصال وثيق بالسكان الآراميين الذين استوطنوا تلك الديار . والذين لونت النصرانية حضارتهم منذ زمن طويل تاريخيا تماما . وليس من شك في أن بلاد العرب الداخلية وبخاصة مدن الحجاز التجارية لم تكن تجهل كل الجهل تعاليم المسيحية وتقاليدها بسبب اتصالها الدائم بقبائل الشمال . وليس من شك أيضاً في أن الرهبان الذين انتشرت صوامعهم من فلسطين وشبه جزيرة سيناء حتى قلب الصحراء كان لهم أثر كبير في تعريف العرب بالنصرانية ، أضف إلى ذلك أن الصحراء كانت ملجأ لبعض الفرق المضطهدة من الكنيسة الرسمية^(٢) . فمن الطبيعي أن يكون في قلب البلاد العربية نصارى وإن قلوا ، ففي السيرة أن من المخارئين ضد النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة شخصاً اسمه عبد عمرو بن صفيق وكان قد تهرب في الجاهلية ولبس الموسح^(٣)

(١) الأغانى ١٢٧/٢٠ ساسى والنقد الفريد ٢/٢٧٩

(٢) العرب والإمبراطورية العربية . بروكلمان ٢٩

(٣) ابن هشام ٢/٢١٦

ولسكن المسيحية كانت أكثر انتشاراً في شمال الجزيرة ، لأنها دين اللاتينيين والنساسة ، والعرب يدنون لهم ويعظمونهم ، وكانت تامة - وإن كانت لقاحاً لاتنين لدين ولا تؤدي الإقاوة ولا تخضع للبلوك - لا تمتنع من تعظيم ما عظم الناس ، وتصغير ما صغروا . ونصرانية النحان وملوك غسان مشهورة في العرب ، معروفة عند أهل النسب ... وكانت النصرانية فاشية في العرب إلا حضر ، فلم تغلب عليها يهودية ولا مجوسية ، ولم تنفش فيها النصرانية ، إلا ما كان من قوم منهم نزلوا الجزيرة يسعون العبادة فإنهم كانوا نصارى ... ولم تعرف حضر إلا دين العرب ثم الإسلام ، وغلبت النصرانية على ملوك العرب وقبائلها ، على لحم ، وغسان ، والحارث بن كعب بنجران ، وقضاة ، وطبي . . . ثم ظهرت في ربيعة فغلبت على تغلب وعبد القيس ، وأفناء بكر ، ثم في آل ذي الجدين خاصة ،^(١) وانتشرت المسيحية في جنوب بلاد العرب حيث اليمن التي وفدت إليها بعثات تبشيرية .

ففي القرن الرابع الميلادي ذهبت إلى اليمن بعثة لتبشير بالمسيحية وكانت اليمن قد استردت استتة لاهها ، وكان رئيس البعثة ثيوفيلوس ، وقد أوفده قسطنطين إلى حمير مصحوباً بيهدايا ، وربما كان من أغراض هذه البعثة ضمان حرية العبادة للمسيحيين من الرومان في بلاد اليمن ، ونشر المذهب الآريوسي (مذهب ينسب إلى آريوس انعام المسيحي الذي كان يرى أن المسيح مخلوق كسائر البشر وأنه لم يكن منذ البدء) كما انتشر في الحبشة المذهب الأرثوذكسي .

وربما كان من أغراضها أيضا الحصول على حماية أمراء اليمن للتجار الرومان الذين كانوا يعبرون اليمن ببضائعهم في وقت كانت الحرب فيه ناشبة بين الروم والفرس ، وقد استحوذ الفرس على الطرق التجارية البرية مع الهند^(٢)

(١) رسالة الرد على النصارى للجاحظ ص ١٥

(٢) Canti rossai, ja, juil - sept 1921 عن بين الحبشة والعرب ص ٣٩

وأشهر مدن النصرانية نجران ، عسقلان وموتلها في بلاد العرب . وقد بنيت بها
كنيسة كبيرة سميت كعبة نجران تتلواً إلى السكبية الشريفة ذات المكافحة السامية عند
العرب ، وروى أن بناتها هم بنو عبد المسدان الحارثي ، وكانت قبلة من آدم من
ثلاثمائة جلد على نهر بنجران (١) ، إذا نزل بها المستجير أجبر ، أو الخائف آمن ، أو
طالب الحاجة قضيت ، أو المسترفد رُفد (٢) وقد ذكرها الأعشى في قوله :

وكعبة نجران حتم عليك حتى تُناخي بأبوابها
نور يزيد وعبد المسيح وقبسا ثم خير أربابها (٣)

ولما غلب الجيش على اليمن في القرن السادس الميلادي ٥٢٣م اعتبرهم النصارى
وراجت الدعوة إلى النصرانية ، وأراد الجيش أن يهملوا لدينهم السيادة في بلاد
العرب ، فبنى أبرهة كنيسة صنعاء التي تسمى (القليس) وحاول أن يفرض مكة ، ليهدم
السكبية ، وبسط نفوذه على الشمال ، وبصرى العرب عن الوثنية وزيارة السكبية إلى
كعبة نجران وإلى كنيسة صنعاء ، ولكن أصحاب القبيل ارتدوا خائبين .

(١) وكان من أثر النصرانية في بلاد العرب أن مال بعضهم إلى الرهبنة ، وبناء
الأديرة ، فثلا حنظلة الطائي فارق قومه ونسك وبني ديراً بالقرب من شاطئ الفرات
وقرب فيه حتى مات ٥٩٠ م
وقد ذكر ياقوت في معجمه دير حنظلة وفيه يقول عبد الله بن محمد الأمين وقد
نزل به فاستطابه :

ألا يا دير حنظلة المفسدني لقد أورتني سقماً وكُداً (٤)

كما ذكر كثير من الأديرة في الحيرة وغيرها

(١) الأغانى ١٣٧/١٠ سامي ومعجم البلدان . نجران
(٢) الأغانى ١٣٥/١٠ سامي (٣) الأغانى ١٣٥/١٠
(٤) معجم البلدان ١٣٤/٤ وشعره النصرانية ٩٠/١

وقس بن ساعدة كان يسكن القفار ويتناول قليلا من الطعام وأميه بن أبي الصلت كان قد نظر في السكتب وقرأها ولبس المسوح تعبداً ، وعدى بن زيد حبيب النصرانية إلى النيمان .

(ب) وكان القسس والرهبان يعظون الناس في المجتمعات والأسواق ، ويذكرونهم بالبحث والحساب والجنة والنار ، ومن ذلك خطبة قس التي سمعها النبي عليه الصلاة والسلام في عكاظ ، ورواها (١)

وعما يدل على انتشار آرائهم أن القرآن الكريم يحكي كثيراً من أقوالهم ويفندها (ج) وكان منهم شعراء تجلت مسيحتهم في شعرهم

ومن الشعراء النصراني أمية بن أبي الصلت ، وعدى بن زيد ، وأبو قيس ابن الأسلت ، وقس بن ساعدة ، وسنعرض لآرائهم بالتفصيل في كلامنا على الحياة الدنية ، وكان أمية كثير العجائب ، يذكر في شعره خلق السموات والأرض ، ويذكر الملائكة ، ويذكر من ذلك ما لم يذكره أحد من الشعراء . وكان قد شام أهل الكتاب (٢) وقال فيه الأصمعي : ذهب أمية في شعره بعامة ذكر الآخرة ، (٣) ومن تعبير أمية الذي تمجلى فيه المسحة النصرانية قوله :

مجدوا الله وهو للمجد أهل ربنا في السماء أمسى كبيراً (٤)
وقد أشد النبي صلى الله عليه وسلم قوله :

الحمد لله ممسأنا ومصبجنا بالخير صبجنا رب ومسأنا

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن كاد أمية ليُسلم (٥)
ولدى الإصبع المدواني شهرة بالحلم والحكمة ، وله قصيدة جيدة في الشكوى

(١) قد التز لقدامة بن جعفر ٩٨

(٢) ابن سلام ١٠٣ (٣) الأغاني ١٢٥/٤ الدار

(٤) ديوان أمية ٤٣ (٥) الأغاني ١٢٩/٤ الدار

من ابن عمه يكل في بعض أبحاثها علم السرائر والجزء إلى الله تعالى :
إن الذي يقبض الدنيا ويسترها إن كان أغناك عني سوف يفتني
الله يدلكم والله يعلمني والله يجزيكم عني ويجزي
والله لو حكمت كفى مصاحبي لقلت إذ كرهت فرقي لها بيني^(١)
ومن استغطف عدى بن زيد العبادي للنعمان وقد حوسه :

أجل نعمي ربها أولكم ودنوي كان منكم واصطناري
أجل إن الله قد فضلكم فسوق من أحكما صلبا يزار^(٢)
وأبو قيس بن الأسلم الأوصي يقول إن الله هو المعين :

وأحرزنا المضام واستبحنا حي الأعداء ، والله المعين^(٣)
وقد سئل يحيى بن مثنى راوية الأعشى — وكان يحيى نصرانيا عباديا معمرآ وكان
يرى أن الأعشى قَدْرِي — من أين أخذ الأعشى مذهبه الذي يقين في قوله :
استأثر الله بالوفاء وبالعد ل وولى المسالمة الرجال
فقال : من قبل العباديين نصارى الحيرة ، كان يأتهم بشرى منهم الخمر
فلقنوه ذلك^(٤) .

(٤) وكثيراً ما شبه الشعراء بدمى الكائنات ، وقناديلها ، ونواقيسها ، ورهبانها
البح ... مما سنعرض له في الحياة الدينية .
فثلاً يقول المرفش الأكبر إن زقاء اليوم في هذه من الليل كدقات الناقوس
بعد الهدوء :

وتسمع زقاء من اليوم حولنا كما ضربت بعد الهدوء النواقس^(٥)
وجواس بن القحطل يشبه الشعري العبور بقنديل معلق في كنيسة :

(١) الأمل ٢٥٥/٦ — ٢٥٦ والأغاني ١٠٠/٣ الفار
(٢) البيان والتبيين ٢٨٥/٢ أحكاماً : شد
(٣) البيان والتبيين ٣٧٣
(٤) الأغاني ٢٦٨/٨ ساسي
(٥) الفضليات شاكر وعارون ٢٥/٢

وأعرضت الشعر السبور كأنها مطلق فتدليل عاتة السكتائس (١)
وبشر بن أبي خازم يهجو بني حذاء بأنهم عرج فأرجلهم كعصى الطلح، وعصى
الطلح معوجة، ويشبههم بالنصب المنزوعة في البيعة :

لله درُّ بني حذاء من نفر وكلُّ جبار على جيرانه كَلْبُ
إذا عدوا وعصى الطلح أرجلهم كما تنصب وسط البيعة الصلب (٢)

وعدى بن زيد العبادي يشبه الحسان بدمي الحاج في المحاريب :

كدمي الحاج في المحاريب أو كالمبيض في الروض زهره مستنير (٣)

(هـ) وأدخل النصارى ألفاظا وتراكيب لم تكن تعرفها العرب ، يذكرون أن
أمية بن أبي الصلت علم العرب : (باسمك اللهم) وأن قس بن ساعدة أول من
قال (أما بعد)

ويذكرون أن ورقة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة كان قد تصرف في الجاهلية
وكان يكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء أن يكتب (٤)

وبعد ، فإذا كانت اليهودية قد عجزت أن تصرع الوثنية الجاهلية ، فسكذلك قد
عجزت المسيحية ، لأنها لا توائهم طباع العرب الميالين إلى الثأر والانتقام ، والألفه
من الضيم ، وما من عربي يرضى أن يُدير لخصمه خده الأيسر إذا ضربه على
خده الأيمن .

بل إن النصارى في بلاد العرب تأقلنوا ، يخالفوا تعاليم المسيحية ، وشنوا

(١) المؤلف والمختلف الآدمي ٧٤ - (٢) البيان والتبيين ٥٤/٣

(٣) البيان والتبيين ٥٤/١ - (٤) الأغاني ١٢٠/٣ للمبار

الغارات ، وطأوا التارات ، ولذلك لما قدم عدى بن حاتم الثالث على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : أو لم نسكن تأخذ من قومك الرباع ؟ فقال : بلى فقال له عليه الصلاة والسلام : إن ذلك لم يكن يصل في دينك . فقال : أجل والله ، وأعلن عدى إسلامه (١) وطبعي أن الدين الذي لا يحل القتال لا يحل الفتنام .

الاتصال السياسي والحربي بالحبيشة

غزوات الأحباش اليمن وكندة . تأثير الأحباش في اللغة والأدب عن طريق مباشر ، وعن طريق اليمن .

- ٩ -

تعددت غزوات الأحباش لليمن ، فكانت الأولى في القرن الأول قبل الميلاد إذ نصرأبني همدان على ملك سبأ الشرعي ، فلم يغادر الأحباش اليمن بل أخذوا لهم قاعدة حربية هناك هي مدينة سمهرت ، واستقرت جاليات حبيشة باليمن منذ ذلك الحين (٢)

ثم حدثت غزوة حبيشة لليمن في نهاية القرن الثالث للميلاد ، انتخلص أهل سمهرت من يد شمير عرش ملك سبأ وريدان وحضر موت ، لأنه وسع مملكة في الجنوب ، وحمل على سمهرت . ونجحت الغزوة وساد الحبش بلاد اليمن منذ نهاية القرن الثالث الميلادي حتى القرن الرابع . ويؤيد ذلك أن النقوش العربية لم تذكر أي خبر عن حكام اليمن في هذه الفترة ، ولكن النقوش الحبيشية تلقب أحد ملوك الحبيشة في هذه الفترة (٣١٧ م) بألقاب منها ملك حمير وريدان وسبأ وسلحين (مأرب) وصيامو (تهامة اليمن) (٣)

(١) سيرة ابن هشام ٢٤٨/٤

(٢) بين الحبيشة والعرب ، عبد الحميد عابدين ٢٣ - ٢٦

(٣) المرجع السابق ٣٧ - ٣٤

ثم كان تشكيل اليهود بالمسيحيين في اليمن سبباً في نشوب حربين:
أما الأولى فقد روي أن دميانوس أو دهنوس ملك حمير اليهودي أمر بقتل
قائده أو أكثر من قوافل التجار الرومان الذين كانوا يجتازون اليمن إلى الحبشة،
فأوفى ذلك صدر ملك الحبشة إيدوج (حكم حوالي ٤٨٠م) وأوغر صدر امبراطور
الروم، فجدد على الملك اليهودي حملة انتهت بانتهزامه وقاتله، وولى الأحياش
والرومان أميراً نصرانياً على حمير، ولكنه لم يعيش طويلاً، فانتصر اليهود الفرس
لإقامة يهودي عليهم، وكانوا قد استعادوا بعض قوتهم، فولوا ذا نواس ملكاً على
حمير حوالي ٥٢٠م.

وأما الثانية فسببها أن ذا نواس اليهودي قد أغضب النصارى، وعدا عليهم،
وتختلف الروايات في سبب عدوانه، بعضها يرى أنه كان متصباً لدينه ويريد أن
يشره، فسار بجنوده إلى نجران ودعا أهلها النصارى إلى أن يتهودوا أو يقتلوا،
فاختاروا القتل فخذلهم الآخوذود وأحرقهم فيه^(١)، وبعضها يرى أنه فعل بهم ذلك
تأديباً لهم، لأنهم قتلوا ابنين لرجل يهودي من نجران اسمه دوس، وامتنعوا به
دوس هذا^(٢).

ومهما يكن السبب، فإن ذا نواس اليهودي نكل بنصارى نجران، فذهب أحدهم
إلى ملك الحبشة، وأعلمه ما حل بهم، ولعله أراد أن يستغفره ويستدر عطفه فعرض
عليه الإنجيل قد أحرقت النار بعرضه، فسكتب الملك الحبشي إلى قيصر وبعث إليه
بالإنجيل المحرق، فأمدته بسفن كثيرة. وفي رواية أخرى أن المستنجد من أهل
نجران اتجه إلى قيصر أول الأمر فأحاله إلى ملك الحبشة مع وصاية به وأمره بأن
ينصره ويطلب ثأره من بني عليه وعلى أهل دينه^(٣).

(١) سيرة ابن هشام ٣٥/١ وتاريخ الطبري ١٠٥/٢

(٢) الطبري ١٠٦/٢ وتاريخ ابن خلدون ٥٩/٢ - ٦٠

(٣) تاريخ الطبري ١٠٦/٢

ولا يجمع المؤرخون ولا الباحثون على أن ذا نواس هو صاحب الأخدود ،
فالتيسابورى يذكر ثلاث روايات آخرها أنه ذو نواس ^(١)
والطبرى يذكر فى تفسيره روايات كثيرة : منها أن أصحاب الأخدود كانوا
أهل الكتاب من بقايا المجوس وأنهم خالفوا ملكهم فى أمر فأحرقهم فى النار ،
ومنها أنه ملك - لم يذكر اسمه - أضرم النار فى الأخدود لإحراق قومه
المؤمنين بالله .

وما ذكره الطبرى أن أصحاب الأخدود هم الكفار الذين فتنوا المؤمنين : ذلك
أن طائفة من المؤمنين بالله اعتزلوا الناس فى الفترة ، فأراد جبار من عباد الأوثان
أن يدخلوا فى دينه فأبوا : فخذلهم الأخدود ^(٢) . ولم يذكر الطبرى فى تفسيره
ذا نواس ولا أهل نجران .

وقد أردت بإيراد هذه الآراء أن أفوى الشك فى نسبة الأخدود إلى ذى نواس
اليهودى ، لأن القرآن الكريم يورد القصة ثم يعقب عليها بهذه الآية : « وما تقموا
منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ، فكيف ينقم ذو نواس اليهودى من نصارى
نجران أنهم يؤمنون بالله ، وهو نفسه مؤمن بالله تعالى ؟

وقد اعترض باقوت مثل هذا الاعتراض ، فعجب من أن ينسب الأخدود إلى
ذى نواس ، لأن ذلك 'ينضى إلى أن يكون القاتل والمقتول من أهل التوحيد ،
والله قد ذم المحرق والقاتل لأصحاب الأخدود ، وأما خبر التزمذى أن الملك كان
كافراً وأصحاب الأخدود مؤمنين فصح إذن ، ^(٣)

ويرجع الأستاذ لوث Loth أن السورة لا تشير إلى هذه القصة ^(٤) ، وأن ما جاء
فى تفسير الطبرى مستندا إلى صحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم (ملخص ذلك أن

(١) تفسير التيسابورى . على هامش الطبرى ٦١/٣٠ - ٦٢

(٢) تفسيرى الطبرى ٨٤/٣٠ - ٨٦ (٣) معجم البلدان ٧/٢٦٢

(٤) بين الحبشة والعرب ٥٢ عن ZDMG, vol. 35, 1881. Pp. 619, 48,63

ملكاً كافراً انتقم من رعاياه المؤمنين بإحراقهم في الأخدود (إنما يعبر عن قصة استشهاد جرجيس Saint George^(١)) ، والعرب يعرفون هذه القصة من تقديم ، وقد ذكرها الطبري مفصلة في تاريخه^(٢) كما ذكرها مفصلة ابن الأثير^(٣)

وفي تفسيرى الطبري رواية عن ابن عباس أن أصحاب الأخدود ناس من بني إسرائيل خدوا أخدوداً في الأرض ثم أوقدوا فيه ناراً ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجلاً ونساء فمروا عليها ، وزعموا أنه دانيال وأصحابه^(٤) .

ويرى الأستاذ جيجر Geiger أن ثمة تشابهاً بين العبارات التي وردت في قصة تعذيب أصحاب دانيال في التوراة وبين ما ورد في سورة البروج . فسبحان نجد في السفر (في الإصحاح الثالث) عبارة (أنون نورا يافذتا) أى أنون النار المتقدة ، ولفظ قتل أى قتل مستعملاً في معنى الإحراق (الآية ٢٢ الإصحاح الثالث) فكذلك نجد القرآن الكريم يعبر عن أنون النار المتقدة بقوله (النار ذات الوقود) ويعبر عن الإحراق بقوله (قتل أصحاب الأخدود)^(٥) .

وأمام هذا الشك فليس لنا إلا أحد أمرين : إما أن نحكم بأن ذا نواس لم يكن يهودياً بل كان وثنياً ، وبذلك يكون قد انتقم من المؤمنين بالله وهو غير مؤمن ، وإما أن يكون حافر الأخدود غير ذى نواس ، وتكون حلة الخبيثة الأخيرة قد نشأت عن انتقام ذى نواس للرجل الذى استنصر به على أهل نجران الذين قتلوا ولديه ، ونشأت أيضاً لأن ذا نواس تولى بالرغم من إرادة الرومان والأحباش الذين كانوا قد ولوا أميراً نصرانياً على حمير ، وسكن اليهود انتهزوا موته وولوا ذا نواس اليهودى ، فأحس المسيحيون الذين يتقلون التجارة بالخطر المهدق بهم ، فانقطعتم القوافل عن اليمن ، ثم ساءت العلاقة سوءاً أدى إلى الغزوة الرابعة .

(١) بين الخبيثة والعرب ٥٤ (٢) تاريخ الطبري ١٨/٧ - ٥٥

(٣) السكامل في التاريخ لابن الأثير ١٢٨/١

(٤) تفسير الطبري ٨٥/٣٠ (٥) Wee hat Mohammed. p.192

وبذلك تهأت الأحوال لنزوة رابطة يفزوها الأبحاش ليحين
وفد الجيش الحبشي بقيادة أرياط ، وفي جنوده أبرهة ، ولقيهم العرب فانتصر
الأبحاش ، ولما رأى ذو نواس ما نزل بقومه وجه فرسه إلى البحر وخاض به إلى
أتباعه ففرق ، وانتقم أرياط من أهل اليمن شر انتقام ، ولم تسلم قصورها وحصونها
من حنقه فقد أخرج سَاحِينَ وَيَسْتُونَ وغندان ، وقد نعر الشعراء على خريها ،
من ذلك قول ذي جَدَن الحميري :

هَوَاتِكَ لَيْسَ يَرُدُّ النَّامِعُ مَافَانَا لَا تَهْلِكِي أَسْفَانَا فِي ذَكَرٍ مِنْ مَانَا

أَبْعَدَ يَبْنُونَ لَا عَيْنَ وَلَا أَثَرَ وَبَعْدَ سَلْحِينَ بَيْنِي النَّاسِ أَيْبَانَا (١)

ويرى هشام بن محمد أن القائد كان أبرهة ، وأنه لما انتصر أراد أن يستقل
باليمن ، فبعث إليه ملك الحبشة جيشا بقيادة أرياط لبحاربه ، وتبارزا ، فقتل أرياط ،
وشمر أنف أبرهة فسمى الأشرم ، ثم استعطف أبرهة الملك واسترضاه فرضى
وأقره على عمله (٢) .

وتزوج أبرهة امرأة عربية ولدت له ابنا اسمه مسروق .

ثم إن أبرهة - وكان ورعا في دينه النصراني - بنى القلبيس بصنعاء (٣) ، وهي
كنيسة لم يكن لها مثل ، وأراد أن يصرف الحجيج من العرب إليها ، ولكن رجلا
من بني فُقيم أو من بني مالك بن كنانة أحدث فيها حدثا أغضب أبرهة على أهل مكة ،
فسار إلى البيت الحرام ليهدمه . وسواء أصحت هذه الرواية أم لم تصح فإنه من
الطبيعي أن يحاول أبرهة أن يبسط نفوذه على الحجاز كما بسطه على اليمن ، وأن
يحاول نصير أهل الشمال الوثنيين ، نصرة لدينه المسيحي ، وتوسيعا للأسواق
التجارية التي ينافس الفرس والروم في امتسلاك نواصيا ، والحبشة كما نظم
رومانية الميول .

(١) تاريخ الطبري ١٠٧/٢ وسيرة ابن هشام ٣٦/١ ومجمع البلدان ٢٤٣/٢ والأغاني ١٦/١٠٦-٧٠-٧١

(٢) تاريخ الطبري ١٠٨/٢-١٠٩-١٠٨

(٣) تاريخ ابن خلدون ٦١/٢

كانت إذن غزوة الفيل، وكان من أغراضها أن ينصرف العرب عن الكعبة إلى كعبة نجران أو كنيصة صنعاء. ويختلف المؤرخون في زمن هذه الغزوة، فالذين يرون أن النبي عليه الصلاة والسلام ولد عام الفيل يحددون تاريخها بأنها كانت عام ٥٧٠ م، ولكن في السيرة روايات أخرى عن مولده صلى الله عليه وسلم، بعضها يذكر أنه ولد بعد عام الفيل بعشر سنين، وبعضها يرى أنه ولد بعده ثلاث وعشرين سنة، أو ثلاثين سنة، أو بأربعين سنة، وقيل بسبعين سنة^(١).

وكثير من الباحثين على أن غزوة الفيل كانت حوالي ٥٤٠ م، وأن استيلاء الفرس على اليمن كان في سنة ٥٧٠ م، وفي هذه السنوات الثلاثين حكم اليمن يكسوم ومسروق.

انتهى حكم أبرهة سنة ٥٤٤ م، حكم بعده ابنه يكسوم، فذلت حير وقبائل اليمن، ووطئتهم الحبيشة، فنكحوا نساءهم، وقتلوا رجالهم، واتخذوا أبناءهم تراجمة بينهم وبين العرب، ولما هلك يكسوم خلفه أخوه مسروق.

وكان ملك الحبيشة باليمن منذ دخلها إلى أن قتل الفرس مسروقا وأخرجوا الحبيشة من اليمن ثنتين وسبعين سنة^(٢).

ثم استنجد سيف بن ذي يزن أو معد يكر ب بن ذي يزن بالبراطور الروم فلم ينجده، فاستنجد بكسرى فأنجده، وفرض كسرى على سيف جزية وخرجا يؤديه إليه في كل عام، وكتب إلى قائده وهرز أن يعود إلى فارس^(٣).

وانتقم سيف من الأحباش شر انتقام، وأذلمهم، فاغتاله بعض حراسه من الأحباش الذين اتخذهم عبيداً وجمازين يسعون بين يديه بجرابهم^(٤)، فعاد وهرز إلى

(١) إنسان اليون ٦٥/١ (٢) تاريخ الطبري ١١٥/٢ وتاريخ ابن خلدون ٥٩٢-٦٠

(٣) تاريخ الطبري ١١٥-١٢١ (٤) تاريخ الطبري ١٢٠/٢

العين ، وقد أمره كسرى ألا يترك باليمن أسود ولا ولد عربية من أسود إلا قتله صغيراً أو كبيراً ، ولا يدع رجلاً جديداً قد شرك فيه السودان إلا قتله ، ففعل وهرز ذلك ، ثم أمره كسرى على اليمن وحكها الفرس حكماً مباشراً إلى أن جاء الإسلام .

أما تأثير الأحباش في الأدب الجاهلي فما لا شك فيه ، ولعل ذلك يتجلى من بعض ما نسوق من شواهد .

١ - أسلفت أن نجران كانت مركز المسيحية الحبشية في اليمن ، وقد تخرج في هذه المدينة شعراء وخطباء ، فثلاث بن ساعدة كان أستاذ نجران وكان خطيباً مشهوراً ، وقد سمع النبي صلى الله عليه وسلم خطبته في سوق عكاظ وهو على جمل أورق ، وهي خطبة حافلة بالحكمة ، في جمل قصار مسجوعة ، ومذيلة بأبيات من الشعر^(١)

ولم نعث على خطبة سابقة لها مذيلة بشعر ، مما يرجح لدينا أن هذا من تأثير الأحباش ، لأن رجال الكنيسة من الحبشة كانوا يذابون قصص حياة القديسين والشهداء بمقطوعات شعرية يشندونها عقب الفراغ من سرد حياة القديس ، ويسمونهم سلام ، لأنها تبدأ بلفظ سلام ، وتتناول الإشادة بأعمال القديس أو الشهيد ، وتجري في أواخر أبيات المقطوعة قافية واحدة^(٢) .

ب - وكان الأعمى يزور كل سنة بني عبد المدان فيمدهم ، ويقم عندهم بشرب الخمر معهم وينادهم ؛ ويسمع من أساقفة نجران قولهم ، وقد أخذ عنهم رأيه هذا :

(١) قد انظر لقدامة بن جعفر ٩٨

(٢) بين الحبشة والعرب ١٢١

استأثر الله بالبقاء وبالعدل وولى المسالمة الرجال^(١)
 ح - ومن تأثير الحبشة في الأدب العربي الغزل الفاحش ، لأن الحبشى قد
 اشتهر بهذا النوع من الغزل الذى ينتهى به إلى المجنون ، وهو إذا ما انفعل عبر عن
 انفعاله فى غير تخرج ، وكان العرب يعرفون فيهم هذا الطبع ، وقد قال النبى
 صلى الله عليه وسلم فى عيد الحبشة : « إن جاءوا سرقوا وإن شبعوا زنوا »^(٢) ،
 وروى أن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى اشترى الشاعر الحبشى مَحْمِياً ، وكتب إلى
 عثمان بن عفان إني قد اشتريت لك غلاماً حبشياً شاعراً ، فكتب إليه : « لا حاجة
 لنا فيه ، إنما حظ أهل الشاعر منه إذا شبع أن يشبب بنسائهم وإذا جاع أن يهجوهم »^(٣) ،
 وفى رواية أخرى أنه قال : « لا حاجة لى به ، إن الشاعر لاحريم له »^(٤) .

وفى بعض الأناشيد الدينية الحبشية نوع يسمونه ملسكى . وهو شعر يصف
 القديس أو الشهيد وصفاً دقيقاً من رأسه حتى أظفار أصابع رجليه ، وهو لا يتخرج
 من ذكر القبيح ، وهو يذكرنا بشعر نشيد الإنشاد فى التوراة^(٥) .

وإذا تفحصنا شعراء الغزل الفاحش الأولين وجدناهم إما أحباشاً وإما عرباً متأثروا
 بالأحباش ، فامرؤ القيس أستاذ هذا الفن الأول من كنده ، وكانت مقصد الغزاة من
 الأحباش ، غزاها أفلاس فى القرن الثالث الميلادى ، ثم أخضعها أبرهة ، وولى عليها
 يزيد بن كعبشة فى القرن السادس^(٦) ، وعمر بن أبى ربيعة أمه أم ولد من حضرموت
 أو من حمير أو من الحبشة ، وقيل إن الحبشية أم أخيه ، ويرى الأصفهاني أن الغزل
 إنما أتاه من اليمن ، فيقال غزل يمان ودل حجازى^(٧) ، وسحيم عبد بنى الحساس
 عبد حبشى اشتراه أبو سعيد فشبب بابلته عميرة وأفحش فى تشبيهه كقوله :

- | | |
|-----------------------------------|---------------------------|
| (١) الأغاني ١٠/١٣٦ ساسى | (٢) الأغاني ١/٦٥ الدار |
| (٣) الشعر والشعراء لابن تينية ١٥٢ | (٤) طبقات ابن سلام ٧١ |
| (٥) بين الحبشة والعرب ١٢٥ | (٦) بين الحبشة والعرب ١٢٣ |
| (٧) الأغاني ١/٦٦ الدار | |

وبقنا وسادنا إذ عُلجبانة
وهبت شمالا آخر الليل قرة
توسطن حنكنا وتنتي بمعصم
فما زال بردى طيبا من رداها
وحفت تهاداه الرياح تهاديا
ولا ثوب إلا درعها ورداها
على، وتعوى رجلها من وراثيا
إلى الحول حتى أتتهج البرد باليا^(١)

وهو القائل :

ولقد تندر من كريمة بعضهم
عرقي على متن الفراش وطيب^(٢)

وقد قتل انتقاء شره ، وعقبا له على نفسه في تشبيهه ، ولم ينس هذا الفحش وهو
ذاهب إلى مقتله ، فقد رأته امرأة كان بينه وبينها مودة ثم فسدت ، فضحكت شماته به ،
فنظر إليها وقال :

فإن تضحكي مني فيارب ليلة
تركنتك فيها كالثقباء المفرج^(٣)

وكان العرب ميالين إلى الزواج من الحبشيات والسود عامة ، فقد روى الأصمعي
أن رجلا قيل له : أي الرجال أخف أرواحا ؟ قال الذين أعزقت فيهم السودان .
وقال علي بن أبي طالب : من تزوج سوداء فطلقها فعلى مهرها . وكان أبو سازم
المدني ينشد :

ومن يك ممجبا ببنات كسرى
فإنى معجب ببنات حام^(٤)

و - وشيء آخر غير الغزل الفاحش هو التغالى في الفروسية ، لأن الأبحاش
صعب على القتال : خفاف الحركة ، والعرب يسمون ثلاثة من شعرائهم الفرسان أغربة
العرب : عنتر بن شداد ، وخفاف بن زغبة ، والسليك بن السليكة . أما عنتر فأمه زبيبة
أمة سوادم وطالما افتخر بشجاعته ودافع عن سواده

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ٧١ والأعاني ٢٠/٥ ساسى وأخبار النساء لابن تيم الجوزية ٤٣ .
علجبانة : شجرة معروفة الحنف : السكتيب من الرمل . أتتهج : أخفق وبلى
(٢) ابن سلام ٧١ (٣) الأعاني ٢٠/٥ ساسى وأخبار النساء ٤٣
(٤) عيون الأخبار ٤٠/٤ - ٤١

وأما خفاف فهو شاعر مخضرم ، وأمه نُدبة حبشية سوداء ، قال الأصمعي :
خفاف ودريد بن الصمة أشعر الفرسان . وقد زد على من عبروه سواد لونه بقوله :
كلانا يسوده قسومه على ذلك النسب المظلم
وأما السايك فهو من الصماليك الفتاكين ، وأمه السلوك سوداء ، وقد أكثر من
الفخر بفزواته وسلبه ، واشتهر بالعدو حتى زعموا أنه كان يسبق الخيل .

وقد شهد النبي صلى الله عليه وسلم للأحباش بالشجاعة والكرم ، وإن فهم لخلتين
حسنتين : إطعام الطعام واليأس يوم اليأس : (١)

هـ - على أن الأحباش الذين هاجروا إلى بلاد العرب أحراراً وأرقاء وغزاة ،
والعرب الذين هاجروا إلى الحبشة تجاراً ومهاجرين ، هؤلاء وهؤلاء كانوا حلقة
اتصال بين اليمن والعرب وبين الحبشة ، فدخلت في اللغة العربية كلمات حبشية أورد
السيوطي منها في الإتيان نحو ستة وعشرين لفظاً في القرآن الكريم ، وأكثرها
راجع إلى أورد دينية كالحواريزين ومناقق وفطر ومنبر ومحراب ومصحف وبرهان
والجلبت والطاغوت وطوبى (٢)

وقد نطق النبي صلى الله عليه وسلم ببعض كلمات حبشية ، كقوله وهو يصف أشراط
الساعة : (إن بين يديها فتنة وهرجا) ولم يعرف الصحابة معنى الهرج ، فسألوه ، فقال :
هو القتل بلسان الحبش .

وكقوله لأم خالد بنت خالد بن سعيد عندما قدمت من أرض الحبشة وكساها
خميصة (كساء له أعلام) وجعل يمسح الأعلام . بيده ويقول : (سنّاه ، سنّاه) أو
(سنة سنة) أي حسن حسن بلغة الحبش (٣) وفي الحبشية هرج بمعنى قتل ، وشناى
بمعنى جميل (٤)

(١) الأغاني ٦٥/١ البار (٢) الإتيان ١/١٢٧

(٣) الطراز المنقوش ١٤ وفتح الباري ٦/١٢٨

(٤) بين الطبعة والعرب ٨٩

واستعار العرب منهم ألفاظاً لأملحة القتال منها: المعابل وهي آلات حربية تشبه السهام والنبال، ففي الحيشية مجلبت جمعها معابل، ومنها المنروع، والوضف بالوضف أى الرمي بالقلاع^(١).

ومن الألفاظ التي استعارها العرب الدُّكْر، ففي لسان العرب: الدُّكْر لعبة يلعب بها الزنج والحيش^(٢)

والدُّرُقَّة والدركة، جاء في القاموس: الدركة كشرذمة لعبة للعجم أو ضرب من الرقص أو هي حيشية^(٣)، وفي اللسان قال ابن دريد: أحسبها حيشية معربة، وذكر الأزهرى أنه قرأ بخط شمر قال: قرىء على أبي عميد وأنا شاهد في حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه مر على أصحاب الدركة فقال: جدوا يابني أرفدة حتى يعلم اليهود والنصارى أن في ديننا فسحة^(٤). وفي المخصص: الدركة لعبة يلعب بها الصليانيون، وقيل هي لعبة الحيش^(٥)

و - ويذكر الدكتور بيرون في كتابه عن النساء العربيات الذي نشر بالجزائر ١٨٤٨ م أن معظم المشهورين بالغناء كانوا عبيداً، وأن العبيد قبل الإسلام كانوا على وجه الإجمال من الحيش أو الزوج، ولا يعد أن تكون القينتان المشهورتان باسم جرادتي عاد فتاتين حيشيتين^(٦).

ولم يكن من الحيشية قيان فحسب، بل كان منهم من يرقصون ويلعبون بالحرايب في المحافل والأعياد في الجاهلية وصدر الإسلام.

روى أنهم لعبوا بحراهم في المسجد، وكان النبي يستعرضهم والسيدة عائشة

(١) Noldke, 1,53,55 عن بين الحيشة والعرب ١١٢

(٢) اللسان مادة دكر (٣) القاموس المحيط مادة درقل

(٤) اللسان مادة درقل (٥) المخصص

(٦) بلال داهي السام - القواد ١٥٠

متكئة على منكبيه ، وأنهم زفرا (رقصوا رقصا فيه سرعة وسرعة متوالية) بين يدي الرسول ، وأخذ المسلمون عنهم بعض أنواع الرقص وهو الحجل الذي صنعه جعفر ابن أبي طالب لما قدم على النبي من الحبشة ، وكان الحثبي إذا سما مركزه بأقف من الرقص ، فقد مر نصيب الشاعر - بعد أن علت مكانته باتصاله بالخليفة عبد العزيز ابن مروان وبعد أن أعتق أمه ثم جدته لأمه ثم ابن خالته سحيم - بابن خالته سحيم هذا وهو يرفن ويتمرر مع السودان فأنكر عليه وزجره ، فقال له سحيم : إن كنت أعتقتي لآكون كما تريد فهذا والله ما لا يكون أبداً ، وإن كنت أعتقتني لتصل رجلي وتقضى حق فهذا والله الذي أفعله هو الذي أريده ، أرفن وأزمر وأصنع ما شئت ^(١) .

وفي اللغة القنين من أدوات الموسيقى عند الحبشة ، وآلات الموسيقى وثيقة الاتصال بالرقص كما نعلم .

وقد ذكر الجاحظ في رسالته « نضر السودان » ^(٢) ، كثيراً من ضروب تفوقهم في الشجاعة والكرم والرقص والنساء ، ومن إقبال البنين على الزواج من النساء الحبشيات ، والبن أشبهى النساء عندهم الحبشيات وبنات الحبشيات ، ^(٣) .

• • •

وبعد ، فقد رأينا أن العرب كانوا على صلوات بالأمم القديمة ، تقوى وتضعف ، ولسكنهم لم يمزجوا بأمة امتزاجاً يحدث آثاراً عظيمة عميقة في عقليتهم وأدهم أو معارفهم كما امتزجوا بالأمم في العصر العباسي ، وكما يمتزج بالغرب الآن .

(١) الأغاني ٣٣٩/١ الدار

(٢) مجموعة رسائل الجاحظ طبعة ساسي ص ٥٤

(٣) الرسالة السابقة ص ٧٥

وسبب ذلك أن الصحراء والجبال والبحار والمسافات كادت تقصدهم عن العالم القديم ، وأن عاداتهم وسميتهم الاجتماعية كانت تغار ما كان عليه جيرانهم ، ولذا لم تتقارب العقليتان ، ولم يكن أثر الاتصال عميقاً ، ثم إن الأمية كانت فاشية ، فاكتفوا بالنقل الشفهي لبعض الحكم والقصص والأمثال والحوادث والكلمات ، وهم إذ ذك يتخبرون ما يسرع حفظه ويسهل فهمه ، وقد يتور التحريف بعض ما ينقلون ، كالأمثال التي نقلوها ونسبوها إلى سليمان أو لقمان ، وبعض القصص المنقولة عن الفرس والروم .

شاعرة العرب

عوامل شاعريتهم - اعزازهم للشعر والشاعر . أمثلة على مكانة الشاعر وقبة الشعر .
من الأدلة على شاعريتهم كثرة ماخلفوا من شعر ، وهذا السكابر خاض أشعائه .

o o o

العرب أمة شاعرة ، ولا نقصد أن كل عربي شاعر ، وإنما نريد أن الشاعرية هبة
شائعة فيهم على تفاوت في عظمتها وضآلتها .

وقد كانت البادية مذكية لهذه الشاعرية ، فهي - وإن خلت من الجمال المصنوع -
غنية بالجمال المطبوع ، فهناك يزرع القمر وضاح الجبين بساما ، ويعت أشعته
الفضية للبدلج والساھر والسامر فيخطب لبه ، وتلمع النجوم سافرات ، وتومض
كأنها ماسات فتاغى وتناجى ، وهنالك السكون الرهيب الباعث على التأمل ، والبرّاح
الفسيح المتكشّف ، والحرية المطلقة ، وكل ذلك يولد في نفوس السكان الانطلاق
في التعبير والبوح بما في الضمير .

هنالك تجذب الأرض ، وينبسط الرمل ، ويصلدُ النجد والتل ، ولكن الطبيعة
تجود على بعض البقاع بالمطر والخصب فتنبت الوّاح ، وينزل الغيث فتعشوشب
الأرض ، فإذا مارأى البدوى الأرض اكتست بالخصرة بعد العرى ، وإذا ما أوى
بعد جهد الرحلة إلى الظل والمساء ملسكه الإعجاب والروعة ، وأحسن بما لا يحس به
من ألف رؤية الخصرة في الوادي الخصب .

وبلاد العرب بلاد النور ، حيث تسفر الشمس من المشرق إلى المغرب ، والنور
أثر في صفات الإنسان أكثر منه في جسمه ، وقد كان جوته يقول وهو يجود
بروحه : أريد نوراً أريد نوراً .

« ولزوم النور كزوم الأوكسيجين في الهواء ، وفي البلاد المنيرة الكثيرة
الضوء يفتق الذهن ويستيقظ التصور ، ويخفف العمل ، وفي البلاد المظلمة

ينجم الأسمى على القلوب ، ولا يجي الشعر ، فيها إلا بأسلام مضطربة متكلفة^(١) .
ثم إن اللغة العربية لغة شعرية غنائية ، لأنها حافلة بمترادفاتنا التي تسعف المعبر
وتواثيه بالقافية ، وهي دقيقة في دلالاتها ، غنية بأصاليبها وبجازاتها ، ثرية بمفرداتها
ومشتقاتها ، وفي كتاباتها رنين وسحر يلائم الشعر والموسيقى .

على أن العربي ذكي سريع البديهة متوفز الحس جياش العاطفة ، يحيا حياة قبلية .
ينافح عن شرف قبيلته ويذبح محامدها ، ويسبق خصومها بلسانه الحاد ، فهو كالمصد
يسجل مفاخر قبيلته وبجسمها ، ويقيد مخازي أعدائها ويضخمها ، وحياة القبائل في
عراك لا تخبر ناره إلا ريثما تفتعل .

ثم إنه حساس بأسره الجمال ، وليس له فن جميل يودعه أحلامه وآماله ، ويسبى
به وحدته ، ويؤنس وحشته ، ويحسبلى عبقريته إلا الشعر ، فهو حذاء الركب . وغناء
الماتح على البئر ، وأهزوجة المنصر ، وأغرودة العاشق . وسلاوى المسكروب
والمحروب ، هو متففس العواطف ويحتل القرائح ، فلا يحجب أن كان الفن الجميل الذي
اشتهر به العرب ، واحتفلوا بقائليه ، فرفعوا الشعراء مكانا عليا ، وبخاصة أنهم كانوا
لسن القبيلة يقومون منها مقام الصحف الحزبية من الأحزاب .

فإذا نبغ في القبيلة شاعر ، أتت القبائل فهأتها ، وصنعت الأظعمة ، واجتمع
النساء يلعبن بالزاهر كما يصنعن في الأعراس ، ويقبشر الرجال والولدان ، لأنه حماية
لأعراضهم ، وذبح عن أحسابهم ، وتخليد لمآثرهم ، وإشادة بذكورهم ، وكانوا لا يهتنون
إلا بفلام يولد ، أو شاعر ينبغ ، أو فرس تفتج^(٢) .

وكان أكثر الناطقين بالضاد يعتبرونه مثلا أعلى في العظمة والسمو ، إذ كان
شعرا امتدت جذوره إلى أعماق حياة الناس ، وشكل أفكارهم دون أن يحسوا ،
وجدد أخلاقهم ، وصاغ منهم من الناحية الأخلاقية والروحية شعبا قبل أن يحدد

الرسول (حلى الله عليه وسلم) فيجمع قبائله المتنافرة في أمة واحدة يتجه بها إلى هدف واحد .

ولم يكن الشعر في ذلك العصر ترفا لا يتعاطاه إلا قلة من الناس ، بل كان الوسيلة الوحيدة للتعبير الأدبي ، وكانت قصائد الشعراء - وهي لم تدون بقلم - تطير عابرة الصحراء أسرع من الرياح ، وتحدث أزرها العظيم في قلوب من يسمعونها . وفي خضم النضال والتفكك كان الشعر يصفى حياة ونشاطا على مثل عالية قائمة على المروءة العربية ، وصارت هذه المثل العالية رباطا بين القبائل ، فصاغت - عن قصد أو غير قصد - وحدة أهلية قائمة على أساس عاطفي^(١) .

والأمثلة كثيرة جداً لشعراء حووا أعراض قبائلهم ، وشعراء تشفعوا لقبائلهم أو لأفراد منها فشققوا ، ولشعراء حط بهمأؤم من شأن أعدائهم ، وشعراء رفعوا للوضع ووضعوا الرفيع ، وشعراء سما بهم شعرهم حتى نادى الماوك وكانوا من خواصهم الخ .

نعم كانت جودة شعر الحارث بن حلزة زأني إلى الملك ، فإنه أنشد عمرو بن هند قصيدته التي مطلعها :

أذنتنا بينها أسماء رب ثاو يَمْلُ منه الثَّوَاء

ويقال إنه ارتجلها بين يديه في شيء كان بين بكر وتغلب بعد الصلح ، وكان ينشده من وراء مبععة ستور ، فأمر برفع الستور عنه استحساناً لها^(٢) ثم أدناه وقره^(٣) وكانت مدحة الأعشى للمطائق تنويها به وتمجيداً له - بعد فقر وخمول ذكر - ذلك أن الأعشى قدم مكة ، وتسامع الناس به ، فأشارت امرأة المخلق عليه أن يسبق الناس إلى ضيافته ، فتحر له وسقاه ، وبالغ في إكرامه ومن معه ، فسأله الأعشى عن حاله وعياله فعرف البؤس في كلامه ، وذكر البنات ، فقال الأعشى كُفَيْتَ أمرهن ، وأصبح بهكاظ ينشد قصيدته :

Alliterary History of the Arabs, by Reynold Nicholson P. 72 (١)

(٢) الشعر والشعراء لابن نثية ص ٥٣ (٣) العدد ١/٢١

أرقت وما هذا السهاد المؤرق . وما بي من سُقم وما بي مَشَق
ورأى الخلق اجتماع الناس فرقت بسمع وهم لا يدري أين يريد الأعشى بقوله ،
إلى أن سمع :

نفي الذم عن آل الخلق ببنفة كحماية السيح العراقي تفوق
ترى القوم فيها شارعين ، وبينهم مع القوم ولداً من النسل دروق
لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار باليفاع تحرق
تُسبُّ لمفسورين بصطليهاها وبات على النار الندى والخلق
رضيحي لبات ندى أمم تعالفا بأسهم داج عَوْض لا تفرق
ترى الجلود يجرى ظاهره فوق وجهه كما زان من الهندواني روتق

فا أم القصبدة إلا والناس يسلون إلى المخلق يهتونه ، والأشراف من كل قبيلة
يتسابقون إليه يخطبون بناته ، فلم تمس منهن واحدة إلا في عصمة رجل أفضل من
أيها ألف ضمف^(١) .

وبلغ من تأثير الشعر أنه يستل الضغن من قلب القادر على العقوبة يشفي بها نفسه ،
فإن الطارث بن أبي شمر الغساني لما قتل المنذر الأكبر (ابن ماء السماء) في يوم أباغ
أسر جماعة من أصحابه ، فيهم شاس بن عبدة في تسعين رجلاً من بني تميم ، فقصده
علقمة بن عبدة ، ومدحه بقصيدته التي مطلعها :

طحا بك قلب بالחסان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب
وشفح في أخيه شاس بقوله :
فلا تحرمني نائلاً عن جنابة فإني امرؤ وسط القباب غريب
وفي كل حي قد خبطت بنعمة تحن لشاس من ندادك ذنوب

(١) العدد ٢٥/١ والأغاني ٧٧/٨ ساسي . السيج : الماء الجاري . الجابية : الحوض الضخم ورواية
السيح خير من الشيخ . دردي : أطفال . أسهم داج . رماد النار أو الدم وكلهما كان مما يقسم عليه

فقال الحارث : نعم وأذنية ، وأطلق شاسا وأسرى بني تميم ، ومن سأل فيه فيه الشاعر أو عرفه من غير بني تميم (١) .

ولاحقا قيس بن جروة الطائي — أحد الأحميين — عمرو بن هند لأنه أصاب نسوة وأذوادا من طيء ، وتهدده بقصيدة ، ثم استهان بوعيده بقصيدة أخرى غزا عمرو طيئا فأسر من رهط حاتم بن عبد الله ، وكان في الأسرى رجل من الأحميين يقال له قيس بن جعدر ، وهو ابن خالة حاتم وجد الطرماح بن حكيم ، فوفد حاتم على عمرو ابن هند ليشفع في الأسرى — وكذلك كان يصنع — فسأله إياهم ، فوجههم له ، إلا قيس بن جعدر لأنه من الأحميين من رهط قيس بن جروة الذي سمي العارق ، فقال حاتم :

فكسكت عدياً كلها من إسارها فأنعم وشفعني بقيس بن جعدر
أبوه أبي والأمهات أمهاتنا فأنعم فذلك اليوم نفسي ومعشري
فأطلتته (٢)

ثم من تأثيره أيضا أنه يهيم بصفات أو أعمال قد تكون افتراء وإدعاء ولكنها تلتصق بالشخص كأنها حقيقة ، أو تعلق بالقبيلة كأنها صدق . من ذلك أن العباسيين والعامريين اجتمعوا عند النعمان بن المنذر ، وكانوا يتنافسون في الخطوة عنده ، ولسكن العباسيين استأثروا بها ؛ لأن الربيع بن زياد العبسي كان يؤاكل النعمان ويناديه ويهون من شأن بني عامر ، وأحسوا أن النعمان قد استهان بهم وصد عنهم ، وعرفوا أن الربيع هو الموحى بذلك ، وكان معهم ليبد — وهو حدث — فدبروا مكيذة للانتقام من خصمهم الربيع . فدخلوا على النعمان والربيع يتغدى معه ، فهجاه ليبد هجاء مفحشاً ففر النعمان منه ، فأمره بالانصراف إلى أهله (٣) . وأخف ما في الهجاء قوله :

مهلا أبيت اللعن لا تأكل معه إن أمته من برص ملبسة

(١) المدة ٣١/١ خط : أعطى . دنوب : حظ ونصيب (٢) الأغانى ١٩/١٢٨

(٣) أمالي للرتضى ١/١٣٧

وما زال يعز زم للشعر والشعراء يتمنى مع الصور ، وحسبنا أن الشعر في صدر الإسلام - وقد اتهم المسلمون بالقرآن الكريم ، وشغلوا بتهنم الدين الجديد وبالجهاد في سبيل الله - كان على القدر ، وهل أدل على ذلك من أن النبي عليه الصلاة والسلام أذن لحيان بن ثابت أن يهجو كفار قريش ، وقال له : « اذهب إلى أبي بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ، ثم ارجعهم وجبريل معك »^(١) وقال له مرة : « إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما كاثت عن الله عز وجل وعن رسول الله »^(٢) وبني له منبراً في المسجد ينشد عليه الشعر^(٣) ، وروى عنه أنه قال : « أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان بن ثابت فثنى واشتفى »^(٤) .

وكذلك حرص عبدالله بن رواحة على هجاء المشركين ، ولما سمع منه قصيدته التي يقول فيها :

ثَبَّتَ اللهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنٍ تَبَيَّتْ مَوْسَى وَنَصْرَا كَالَّذِي نُصِرُوا
أَقْبَلَ عَلَى الشَّاعِرِ بِوَجْهِهِ مَبْتَسِمًا ، وَقَالَ لَهُ وَإِيَّاكَ ثَبَّتَ اللهُ^(٥)

ولم يكن التفقه في الدين وتقوى الله لتحول بين ابن عباس وطر به الغزل عمر بن أهدريعة وإصغائه إليه ينشده إياه في المسجد الحرام ، فقد أقبل عليه عمر وعنده نافع ابن الأزرق وناس من الخوارج يسألونه ، وأنشده قصيدته التي مطلعها :

أَمِنْ أَلِ نَعْمِ أَنْتَ غَادٌ فَبِكْرٍ غَدَاةٌ غَدَاةٌ أَمْ رَائِحٌ فَمُهْجَرٌ
فَأَنْصَتَ لَهُ حَتَّى انْتَهَى ، فَقَالَ لَهُ نَافِعٌ . اللهُ يَا ابْنَ عَبَّاسَ ، نَضْرِبُ إِلَيْكَ أَكْبَادَ الْإِبِلِ
مِنْ أَقْصَى الْبِلَادِ نَسَأَلُكَ عَنِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ فَنَتَمَاقَلُ عِنَا ، وَيَأْتِيكَ غَلَامٌ مَرْتَفٍ مِنْ
مَرْتَفِ قَرِيشٍ فَيَنْشُدُكَ :

رَأَتْ رَجُلًا أَمَا إِذَا الشَّمْسُ عَارَضَتْ فَيَخْزِي وَأَمَا بِالْعَشِيِّ فَيَخْصِرُ

(٢) الأغانى ١٣٤/٤ الدار

(٤) الأغانى ١٤٣/٤ الدار

(١) الأغانى ١٣٨/٤ الدار

(٣) المصنوع ٦/١ الدار

(٥) ملبقات الشعراء لابن سلام ٨٧

فقال ابن عباس : إنه قال :

رأت رجلاً ما إذا الشمس عارضت فيصنعي وأما بالشمى فيخصر
فقال نافع : ما أراك إلا وقد حفظت البيت ، قال : أجل وإن شئت أن
أنشدك القصيدة أنشدتك إياها ، قال : فإني أشاء ، فأنشده القصيدة حتى أتى
على آخرها (١)

وليس أدل على شاعرية العرب من هذا الفيض الغزير الذي وصل إلينا من
شعرهم في العصر الجاهلي ، على أن ما بقى سليماً من عوادى الدهر إنما هو بعض
ما قرضوا في زمن لا يبلغ قرنين من الزمان ، ومع هذا فإنه أكثر مما نظمت أية أمة
قديمة ، فالإلياذة والأوديسة هما معظم شعر اليونان في جاهليتهم ولا يزيد عدد
أبيتهما على ثلاثين ألفاً ، والمهابهاراته عند الهنود لاتعدو عشرين ألفاً ، والراما يانة
لاتزيد على ثمانية وأربعين ألفاً ، وأما العرب فيؤخذ عما بلغنا من أخبارهم عما نظموه
في نهضتهم الأخيرة قبل الإسلام أنه برهن على أضعاف ذلك ، وهم يعدون منظوماتهم
بالقصائد لا بالآيات (٢)

والحق إن ما خلفوه كثير يبعث الدهشة ، ويبعث الإعجاب بالرواة الخفاظ
الذين وعث حوافظهم هذا الفيض الغزير ، فمثلاً حدثوا أن حمادا الراوية كان يحفظ
سبعة وعشرين أو ثمانية وعشرين ألف قصيدة ؛ قال له الوليد بن يزيد الأموي يوماً
وقد حضر مجلسه : بم استحقت هذا الاسم فقيل لك الراوية ؟ فقال بأنى أروى لكل
شاعر تعرفه بأمر المؤمنين أو سمعت به ، ثم أروى لأكثر منهم ممن لاتعرفه ولا سمعت
به ، ثم لا ينشد أحد شعراً قديماً ولا محدثاً إلا ميزت القديم من المحدث . فقال له :

(١) الأغانى ١/٧٧ الفار . يضى : يبرز للشمس . بخصر : يبتدر
(٢) تاريخ المدن الإسلامى ٣/٢٤ بتصرف . فى حضارة الهند لجستاف لوبون صفحة ٤٥٣ أن عدد
المهابهاراته ٢١٥٠٠٠ بيت

فكم مقدار ما تحفظ من الشعر ؟ قال : كثير ، ولكنني أتشدك على كل حرف من
حروف المصحف مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام .
قال : سأمتنك في هذا ، ثم أمره بالإنشاد فأشدد حتى حنجر الوليد . فوكل به من
يسمع منه ويستوفى عليه ، فأشده ألفين وتسعمائة قصيدة للجاهلية ، وأخبر الوليد
بذلك فأمر له بمائة ألف درهم^(١) .

وقالوا إن أبا ضمضم كان يروى لمائة شاعر كلهم اسمهم عمرو ، وأن الأصمعي
وخلفاً الآخر لم يقدر أن يعد أكثر من ثلاثين من هؤلاء^(٢) .
وذكروا أن أبا تمام كان يحفظ من أشعار الجاهليين أربع عشرة ألف أرجوزة
غير القصائد والمقطعات^(٣) .

وروا أن الأصمعي كان يحفظ ستة عشر ألف أرجوزة^(٤) وأنه قال : ما بلغت
العلم حتى رويت اثنتي عشرة ألف أرجوزة للأعراب^(٥) ، وما تشك في أن هذه
الأخبار وأشباها تزيد أو مبالغة ، ولكنها - على ما فيها - صورة تقريبية لكثرة
ما خلف العرب الجاهليون من شعر .

على أن أكثر ما قالوا قد انطوى مع الزمن وتوارى في رمال الصحراء ، ولم يبق
منه إلا ما أمسكته الحافظة ، ووعته الأجيال ، أقرب قائله . أو لاتصاله بأحداث
ذات خطر ، أو لشهرة الشاعر نفسه الخ . وقد سبق ابن سلام إلى هذا بقوله : « وما
يدل على ذهاب العلم - بقصد الشعر - وسقوطه قلة ما بقي بأيدي الرواة والمصححين
لطرفه وعييد ، والذي صح لها قصائد بقدر عشر ، وإن لم يكن لها غيرهن فليس
موضعها حيث وضعها من الشهرة والتقدمة^(٦) »

ويضرب أمثلة آخر ، منها أن الناس أجمعوا على أن الزبير بن عبد المطلب شاعر ،

(١) الأغاني ١٦٥/٥ ساسي ووفيات الأعيان ١/١٦٤

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٦ والمقد الفريد ١٠٢/٣ المطبعة العلمية الصخرية

(٣) وفيات الأعيان ١/١٢١ (٤) الوفيات ١/٤٨٨

(٥) المقدم الفريد ١٠٧/٣ (٦) طبقات الشعراء لابن سلام ١٨

والباقي من شعره قليل^(١)، وأن أبا سفيان بن الحارث كان يقول الشعر في الجاهلية
ولكنه سقط ولم يصل إلينا منه إلا القليل^(٢). وروى عن عمر بن الخطاب أن الشعر
كان علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا
بالجماد ونحو فارس والروم، وطميت عن الشعر وروايته، فلما كثرت الإسلام وجاءت
الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر فلم يشأوا إلى ديوان مدون
ولا كتاب مكتوب، فأنفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل،
لحفظوا أقل ذلك وذهب عنهم منه أكثره^(٣)

وفي هذا يقول أبو عمرو بن العلاء: ما انتهى إليكم بما قالت العرب إلا أقله،
ولو جاءكم وافر أجماءكم علم وشعر كثير^(٤)

وبعد، فقد بلغ من إعجاب العرب بالشعر وتقديرهم للشعراء أن عزوا شعرهم
إلى شياطين أو حتى إليهم به؛ لأنه في رأيهم فوق قدرة البشر، ومستكلم عن هذا في
(العادات والمعتقدات).

(٢) الطبقات ص ١٦

(٤) الخصائص ١/٢٩٢

(١) الطبقات ص ٩٥

(٣) الطبقات ص ١٧

أولية الشعر العربي

أول شعر قبل مجهول ، الشعر الذي وصل إلينا ليس هو أول الشعر ، هو شعر فاضح ، ومنفوح .
تسمية بعض الشعراء بما يدل على سميات شعريهم . فسمية الفصحاء بما يدل على نجاتها . في الشعر الجاهل
فلمه ما ثبت أنه قد سبق بغيره . تنازع القبائل في أوبة الشعر .

o o o

من العبث أن نحاول الكشف عن بداءة هذا الشعر ، وأن نقب عن أول
طلائعه ، فقد توارت هذه الطلائع وراء طبقات من الاحتجاب الطوال لا يعلمها إلا الله .
ولسكن ذلك لا يمنعنا من تقرير أن أقدم شعر مما وصل إلينا قد قيل قبل الإسلام
بنحو مائتي سنة على الأكثر^(١) ، وهو شعر مقصد مطول ، فليس بمقول أن يكون
مثلا لطفولة الشعر وهو على ما زى من نضج في الأسلوب والموسيقى والمصنعي
والتصوير ، بل المقول أن يكون قد سبق بمحاولات اهدت بها الاحتجاب ، وتهددها
بالكمال جيل بعد جيل ، حتى وصل إلى هذا الكمال الذي زاه .

ونظرة إلى الشعر الجاهلي كهيئة بتوضيح الجهد الذي كان يبذله الشعراء في إنشاء
قصائدهم من وزن واحد وقافية واحدة ، ويطبعونها بطابع أسلوبي من خصائصه
التركيز والإيجاز والموسيقى ، ويطابع معنوي من خصائصه الخيال والتصوير ،
فالقصيد موسومة بقيود ، ومصبوغة بصيغة ليست للنثر ، ولذلك يقول جويدي
« إن قصائد القرن السادس الميلادي الجديرة بالإعجاب تنبئ بأنها ثمرة صناعة طويلة »^(٢)
وقد أشار الشعراء إلى أن الشعر فن يفتقر إلى تجويد وتنقيح ، وشبهوا القصاصد ببرود
العصب - ثياب جيدة محكمة النسج من اليمن - وبالخلل والمخاطف والديباج والوشى
وأشبابها^(٣) قال أبو قردودة يرثي عمار قتيب النعمان ويصف كلامه :

(١) الحيوان للجاحظ ٧٤/١ نمر هارون

(٢) عن الفن ومناقبه في الشعر العربي للدكتور شوقي ضيف

Guldi, Parodie Antéislamique, P. 47

(٣) البيان والتبيين ١٨٩/١ طبعة السندوني

يا جفنة كإزاء الخوض قد هدموا ومنطقاً مثل وَشَى الْبَيْتَةَ الْخَبْرَةَ^(١)
وكانوا مولعين بتفحيش شعرهم ، ومعاودة النظر فيه حتى يبرأ من العيب ، وأفرط
بعضهم في ذلك حتى إن الخطيئة قال : خير الشعر الحَوَلِيُّ المحكَّك ، وكان الأصمعي
يقول : زهير بن أبي سلمى والخطيئة وأشباههما عيب الشعر ، وكذلك كل من يجود
في جميع شعره ، ويقف عند كل بيت قاله ويعيد فيه النظر حتى يخرج أبيات القصيدة
كلها مستوية في الجودة^(٢) .

وقد وصف امرؤ القيس بن حجر ما يعانيه في اختيار أجود ما تفيض به شاعريته ،
فقال إن الأبيات تنال عليه ، ولكنّه يرد بعضها ويتمكن من نفسه فيكبحها كما يكبح
جواده ، وقد تخير من شعره ست قصائد جياد - وفي رواية عشراً - أو تخير من
قصيدة كان يتعاطى نظمها ستة أبيات ، وكان ينحى رديتها ويصطفى جيادها .

أذود القوافي عني زياداً زياداً غلام جريء جوادا
فلبا ككثرت وعينتي تخيرت منهن ستاً جادا
فأعزل مرجانها جانباً وآخذ من درها المستجادا^(٣)

وظل الشعراء بعد العصر الجاهلي يفخرون بتجويد شعرهم وتقبّحه ، ويعدون
ذلك من ضروب التفوق والذوق والدراية برائع القول ، قال سويد بن كراع العكلى
إنه كان يبدي الليل يتخير شعره ويتصيد المعاني الجيدة والقوافي الرصينة كأنه يصيد
قطيعاً من الوحش المسرعة وفرارها ، وهو يعانى القريض إلى السحر ثم ينام ، ووصف
الشعر بأنه محصى لم يستحوذ عليه إلا بأن يحجزه كما تحجز العصا الإبل في حظيرتها
بضربها على نحوورها وقوائمها ، وقد دعا إليه القوافي الغر فاستجابت سالكة إليه طريقاً

(١) البيان والتبيين ١/١٦٠

(٢) البيان والتبيين ١/١١٣

(٣) ديوان امرئ القيس ٦٣ ورواها الأمدى في الأثر الثابت

والمختلف لامرئ القيس بن الحارث بن معاوية السكندى ، ورواها المرزبانى في معجم الشعراء لامرئ
القيس بن بكر بن امرئ القيس بن الحارث ، ورواها بعضهم لامرئ القيس بن عباس السكندى ،
وكلهم جاهلي .

مهدا قد سلكته أنجوات لها من قبل ، وهي بعيدة المثال على غيره ، أو عميقة المنى بعيدة الخيال والتصوير ، ينزل ينشئها حتى يجهد ، وإذا ما غاب أن تجمعه أبيات سقيمة حبسها في صدره حتى لا تبرز للناس ، وقد جهد في تنقيحها حتى لا يعيبها عدو حه سعيد بن عثمان بن عفان ، وقال إنه مكث يماودها بالتنقيف عاما كاملا وديعا من العام التالي :

أيت بأبواب القوافي كأنما	أصا دي بها صرنا من الوحش زعا
أكلتها حتى أعرس بعدما	يكون سحير أو بعيد فأججعا
عواصي إلا ما جعلت أمامها	عصا مريد تفشى نحورا وأذرعنا
أهبت بغر الأبدات وراجعت	طريقا أقتسه القصائد أجمعا
بمسدة شأو لا يكاد يردعا	لها طالب حتى بكل ويظلعا
إذا خفت أن تردى على ردها	وراء التراقي خشية أن تطلعا
وجشمه خوف ابن عفان ردها	فتقفها حولا جريدا ومرعبا
وقد كان في نفسى عليها زيادة	فلم أر إلا أن أطبع وأسمعا ^(١)

• • •

هذا الجهد الفني الذي يبذله الشاعر يدل على أن الشعر كان قد صار فنا ذا قواعد وأصول وقواعد وسائل تجويد ، ولا ريب أنه لم ينشأ كذلك .

وبما يدل على أن الشعر الذي وصل إلينا قد نضج وصار فنا رفيعا أنهم أطلقوا على الشعراء أحيانا أسماء تدل على خصائصهم وميزاتهم ، فشلا نسمى 'طفيل الخيل (الحجبر) لأنه يزين شعره^(٢) ، وسمى زياد بن معاوية (النايفة) لنبوغه في شعره لالقوله : فقد نبغت لنا منهم شئون^(٣) ، وسمى عدى أو امرؤ القيس بن ربيعة (المهلل) لطيب شعره ورقته^(٤) أو لأن شعره مهلل مثل هلهلة الثوب^(٥) ، وهو اضطرابه

(١) البيان والتبيين ١١/٢

(٢) الفضليات طبعة ١٩١١/١ : ٤١٠ (٣) العمدة ١٣٧/١

(٤) الأغانى ٧٥/٥ الدار (٥) طبقات الشعراء لابن سلام ٢٢ ولسان العرب ١٢/٢٣١

واختلافه ، أو لأنه أول من أرق المراثي^(١) ، وسمى عاقمة (الفعل) لجودة أشعاره .
وأحلفتوا على القصائد نفسها أسماء كدل على امتيازها ، فسموها اليتيمات^(٢)
والسُموط^(٣) ، وسموها الحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكات^(٤) .

والقصيدة من الشعر ما تم شطر أبياته ، وفي التهذيب ما تم شطر أبيته .
سمى بذلك (١) لسكاله وصحة وزنه

(٢) وقال ابن جني لأنه قصد واعتمد .

(٣) وقيل لأن قائله احتفل له فنقحه باللفظ الجيد والمعنى المختار .

(٤) وقيل لأن قائله يجعله من باله فقصده له قصدا ، ولم يتخذه

حسبا على ما خطر بباله وجرى على لسانه ، بل روى فيه
خاطره ، واجتهد في تجويده ، ولم يقتضبه اقتضايا . فهو فحيل
عن القصد^(٥) .

ثم إننا نجد في الشعر القديم نفسه ما يدل على محاكاته لأقدم منه ، فاسرق القيس
يقف على الأطلال ليكي كما وقف من قبله وبكى ابن خذام أو خدام أو حجام :
عوجا على الطلل الخبيسل لعلنا نبكي الديار كما بكى ابن خذام^(٦)

وابن خذام هذا شاعر مجهول الزمن والشخصية يقول فيه ابن سلام : هو رجل
من طيء لم يسمع شعره الذي بكى فيه ، ولا شعر غير هذا البيت الذي ذكره امرؤ

(١) الأمل ١٢٩/٢

(٢) الأغاني ١٦٨/١١ ساسي

(٣) الأغاني ١١٢/١١

(٤) البيان والتبيين ٧/٢

(٥) لسان العرب ٣٥٤/٣

(٦) السمة ٥٤/١ طبعتهندية ولزوتلف والمختلف ١٠٩

القيس^(١) ونسب إليه أبو عبيدة هذا البيت من معلقة امرئ القيس :
حكاني غداة الين يوم تحملوا لدى سمرات الخري ناقص سنظل^(٢)
وزهر يتوهم أن ما يقوله هو وما صرود قد سبقهم إليه أسلافهم ، فهم يكررون
ما قد سبقوا إليه :

ما أرانا نقول إلا مسارا أو معدا من لفظنا مكرورا^(٣)
وعنزة يعلن في مطلع معلقته أن الشعراء السابقين قد استنفدوا المعاني ولم يدعوا
ما يمكن ابتداعه أو الزيادة عليه ، فهو إذن يحدث ، قد أدرك الشعر بعد أن فرغ
الناس منه ، ولم يغادروا له شيئا^(٤) ، وذلك إذا فسرنا التردم بأنه الإصلاح ، وإذا
فسرناه بأنه التزحم وهو ترجيع الصوت كان المعنى أنهم لم يدعوا غرضاً من أغراض
الشعر إلا فننوا بشعرهم فيه :

هل قادر الشعراء من مُتَرَدِّمٍ أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟
وليد يقول إن الشعراء يحاكون المرقش والمهلل :
والشاعرون الناطقون إذا هم سلسكوا طريق مرقش ومهلل^(٥)

• • •

ثم إن القبائل تنازعت أولية الشعر الذي وصل إلينا ، فادعت كل قبيلة لشاعرها
أنه الأول ، ادعت الجمانية أن امرأ القيس أول من أطل القصائد ، وقال بنو أسد
بل عبيد بن الأبرص ، ونسب التغلبيون الأولية إلى مهلهل ، وعزاها البكريون
لمرو بن قتيبة والمرقس الأكبر ، وادعاهم الإياديون لآبي دؤاد ، وزعم بعضهم أن
الأبوه الأودي أقدم من هؤلاء ، وأنه أول من قصد القصيدة ، وهو لاهم المدعى
لهم التقدم في الشعر متقاربون ، لعل أقدمهم لا يسبق الهجرة بمائة سنة أو نحوها^(٦)

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ٢١ (٢) المؤلفات والمختلف ١٠٩

(٣) الديوان ص (٤) العمدة ٧/١

(٥) البيان والتبيين ١٤٨/٢

(٦) الزهر ٢٩٦/٢ طيبة صبيح

وهم لم يتنازعوا في أول من قال الشعر ، ولا في قائل البيتين والثلاثة ، لأنهم لا يسمون ذلك شعرا ، وإنما تنازعوا في أول من نضج الشعر على لسانه ، وصار فناً جميلاً واضح الساطع ثابت الرسوم .

وإذا فإن لنا أن نشك في قول ابن سلام إن الشعر قد جعل يكتمل وتطول قصائده في عهد عبدالمطلب وهاشم بن عبدمناف ، ولم يكن لأوائل العرب من الشعراء إلا الأبيات بقولها الرجل في حادثة ، وإنما قصدت القصائد وطول الشعر على عهد عبدالمطلب وهاشم وعبدمناف ، ومن قديم الشعر الصحيح قول العنبر ابن عمرو بن تميم - وكان بجاورا في بهراء ، فراه ريب - :

قد رايتني من دلوى اضطرابها والنأي في بهراء واضطرابها
إلا تيجي ملأى بجي قرابها^(١)

ويذهب إلى أن المهمل أول من قصد القصائد ، وذكر الوقائع في قتل أخيه كليب وأتل الذي قتله بنو شيبان ، وكان اسم المهمل عديا ، وإنما سمي مهmlا لهللة شعره كهللة الثوب وهو اضطرابه واختلافه^(٢) .

(١) طبقات الشعراء ١٨ قراب : ما فراب أن يلاها والسبب في هذا القول أن العنبر بن عمرو بن بهراء انتقل مع أمه أم خارجة صغيرا لا تزوجها عمرو بن تميم ، فولدت ثلاثة اولاد ، فخرجوا جميعا يستقون فأزولوا ما عدا من تميم فكان يلا الولاء للثلاثة ويترك دلو العنبر تضطرب (تهذيب السكامل ١١٧/٢)
(٢) طبقات الشعراء ٧٧

نشأة الوزن والقافية

في الشعر العربي

عربيتها الخاصة . رأى ابن رشيقي في نشأة الوزن والرد عليه . رأى في نشأتها . مراحل حده
النشأة : السجع ، التفتي بالسكلام المسجوع . علاوة الشعر بالتمام . وما هو هذه الملافة . نشوء الوزن
والقافية .

- ١ -

نشأت الموسيقى الشعرية - الوزن والقافية - نشأة عربية خاصة بخالية من تأثير
أمة أخرى ، لأن الأوزان العربية ليست لأمة من الأمم القديمة ، ولأن السريان
القدماء كانوا ينظمون بغير أن يلتزموا قافية واحدة ، والبرانيين لم يلتزموا الوزن
ولا القافية ، وقد يشترطون القافية دون الوزن^(١) فيصير شعر البرانيين في صورته
الأخيرة شبيها بالسجع العربي ، ولهذا لما سمعوا القرآن الكريم - وهو ذو فواصل
وتصوير شعري - زعموا أنه شعر بالقياس إلى تصورهم للشعر .

ولا سبيل إلى احتمال أن الوزن العربي متأثر بالفارسي ، لأن الشعر الفارسي
التقديم كان يجهولاً للفرس أنفسهم حين خالطوا العرب ، بل لا يزال تاريخ الأدب
الفارسي إلى اليوم يجهول ما كان عليه الشعر الفارسي ، ولذا نشأ الشعر الفارسي الجديد
في القرن الثالث للهجرة على غرار الشعر العربي في موضوعاته وأوزانه وقوافيه مع
تحويل يسير ، حتى إن الفرس نقلوا الأوزان العربية وسموها بأسمائها ، ونقلوا
مصطلحات العروض كلها . وليس بصحيح ما مال إليه جرجي زيدان من أنه نشأ
متأثراً بشعر اليونان أو الرومان إذ قال : « امرؤ القيس أول من أطل القصاصد ،

(١) تاريخ التمدن الإسلامي ٢٣/٣

واقفٌ في نظامها ، وفتح الشعر ، وبكى ووصف ولعله تنبه لهذا الافتتان في أثناء أسفاره في بلاد الروم ، فسمع أشعارهم أو أشعار اليونان ، والتبته تفتق قريحته بالاختلاط ، فزاد اختباره ، فأدخل في الشعر ما أدخله ، وكان الشعراء في الجاهلية قلما يدخلون بلاد الروم ، وإنما كانوا يقفون على الحدود في اللقاء عند بني غسان ، أو في الحيرة عند بني لحم المناذرة إلا قليلا ،^(١)

وهذا رأى مردود : لأن امرأة القيس قد افتنَّ قبل أن يرسل إلى بلاد الروم افتتانه كله ، ولأنه قضى نعبه وهو عائد فضاع معه ما اقتبسه إن صبح أنه اقتبس شيئا ، ولأن القصيدة العربية كانت قد نضجت وكمل وزنها واستوت قافيتها قبل أن يرسل امرؤ القيس إلى قيصر بل قيل أن يولد ، فالمهلل مثلا خال امرؤ القيس وأسُنُّ منه وله قصائد جياذ طوال (توفي امرؤ القيس ٤٤٨م وتوفي المهملل ٤٥٦م) . على أن شعر اليونان والرومان خال من القافية ، والأوزان العربية غير أوزان اليونان والرومان ، والموضوعات نفسها متعارفة فليس في الشعر الجمالي ملاحم ولا مسرحيات كالتي عند اليونان والرومان .

- ٣ -

وقد قال ابن رشيق في نشأة الوزن العربي : إن العرب احتاجوا إلى الفناء بمكالم أخلافهم وطيب أعراقهم ، وذكر أيامهم الصالحة وأوطانهم النازجة ، وفرساتهم الأنجاد وسمحاتهم الأجواد ، فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام ، فلما تم لهم وزنه سموه شعرا لأنهم شعروا به أي فطنوا^(٢) .

ولكن هذا الرأي يُغضى إلى أن العرب اهتموا إلى الأوزان عن تعمد وقصد ومواضعه ، وليس هذا بشيء ؛ لأن نتاج الإلهام - والشعر إلهام - لا يخضع إلى

(٢) شعراء النصرانية ١٦٠٤١

(١) تاريخ الخلفاء الإسلامي ٢٤/١

(٣) العمدة ٥/١

المواضعة والمواقفة ، ثم لماذا توهموا هذه الأوزان عينيها ولم يتوهموا غيرها ؟ ولماذا لم يقتصروا على بعضها دون بعض ؟ وكيف تواضعوا عليها وانقشوا مع اختلاف ديارهم وتباعد أوطانهم وتختصر بعضهم وتبدى بعضهم ؟ نحن لا نقبل هذا الرأي ، فهل نستطيع أن نبدي غيره ؟ سنحاول ذلك راجين أن نهتدى إلى صواب .

١ - ما من شك في أن الناس تكلموا أولاً بالثر ومبيلة للثناهم وتحقيق المنافع ، ثم تألق بعضهم في تعبيره ، تسامياً بالقول أو تصويراً لعاطفة جياشة فازن كلامه اتزاناً نشأ منه السجع ، فأعجبه وقعه ، فأكثر هو وأمثاله من هذا الطراز ، وحببه إليهم ماله من تأثير في النفوس ورنين في الأذان ، ولهذا كان من خصائص الممتازين بالقول الرائع ، والمعبرين عن عاطفة ، والراغبين في التأثير والاستمالة كالرؤساء والسكبان والسحرة ، ليجتذبوا بموسيقاه قلوب الناس ويموهوا عليهم ويمتلكوا عواطفهم ويخدروا وعيهم ، وليحدثوهم بما يزعمون أنهم العليمون به ، فيسمع الناس عنهم مصدقين لما يقولون ، غسبير متبصرين في فقد ما يسمعون وتقصى معانيه ، ولذلك قد يلجأ السجاعون إلى نوع من الغموض فيحملون الكلمة أو الجملة عدة معان ، لينذهب السامعون في فهمها كل مذهب ، وقد يقحمون كلمات لا معنى لها ، وإنما جاءوا بها لوزن الكلام وترقيم الريقة .

وقد اتهم العرب النبي عليه الصلاة والسلام بأنه ساحر ، قال الكافرون إن هذا ساحر مبین ،^(١) وبأنه كاهن وشاعر ، وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن ، قليلاً ما تذكرون ،^(٢) لأنه يحدتهم بالقرآن الكريم فيسحرهم بيلاعته ، ويهرهم بموسيقاه ، وفواصله ، فهو في نظرهم صادر عن قدرة في النبي فوق قدرهم .

وقد تبنى الناس بهذا الكلام المسيوع ، لأنه أكثر ملاءمة للغناء والتلحين من غير المسيوع ، فنشأت الأوزان والقافية . وقبل أن نكشف عن طريقة هذه النشأة نهدم بكلمة في علاقة الشعر بالغناء عند العرب وغير العرب .

ب - ارتبط الشعر والغناء في النشأة الأولى ارتباطاً وثيقاً ، ولا قرابة في ذلك ، لأنهما مما يصدران عن المحافظة ويعبران عنها ، فواعك الغناء هي بواعث الشعر ، ثم إن الموسيقى تخصصية فيهما معا ، ففي الغناء موسيقى النغبات والألحان وفي الشعر موسيقى الألفاظ والأوزان ، ولذلك لا نعرف شعبياً تغنى بالثر ، لأن الناس إن تغنوا به أول الأمر لا يلبثون أن يحسوا أن الغناء بالكلام الموزون أولى وأكثر طواعية للتغيم والترنيم .

وظواهر هذا الارتباط كثيرة في الأدب العربي القديم وفي غيره من الآداب ، فقد كان شعراء العصر الجاهلي يفتنون شعرهم ويشدونونه وهم يلقونه ، كما روى أن المهلب شرب خمرًا وتغنى بقصيدته التي مطلعها :

طَفَّةٌ مَا ابْنَةُ الْمُحْسَلِّ بِيضًا لَعُوبٌ لِنَيْذَةِ فِي الْعُنَاقِ (١)

والسليك بن السليكة غنى بقوله :

يا صاحبي ألا لا حبي بالوادي سوى عبيد وآم بين أذواد
أنتظران قريبا ربث غفاتهم أم تغدوان فإن الرجح للغادي (٢)

وكان الأعشى ، يغنى في شعره ، فكانت العرب تسميه صناجة العرب (٣) ،

وكان يتردد على اليمن ويستمتع بالغناء ويشرب الخمر يقول لناقته :

وصكجة نجران حتم علي ك حتى تنأخي أبواها
نزور يزيد وعبد المسيح وقيساً هم خبير أرباها
وشاهدنا الجبل والياحية ن والمسمعات بقصاها
وبريطنا دأتم معمسل فأى الثلاثة أزرى بها ؟

(٢) الأغاني ١٨/١٣٤ ساسي

(١) الأغاني ٥١/٥ دار الكتب

(٣) الأغاني ١٠٩/١ الدار

وهؤلاء الذين ذكرهم أساقفة نجران ، وكان يزورهم ويصحبهم ، ويصحب السائب
والسيد وهما ملكا نجران ، ويقوم عندهما ما شاء ، يسقونه الخمر ويسمونه الغناء الرومي
فإذا انصرف أجزلوا صلته^(١) .

ومرود بن ضرار الديلمي أو أخوه جزة يقول في تديده أعدائه بالهجمة المفض:
إنه يفتحم الحصومة لا يبالى ، لأنه يتعرض في كل شيء ، أرلأنه ذو فتون وذو
حذق ، وعرف كقبل بأن يرميهم بأماج مرة يتغنى بها السارى ويصعد بها الأبال :

تقد علموا في سالف الدهر أنني معن إذا جد الجيراء وأبال
زعيم لمن قاذفته بأوابد بطنى بها السارى وتحدى الرواحل^(٢)
وأبو النجم — في البصر الإسلامى — يطلب من قينة أن تغنيه ببعض ما كان
يتغنى به امرؤ القيس أو عمرو :

تغنى فإن اليوم يوم من الصبا ببعض الذى غنى امرؤ القيس أو عمرو^(٣)
وظالت اللغة العربية محتفظة بلفظ الإنشاد للدلالة على إلقاء الشعر وإن لم يصاحبه
غناء ، مما يدل على صلة عريقة بين هذين الفنين ، قال حسان بن ثابت :

تغنى بالشعر إما كنت قائله إن الغناء هذا الشعر مضمار^(٤)

وقال ذو الرمة إنه يتغنى باسم حبيبه أى يشد الشعر فيها :

أصب المكان القفر من أجل أننى به أتغنى باسمها شمير معجم^(٥)

وقال المنبى في مدح سيف الدولة : إنه طائر غرد ، وإن الدهر يتغنى بشعره ،
وإن شعره يعنى به من ليس من شأنه الغناء :

(١) الأغانى ٦٩/١ — ٧٠ ساسى . ربط : عود ومعجم البلدان ١٧٩/٤

(٢) المفضليات ٢٨/١ من : يتعرض في كل شيء أو ذو فتون . الجراء : الجرى . السابل :
الماذق أو الرامى بالبال . أوابد : غرائب القول يريد بها الأهاجي المرة .

(٣) الشعر والشعراء ٤٢

(٤) العمدة ٢٤١/٢ والملاحى لضبي عطلوط بدار السكتب . يقول الضبي « الضيار هاجتنا مثل لأن
الضيار ليقبل إصلاحها وتزويقها وروايتها حتى تستوى ، تشبه إصلاح الغناء لوزن الشعر بذلك »

(٥) العمدة ٢٤١/٢

أجزني إذا أُنشدت شعراً فإنما أتاك بشعري المادحون مرّداً
ودع كل صوت غير صوتي فإنني أنا الصائح المحكي والآخر الصدى
وما الدهر إلا من رواة قصائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً
فسار به من لا يسير مشعراً وعنى به من لا يفنى منسرداً^(١)
وما زال الناس يطلقون على الرجل الذي يتقدم في الحافل قصصاً شريفة كمنقرة
وأبي زيد اسم للشاعر ، وهو لا يلتقي شعراً فحسب ، بل يتفنى به على الرابة .

قال عمر بن الخطاب للنايفة الجعدي : أسمعني بعض ما عفا الله لك عنه من غنائك
فأسمعه كلمة له . قال له : وإلك لغائفا ؟ قال : نعم . قال عمر : لعلما غنيت بها خلف
جمال الخطاب^(٢) .

« وكان الغناء في الصدر الأول من أجزاء هذا الفن ، لما هو تابع للشعر ، إذ الغناء
إنما هو تلحينه ، وكان الكتاب والفضلاء من الخواص في الدولة العباسية يأخذون
أنفسهم به حرصاً على تحصيل أماليب الشعر وفنونه »^(٣)

يقول المرزباني : كانت العرب تفتن النصب ، وتمد أصواتها بالنشيد ، ووزن
الشعر بالغناء : قال حسان :

فتن بالشعر إما أنت قائله إن الغناء لهذا الشعر مضمار^(٤)

« ونحن نعلم أن الأوزان قواعد الأختان ، والأشعار معايير الأوتار »^(٥)

على أن شعراء العصر الجاهلي أكثروا من التحدث بالمغنيات ، ولا سيما بعد أن
قوى اتصال العرب بالفرس والروم والأحباش وكثرت القيان في بلاد العرب ،

(١) الديوان ١٩٣/١ شرح البرقوقي

(٢) المغنن الفرزدق ٤٠/٤ الأزهرية

(٣) مقدمة ابن خلدون ٤٨٨

(٤) المغنن الفرزدق ٢٩

(٥) المدينة ٩/١

قال طرفة في مملقته إنه شرب الخمر هو وندماؤه وأطربهم قينة حسناء رحية الصوت :
 ندماى بيض كالبحوم وقينه روح إلينا بين برد وبجسد
 رحيب فطلاب الجيب منها رقيقة بحس الذنابى بعنسة المتبرد
 إذا نحن قلنا أممينا انبرت لنا على رساها مطروفة لم تشدد
 إذا رجعت في صورتها خلت صوتها تحابوب أظفار على ربح ردى^(١)
 وقال امرؤ القيس إنه إن صار مكروباً فقد طالما فرج همه بسباع مغنية تمزق
 على عود :

وإن أمس مكروباً فيارب قينة صنعنا أعلناها بكران
 لها مزهر يعلو الخيس بصوته أجش إذا ما حركته يدان^(٢)
 وهو صاحب أخبار في اللور والخمر والغناء ، فقد روي أنه لما طرده أبوه كان
 يسير مع جماعة من شذاذ العرب ، فاذا صادف غديراً أو روضة أو موضع صيد
 أقام فذبح لمن معه في كل يوم ، وخرج إلى الصيد فتصيد ، ثم عادياً كل وأكلوا معه ،
 وشرب الخمر وسقاها ، وغنته قبانة^(٣) .

وقد افتخر سلامة بن جندل بمخيتهم البيضاء الحسنة الفلجاء النفيسة :
 وعندنا قينة يضاء ناعمة مثل المياة ، من الحور الخرايعب
 تجرى السواك على غر مفاجنة لم يقرها دنس تحت الجلايب^(٤)

ويظهر ان الخمر كانت تصحب بالغناء في الأعم الأكثر ، فهذا عمرو بن الإطناية
 يفخر باحتساء الخمر المصفاة وبسماع القيان العازفات على الدفوف لفتيان القبيلة ، حدث
 أبو الفرج أنه دعا بشرابه وقبانه فغنين له قوله في رثاء خالد بن جعفر لما قتله
 الحارث بن ظالم :

(٢) ديوان امرئ القيس ١٨٧ السندوي
 (٤) الفضليات ١١٨/١ لم يفرها : لم يلقى بها

(١) ديوان طرفة ٢٨ - ٢٩
 (٣) الأغاى ٨٧/٩ البار

عسلاني وعلا صاحبيسا واسقياني من المرزوق ربا
إن فينا القيان يمزقن بالدف (م) لفيسانا ويجيشأ وخيا^(١)

وهذا علقمة يفخر بأنه يتادم على الخمر ويستمتع إلى المزهر :

قد أشهد الشرب فيهم مزهر ريم^(٢) والقوم قصرعهم صباه خرطوم^(٣)
وعدد عهد يفوث من مهاخره في ماظيه الذي يتحصر على حرمانه منه وهو في
الأسر أنه كان يطرب فبشق رداءه، بين التينين وينحر للذام مطيته :

وأخمر للشرب المكرام مطيتي وأصدع بين التينتين رداثيا^(٤)
وكان يجلس الشراب والغناء يمتد إلى الهزيع الأخير من الليل، قال كسب بن
الأسرف في نغره :

ولنا بر رواء جمعة من ردها ياناء يعترف
ونخبل في قلاع جمعة تخرج التمر كأثال الأكف
وصرير في بجالي خطة آخر الليل أهانج يدف^(٥)

وارتبطت نشوة الخمر ولذة الغناء بالمنعة بالنساء، فهذا برج بن مسهر الطائي يفخر
بالخمر وسماع القيان، فتداعى في ذهنه خواطر اللذات، فيفتخر بالاستمتاع بالنساء
الحسان المنجات اللاتي يغسلن بالماء الحار :

وفينا مسمعات عند شرب وغزلان^(٦) يمد لها الخميم^(٧)
ولقد يقال إن القيان كن يفتنن حقيقة، ولكن هل غنين بالشعر؟ نعم، فقد
فصل عبدة بن الطيب ما أحمله غيره، فقال إن التينة كانت تطربهم ببناء الشعر الرائع
الذائع، فهم في نشوة من تطربها، وفي طرب من الشعر، وهم لذلك يمتدحونها
ويخلعون عليها :

(١) الأغانى ١٦٤/١ الدار (٢) المفضليات ٤٠٣/٢ الخرطوم : أول ما ينزل منها وهي صافية .
(٣) المفضليات ١٥١/١ (٤) طبقات الشعراء لابن سلام . صرير : صياح . خفة : خمر
(٥) الخلسة ٨٣/٢

ثم اصطبحت، كنبينا قرّةاً ألقا
من طيب الراح، واللذات نليل
صرفاً، مزاجاً، وأحياناً يملنا
شعر صتكم مذهبه السبان يقول
تُدري حواشيه جيداً آفسة
في صوتها لسماع الثرب ترتيل
تغفو علينا فقلوبنا ونصفدها
تلقى البرود عليها والسراويل^(١)

وكان بمكة قيتان فارسيتان لعبد الله بن جدهان تفتيان الناس^(٢)، وكان بالمدينة
قينة أوحى إليها أهل المدينة أن تغني النابضة بقصيدة من شعره فيها إقواء فتبتط له
وأصلحه^(٣)، وكانت هريرة - مشوقة الأعشى - وأختها خليدة قينتين لبشر بن عمرو
ابن مرثد، وكانتا تفتيانان بالنصب، وقدم بهما اليمامة لما هرب من اليماني^(٤).

وقد تحدث حسان عن بعض لياليه عند جيلة بن الأجم في الجاهلية: فقال إنه سمع
عشر قيان: خمس روميات يفتين بالرباط وخمس يفتين غناء أهل الحيرة، وكان يفتد
إليه من يفتيه من العرب من مكة وغيرها^(٥).

وكانت الأمهات يفتين بالشعر وهن يرقصن أطفالهن، من ذلك قول منقوسة
بنت زيد الخليل وهي ترقص ولدها:

أشبهه أحمى أو أشبهن أباً كما
أما أبي فلن تسال ذاككا
تقصّر عن مناله يداككا^(٦)

وهن يكنين على موتاهن بغناء حزين هو الزواح، وكان نواح كثيرات عنهن
شعراً كما ناحت الحنساء على أخويها، وكما ناحت هند بنت عتبة على أبيها وعمها
وأخيها^(٧).

وكن يفتين في الممارك لبشجعن الرجال على الاستبسال، كما غنت إحداهن في
يوم ذي قار.

(١) الغضائيات ١٤٣/١ فرغف: ترعد شارها وتزهه. أنف: لم يصرها أحد قبله. السبان:
وشي مغارب عجم. محول: مروي. تدرى: ترفع أو تسقط حواشي أغانيها نظرياً وترجيماً. نصفدها:
نطاليا (٢) الأغاني ٣٢٧/٨ الدار (٣) الأغاني ١٥٧/٨ ساسي
(٤) الأغاني ٧٧/٨ ساسي (٥) الأغاني ١٤/٦ ساسي
(٦) الأغاني ٣٨/٣ الدار (٧) الأغاني ١٢٩/١٣ ساسي

لأن تَهْرَبُوا نفاقاً ونفرش الفسارِق
أو تهربوا نفاقاً فراق غمير وامق^(١)

وطالما غنى الرجال بشعر حماسي وهم يجارِبون ، كما فعل عُصَيْر بن الحُمَام إذ سمع
النبي صلى الله عليه وسلم يحرض المسلمين على قتال المشركين في بدر ، ويعدهم الجنة ،
فقاتل القوم حتى قُتِل ، وهو يقول :

ركضنا إلى الله بغير زاد إلا التقي وعمل المصَاد
والصبر في الله على الجهاد وكل زاد عرضة النفاذ
غير التقي والبر والرشاد^(٢)

وكما قال أبو البختري حين نازله المهْجَر في الغزوة نفسها - وكان المهْجَر أنصبره
أن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن قتله ، ولكنه قاتل دفاعاً عن زميله الذي
أبى المسلمون إلا قتله - :

لن يُسَلِمَ ابنُ حرةٍ أحسبُه حتى يموت أو يرى سبيله^(٣)

وفي سيرة ابن هشام في غزوة خيبر أن مَرَحِباً اليهودي خرج من حصنهم قد
جمع سلاحه يرتجز بقوله :

قد علمت خيبر أني مَرَحِبٌ شاكي السلاح بطل محرَّب
أطمئن أحياناً وحيناً أضرب وإذا اللوث أقبلت مُحَرَّب
إن حماي للهَمي لا يُقَرِّبُ يُججم عن عوتني المحرَّب
وهو يقول : من يبارز ؟ فأجابه كعب بن مالك بقوله :

قد علمت خيبر أني كعبٌ وأنتي متى تُسبُ الحرب
ماضٍ على الهول جرىء صلبٍ معي حسام كالعقيق عَضْب

(١) سيرة ابن هشام ١٣/٣ بحج الدين والأغانى ٣٤/٤ - ساسي

(٢) تاريخ الطبري ٢٨١/٧ - ٢٨٢ (٣) الطبري ٢٨١/٢ - ٢٨٢

بكتف ماض ليس فيه عتبٌ نذكركم حتى ينال التسبب^(١)
 وفي غزوة أحد أعلم أبو دهبانه نفسه مصعب رأسه بمصانفه الخرام، وخرج
 وهو يقول :

أنا الذي عاهدتني خليلي ونحن بالفتح لذي الخيل
 ألا أقوم الدهر في الكيول أضربُ بسيف الله والرسول^(٢)

وحدثت السيدة عائشة أن سعد بن معاذ مر عليها - وهي في حصن من حارثة
 يوم الخندق وأم سعد معها - وعليه درع مقلصة قد خرجت منها ذراعه كلها، وفي
 يده حربة يصرع بها ويقول :

لُبٌّ قليلًا يشهد الهيجا جملٌ لا بأس بالموت إذا بان الأجل
 فقالت أمه : الحق يا بني فقد والله أخرت^(٣) .

وما يدل على غنائمهم أمام الجيش قول درهم بن يزيد في قصيدة يهدد بها
 مالك بن النجبان :

لاصبحن داركم بندي لجب جؤن له من أمامه عرْف^(٤)

وكانوا يتفقون بالشعر فرادى ويتفقون به جماعات . فقد روى عن أنس
 ابن مالك وعن السيدة عائشة أنه لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة جعل
 النساء والصبيان وذوات الخدور يتنبن بقولهن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
 وحب الشكر علينا ما دعا لله داع
 أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع^(٥)

(١) سيرة ابن هشام ٣/٣٨٣ والغازي الوائلي ٣٩٠

(٢) ابن هشام ٣/١٣٠١١٣ يميل لك أن الرسول أعطاه سيفاً يطارب به العدو حتى يتخفى

(٣) الطبري ٣/٤٩ (٤) الأغانى ٣/٢٢ (٥) السيرة الحلبية ٢/٤٨

وبنو النضير لما أتت بهم النبي عن المدينة نحرهم وأرهمون خير دهم يضربون
يدفوف، ويضربون بالمزاهر^(١).

وفي حفر الخندق رأى النبي عليه الصلاة والسلام ما بالصحابة من تعب
وجوع، لأن الزمن كان عصاة والعام عام مجاعة فقال متمثلاً بقول ابن رواحة:
اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة
وأجابه الصحابة بقولهم:

نحمم الذين بايعنا محمداً على الجهاد ما بقينا أدياً
وقال صلى الله عليه وسلم متمثلاً أيضاً بقول ابن رواحة، وهو ينقل التراب...
وقد وارى الغبار جلد بطنه الشريف:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلنا سكينتنا علينا وثبت الأقدام إذ لاقينا
والمشركون قد بنوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا
وكان يمد صوته ويكرر أبيتنا، أبيتنا

وروى أنه صلى الله عليه وسلم لما بدأ الحضر في الخندق قال:

بسم الإله وبه بدينا ولو عبدنا غيره شقينا

يا حسنا رباً وحبب ديننا^(٢)

ويروى ابن هشام أن المسلمين كانوا يرتجزون برجل من المسلمين يقال له جعيل
سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عمراً فقالوا:

سماه من بعد جعيل عمراً وكان للبايس يوماً ظهراً

فإذا مروا بعمرو قال رسول الله (عمراً) وإذا مروا بظهر قال (ظهراً)^(٣).

• • •

(١) الأغانى ٣٨/٣ الدار

(٢) سيرة ابن هشام ٣٣٢/٣

(٣) السيرة الحلبية ٣٣٢/٢

ولم يكن الشعر العربي وحده هو المتصل بالثناء منذ الإصالة الرابطة فقد كان الشعر اليوناني كذلك ، ولهذا أطلق اليونان على الشاعر كلمة *Aoides* أى المغنى فى القرن الثانى عشر والحادى عشر قبل الميلاد ، وكان هوميروس يفتن بالإلياذة على آله موسيقية خاصة ، ولم يكن المغنى بالشعر عند اليونان رفقا على نوع معين منه ، فقد تنفوا فى ساجاة الآلهة ، وفى مدح الملوكة ، وفى إلقاء القصص ، وكان الشعر التمثيلى يوضع حواراً وأناشيد غنائية . وعلى أن الشعر الغنائى اكتسب هذه التسمية من نسبته إلى كلمة *Lyre* وهى آلة موسيقية قديمة ، فسمى *Lyric poetry* أى الشعر الغنائى^(١) وكان أرسطو يرى أن الشعر الغنائى مرتبط أشد الارتباط بالموسيقى^(٢) .

ثم نشأت بأوروبا فى العصور الوسطى جماعات من الشعراء الجوالين يطوفون بالبلاد ويتغنون بشعرهم ، وقد أطلق عليهم فى غربى أوروبا ووسطها التروبادور *Troubadour* وسموا فى شرقها المينسجر *Minnesinger* ، وفى اللغة الإنجليزية كلمة *Bard* معناها الشاعر المتمد الذى يؤلف الشعر ويغنيه ، وهو يحمل معه أداة موسيقية يعزف عليها حين يلتقى شعره ويغنيه .

ح - وما من شك فى أن الغناء يقتضى أن يكون الكلام الذى يغنى موزوناً ، لأن الغناء ينبعث عن عاطفة ، والمنفعل يتغنى بعاطفته غناء ملائماً لها ، ولذا فإن الموسيقى الشعرية لا بد أن تلائم الحالة النفسية للقاتل . يقول الناقد الإنجليزى جريننج لامبورن *Greening Lamborn* : « إن الموسيقى خارجية وداخلية ، والعروض يتكفل بالتارجية ، أما الداخلية فتتكفل بها مقاييس صوتية فى داخل النفس أكثر مرونة وشمولاً من العروض »^(٣) .

فالوزن ظاهرة طبيعية للعبارة ما دامت تودى معنى انفعالياً ، وعلم النفس يقرر أن الإنسان المنفعل تبدو عليه ظواهرات جثمانية عملية كاضطراب النبض

(٢) قواعد النقد الأدبى - لاسل كرومى ٧٠

(١) أصول النقد الأدبى ٣١٨
Radements of Criticism (٣)

ويذهب الحركة أو قوتها وسرعة التنفس أو بطنه وحركة الأيدي قبضاً وبسطاً ،
وهذه نفسها دليل على ما في النفس من قوة متاركة ، وذلكة التي تصور هذا الانفعال
لا بد أن تكون موزونة ، ذات مظاهر لغوية متباينة لتلائم معناها وتكون
صداه الصحيح ،^(١)

•••••

والغناء كان من دأب العرف، وهو يقطع المسافات الطوال على ظهر راحلته ،
تمشي به مشددة أو سهلة ، وهو على ظهرها يهز هزات تبطيء وتسرع وتطول
وتقصر ، وكان الغناء من دأبه وهو يهجم في الحرب فيجري أو يثب ، ومن دأبه
وهو يمتح الماء من البئر فيرفع وينخفض ، ومن دأبه وهو يرقص ، ومن دأبه وهو
يزاول عملاً تصحبه العاطفة وتوزنه التسلية ، تنزل به النازلة فينفس عن نفسه بالغناء
وتبسم له الحياة فيصور حواره في غناء ، وهو إذ يغني يتشبع صوته وفقاً لحركات
جسمه وهزات نفسه ، وتتقطع كلماته ومقاطعته إلى أجزاء منزلة منسجمة ، لأن صلة
الغناء بالشعر من شأنها أن تحدث ذلك .

فهذه اللحمة التي وصلت الغناء بالشعر تخولنا أن نقول إن النغني بالكلام المنثور
عسير ، لأنه لا يطاوع الترتيب ، ولا يلين للترنيم ، وبذلك لا تستطيه الأذن ولا
يستسيغها اللسان . فمن الطبيعي أن يغني الناس بكلام موزون يسائر ألحان الغناء ،
وتعرب له الأذان ، وهم لذلك قد تغنوا بالسجع لما فيه من موسيقى الوقفات ، ثم
حاولوا أن يخضعوا هذه اللغة المسجوعة إلى النغنيات التي تطابق العاطفة ، وتطاول
النغني ، فتعبروا الكلمات المنسقة مع النغم الذي في النفس . وتصرفوا في بعض
الكلمات بتعريك الساكن وتسكين المتحرك ، وقصر الممدود ومد المقتصور ، وترنيم
بعض الأسماء ، وتووين ما لا ينون ، إلى غير ذلك مما يمد ضرورات شعرية ،

وتصرفوا أيضاً في الأوزان نفسها بخلاف وزيادة وتحريك ونسكين، مما يبد من
 الإساقات والعلل العروضية. فصارت اللغة التي يتفق بها الناس لغة موزونة ثلاثية
 حركاتها وسكناتها ومداتها ووقفاتها الأنغام التي يتفقون بها، والألحان التي يرجعونها
 والنفس وهو تطواء أو تقصر، ويسرع أو يبطل، فنشأ الوزن منوماً كتنوع التالحين
 القمري، واستراحت النفس لهذا التقطيع، وجعل المفتوح به يولييه من عنائه وتعبه
 وجرت به الألسنة محتفية ملتذة، وغير على ذلك ردحاً من الدهر كان كفيلاً بنقلته
 من الطفولة إلى الصبا.

وهنا وفي هذه النقطة نشأ الوزن من الغناء بالكلام المسجوع.

و... ونشأت القافية أيضاً هذه النشأة، فهي في أول أمرها كانت سبحة،
 ثم ألزمت في آخر الأبيات كلها تمشياً مع الغناء، لأنها قوية الديد بوقفات المغنين،
 ونهايات الطازفين، وسكنات الناقرين على الدف، والمصفتين بالأكف، والموقعين
 بأرجلهم في الرقص، فهي نهاية النفس في البيت، واستراحة من البيت، إلى البيت،
 ولأنها مضافة إلى الوزن تكسب الشعر ريقاً وتزيده موسيقى.

وقد أسهلت القافية للشاعر العربي؛ لئلا اللغة بالمفردات السكثيرة ذات النهايات
 الواحدة، فيها من القوافي المتناسبة ما يتعذر وجود نظيره في سائر اللغات، فلا
 يسوغ لها أن تبرز عاطلاً مع توفر ذلك الحكي الشائق، فإذا اقتصر الإفرنجي
 على صوغ شعره كالجزء العربي، لسكل شطرين قافيتان متساويتان يقتل منهما إلى
 غيرهما واضطر إلى تكرارهما بعد حين، أو إذا اختار أن يعرى شعره من القوافي
 بناتا ففدعه أن لفته هكذا خلقت. بل لو أجدد نفسه في مواضع كثيرة لتعذر عليه
 تعزيز قافيتين بثالثة، والشاعر العربي بخلاف ذلك، فإن كثيراً من ضروب القوافي
 تنهال عليه أنبيال الغيث، وإذا انحجبت فلا تنجس إلا لقصر باع، أو لقرع باب
 ضيق، أو لتجاوز الحد في إطالة القصيدة المنظومة على قافية واحدة (١).

هو ... ثم تدرجت البحور وفق الموضوع ووفق الحالة النفسية للقاتل ، لأن الموسيقى الشعرية المعبرة هي التي تسيّر موضوع القصيدة ، وتوائم التجربة الشعرية ، يقول سبغور : « إن خير الموسيقى ما تتمتنى مع الأفكار وتتساقق مع المداني ، وتتجارب نجاتها وفتراتها مع سالات النفس ، فالشاعر في احتياجه وضمهه ويغظه يكون تصويره الموسيقي على النغمة ، وفي حزنه يكون منخضضياً ، وفي تعبه وفرحه ومهدوته وإطمئناته تكون مسافات الصوتية قصيرة ، وأما في به وألّه فتكون مسافات الصوتية طويلة ، وهكذا تسير النغمة سالات النفس كما تسيّر موضوع القصيدة وفكرته ، (١) » .

وهذه النشأة الخنائية أو النشأة الموسيقية للوزن هي التي مكنت الخليل بن أحمد أن يبتدى إلى علم العروض ، ولولا علمه بالموسيقى والتوقيع ما نهى إلى الكشف عن قواعد هذا العلم ، وحسبنا أنه ألف كتاباً في النغم كما ذكر ابن خلدون (٢) ، وكان إخوان الصفا على حق إذ رأوا أن الموسيقى بمثابة لغواتين العروض (٣) .

وما يعزز هذا الرأي أن الأوزان التي استحدثت بعد العصر الجاهلي كانت أيضاً وليدة الموسيقى ، فالوشحات الأندلسية نشأت متأثرة بالغناء والموسيقى لتلائم الأوزان الشعرية الألبان الموسيقية .

ولذلك لم يتصور نقاد العرب الشعر إلا موزوناً مقفياً ، فثلاثاً بن رشيق جعل أركانه أربعة : النقط والمعنى والوزن والثقافية (٤) ، وأبو هلال العسكري جعل من مراتب الشعر العالية التي لا يلحقه فيها غيره من الكلام أنه منظوم (٥) .

و — ولا يندح في هذا أن شعر بعض الأمم لا يلتزم الوزن والثقافية كالشعر القبضي ، فإنه — على ما وصفه جرمن بونسكر — يجري على غرار الشعر الترغوفى ،

(١) الشعر الفاعل . مصطلح السحرى ١١٥ (٢) وفيات الأبيان ١٢٢/١

(٣) الرسائل ١٤٤/١ طبعة مصر (٤) السبعة ٧٧/١ (٥) الصناعتين ١٣١

فلا يراعى الوزن والقافية ، لأنه يستلزم عن هذا النقص بفتح موسيقية يراعيا في كل بيت ، تتكامل انسجام الكلمات وتوفيقها ، وذلك بالتوائن في جرسها وتناوبها في ترتيب يحدث نغمة موسيقية ، شأنه في ذلك شأن الشعر في اللغة المصرية القديمة^(١) ومع ذلك فإن نحو الشعر من الوزن يعرّفه خاصية من خواص جماله وتأثيره . وإذا كان الكاتب الأمريكي والت وتمان wall witman قد فخر الوزن في معظم شعره واحتذاه كثير من جذبتهم الدعوة إلى التحرر من الأوزان ، وإذا كان أيضا لم يأتد للقافية ، فإنه قد اهتم بالإيقاع ، وقد بلغ شعره درجة إيقاعية عالية^(٢) . فهو إذا يريد أن يعرض ما عهد إلى حذفه ، يريد أن يضيء على شعره بمجرد الوزن والقافية جمالا أسوأيا آخر ، ولكن هذه الدعوة لم تصادف قبولا .

وكيف تصادف قبولا والوزن من أهم الخصائص التي تميز الشعر من النثر ؛ ولذا قال لاسل إركرومي Lascelles Abercrombie في كتابه (الشعر : موسيقاه ومعناه) :
يلزم أن تصبغ الموسيقى كل القصيد في الشعر الغنائي^(٣) .

بعد الطبعة الأولى عثرت على نص قديم يعز ما ذهبت إليه من حيث الصلة الوثيقة بين الشعر والغناء .

روى أبو حيان التوحيدى عن مسكويه : « ربما سمعنا للشعراء الجاهلين المتقدمين أوزاناً لا تقلها طابعنا ، ولا نحسن في ذوقنا ، وهي عندم مقبولة موزونة ، كقول المرثى :

لابت عجلان بالظف رسوم لم بتعقن والعيسد قديم
وكذلك قد يستعملون من الزحاف في الأوزان التي تستطها ما يكون عند المطبوعين منا مكسوراً وهي صحيحة .

(١) مجلة الرسالة المجلد الأول من ٧١٨ سنة ١٩٣٦ (٢) الشعر المعاصر من ١١٨ السحرى

(٣) Poetry, Its Music & Meaning عن الشعر المعاصر . السحرى ١١٨

والسبب في جميع ذلك أن القوم كانوا يجرون بنجات يستعملونها مواضع من الشعر يستوى بها الوزن ، ولأننا نحن لا نعرف تلك النجات إذا أنشدنا الشعر على السلامة لم يحسن في طباعتنا .
والدليل على ذلك أنا إذا عرفنا في بعض الشعر تلك النجمة حسن عندنا وطاب في ذوقنا كقول الشاعر :

إن بالشعب الذي دون سلعٍ لقتيلاً دمه ما يطلُّ
فإن هذا الوزن إذا أنشد مفكك الأجزاء بالنجمة التي تخصه طاب في الذوق ، وإذا أنشد كما ينشد سائر الشعر لم يطب في كل ذوق

وهذا سبيل الزخاف الذي يقع في الشعر بما يطيب في ذوق العرب وينكسر في ذوقنا . ولولا أن الموسيقى مركوزة في الطباع ، ووزن النغم ومقابلة بعضه بعضاً مجبولة عليه النفس لما تساعدت النفوس كلها على قبول حركات آخر بعينها . وتلك الحركات المقبولة هي النسب التي يظلمها الموسيقى ويبنى عليها رأيها (١) .

إن الفزيولوجيا تقرر أن لغة الشعر الموزنة التي تعبر عن الانفعال راجعة إلى الانفعال . فن المشاهد أن حركاتنا تزن حين تعاني انفعالا قويا ، فقانون (الانقسام العصبي) يجعل التنبه أو التأثير الذي ينشأ في الدماغ ينتقل قليلا أو كثيراً إلى الأعضاء كما ينتقل الاضطراب على صفحة الماء الذي كان ساكناً .

وقانون (الوزن والإيقاع) الذي يرى تبدال وسببها أنه يسيطر على جميع الحركات يقطب هذا الاضطراب إلى موج منتظم .

فإذا كنت في حالة قلق صغير رأيت ساقك تتحرك وتهتز ، وإذا كنت تعاني ألماً مادياً أو نفسياً رأيت الجسم كله يضطرب ، فإذا لم يكن هذا الألم شديداً جداً رأيت الجسم يهتز إلى الأمام وإلى الوراء ، ورأيت اضطرابه يصير منتظماً . وإذا كنت في فرح عظيم رأيتك تقفز وترقص

(١) المقاول والشوامل ص ٢٨٢ . لأبي حيان التوحيدى وسكويه .

وهذه القوانين والظواهر نلاحظ كذلك في أعضاء السموات ، وبها نحن أولاء
نصل إلى الحادثة الأساسية ، إن الكلام يكتسب بتأثير التقية السمعي قوة وإيقاعاً
واضحين ، فالخطيب إذا تخمس أدخل في كلامه من الوزن والإيقاع ما لم يكن عن قبل ،
وكما ازداد فكره قوة ونقى ازداد كلامه وقماً ومرسوقاً .

وما فن الشعر القديم والمعاصر إلا تثبت مرسوق الانفعال هذه وتسميتها ، فإذا
البت الشعرى بصعد بنا ثانية إلى يفاع الانفعال ، ولعلنا نصيب في تعريفنا الشعر بأنه
هو الصورة التي تميل إلى اتخاذها كل فكرة تمور بالانفعال .

فليس الشعر (ذاً) في مبدئه الأول على الأقل ، أعني الوزن والإيقاع (شيئاً
مصطنعاً ، فالإنسان لم يصبح شاعراً ، ولا ناظلاً بدافع زوة فكرية عابرة ، بل بجهد
طبيعيه ووفقاً لقانون على .

وإذا كان الإيقاع إشارة طبيعية إلى عمق الانفعال فإن هذا الإيقاع يميل وفقاً
لقانون على آخر هو قانون العدوى العاطفية - إلى أن يتقل الانفعال إلى قلب
السامع ، وهكذا متى تكلم المرء شعراً فكأنه بذلك يقول : إن ألى أو فرسى من
القوة بحيث لا يمكن أن أعبر عنه باللغة العادية . وكأنى بإيقاع الشعر ضربات القلب
تسمها الأذن وتنظم الصوت ، فإذا سمعها الآخرون أخذت قلوبهم تخفق على هذا
الإيقاع نفسه .^(١)

المعلقات

ما هي ؟ السبب في تسميتها . مناقشة اللغويين بشأنها على السكبة . الرأي الذي نرضيه

ما هي ؟

يكاد رواة الشعر يطبقون على أن المعلقات سبع ، وهي قصائد طولال بنياد تميز بتنوع فنونها ، وجزالة أساليبها ، وإبتكار كثير من معانيها ، وتصويرها شخصية قائلها ، وأصحاب المعلقات هم :

امرؤ القيس ، وطرفة ، وزهير ، وعنترة ، وعمرو بن كلثوم ، ولييد ، والحارث ابن حازة . وروى أبو زيد القرشي عن المفضل الفضي أنه لم يبدع عنترة والحارث من أصحاب المعلقات ، ووضع في مكانهما النابغة والأعشى : « والقول عندنا ما قال أبو عبيدة امرؤ القيس ثم زهير والنابغة والأعشى ولييد وطرفة وعمرو ، وقال المفضل هؤلاء أصحاب السبع الطوال التي تسميها العرب السموط . فمن قال إن السبع لغيرهم فقد خالف ما أجمع عليه أهل العلم والمعرفة^(١) ، وقصيدة النابغة مطلعها : يا دارمية بالعباء فالسند ، وقصيدة الأعشى في مدح النبي صلى الله عليه وسلم مطلعها : ألم تنتمض عيناك ليلة أرمداء . وبعضهم يبدع هذه التسبع وي زيد عليها بأية عبيد بن الأبرص : أقفر من أهله ملحوب ، فتصير المعلقات عشرة .

لم سميت بذلك ؟

١ - ذهب أكثر العلماء إلى أنها استمدت تسميتها من تعليقها على السكبة وأقدم من روى عنه ذلك ابن الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤ أو سنة ٢٠٦ فقد روى عنه :

« إن أول شعر حلق في الجاهلية شعر امرئ القيس ، فقد حلق في ذلك من أركان الكعبة أيام الموسم حتى نظر إليه ثم أخذوا ، فحلقوا الشعر ، كذلك بعده . وكان ذلك نغراً للعرب في الجاهلية وعدوا من حلق شعره سبعة نفر ^(١) . »

ومن مشايخي هذا الرأي ومشيجه ابن عبد ربه المتوفى سنة ٢٢٧ هـ مؤلف العقد الفريد بقول : « وقد بلغ من كلف العرب بالشعر وفضلها له أن عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم ، فسكتها بماء الذهب في القباطي المدرجة وعلقتها بأستار الكعبة . فنهى يقال مذهب امرئ القيس ومذهب زهير والمذاهب سبع يقال لها المعلقات ^(٢) . »

وهو في رأيه هذا يزيد على رأي ابن الكلبي أنها كتبت بماء الذهب ، وكتبت في القباطي ، وكتبت جملة وعلقت جملة . وتبعه ابن رشيق المتوفى سنة ٤٦٣ هـ مؤلف العمدة : يقول : « وكانت المعلقات تسمى المذاهب وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر فسكتت في القباطي بماء الذهب وعلقت على الكعبة فلذلك يقال مذهب فلان إذا كانت أجود شعره ^(٣) . »

ثم جاء ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ وكان معجبا بكتاب ابن رشيق وقد أثني عليه مرتين في الفصل السابع والأربعين من المقدمة ، فدان برأيه وقال : « إن العرب انتهوا إلى المباهاة بتعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم وبيت إبراهيم ، كما فعل امرئ القيس بن حجر والنابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمى وعنترة بن شداد وطرفة بن العبد وعلقمة بن عبدة والأعشى وغيرهم من أصحاب المعلقات السبع فإنه إنما كان يتوصل إلى تعليق الشعر من كان له قدرة على ذلك بقومه وعصيته ومكانه في نضرة على ما قيل في سبب تسميتها بالمعلقات ^(٤) . » وهو يزيد هنا على سابقه أن

(١) تاريخ آداب العرب لفرانجي ١٨٧/٣ (٢) العقد الفريد ١١٦/٣ القاهره

(٤) المقدمة ص ٥١١

(٣) المقدمة ١١١/١

التعليق كان عن قدرة بالعصية والسكابة . فسكاته لم يكن عن ابتداع وجدارة ، وذكر البغدادي المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ أن العرب كانوا في الجمالية ، يقول الرجل منهم الشعر في أقصى الأرض فلا يعبا به ولا يشده احد حتى يأتي مكة في موسم الحج فيعرضه على أندية قريش فإن استحسوه روى وكان شراً لقائه وعلق على ركن من أركان السكبة حتى ينظر إليه ، وإن لم يستحسوه طرح ولم يعبا به . . . وأول من علق شعره في السكبة امرؤ القيس (١) .

والمؤرخ الفرنسي سديو يوافق هؤلاء فيما ذهبوا إليه ، ويقول : « وأنشوا في عكاظ وذى الحجاز ومجزة الفاخرة بالشعر مجالس حافلة خالية من التحكم على النفوس ، يقوم أمامها شجاع يمشي مشية المتكبر والأبصار شاخصة إليه حتى يقف على مرتفع من الأرض فيشد مع إنصاتهم فصيدة بصوت رنان يستعين فيها بحافظته . . . وكان المقبول من قصائدهم يكتب بالذهب على نفيس القماش ثم يعلق على السكبة ليحفظ حتى تطلع عليه الذرية . فوصلت إلينا المعلقات السبع لأمري القيس (٥٤٠م) والحارث ابن حازمة (٥٤٠م) وطرفة (٥٦٤م) وعنترة (٦٢٢) وزهير (٦٢٧) ولييد (٦٦٢) (٢) وهو هنا يزيد أن التعليق كان لحفظ القصائد حتى يطلع الأبناء عليها ولم يكن لتشریفها .

٢ - وقد جال المستشرقون في تعليل هذا الاسم جولات ، فشلا قال نيكلسون : « وكلمة المعلقة مشتقة في الغالب من كلمة علق أي الثمين النفيس ، وقد يكون المقصود أن الإنسان يعلق بها ، أو أنها تعلق في مكان الشرف أو في مكان أمين ، وقد وردت تفسيرات أخرى عدة منها أنها الأشعار التي دونت (فون كرامر) ومنها أنها القصائد الجواهر أو السموط (مولر) .

(٢) خزانة الأدب ١/٥٧ دار العصور

(٣) خلاصة تاريخ العرب لسيدو

و بمروور الزمن نسي الناس المعنى الحقيقي للمعلقات وأصبح من الضروري إيجاد تفسير مقبول للكلمة ، ومن هنا نشأت الرواية التي كررت حتى الآن ، وهي أن المعلقات استمدت تسميتها من تعليقها على السكبة لأنها بمثابة وإن كان هذا صحيحا لوجدنا في التمهود القديمة ما يؤيده ، ولكننا لم نجد شيئا يؤيده في القرآن (السكريم) أو الحديث (الشريف) أو في تاريخ مكة القديم أو في المؤلفات مثل كتاب الأغانى وهي المؤلفات التي تستمد أخبارها من مصادر قديمة موثوق بها .

و على الرغم من أن بعض العلماء أمثال رايشك وسيدو ، ودى ساسى ... قد قبلوا هذا التفسير فإنه تفسير غير مقبول (١) .

٣ - ونحن نرفض رأى القائلين بتعليقها على السكبة جملة وتفصيلا .

(١) فلو أن التعلق حدث لسكان أحق من يقول به ، ويذيعه حماد الراوية المتوفى سنة ١٥٥ هـ فهو الذى جمع هذه القصائد كما ذكر ابن خلكان فى الترجمة له (٢) وكما قال ابن سلام : كان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية (٣) ، وقد سماها حماد المشهورات لا المعلقات .

(ب) لم يسم أحد من النقاد القدماء هذه القصائد بالمعلقات ، ولم يشر أحد إلى هذا التعليق ، كالأبى زيد القرشى صاحب جمهرة أشعار العرب المتوفى ١٧٠ هـ وابن سلام صاحب طبقات الشعراء المتوفى سنة ٢٢٢ هـ والجاحظ صاحب البيان والتبيين المتوفى ٢٥٥ هـ والزوزنى شارح القصائد السبع المتوفى ٢٧٥ هـ وابن قتيبة مؤلف الشعر والشعراء المتوفى ٢٧٦ هـ والمبرد مؤلف الكامل المتوفى ٢٨٥ هـ وابن الأنبارى ٣٠٥ هـ وأبو جعفر النحاس ٣٢٧ أو ٣٣٨ هـ والأصفهاني المتوفى ٣٥٦ هـ والباقى مؤلف إعجاز القرآن المتوفى ٤٠٣ هـ .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ١٦٤/١

(١) Nicholson. P. 101-102

(٣) طبقات الشعراء لابن سلام ٢٤

وهؤلاء جميعاً قد استشهدوا بأبيات من المعلقات ، وذكروا أصحابها . فمثلاً ذكر ابن سلام امرأ النيس والنايفة بن هيرأ والأعشى وليدا وطرفة وعمرا والحارث وعنترة ولم يذكر كلمة معلقة بل ذكر كلمة قصيدة أو واحدة . فمثلاً قال : إن الطليقة السادسة أربعة رطط لكل واحد منهم واحدة ، أولهم عمرو بن كلثوم ، وله قصيدته التي أولها : ألا هي بصحبتك فاستجبينا^(١) وقال في طرفة : فأما طرفة فأشهر الناس واحدة وهي :

لحولة أطلال بيرة شهيد رقت بها أبكي وأبكي إلى الغد^(٢) .

وذكر قصيدة عنترة التي يقول فيها : يا دار عبلة بالجواء تحكمني ، وقال . وله شعر كثير إلا أن هذه نادرة فالجوهما مع أصحاب الواحدة^(٣) .

وذكر الأصمعي أن عمرو بن كلثوم قام بقصيدته خطيباً في سوق عكاظ ، وقام بها في موسم مكة ، قال كان خبر التليق حينئذ لذكر أن العرب كتبها ، وعلمتها على السكبة .

وذكر الجاحظ أن الشعراء كانوا مولعين بتفحيم شعرهم ، وكانوا يسمون تلك القصائد الحويلات والمقلبات والمفحات والمحكيات ليصير قائلها مثلاً خنديداً وشاعراً مقلعاً^(٤) ، ولم يذكر في أسماء القصائد المعلقات .

وقال ابن قتيبة في ترجمة طرفة إنه أجودهم ضربة ، وفي ترجمة عنترة إن العرب كانت تسمى قصيدته الذهبية ، ولم ترد كلمة معلقات في كتابه إلا مرة واحدة في ترجمته للحارث بن حلزة ، ولكن البغدادي نقل في الخزانة كلمة ابن قتيبة وأسقط منها لفظ المعلقات ، فهي إذن من زيادة النسخ في هذا الموضوع الوحيد من الشعر والشعراء لابن قتيبة .

وقال القرشي صاحب الجمهرة رواية عن المفصل : « هؤلاء هم أصحاب السبع

(١) الطبقات ٥٠

(٢) البيان والتبيين ٧/٧

(٣) الطبقات ٥٦

(٤) الطبقات ٥٧

الطوال التي فسحها العرب السوط ، من قال إن السبع لنيرم فقد سأل ما أجمع عليه أهل العلم والمعرفة^(١) ، وقال : ، إن الناينة أجردهم واحدة وروى عن عيسى بن عمرو أن عمرو بن كلثوم واحدة أجرد سبعهم ، وروى عن عمرو بن اللؤلؤ أن عمرو بن كلثوم لم يقل غير واحدة ولولا أنه أخضر في واحدة وذكر ما أثر قوله ما قلنا^(٢) . وقال الباقلائي في حديثه عن امرئ القيس إنه لولا جودة شعره ما اختار الأدباء قصيدته في السبعيات .

وإن الأنباري يسميها السبع الجاهليات^(٣) في شرحه لها ، ويذكر في نهاية كتابه تمت قصيدة لبيد ، وتم بتامها السبع الجاهليات^(٤) ، ويقول : تمت قصيدة امرئ القيس^(٥) و (تمت قصيدة طرفة)^(٦) وهكذا في كل واحدة .

وأبو جعفر النحاس سماها السبع الطوال وأنكر تعليلها على الكعبة ، وقال في شرحه لهذه القصائد -- وهو مخطوط بدار الكتب -- واختلفا في جمع القصائد السبع ، وقيل إن العرب كانوا يجتمعون بمكاهل فينشدون الأشعار ، فإذا استحسن الملك قصيدة قال : علقوا لنا هذه وأثبتوها في خزائني . وأما قول من قال أنها علفت بالكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة . ويقول إن حمادا الراوية لنا رأى زهد الناس في الشعر جمع هذه القصائد وسماها المشهورات .

والروزني ذكر في مقدمة شرحه أن هذا شرح القصائد السبع .

وإذا كان الغلاف مكتوبا عليه المعلقات فإنه من عمل النساخ .

(ح) على أن المذهبات التي يطلقونها على المعلقات بدعوى أنها كتبت بتمام الذهب في القبايل وعلقت على أستار الكعبة قد أطلقها أبو زيد القرشي على قصائد الأومن والخزرج خاصة وعن لحسان وعبد الله بن رواحة وغيرهما^(٧) .

(١) المهرية ٤٥ (٢) المهرية ٤٠

(٣) م ٢ مخطوط بدار الكتب ز ١٩٩٠٧

(٤) م ١١٩ (٥) م ١٨ (٦) م ٣٩

(٧) المهرية ٤٥

(ز) ثم بعد هذا تساؤل : كيف نصدق أن العرب كتبوا هذه القصائد بماء الذهب على القبايطي وهم كانوا أمة أمية لم يكتب فيها من يقرأ ويكتب ؟ وهل من المعقول أن ينبغ فيهم من يجيد الكتابة حتى يكتب بماء الذهب على القبايطي ؟ وماذا يدعوم لكتابة هذه القصائد وتعليقها على السكبة ما دامت الأمية فاشية فيهم ؟ وقد هدمت السكبة وجمدد بناؤها واشترك النبي صلى الله عليه وسلم في وضع الحجر الأسود في مكانه ، ثم جاء الإسلام وفتح النبي مكة ودخل البيت الحرام وحطم الأصنام ، ولم يرد للبعثات ذكر في هذه المرة أو تلك .

وقد ذُكرت أنواع كسوة البيت الحرام في الجاهلية وهي الانطاع وحبرات اليمين والبرود وغيرها^(١) ، ولم تذكر القبايطي إلا في كسوة البيت في صدر الإسلام في عهد عمر وعثمان رضي الله عنهما^(٢) .

ثم من هؤلاء الذين كانوا يقضون بأن التصيدة جدرة بأن تُعلّق ؟ وهل أقر الشعر القديم كله فلم تسكن فيه قصائد جياذ تستحق التعليق غير هذه السبع ؟ وقد تسائل نيكلسون هذا التساؤل : هل من المعقول أن يقبل أبناء الصحراء الأييون أن يقدموا ثمرات قرأهم التي تشيد بشرف قبائلهم - وهم جند حريصين عليه - ليحكم فيها محكون من قبائل أخرى ؟ أو يقبلوا عن طيب خاطر حكم طائفة من الرجال من القبائل المجاورة لمكة من الصعب أن يحكموا حكما عادلا في مصاحبة منافسيهم من قبائل أخرى ،^(٣) .

٤ - ورأينا الذي فطمئن إليه بعد هذا أن التعليق على السكبة لم يحدث ، وإنما هو رأي عن ابن الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤ أو ٢٠٦ هـ وقد صنعه ليجب الشعر الجاهلي إلى الناس حين انصرفوا عنه إلى الشعر الإسلامي ، وقد أخذ هذا من تعليق قريش للصحيفة

(١) أخبار مكة للأزرقي ١/١٦٥ - ١٦٧ وصحح الأعمى ٤/٢٧٨ وسيرة ابن هشام ١/٢٠١

(٢) صحح الأعمى ٤/٢٧٨ وأخبار مكة للأزرقي ١/١٦٨ والقرى لقاسم أم القرى ٤٧٣ -

٤٧٤ نجد الدين الطبري Nicholson, P. 102 (٣)

لا اعجز الإسلام بمهمزة ريش ، وتماثلت ريش على أن يكتبوا بينهم كتابا يتماثلون فيه على مقاطعة بني هاشم فكتبوا بذلك صحيفة وعاندها في جوانب الكعبة توكيدا وتوثيقا من أنفسهم .

وحتى على فرض أن هذه القصائد سميت بالمشقات لأنها علفت فيها لم تعلق على الكعبة ، فيصح أنها علفت في سقف أو على جدار مطوية على عود أو ما يشبهه ؛ لأن العرب لم يكتبوا قبل القرآن كتابا مدقفا ، وإنما كانوا يكتبون في رقع مستطيلة من الحرير أو الجلد أو الكاغد يوصل بعضها ببعض ثم تطوى على عود أو خشبة وتعلق في جدار الرواق أو الخيمة أو سقف الدار حرصاً عليها من الرثة أو الفأرة كما يفعل سكان الريف الآن في حياطة ما يشعرون به من الأوراق .

ويصح أن التسمية نشأت من تسمية العرب القصيدة الجيدة سمناً - كما سميت قريش قصائد علقمة - والسمط العقد النخس الذي يحل به الجيد وقد سبق قول المنفل الضبي : « هؤلاء أصحاب السبع الطوال التي تسمى العرب السموط . »^(١) ثم أطلقوا على هذه القصائد المعلقات السبع بدل السموط . لأن السمط يعلق ، وكانت خفة هذا اللفظ سبباً في شيوعه وغلبته لفظ السموط .

وأرجح أنها نشأت من أن الملك أمر بتدوين هذه القصائد ونهرها فأخذت تسميتها من هذا ؛ لأن تدوينها تسجيل لها وتعليق بالورق وبالقلوب . وقد أسلفت في كلمة أبي جعفر النحاس أن الملك كان إذا استحسن قصيدة قال : علقوا لنا هذه وأثبنوها في خزائني . وابن رشيقي يكرر هذا الرأي : (وقيل بل كان الملك إذا استجيدت قصيدة الشاعر يقول : علقوا لنا هذه لتكون في خزائني^(٢)) ولسكنها لم يذكرها هذا الملك الكلب بالشعر فهل نستطيع أن نقف على اسمه ؟ نرجح أنه النعمان بن المنذر لأن ابن سلام يقول : (وقد كان عند النعمان بن المنذر ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح

فيه هو وأهل بيته . فصار ذلك إلى بني مروان . أو ما صار منه ^(١) وابن جني يقول :
أسر النيمان فاستخت له أشعار العرب في الطنوج . وهي السكراريس — ثم دفنها في
قصره الأبيض ، فلما كان اختار بن أبي عمير قبيل له إن تحت القصر كئزاً فاحفره
فأخرج تلك الأشعار ^(٢)

ويخطئه من يظن أن الشعر لم يدون إلا في أواخر العصر الأموي وأوائل العصر
العباسي ، فقد دون بهضه في العصر الجاهلي كما رأينا ، ودون بهضه في عصر عمر
ابن الخطاب نفسه ، ذلك أن عبد الله بن الزبير السهمي وضرار بن الخطاب القرري
أنشدا حسان بن ثابت شعراً حتى فاز وصار كالمرجل ضعيفاً ، فشكاهما حسان إلى عمر
وقال عمر لمن حضره : إن قد كنت نهيتكم أن تذكروا ما كان بين المسلمين والمشركين
شيئاً ، دفناً للتصاغن عنكم وبث القسيح فيما بينكم . فأما إذ أبوا فاكثبوه واحتفظوا به ،
فدونوا ذلك عندهم ، قال خلاد بن محمد : فأدركته والله وإن الأنصار لتجدده عندها
إذا خافت بلاه ^(٣)

الباب الثاني

الحياة الاجتماعية

من الشعر

(أولاً) الصلوات الاسمية

المرأة ومكانتها في الأسرة والمجتمع . الزواج . الطلاق . تعدد الزوجات . الأولاد

مكانة المرأة في الأسرة والمجتمع

إعزاز الرجل لها . إشهادها على مفاخره . الانتساب إليها : مشاركتها في الحروب وفي السلم . استشارتها في الزواج

أعز الرجل العربي المرأة ، وأحبها وقدم القصيد بذكرها ، وجزع على شيرها أو ظننها ، ووقف على أطلالها يندب شجوه ويبيكي حظه ويتذكر ماضيه السعيد : ولا حاجة بنا إلى الاستشهاد على ذلك فهو من الشيعوخ بحيث لا يقنقر إلى استشهاد .

وخاطب الرجل العربي المرأة ثوراً بشجاعته وكرمه وعالي مقامه ، وأشهدا على حسن بلائه وحنانه .

قال عبد يغوث :

وقد علمت عرسي مليكة أني أنا الليك ممدوا على وعاديا
وقد كنت نحر الجزور ومعمل الـ مطي وأمضي حيث لا حي ماضيا
وأنحر للثرب السكرام مطي وأصدع بين القيتين رداثيا
وكنت إذا ما الخيل شمصها القنا ليقاً بتصرف الفناء بنانيا^(١)

فأشهد زوجته على شجاعته مهاجماً ومهاجماً ، وعلى كرمه ، وعلى جده في الرحلة والفسارة وقطع القفار التي لم تطأها قدم ، وعلى أنه يتادم السكرام على الشراب وينحر

(١) النصفيات . السندوي ٦٨ عرسى : زوجي . عمل العلى : أجهد الركائب في السفر والرحلة .

أصدع . أشق . شمصها : نثرها وأفضها

* سنفرس عرضاً سريعاً موجزاً ما يتصل بالمرأة مرجعاً النصفيل إلى بحث آخر فرجو أن يعين الله على إنجازها .

لحم مطبته إذا لم يجد غيرها ، وعلى أنه يتخذ مجلسه بين المضيفين فإذا تلمسكة الطرب شق
رداه ، أو شو يشقه لتأكيد الحب كما شعر في عاداتهم ، وعلى أنه حاذق بفن الحرب
والطعان حتى في وقت الحرب والضيقة وفرار الخيل من رماح الأعداء .

واقعد بشر كما معه في كرمه ، كما قال حاتم لزوجته :

إذا ما صنعت الزاد فالتقي له أكسلا فإني لست آكاه وحسدى
أخا طارقا ، أو جار بيت ، فإني أخاف مذمات الأحاديث من بمدى
وإني لعبد الضيف مادام ثاوبا . وما في^(١) إلا تلك من شيمة العبد^(٢)

وإذا ما لامته على كرمه أو سرقه رد عليها في غير تحقير أو تجريح ، قال حاتم :
وقائلة أهانك بالوجود مانا ونفسك حتى ضر نفسك جودها
فقات : دعيني إياك عادي لكل كرم عادة يستعيدها^(٣)

والرجال يستباون في القتال حتى لا ينكسروا فتسي نسائهم ، قال عمرو بن كلثوم
في معلقته : إنهم يستباون غفافة أن تسي نسائهم الحسان ، وإن النساء أنفسهن يحرضن
الرجال على الاستبسال ، وأى تحريض أعمق في نفس الرجل أثرا وأبعد مدى من
أن تقول لزوجته له : لست زوجي إن لم تحمى ا

على آثارنا يضر حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا
يقن جادنا ويقلن لسم بعولتنا إذا لم تمنسونا

وقال الحصين بن الحمام الأرمي يفتخر بانتصاره في الحرب ، ويمزأ ببني محارب الذين
أرادوا أن ينتصروا عليهم ليسوا نساهم :

ولا غرو إلا حين جاءت محارب إينا بألف حارد قد تكتبنا
موالي موالينا ليسوا نساهنا أئلب قد جتم بشكراه ثعلبا^(٤)

(١) الديوان ٩ وشعره النصرانية ١٣٣/١ والجماسة ٢٩٢/٢ وفي الأغانى ١٢٤/١٢ أنها لعيس
ابن عامر وفي تهذيب السكاه ١٠٢/٢ أنها لعيس بن عامر

(٢) شعراء النصرانية ١٢٦/١

(٣) الفضليات ١١٧/٢ حارد : غاضب . تكتب : تجمع . شكراه : فلة شقيقة

وإذا ما عاد الفارس من الحرب تشوّف إلى إعجاب النساء به ، وهو المهن الصناديد
عن إقدامه ، قال عمار بن الطفيل في يوم قيّف الريح يخاطب زوجته :

طَلَقْتِ إِنْ لَمْ تُسْأَلِي : أَيُّ فَارِسٍ طِيلَكَ إِذْ لَأَقَى صَدَامًا وَخُضْبًا
أَكْرَمَ عَلَيْهِمْ دَعْلِجًا وَلِبَانُهُ إِذَا مَا اشْتَكَى وَقَعَ الرَّمَاعُ تَحْمِيحًا^(١)

وهم يخاطبون الزوجة بخير الألقاب وكنى التعظيم ، قال عاتق بن زوجته ممدداً حسيها :
أَيَابَتُهُ عَبْدُ اللَّهِ وَابْنَتُهُ مَالِكُ وَيَابَنَةُ ذِي الْبُرْدَيْنِ وَالْفَرَسُ الْوَرْدُ
إِذَا مَا ضَمَعْتَ الزَّادَ فَالْقَمْسَى لَهُ أَكْيَلًا فَإِنِّي لَسْتُ آكُلُهُ وَحَدِي^(٢)

فذكرها بجدها عمار بن أحيمر الذي أعطاه المنذر بن ماء السماء بُرْدَيْنِ إعجاباً
بشرفه وشجاعته .

وكنى عروة بن الورد عن زوجته بأنها أم حسان في سياق رده على لومها له
ومخالفتها إياه ، وهو مقام قد يثير الغضب ، ولسكنته في هذا المقام نفسه كرم زوجته :

أَرَى أُمَّ حَسَانَ الْغَدَاةَ تَلُومُنِي تُخَوِّفُنِي الْأَعْدَاءَ وَالنَّفْسُ أَخْوَفُ^(٣)
وكنى عنها في موضع آخر بأبيها وابنها ، وهو يرد عليها في لومها أيضاً قال :
أَقْلَى عَلَى الْمَلُومِ يَابَنَةُ مَنْذَرٍ وَنَائِي فَإِنْ لَمْ تُشْتَهَى النَّوْمُ فَاسْمُهُرِي
ذَرِينِي وَنَفْسِي أُمَّ حَسَانَ إِنِّي بِهَا قَبْلَ الْأَمَلِكِ الْبَيْعُ مَشْتَرُ
أَحَادِيثِ تَبَقَى وَالْقَمْسَى خَالِدُ إِذَا هُوَ أَمْسَى مَهْمَةً فَوْقَ صَيْرٍ^(٤)

وقد انتسب بعض الشعراء إلى أمهاتهم مثل شبيب بن البرصاء ، وابن ميادة
ومنظور بن حبة ، وابن زبيبة التميمي ، والمليح بن الملكة ، وغيرهم كثير .

(٢) ديوان عامر Lyall
(٣) شعراء النصرانية ١٣٣ والحامسة ٢/٢٩٧ وفي الأغانى
(٤) شعراء النصرانية ٨٩٧ صبر : قير
(١) الديوان ١٣ وجمرة أشعار العرب ٢١٤ وشعراء النصرانية ٩١١

بل انتسبت بعض القبائل إلى الأم مثل بجيلية ويخندف وطهية (نسبة إلى طهية بنت عبد شمس ، ومنها أبو الغول الطموي من شعراء الحماسة)

• • •

وعما يؤكد أن المرأة كانت ذات خطر في الجاهلية أن التاريخ يحدثنا بنساء اشتهرن بالشجاعة حتى كن يشاركن في الحرب مشاركة فعلية ، فرقاش قادت قبيلة طيه في غزواتها^(١) ، وفي معركة أحد سقط لواء قريش في ساحة القتال ولم يزل صريحا حتى رفعته عمرة بنت علقمة الحارثية فلاذوا بها وقالوا ، وفيها يقول حسان بن ثابت :

فلولا لواء الحارثية أصبحوا يباعون في الأسواق يبيع الجلائب^(٢)
وقالت أم عماره - نسبة بنت كعب المازنية - قتالا شديدا ، وضربت عمرو ابن قريظة بالسيف ضربات ، فوقته درعان كاتنا عليه ، روضها عمرو بالسيف فجرحها جرحا شديدا على عاتقها^(٣) ، وقصة هند بنت عتبة وتحميسها الرجال يوم أحد بالغناء والضرب على الدفوف ، ومضغها كبد حمزة مشهورة^(٤) -

وكانت لمن شاركت في الحرب أخف من هذه ، إذ كن يصحبن الرجال إلى ميادين القتال فيداوين الجرحى ، ويحمان قرب الماء ، ويحمنن المقاتلين ، ومن هؤلاء أم عماره بنت كعب الأنصارية وأم حكيم بنت الحارث والحسناء^(٥)

وقد كانت هند بنت عتبة تخرجن مشركي قريش يوم أحد بقولها :

نحن بنات طارق نمشي على النمارق

الدر في الخنادق والمسك في المنارق

إن تقبلوا نعانق أو تدبروا نفارق

فراق غير وامق^(٦)

(١) بجمرة الأمثال لأبي هلال (٢) سيرة ابن هشام ٢٥/٣ - ٢٦
(٣) زاد اللامد ١٣١/٢ (٤) الأغاني ٢٠/١٤ سلسي وسيرة ابن هشام ٤١/١٢/٣
(٥) ألب باد ٢١/٢ (٦) الأغاني ١٢١/١١ سلسي وليس الشعر لها وإنما هي تتمثل به
لقد قيل يوم ذي طار وطارق اسم رجل من بني مالك بن كنانة أو اسم لقبهم الأغاني ١٢٠/١١ - ١٢١

ومنه المرأة التي كانت لا تقبأ تعرض على الاستبسال ، وعلى الأخص بالتأثر كما سيظهر ،
قد أسهمت أيضا في نشر لواء السلام . من ذلك أن بيضة بنت أوس الدلاني رفضت
أن يدخل بها زوجها الحارث بن عوف ثيل أن يصلح بين عيس وذيان ، فحصل هو
وهرم بن سنان من ديات القتلى ما يزيد على ثلاثة آلاف بعير^(١)

ولقد يكون في القصة مبالغة وتزويد . ولسكنها على أي حال تشير إلى مكانة
عالية للروحية .

ويروون حكايات كثيرة عن مقدرة المرأة على إشعال الحرب ، وعن استشارتها
قبل أن يقضى أبرها في زواجها ، فقد استشارت الحنساء في الزواج من أمية بن أبي
الصلت فرفضت^(٢) ، وقد استشارت بيضة بنت أوس الطائي في الزواج من الحارث
ابن عوف ، وكانت أمها هي التي زينت لآبيها الرضا بهذا الزواج^(٣) .

ولسنا نزعم أن هذا كان عرفا عاما يلتزمه سائر العرب ، فإننا نعلم أن الناس طبقات
وذوو منازع شتى ، ولسكننا نرجح أن إشادة الشعراء بالمرأة — وهم لسن الأمة —
برهان على أن جبهة الأمة لا تنكر عليهم ذلك ، ولا تخالفهم فيه . وما من شك في
أن بعض العرب كان يمتن المرأة ويرأها من سقط المتاع ، وهذا حال بعض الناس
في عصرنا ، فبينما نرى المرأة رفيعة المسكنة في بعض الطبقات ، إذا بها في ذلك تُعزَّز
في طبقات آخر .

(١) الأغانى ١٤٣/٩

(٢) مقدمة ديوان الحنساء اللامية لوليس شيبغو والأمال ١٦١/٢

(٣) الأغانى ١٤٣/٩

الزواج

وكان الرجل يزوج المرأة برضا آلهما ، ولم يكن لها أن تنفرد بالأمر دونهم ، وهذا هو النظام الذي شاع عندهم ، وكانت الفتيات يستشرن كما مر .

أما اتصال الرجل بالمرأة بطرق أخرى كالدعارة فقد كان مقصوراً على الساقطات وذوى المجاعة من الشبان ، وقد سموهن أصحاب الرابات ، لأنهن كن ينصبن على أبوابهن رابات لتتدل عليهن ، وسموهن أيضاً المظلمات ؛ لأن الفتيان كانوا يقسلون إليهن في جنح الظلام .

وكانوا يستولون السبايا ، ولكن لا يلحق نسب الولد بأبيه إلا إذا ادعاه ، ولذا كان من مفاخر الرجل أن أمه حرة نسيبة لا سيية جلية . فإذا كانت أمه أمة اقتصر بما يموض نفسه ، فمثلا كانت أم عنتره حبشية سوداء فأكثر من الفخار بشجاعته بدلا من فخاره بأمه وآخواله في مجال الفخر بأبيه :

إني امرؤ من خير عبس منصبا شطرى ، وأحسى سائري بالمتصل^(١)

وقال :

إن كنتُ في عدد العبيد فهمتي فوق الثريا والسماك الأعزل

أو أنكرتُ فرسان عبس نسبي فستان رحي والجسام يُقر لي

وبذابلي ومهندي نلت العسلا لا بالقرابة والتديد الأجزل^(٢)

وقد أكثر الشعراء السود من الدفاع عن سواد لوهم ، ولكن لم يجروا أحدهم على أن يفضل نفسه على العرب ، قال عنتره :

لله درُّ بني عبس لقد نسلاوا من الأكارم ما قد تفسل العرب

لئن يعبوا سوادى فهو لي نسب يوم الزال إذا ما فاتني النسب^(٣)

(١) ديوان عنتره ١١٩ . للنصب : الأصل . المتصل : السيف

(٢) المديوان ١٢٤ . السمك الأعزل : نجم نير (٣) ديوان عنتره ١٠

وقال :

وإن يسيوا سواداً قد كُسيبت به فالدر يستره نوب من الصدف^(١)

وقال :

سوادى يابض حين تبدو شمائلى وفبلى على الأنساب يزهو ويفخر^(٢)
وما زالوا بحاجة إلى دفاعهم عن سواد لونهم إلى ما بعد العصر الجاهلى ، ومن
طريف ذلك أن نصيباً خطب جارية حرام فرفضته قائلة : إليك عني فوالله لكأنك
من طوارق الليل . فقال لها : فأنت والله لكأنك من طوارق النهار . فقالت :
ما أظرفك يا أمود افضاظه قولها ، فقال لها : هل تدريين ما الظرف ؟ إنما الظرف
العقل فقالت له : انصرف حتى أنظر في أمرك . فأرسل إليها هذه الآيات :
فإن أك حالسك فالمسك أحوى وما لسواد جلدى من دواء
ولى حكرم عن الفحشاء فإم كبد الأرض من جو السماء
ومثلى في رجالكم قليل ومثلك ليس يُعدم في النساء
فإن برضى فردى قول راض وإن تأبى فنحن على السواء^(٣)
فما قرأت الشعر قالت : المال والشعر يأتيان على غيرهما فتزوجته .

٤٥٥

وعرفوا بتجارهم أن زواج الأقارب يضعف النسل وهذا ما قرره العلم الحديث
إذا كان في الأسرة مرض وراثى . قال الشاعر :

تجاوزت بنت المسموم وهى حبيبة مخافة أن يعضوى على سليلى
وقال آخر :

فتى لم تله بنت عم قريية فيضوى وقد يعضوى رديد القرائب^(٤)
وافخر الكنانى بابنه لأنه كريم مسود ، أمه غريبة ، فلا معابة فيه :

(٢) الديوان ٨٧

(٤) الليدانى ٧-٢

(١) الديوان ١٠٨

(٣) الأغانى ٣٠٣/١ الدار

تَنجَبْتُمَا لِلْفَسْلِ وَهِيَ غَرِيْبَةٌ شَقَمَتْ بِهِ كَالْبَدْرِ خِرْقًا مَصْمُومًا
فَلَوْ شِئْتُمَا الْفَتْيَانِ فِي الْحَيِّ ظَالِمًا لَمَا وَجَدُوا غَيْرَ التَّكْذِبِ مَشْمُومًا^(١)
ثُمَّ بَجَاءَ الْحَدِيثُ الشَّرِيفُ مُؤَيِّدًا لِهَذِهِ الْعَقِيدَةِ : « اَعْتَرِبُوا لَا تَقْضُوا » ، .

الطلاق

وكانوا يطلقون ، يطلق الرجال النساء ، فقد طلق الأعمش زوجه إما لأنها لم تنجبه وإما لأن قومها هددوه بالضرب إن لم يطلقها ، وقال .

فبيني حصان الفرج غير ذميمة وموموقة فينا كذلك ووامئة
وذوق قبي قوم فأني ذائق فناة أناس مثل ما أنت ذائمة
لقد كان في فتيان قومك منكبح وشبان هزان الطوال الغرائقة
فبيني فإن بين خير من العصا وألا ترى لي فوق رأسك بارقة
وما ذاك عندي أن تسكوني ذنينة ولا أن تسكوني جثت عندي يائقة
ويا جارثا بيني فأنتك طالقة كذلك أمور الناس غاد وطارقة^(٢)

وكان الطلاق نظاماً عاماً عند العرب ، واليهود ، واليونان ، والرومان ، وقد أباحه

الإسلام وإن ضيق من دائرته ، وبرره ملان الشاعر الإنجليزي^(٣) .

وارتقت مكانة بعض النساء في الجاهلية إلى أن بعضهن كن يطلقن أزواجهن ، وكان طلاقهن أنهن إن كن في بيت من شعر حوران الخباء : إن كان بابه قبل المشرق حولته قبل المغرب ، وإن كان بابه قبل اليمن حولته قبل الشام ، فإذا رأى ذلك الرجل علم أنها قد طلقتة فلم يأتمها ،^(٤)

(١) البيان والتهيين ٦٨/٣ . خرق : كرم حسن الخليفة . معمم : سود

(٢) البيان والتهيين ١٦٢/١

(٣) الأغانى ٨٠/٨ ساسى هزان : قبيلة الزوجية

(٤) المرأة في مختلف العصور . أحمد شاكي ٨٥ - ٨٦

(٥) الأغانى ١٠٢/١٦ ساسى

ويرى المرحوم الأستاذ محمود جمعة أن مرجع ذلك إلى أن الحجاب عند الساميين كان ملكا للمرأة ، والحجاب عند أهل المدر كالتيت عند أهل الحضرم ، ومعنى ذلك أن ملكيته مقصورة عليها ، وأن الرجل هو الذى يدخل عليها ، فإذا دخل ووجدها قد حولت باب الحجاب عرف أنها قد عرضت عنه وطلقتها (١) .

ورَوَوْنا أن ماوية بنت عفرر طلقت زوجها حاتما حين تخرق في كرمه (٢) . أما المرأة الحضرمية فكانت أحيانا تزوج وتتمترط أن يكون الأمر بيدها . وتكون علامة ارقضائها للزوج أن تعالج له طعاما إذا أصبح ، ومن هؤلاء عمرة بنت سعد وعائكة بنت مرة السليسية وفاطمة بنت الخرشب وسلمى أم عبد المطاب بن هاشم (٣)

تعدد الزوجات

أما تعدد الزوجات فقد كان شائعا ، ولم يكن لهم عدد يفتنون إليه ، فقد ورد في الصحيح أن غيلان الثقفي أسلم وتحمته عشر نساء .

وقد غاظ جندة الطهوى زوجته بأنه يخشى أن يموت ولم يوجعها بضرة ذات شراسة وخصومة وصخب تباكرها بالسباب إذا سرحت الطير تبتغي طعامها ، وتسمعها الفاحش من القول ليسمع الحى كله :

لقد خشيت أن يقوم قارى ولم تمارسك من الضرائر
ذات شذاة جمه الصراصر حتى إذا جرس كل طائر
قامت تعنظى بك سمع الحاضر قصر إصرار العقاب الكاسر (٤)

والتعدد نظام شاع عند العرب والرومان حتى عصر جستنيان ، ويجز عن نحوه

(١) النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية ٨٧

(٢) الأغاني ١٠٢/١٦ ساسى (٣) ذيل الأمالي ١٥٣ ونجح الأدب للميدانى ٣١٨/١

(٤) طهارة العرب ، الفتيلى ٣٢

بالتقوا بين الصرامة التي سنها ، وكان نظاما اجتماعياً في القبائل الجرمانية ، وبنض أباطرتهم
تزوجوا غير واحدة وأقربهم الكنيسة^(١) ، وكان مباحاً الى حد ما عند المصريين كما
يحدثنا ديودورس^(٢) ، وكان نبلاً وهم يمارسونه في نظام الإمام وما ملكت المين^(٣) ،
ويطن زولفسن أنه كان مباحاً عند الآشوريين ، وقد مارسه الإغريق والرومان
والشيتون الغربيون وخاصة في الشمال . وقد نصت عليه شريعة مانو ولم تقيد ،
وأباحته التوراة ، وكان اليهود يمارسونه في أوروبا في القرون الوسطى ، وما زالوا
يمارسونه في البلاد الإسلامية^(٤) .

الأولاد

ترتيبهم . اسميتهم . الوأد وبواعته . حب بعضهم لذئبات . إحياء المردوات .

وكانوا يربون أبنائهم على البطولة والحماد ، وأرادوا أن يوحوا إليهم بالقوة
والشدة ، أو هم فقالوا أن يكون بنوهم أقوياء أشدة ، فتصيروا لهم أسماء فيها قوة
وربهة مثل أسد وثور وفهد وصخر .

ولقد يكون الغرض من الأسماء القوية المرعبة أن يخيفوا بها أعداءهم ، فقد مثل
أبو العريش الأعرابي : لم نسمون أبناءكم بشر الأسماء نحو كلب وذئب ، وعبيدكم
بأحسنها نحو مرزوق ورباح ؟ فقال : إننا نسمى أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا^(٥)
ويرى الجاحظ أنهم كانوا يتفاهلون بأسماء كلب وحجر وحنظلة الخ^(٦)

وكانوا يعززون الذكور أكثر من الإناث ، وهذا طبيعي في بيئة قائمة على الصيد
والغزو والحروب ، لأن الذكر يعني حيث لا تبقى الأنثى .

(١) المرأة في غرائب العصور . أحمد خاكي ٨٢ - ٨٥

(٢) Diodorus, Bk. I, ch. 80

(٣) Wilkinson, The manners and Customs of the Ancient Egyptians

عن النظم الاجتماعية والسياسية

(٤) النظم الاجتماعية والسياسية . جمة ٦٨ (٥) حياة الحيوان للدميري ٢٤٢/٢ بولاق

(٦) الحيوان

وقد واد بعضهم البنات . وأسباب الواد شي :

١ - قالوا إن من أسبابه الغيرة على المرأة وخافة النار إذا تسبي ، ورووا أن بني تميم كانوا قد منعوا الإباوة عن النعمان ، فخرجهم وانصر عليهم ، واستاق نعمهم ، وسبي ذرارهم ، وفي ذلك يقول أبو المشرح اليشكري ،

لما رأوا راية النعمان مقبلة قالوا : ألا ليت دارنا معدن
بأليت أم تميم لم تسكن عرفت مرأاً وكانت كمن أودى به الزمن

ووفدت على النعمان وفودهم ، وكابوه في الذراري ، فحكّم بأن تخسير النساء، فمن اختارت زوجها ردت إليه ، وكانت فيمن بنت لقيس بن عاصم اختارت مايبها على زوجها ، فنذر قيس أن يدم في التراب كل بنت تولد له ، فوآد يضع عشرة بنتاً^(١) . ولهم في منشأ الواد رواية أخرى ملخصها أن المشرح اليشكري سبي من نساء بني سعد وفيمن بنت أخت قيس بن عاصم ، فرحل قيس وسأل القوم إياها فخيروها فاختارت عمرو بن المشرح ، فانصرف قيس فوآد كل بنت ، وجعل ذلك ستة كل بنت تولد له واقتدى به العرب^(٢)

٢ - ومنهم من كان يئد من البنات من كانت زرقاء أو شجاء (بها علامة قبيحة) أو برشاء (بها نقط بيض) أو كسحاء (قعيذة) تشاؤما وكان يفعل ذلك قليل منهم^(٣)
٣ - ومنهم من كان يئد خشية الإنفاق وخوف الفقر ، وفيهم نزل قوله تعالى :
« ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً »^(٤)
وهذا نوع ألبأت إليه البيهة المجدبة ، والمراد بالأولاد هنا البنات .

٤ - ومنهم من زعم أن الملائكة بنات الله -- سبحانه وتعالى عما يقولون -- فألحقوا الإناث به لأنه أولى بينه ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون . ويرى نيكلسون Nicholson أن الواد يعود إلى ميين اثنين هما : الجماعات التي كانت كثيرة الحدوث في بلاد العرب القليلة الأمطار ، والتعالى الشاذ في المحافظة على

(١) بلوغ الأرب ٤١/٣ - ٦٦ (٢) الأغانى ١٢/١٤٤ سامي

(٣) بلوغ الأرب ٤١/٣ - ٥٦ (٤) سورة لیسراء الآية ٣١

الشرف ، فقد كان الآباء يخشون أن يضطروا لإطعام أفواه لا ترجى من أحصائها فائدة
أو أن يهيبهم العار إذا وقعت بناتهم أسيرات. (١)
(٥) ومنهم من كان ينذر أن يذبح واحداً من بنيه إذا بلغوا عشرة كما فعل عبد المطلب
في قصته المشهورة. (٢)

وقد أبطال الإسلام هذه العادة ، وسفه الذين يحرفون إذا رزقوا بنتاً ، كما بين
للوأندلسيين غشاة القمر أنه هو الرزاق ، ويحطلون لله البنات ، سبحانه ولهم ما يشتهون .
وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سره
ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب إلا ساء ما يتكفون ، ، وقال تعالى :
« ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإيهاهم » (٣)

ويرى الدكتور على عبد الواحد أن الواد الناشئ عن الخوف من الفقر لم يكن
فيه تمييز بين ذكور وإناث ، ولذلك عبر القرآن الكريم بكلمة الأولاد ، ولا تقتلوا
أولادكم من إملاق ، ، وأن وأد البنات كان أمراً دنيئاً لأنهم اعتقدوا أن البنت رجس
من خلق الشيطان أو من خلق إله غير آلهتهم فيجب التخلص منها. (٤)

ولم يكن قتل الأولاد بدعة عربية ، فقد فعلت بعض الأمم القديمة ما هو أشنع
منه ، فإسبرطة كانت تقضى بإعدام الأولاد الضعاف أو المشوهين عقب ولادتهم ،
أو تركهم في التفتار طعاماً للوحوش والطيور ، وكانت الأم تغمس الوليد في دن من
النبيلد مدة ، فإن عاش دل هذا على قوته وصلاحيته للحياة ، وإن مات تخلص المجتمع
من عضو ضعيف ، وهذا النظام نفسه أو ما يقرب منه كان منتشرأ في أثينا وروما ،
وقد أقره فلاسفة اليونان وفي مقدمتهم أفلاطون وأرسطو .

(٢) سيرة ابن هشام ١٦٤/١ - ١٦٧

(٤) الأسرة والمجتمع ١٢٠ - ١٢٣

(١) Nicholson, P.90-91

(٣) الأنعام الآية ١٥١

وكان يجب على الآباء في كثير من الشعوب البدائية وغيرها قتل أولادهم أو بعضهم لاعتبارات دينية أو اقتصادية ، فيستحب البنات ويقتل البنون ، أو يستحب البنون ويقتل البنات ، أو يقتل الأولاد بدون نظر إلى ذكورة وأنوثة^(١) . وفي المنطقة المتجمدة الشمالية حياة شظف قائمة على الصيد ، ولذا فإن بعض جماعات الإسكيمو يشدون بناتهم بعد الولادة بزمن قصير^(٢) .

وكان الفينيقيون يقدمون النساء قرابين للإلهة عشتروت (الزهرة) ، وفي عبادة مولوخ (إله النار) يضحون بالأولاد إحراقاً في النار الملتهبة^(٣) .

• • •

وما من شك في أن القبائل التي أودت كانت تكره البنات ، سواء أكان ذلك لأنهن لا يساهمن في كسب الرزق ولا في الدفاع أم لعقيدة دينية .

وقد هجر أبو حمزة الضبي امرأته لأنها ولدت بنتاً ، فرغبها يوماً وإذا هي ترقصها وتقول:

ما لأبي حمزة لا يأبينا يظل في البيت الذي يلينا
غضباناً إلا نلد البينا تاتته ما ذلك في أبينا
وإنما نأخذ ما أعطينا ونحن كالأرض لزارعينا
تبت ما قد زرعهو فينا

فعدا الشيخ حتى وج البيت فتبل رأس امرأته وبناتها^(٤)
على أن الوأد لم يكن عاماً ، قال قتادة : كان مضر وخزاعة يدفنون البنات أحياء ،
وأشدهم في هذا تميم ، زعموا أنه خوف الفقر عليهم وطمع غير الأكفاه فيهن . وقد
خطب إلى عقيل بن علفة ابنته الجرباه فقال :

Rivars, The Todas P,190 (٢)

(١) الأسرة والمجتمع ١١٨

(٣) المرأة في التاريخ والشرائع . جميل بهيم ٤٤

(٤) البيان والتبيين ١/١٦٣

إني ولدت سيق إلى المرء ألف وعبدان وخور هشر

أحب أصهارى إلى القبر^(١)

ورويت الأبيات منسوبة إلى عمرو بن أبي علقمة المرى مع وضع كلمة ذود بدلا من خور^(٢).

وقيل إن القبائل التي كانت تد ربيعة وكندة وتميم وأفراد مغمورون^(٣).

لكن الكثرة الكثيرة لم تند ، بدليل بقاء النساء يلدن ، وبدليل حب الشعراء والرجال للمرأة ونخارهم بها . قال حسان بن القدير :

رأيت رجالا يكرهون بناتهم وهن البراكي والجيوب والنواصح^(٤)
وروى أبو الفرج أن معن بن أوس كان مثانا وكان يحسن حجة بناته وتربيتن ،
فولد لبعض عشيرته بنت فسكرها أبوها وأظهر جزعا ، فقال معن :

رأيت أناسا يكرهون بناتهم وفيهن لا تُكذَّبُ نساء صوايح
وفيهن والأيام تعثر بالفتى نوادب لا يملنه ونوايح^(٥)

على أن بعض سادات بني تميم كانوا يعبون وأد البنات ، وينقدونهن من هذا الظلم الوحشي ، واشتهر بذلك صعصعة بن ناجية جد الفرزدق ، حتى لقد سمى يحيى الموءودات ، وكان السبب الذي حفزه إلى ذلك أنه مر يوما برجل يحفر ليئد ابنته وامرأته تبكي ، فسأل الرجل عن سبب عمله فأجابته بأنه الفقير ، فعرض عليه أن يستبق ابنته ويمتحنه ناقتين عشراوين يتبعهما أولادهما ، ليعيشوا من ألبانها ، فقبل الرجل

(١) تفسير القرطبي ١١٧/١٠ الحور : الفزيرات الجن

(٢) ملهارة العرب الشنيطي ٢٦ بلوغ الأرب ٤٢/٣

(٤) المؤلفات والمتنلف . الأمدى ١٦٤ الجيوب النواصح : القلوب المغلقة

(٥) الأغاني ١٥٦/١٠ ساسي

فأعطاه صمصمة نائتين وبملا. ثم قال في نفسه : إن هذه لمكرمة ما سبقني إليها أحد من العرب ، فجعل على نفسه ألا يسمع بموودة إلا فداحا ، فجاه الإسلام وقد فدى ستا وتسعين موودة ، وقيل ثلاثمائة ، وقيل ثلاثمائة وستين ، وقيل أربعمائة ، وقد نشر الفرزدق بذلك كثيرا كقوله :

أبي أحد الضيَّين صمصمة الذي متى تُخلف الجوزاء والدلو يطر
أجار بنات الوائدين ومن يُجِير على الفقر يعلم أنه غير مُحْفِر
على حين لانحيا البنات ، وإذ هم مكوفا على الأصنام حول المدور^(١)

وقال :

ومنا الذي أحيا الوئيد وغالب وعمرو ومنا حاجب والأقارع
أولئك آباءي فجئني بملهم إذا جمعنا يا جرير المجمع
وقد شركه في هذه المأثرة زيد بن عمرو بن نفيل ، ففي صحيح البخاري ، أنه كان يحيى الموودة بأن يكفي أباهاموتتها إذا كان فقيرا^(٢)

(١) الأغانى ٢/١٩ — ع ساسى مخفر : ناقص للمهد غندر

(٢) تبيين الرسول ١١٣/٣

(ثانيا) الصلات القبلية

الحرب . النار . الخندق والجوار . النقي والفقر

الحسب

بواعث الحروب . طريقة القتال . زمن القتال . أدوات الحرب . الأسرى والسبايا . الصاع

١ - بواعث الحروب

أما الصلات القبلية فقد أسست على العداة والحروب المتوالية ، أو على المخالفة والنصرة .

ويبتهم الطبيعي والاجتماعية مؤرثة لهذه الحروب ، فهم يتنازعون على المرعى يسمون فيه أنمامهم ، وعلى المنهل يطفئون به ظمأهم في بلاد شهية بالكلا ضئينة بالماء ، لا ملكية فيها لأحد وكثيرا ما كانت الحرب تبدأ بزراع بين الرعاة على الماء أو المرعى فيشترك معهم ساداتهم وأقرباؤهم . وهذا شبه بما يحدث في ريف مصر ولا سيما في أيام الري بنظام (المنابيات) الآن .

وقد تشتعل الحرب لتنازعهم على شرف أو رياسة ، وهم قوم كلفون بالشرف وبالرياسة كما حدث بين هاشم وأميه بمكة ، وبين عبس وذبيان من قيس ، وبين بكر من ربيعة ، وبين دارم ويربوع من تميم .

على أن بعض الحروب كان رغبة في السلب والغارة ، لأن أرزاقهم في رماحهم ، ومعاشهم في أيدي غيرهم ، ونجد تصوير ذلك في أبيات اللقطامي - شاعر مخضرم - إذ يتحدث عن الخيل والحيلة ودينهم في السلب والغارة :

وكن إذا أغرن على جتاب وأعوزهن نهب حيث كانا

أغرن من الضباب على حاورٍ وحبّةٍ إنّه من حابٍ مانا
وأحياناً على بحتسكٍ أخينا إذا لم نجد إلا أختانا^(١)

على أن الحرب قد تشور لأسباب أكثر ربما كانت أقل تهيجاً ، من ذلك أن يتنافر خصمان إلى حكمٍ ليقضى بينهما فإذا حكم لأحدهما زاد العداوة اشتعالاً ، وإذا كان الحكم عدلاً خيراً بما يجره حكمه من تصدع وتشتيت شمل سوى بين المتنافرين ، كما فعل هرم بن قطبة حينما سوى بين عامر بن الطفيل وعنقمة بن علاثة العامريين ابني العم بقوله : أنتما كركبتي البعير^(٢) . وعاش هرم حتى أدرك عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وسأله عمر : أي الرجلين كنت مفضلاً لو فعلت ؟ فقال : لو قلت ذلك اليوم عادت جذعة ، فأعجب عمر بحكمته وبعد نظره ، وقال : لمثل هذا العقل تحاكت إليه العرب . على أن أسنة الشعراء كانت سلاحاً ماضياً في قطع الأواصر ، كل منهم يعدد مفاخر قبيلته ، ويبالغ في تصيد مثالب لخصومه .

ولقد تهيج الحرب نصرة لقريب وإن كان ظالماً ؛ لأن شعارهم : انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، ومن يتخلى منهم عن نصرة قريبه يعير ويغاب . وربما عبر الشاعر قبيلته كلها من جراء تخليها عن نصرته ، قال قُرَيْطُ بنِ أَيْفٍ - وكان بعض بني شيبان - أظاروا على إلبه فاستنجد قومه فلم يجدوه فليجأ إلى بني مازن فأنجدوه ، والمراد هنا مازن بنميم :-

لو كنت من مازن لم تستبج إلي
إذا نقام بنصري معشر خشن
بنو الشقيقة من ذهل بن شيبان
عند الخفيظة إن ذلوته لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم
طاروا إليه زرافاتٍ ووحدانا

(١) شرح الخنساء لفتنيزي ١/١٨١

(٢) راجع تفصيل النافذة في بلوغ الأرب ١/٣١١ - ٣٢٤

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في الثنائب على ما قال برهانا
لكن قومي وإن كانوا ذوى عدد ليسوا من الشر في شيء وإن خاننا
مكان ربك لم يخلق لحشيتهم سواهم من جميع الناس إنسانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مفررة ومن إساءة أهل السوء إحسانا
فليت لي بهم قوما إذا ركبوا شدوا الإغارة فرسانا وركباناً^(١)
وكثير من الحروب كانت تنشأ لأسباب توافه في ظاهرها ولكنها وليدة ضغن
قديم وقرته الصدور ، كحرب الفجار أو حرب عبس وذبيان ، والعربي لا ينسى مزينة
ذاق مرارتها ولا إساءة نزلت به ، قال زفر بن الحارث السكلابي مصوراً هذا الشعور :
لعمري لقد أبقت وقيعة راهط لروان صدعاً بيننا متائبا
وقد بنيت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هي^(٢)

ب - طريقة المقاتلة

١ - كان قتالهم في الجاهلية بالكر والفر أحياناً ، يهجمون ويرتدون ، وقد
يتخذون وراهم مصاف ثابتة بلجشون إليها في كرم وفرهم ، كأن يضربوا وراهم
حواجز من الطعائن أو الإبل وهذا هو النظام الغالب في معارك البادية القائمة على
الاشتجار بالسيوف والرماح والقسي وغيرها ، لأن معاركهم لا تستمد من نظام
معلوم مدروس ، أو فن يتلقاه جيل عن جيل ، وهي أشبه بأن تكون حرب عصابات .
على أن هذه العصابات المتناورة كانت تعتمد على التجارب ، وعلى المفاجأة
والاستطلاع والخديعة والتبيت ، وعلى الفرار أحياناً لتعاود الهجوم .

٢ - ولسكنهم في جاهليتهم عرفوا أيضاً الحروب المنظمة والجيوش المعدة .
والطرق الفنية المرسومة ، فقد كان جيش الحارث الأعرج الفسافي الذي حارب المنذر

(١) شرح الحاشية للبهرزي ١/ ٥ والرواية الصحيحة لابن الأول بنو الشقيقة لا بنو القبيلة كما في الديوان
والشقيقة هي بنت عباد بن يزيد بن عوف بن ذهل بن شيبان . لوته : ضغن

(٢) حاشية البهري ١٧

بن ماه السماء وولنا من نحو أربعين ألف مقاتل ، فيهم الفرسان وراكبو الإبل :
والخاربيون بالسيف ، والبلاتيون بالرمح ، والبناريون بالسهم والنبال والحراب
والخبيارة . ولم يكن هذا عن مقدرة الملك وفضي المولة فحسب ، لأن بعض القبائل
البدوية كانت تفعل مثله ، فقد روى أن مذحج جمعت لقتال تميم يوم الكلاب الثاني
ثمانية آلاف : وسبقت المعركة بالاستطلاع واغتناله ، ثم قامت على المهاجمة والمطاردة
وفي غزوة أحد جاءت قريش في ثلاثة آلاف رجل وماتى فارس .

وجدير بنا ألا ننسى أن حملة المناذرة بالفرس علمتهم تعبئة الجيوش ، فقد كانت
عندهم كنيستان هما الشهباء والدوسر وهذه فارسية ، وكذلك الفساستة على صلة بالروم
يساعدونهم في حروبهم ، ويتيسرون من نظمهم

لذلك لم يكن غريباً من العرب في يوم ذي قار أن همزوا الفرس ، لأنهم كانوا
أبرع قيادة وأشدهم حماسة ، وأحكم خطة ، فقد بنوا طلائعهم ، وقسموا جموعهم إلى
ميمة تولاهما بنو عجل ، وميسرة تولاهما بنو شيبان ، وقلب تولته بطون من بكر ،
وبعثوا إلى العرب الذين في الجيش الفارسي من يصرفهم عن مساعدة الفرس حين يلتحم
الجيوشان ، فلما التجأ تخلفت إباد عن الفرس ، وخذلتهم حيث ينتظر العون والنصر .

وفي غزوات النبي صلى الله عليه وسلم تجملت خطط العرب في القتال من مباغتة ،
ومبادرة ، واستطلاع واختيار المكان المناسب ، وحفز للهمم ، وتحذيل للعدو .

فشلا في غزوة أحد صف المشركون صفوفهم ، واستعملوا على الميمنة خالد بن
الوليد ، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل ، وكانت لهم مجنبتان مائتا فارس ، وجعلوا
على الخيل صفوان بن أمية وقيل عمرو بن العاص ، وعلى الرماة عبد الله بن أبي ربيعة
وكانوا مائة رام ، ودفعوا اللواء إلى طلحة بن أبي طلحة ، وصاح أبو سفيان : يا بني
عبد الدار نحن لانعرف أنكم أحق باللواء منا ، وإنما أتينا يوم بدر من اللواء ، وإنما
يؤتى القوم من قبل لوائهم ، فالزموا لوائكم ، وحافظوا عليه ، وخالوا بيننا وبينه ،
فأنا قوم مستميون موتورون نطلب أرا حديث العهد . فغضبت بنو عبد الدار

وقالوا : لا نسلم لروادنا ، وأما المحافظة عليه فسترى ، ثم أسندوا اللواء إليه ، وأحدثت
به بنو عبد الدار ، وأغلظوا لأبي سفيان ، فقال : نجعل لواء آخر . قالوا : نعم ، ولا
يحملة إلا رجلاً من بني عبد الدار^(١)

وجعل رسول الله يصف أصحابه ، وجعل الرماة خمسين رجلاً ، عليهم عبد الله بن
جبير وقيل سعد بن أبي وقاص ، وجعل جبل أحد خلف ظهره ، واستقبل المدينة ،
ونهاهم أن يقاتلوا حتى يأمرهم ، وصار يمشى بين الصفوف ويبوي أصحابه معاهد
للقتال ، ويقول : تقدم يا فلان . تأخر يا فلان ، حتى أنه يرى منكب الرجل الثمار جأ
فيؤخره ، فهو بقومهم كأنما يقوم القداح .

وتقدم رسول الله إلى الرماة فقال : احموا لنا ظهورنا ، فإننا نخاف أن توتي من
ورائنا ، والزموا مكانكم لا تبرحوا منه ، وإن رأيتمونا نهرمهم حتى ندخل عسكرهم
فلا تفارقوا مكانكم ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تدينونا ولا تدفعوا عنا ، وارشقوا
خيالهم بالنبل فإنها لا تقدم على النبل .

وعمل لنفسه ميمنة وميسرة ، ودفع اللواء الأعظم إلى مصعب بن عمير ، ودفع
لواء الأوس إلى أسيد بن حضير ، ولواء الخزرج إلى سعد بن عباد^(٢)

٣ - كان نظامهم في الجاهلية أن يلتقي كل محارب بأخسر أو بأخرين ، وكانت
المبارزة تسبق الحرب أحياناً . قال عنتره :

سأخرج للبراز خسلي بال بقلب قُذ من زُبر الحديد^(٣)

وربما أخذت هذه المبارزة عن النحام الجليشين ، فقد تحرك المنذر بن ماء السماء
بجنده لملاقاة جيش الحارث الأعرج بن جبلة ملك الشام ، فأرسل إليه الحارث أن انظر

(١) سيرة ابن عمارة ١٧/٣ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣٦٥/٣

(٢) شرح نهج البلاغة ٣٦٦/٣ وسيرة ابن هشام ١٠/٣

(٣) ديوان عنتره ٥٤

نظروا في أمرنا ، وخرج بجيشه ، وأرسل إليه يقول : إنا شديطان كبيران فلا تمك جنودك وجنودى ، ولكن يخرج رجل من ولدى ورجل من ولدك ، فمن قتل خرج عوضه آخر ، وإذا فني أولادنا شرجت أنا إليك فمن قتل صاحبه ذهب بالملك وتماهدا على ذلك ^(١).

وفى غزوة أحد تقدم على بن أبي طالب بالراية متحدياً المشركين . وخرج إليه أبو سعد بن أبي طلحة ليارزه ، فضربه على فصرعه ^(٢).

وكانوا يسبقون المعركة برمي مسكر الأعداء بالنبل ، وقد يقصدون قائد الجيش وسيد القوم ليقتلوه فيثبطوا من معه ، وكثيراً ما افتخروا سائهم بذلك . قال عنتره :
وإنا أبداً جميعهم برماحنا وإنا ضربنا حكبشهم فتحتل ^(٣)

وكانوا يقولون من الصباح حتى لا يدلوا العدو على مكانهم ، فقد استشار قوم أم كتم ابن صيفى فى حرب أعدائهم وسأله أن يوصيهم ، فقال : «أقلوا الخلاف على أمرائكم واعلموا أن كثرة الصباح من الفشل . . .» ^(٤).

وقال عتبة بن ربيعة يوم بدر يصف للمشركين أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم :
ألأترؤهم جُشياً على الركب كأنهم خرس ، يتلمظون تلمظ الحيات ^(٥) ؟
وقد يتصرفون فى نظام المهجوم كما فعل خالد بن الوليد بالمسلمين فى أحد ، فقد استدار من حولهم وعلوهم بخيله من خلفهم بعد أن زدهم النصر الأول ومالوا إلى العسكر وقد انكشفوا وولت النساء هوارب ^(٦).

وفى شعرهم ما يدل على التنظيم والتعبئة والهجوم ، فنلا عمرو بن كلثوم فى معلقته يشير إلى تقسيم المحاربين إلى ميمنة وميسرة :

-
- | | |
|-----------------------------|-----------------------------|
| (١) أيام العرب ٥١ | (٢) سيرة ابن هشام ١٩/٣ |
| (٣) الديوان ١٦٨ | (٤) عيون الأخبار مجلد ١/١٠٨ |
| (٥) عيون الأخبار مجلد ١/١٠٨ | (٦) سيرة ابن هشام ٢٤/٣ |

وسكننا الأيمنين إذا التقينا وكان الأيسرين يسروا أينا

٤ - وكانوا يستوحون فطراهم وتجاربيهم في تدبير هزيمة العدو ، قال الأحوص ابن جعفر في يوم جيلة لقيس بن زهير : ما ترى : فأنتك تزعم أنه لم يعرض لك رأيان إلا وجدت الفرج في أحدهما . فقال قيس : ه الرأي عندي أن نرتحل بالبعال والأموال حتى ندخل شهب جيلة فنقاتل القوم دونها من جهة واحدة ، فإنهم داخلون علينا الشعب ، وإن لقيطار رجل فيه طيش فسيقتحم عليك الشعب ، فأرى لك أن تأمر بالإبل فلا ترعى ولا تُسقى وتُعتقل ، ثم نجعل الذراري وراء ظهورنا ، وتأمر الرجال فتأخذ بأذنان الإبل ، فإذا دخلوا علينا الشعب حلت الرجال عقولها ثم لزمت أذنانها فإنها تتحدرد عليهم وتمن إلى مرعاها ووردها ولا يرد وجوهها شيء ، وتخرج الفرسان إثر الرجال الذين خلف الإبل فإنها تحطم ما لقيت ، ^(١) . فهذه خطة موقفة مبنية على استغلال طيش قائد الأعداء ، وعلى استغلال حنين الإبل الجائع العطاش إلى مرعاها وموردها ، ولا شك أن انفلاتها من عقولها ونخلتها وهي جائعة ظمأى سوف يحدث دوبا وجلبة ورعبا في قلوب الأعداء فيتفرقون مذعورين .

وقد تحقق هذا لأن الأعداء وظنوا أن الشعب قد تهم عليهم فولوا منهزمين بين قتيل وجريح وأسير ، وقتل لقيط بن زرارة وأسر أخوه حاجب ^(٢) .

ومن خططهم المحكمة أنهم كانوا للفرس في يوم ذي قار ، وحملت شيمنة بكر على ميسرة الفرس ، وخرج عليهم السكين فحملوا على قلب الجيش الفارسي فهزموه ^(٣) .

٥ - وما دامت الحرب مبنية على الحيلة والخدعة والمكيدة ، فلا مندوحة من الاعتماد على العيون يستطلع بها المحاربون حال أعدائهم ليعرفوا عددهم وعددهم وخططهم الخ . فيقدموا على بصيرة أو يرجعوا إن لم يكن لهم ملاقاة خصومهم طاقه .

(١) المقدم الفريد ٦٣/٣ - ٦٤

(٢) المقدم الفريد ٦٣/٣ - ٦٤

(٣) أيام العرب ٣٣

وقد كان العرب يشون النيون ، من ذلك أن قبيلة خزاعة من جُشم بن بكر أغاروا على إبل لبني كعب بن أبي بكر بن كلاب فانطلقوا بها ، وخرج بنو أبي بكر في طلبها حتى إذا دنوا منهم قال عمرو بن أبي سفيان الكلابي - وكان حازماً عاقلاً - : أمكثوا . . . ومضى هو منتكراً حتى لقي رجلاً من بني خزاعة فسلم عليه واستساقه فسقاه ، وانسب له هلالياً ، فسأله عن قومه وأين مرعى إبلهم ، وأعلمه أنه رائد لقومه يريد مجاورتهم ، فغيره الرجل بكل ما أراد ، فرجع إلى قومه وقد نال ما يفتنى ، فصيح القوم ، فظفرت بهم بنو كلاب ، وقتلوا قيس بن الصمة ، وذهبوا بإبل خزاعة وارتجعوا لإبلهم^(١) .

وفي يوم الفلج بعث بكر بن وائل عيناً على بني كعب بن ربيعة حتى جاء الفلج - وهو ماء - فوجد النعم بعضه قريباً من بعض ووجد الناس قد احتماوا ، فليس في النعم إلا من لا طبّاخ به - القوة والسمن - من راع أو ضعيف ، فجداهم عينهم بذلك ، فركبت بكر بن وائل يريدونهم ، حتى إذا كانوا منهم بحيث يسمعون أصواتهم سمعوا الصهيل وأصوات الرجال ، فقالوا المينهم ، ما هذا وبلك ؟ قال : والله ما أدري وإن هذا لما لم أعهد . فأرسلوا من يعلم عليهم ، فرجع فأخبرهم أن الرجال قد رجموا ، وأنه رأى جمعاً عظيماً وخيولاً كثيرة ، فكروا راجعين من ليلتهم^(٢) .

٦ - وكانو يتصحبون نساهم في الحروب لسقى الماء ، وتضميد الجراح وبعث الحمية ، قال عمرو بن كاثوم في معلقته :

على آثارنا بيض حسان	نحاذر أن تقسم أو تهونا
ظعائن من بني جُشم بن بكر	خطلن يميم حَسباً وديننا
بقتن جيانا ويقلن لستم	بُعولتنا إذا لم تمنعونا
أخذن على بعولتن عهداً	إذا لاقوا كتاب معلينا

ليستلبن أفراساً وييضن وأسرى في الحديد مقريننا

إذا لم نحصين فسلا بقينا لشيء بعدهن ولا حيينا (١)

وفي غزوة أحد خرجت قريش بعدها وحديدها . . . وخرجوا معهم بالظعن
 الخماس الحفيظة وألا يفروا ، وخرج أبو سفيان بن حرب - وهو قائد الناس - يهتد
 ابنة عتبة ، وخرج عكرمة بن أبي جهل بأبى حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة ،
 وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة ، وخرج صفوان
 ابن أمية ببرزة بنت مسعود بن عمرو بن عمير الثقفية ، وخرج عمرو بن العاص بريطة
 بنت منبذة بن الحجاج ، وخرج طلحة بن أبي طلحة - وأبو طلحة عبد الله بن عبد العزى
 ابن عثمان بن عبد الدار - بسلافة بنت سعد بن شهيد الأنصارية ، وخرجت خنساء
 بنت مالك بن الحضرب مع ابنتها أبي عزيز بن عمير ، وخرجت عمرة بنت عقبة الحارثية ،
 وكانت هند بنت عتبة كلما مرت بوحيى أو مر بها قالت : وميأ أبادئمة ، اشف
 واشف (٢) .

ولم يكن استصحاب الظعائن عرفاً عاماً عند العرب ، يدل على ذلك ما دار من
 حوار بين دريد بن الصمة ومالك بن عوف النصرى قائد هوازن يوم حنين ، قال
 دريد : يا مالك ، إنك قد أصبحت رئيس قومك ، وإن هذا يوم له مابعده من الأيام ،
 مالي أسمع رغاء البعير ، ونهاق الخيبر ، وبكاء الصغير ، ويغار - صوت - الشاه ؟ قال :
 سقت مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم . قال : ولم ذلك ؟ قال : أردت أن أجعل
 مع كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم ، فزجره ، وقال : راعى ضأن والله ، وهل يردُّ
 المنهزم شيء ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورحمه ، وإن كانت عليك
 فضيحت في أهلك ومالكك ويحك . إنك لم تصنع بتقديم بيضة هوازن - جماعتهم -

(١) شرح القصائد المشعر للخبزى ٢٤٧

(٢) سيرة ابن هشام ٥/٣ - ٦

إلى نحو الخيل شيئا، أرفعهم إلى مَدَنِّع بلادهم، وعليا قومهم، ثم التقي الضبباء - جمع صابئة، يريد المسلمين وقد كانوا يسمونهم بهذا الاسم لأنهم في نظرهم صبتوا عن دينهم - على متون الخيل، فإن كانت لك لحنى بك من ورامك، وإن كانت عليك كنت قد أحرزت أهلك ومالك. قال: لا والله لا أفعل ذلك، إنك قد كبرت وذهل عقلك. قال دريد: هذا يوم لم أشهده ولم يفتني^(١).

فلو أن اصطحاب الضعائن كان نظاما عاما مطردا ما عابه دريد بن الصمة وما قال للملك إنك راعي ضأن، أي لا خبرة لك بالحرب، وإنما أنت حريص على المال.

٧ - ولحكاهم الجربين للحرب وصايا مستمدة من طول ممارستهم لها وخبرتهم بها، فقد استشار قوم أكرم بن صيفي في حرب قوم أرادوهم وسألوه أن يوصيهم، فقال: أقلوا الخلاف على أمرائكم، واعلموا أن كثرة الصباح من الفشل، والمرء يعجز لا عمالة، تثبتوا فإن أحزم الفريقين الركين، ورب عجلة تهب ريثا، وانزروا للحرب، وأدرعوا الليل، فإنه أخفى للويل، ولا جماعة لمن اختلف عليه^(٢).

ح - زمن المقاومة

١ - تقاتلوا بالليل، وتقاتلوا بالنهار، ويظهر أن أكثر الإغارات كان ليلا والقوم رقاد، فهي مفاجأة فيها غنائم بأقل الخسائر، قال سعد بن مالك في قتل كعب بن مزيقياء الملك الغساني يتحدث بالهجوم ليلا.

وليسلة تبع وخميس سعد أتونا بعد ما نمنا ديبيا
فلم نهدأ لبأسهم، ولكن ركبتنا حد كوكبهم ركوبا
بضرب تفلق الهامات منه وطعن يفضل الحلق الصليا^(٣)

(١) الفقد الفريد ١٥٦/١ - ١٥٧ وسيرة ابن هشام ٦٦/٤

(٢) عيون الأخبار جلد ١٠٨/١ والفقد الفريد ١١٣/١

(٣) البيان والتبيين ١٥/٣

وتحدث أيضا عياض الاسدي بهجوم الليل :

ومناجاة الجيش ليلة أقيمت إباداً يزيحها المأمم محرقاً^(١)

وافخر عنزة بكشيبة من أصحابه الأباة الشجعان جمعهم للإغارة وقد تمايلت أعتاقهم
من النوم ، وقادهم في ظلام الليل حتى انقضت الضحوة وأقبل الهجير فظلمن عدوه :

وصحابة شم الأنوف بعشهم ليلاً وقد مال السكري بطلها

وسريت في غلس الظلام أقودهم حتى رأيت الشمس زال ضعاها

ورأيت في كبد الهجير فوارساً فطعننت أول فارس أولها^(٢)

وأيات عنزة هذه صالحة أيضا للدلالة على حرب النهار لأنه سار بصحبه ليلاً
وقاتل أعداءه نهاراً .

١ - وأحياناً كانوا يغيرون نهاراً أو صباحاً ، قال عامر بن الطفيل إنهم هجموا
على أعدائهم صباحاً بكل حصان ضامر عال ، ومعهم رماح قصار تقدر الحديد ، وما
لبوا أن لقوا أعداءهم ففترقوا أمامهم كأنهم شاءت بفتها ذئب :

صبحناهم بكل أقبّ نهدٍ ومطرّد له يقصد الحديد

لقينا جمعهم صباحاً فكانوا كمثل الضأن عاذاهن سيد^(٣)

وقال عروة بن الورد :

ونحن صبحنا عامراً إذ تمرست

بكل رفاق الشفرةين مهند

وقال البراق :

صبحناهم على جسر عناق

وقد زرنا الضفاعة بى لهم

(١) البيان والتبيين ١٥/٣ (٢) ديوان عنزة ١٨٤ أولها : أول طعنة

(٣) ديوان عامر وعبيد . ١١ . ١٧١١ . أقب : ذئب الحصر ضامر البطن . مطرد : رمح أصبر

(٤) شعراء الصراية ١٠٩ تمرست : تعرضت . علاقة : طعنة بيد ملعن . رفاق : رقيق

(٥) شعراء الصراية ١٤٣ قوارى : فار الشبي : نعله من وسطه خرقة مستديراً

وفي لسان العرب : « باصباحه كلمة تقولها العرب إذا صاعوا للغارة ، لأنهم أكثر ما يغيرون وقت الصباح ، فسكان القائل باصباحه يقول : قد غشدنا القوم صبحاء (١) ويقول النضر الرازي : كانت الخيل تغير على العدو وقت الصباح ، وكانوا يغيرون صباحاً لأنهم في الليل لا يبصرون ، ولأن الأعداء في النهار مستعدون للدفاع والحرب ، أما الصباح فهو وقت النقلة (٢) ، وكانوا لا يستطيعون أن يغيروا في القبيض ، لأنه لا يستطيع أحد أن يقطع تلك الصحارى لبعده مسافتها وشدة حرها (٣) .

٣ - وكانوا إذا اجتمعوا للحرب دخلوا بالنهار وأوقدوا باليل ، ليعلموا العشاء والأحلاف ويجمعوهم ، قال عمرو بن كلثوم في معلقته :

ونحن غداة أوقد في خزاي رقدنا فوق رقد الرافدين
وقال خنعم السدوسي :

ندخنُ بالنهار ليصرونا ولا نخفي على أحد أئانا (٤)
٤ - هدنة إجبارية :

وكانوا لا يقاتلون في الأشهر الحرم ، ويحرمون فيها القتال والعدوان الفردي والجماعي ، حتى لو لقي الرجل قاتل أبيه لم يتعرض له . وهذه الأشهر الحرم هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب .

وقد كان هذا النوع من المهادنة ذا حكمة بالغة في أمة دأبها شن الغارات والثورات واعتياد السطو والسلب ، لأن الهدنة تهيء مجالاً للعقلاء والحكاه أن يصلحوا ذات الين ، ولأنها تخفف من وقدة العدا بين الأفراد والجماعات فلا يسترسلون في التفاني والالقياد لتوازع الشر ، ولأنها تسكفل لكل إنسان وقتاً يأمن فيه على نفسه وماله ، فينتقل ها هنا أو ها هنا راعياً أو تاجراً أو حاجاً .

(٢) الفخر الرازي ٦٥٩/٨
(٤) البيان والتبيين ١٦/٣

(١) لسان العرب مادة صبج
(٣) أيام العرب ١٢٦

وكان الفرسان إذا أتوا عكاظ في الأشهر الحرم تمتنعوا حتى لا يبرقوا ، ولعل هذا لتلايمهجو في النفوس ذكرى الإحن ، أو عفاقة أن يفتالهم ممثال تتغلب شهوته للاتتمام على رعاية الشهر الحرام ، إلا ما كان من أبي سليط طريف بن تميم فإنه كان يرد موق عكاظ غير تمتنع ، كما سيهجي .

و- أدوات القتال

كانوا يحرصون على أدوات القتال ، لأنهم بها يحمون حياتهم ، ويضيقون على أعدائهم ، ويكسبو أرزاقهم ، ويثأرون ويفتمنون . وكل منهم يحمل سلاحه لا يفارقه ، ليكون أقرب إليه إذا حزب الأمر ، قال أبو دلف العجلي :

إني امرؤ عردني مَهْرِي رَكُوبَ النَّاسِ
يَحْمَسُنِي سَيْبِي كَمَا يَحْمَدُ كَرِي قَرَسِي
سَيْبِي بَلِيلَ قَبَسِي وَفِي نَهَارِي أُنْسِي^(١)

وأدوات الحرب عندهم كثيرة :

١) السيف :

السيف أحسن آلاتهم ؛ وأشهرها ذكرأ وأكثرها أسماء وصفات ، وكانت أحياناً تصنع بالمدينة ، صنعها بعض القيون ، وقد اشتهر بصناعتها اليهود ، وقالوا إن أول من صنعها من العرب الهالك بن عمرو بن أسد بن خزيمية ، ولذا قيل لبني أسد (القيون) وقيل لكل حداد (هالكي)^(٢) .

على أنهم استوردوها من بلاد آخر كالهند ، فعنزة يقول :

أكر على الفوارس يوم حرب ولا أنخشي المهنسة الرقاقا
وتظربني سيوف الهند حتى أهيهم إلى مضاربها اشدياقا^(٣)

(١) المقدم الفريد ١٢٠/١ لجنة التأليف

(٢) ديوان عنزة ١١٤

(٣) القاموس المحيط مادة هلك

وأحياناً نسبوها إلى الروم ، قال عامر المحاربي :
نراوج بالصخر الأصم ديموسهم إذا القلع الرومي عنها تلبا^(١)
وإلى مشارف الشام وهي قرأنا :
نجيد الطعن بالشمم العوالي ونضرب بالسيف المشرفية
وإلى اليمن ، قال عنترة في رثاء صديقه مالك بن زهير العبسي :
كنت أسطو حينما جدت ألميدا غداة اللقا نحوي بكل يمان^(٢)
وقال :

بأسمر من رماح الخط لَدنِ وأيض صارم ذكر يان^(٣)
والمشرفية أجود سيوفهم ، وقد اختلفوا في هذه النسبة ، قال البكري في معجم
ما استمعهم : إن المشارف قرى من قرى العرب تدنو من الريف ، واحدها مشرف
وقال في موضع آخر : وهي مثل خيبر ودومة الجندل وذى المروة والرحبة . وقال
في (مؤنة) وكان لقاء المسلمين بالروم في قرية يقال لها مشارف من تخوم البلقاء .
فالسيف المشرفي إن كان منسوباً إلى الأول فالنسب قياسي لأن الجمع يرد إلى الواحد
فينسب إليه ؛ وإن كان منسوباً إلى الثاني فالنسب على خلاف القياس .
وقال أبو عبيدة . هي قرى من أرض العرب تدنو من الريف ، يقال سيف مشرفي
ولا يقال مشارفي ، لأن الجمع لا ينسب إليه إذا كان على هذا الوزن .
وقال صاحب المصباح -- وقد نقل هذا -- : وقيل هذا خطأ بل هي نسبة إلى
موضع من اليمن .

وقال ابن الأنباري : المشرفي منسوب إلى المشارف ، وهي قرى للعرب تدنو من
الريف ، ويقال بل هي منسوبة إلى مشرف وهو رجل من ثقيف .

(١) الفضليات ١٥٣ السندوي . القلع : السيوف (٣) الديوان ١٧٧

(٢) الديوان ١٧٩

وفي القاموس المحيط : ومشارف الشام قرى من أرض العرب تدنو من الريف
منها السيوف المشرفية .

وفي العمدة : سيف مشرف منسوب إلى مشرف وهي قرية باليمن كانت السيوف
تعمل بها ، وليس قول من قال إنها منسوبة إلى مشارف الشام أو مشارف الريف
بشيء عند العلماء وإن قاله بعضهم^(١)

وقد برعوا في وصف السيوف والفتخار بها ، فهذا أوس بن حجر يصف سيفه
بأنه هندي يتلألأ عده كما يتلألأ البرق في سحاب كثيف ، وإذا ماسله من غمده خيل
للرائ أن فرنده يتساقط كأنه سهالة الفضة تتساقط على المبرد ، وفرنده يشبه طرائق
التحل في الربا ، أو طرائق صفار النمل اللاجيء إلى السهل :

وأبيض هنديا كأن غزاره	تلألأ برق في حبي تمألا
إذا سل من غمده تأكل أثره	على مثل مسحة العجين تأكلا
كأن مدب التحل يتبع الربا	ومدرج ذر مخاف برداً فأسلا
على صفحته بعد حين جلالاته	كفي بالذي أبل وأنت مناصلا ^(٢)

٢) الرماح :

كانوا يستوردونها من الهند إلى الحط على ساحل البحرين ، فقالوا حطى وخطية ،
قال الأصمعي : ليست تلبث الرماح ولكن سمن الرماح ترفأ إلى هذا الموضع فقيل
للرماح خطية^(٣)

ويعطى القنا الحطى في الحرب حقه ويبدى بحد السيف عرض المناكب
واشتهرت من العرب ردينة بتقويم الرماح وإصلاحها قال عنقرة :
إذا خصمي تقاضاني بدينى قضيت الدين بالرح الردينى^(٤)

(١) العمدة ١٧٩/٢

(٢) الديوان ٢٠ وشعراء النصرانية ٤٩٥ الترار : الحد . الحبي : السحاب . الأثر بالفتح والسكر :

الفرند . المسحاة : المبرد . الثر : صفار النمل . التصل : السبب

(٤) ديوان عنقرة ١٧٢

(٣) العمدة ١٨١/٢

ونسبونها أيضا إلى سمير ، زوج رديئة ، وهو رجل يبيع الرماح بالخطأ قال عنتره :
وأطعن في المديح إذا الخيل صدها شداة الصباح السميري المقصد^(١)
ونسبونها أيضا إلى ذى بن الملك فقالوا : اليزنية ، والأزانية ، واليزانية^(٢) .
ومن أنواعها القمصية وهي ضرب منها ينسب إلى قمصب رجل قشيري كان

يعملها ، وكذلك الشريعة أيضا قال الأعشى :

ولدين من الخطل فيها أسنة ذخائر مما سنّ أزي وشرب

وفي رأى أبي عبيدة أن أجود السهام سهام بلام وسهام يثرب ، وهما بلدان قريبان
من حجر اليمامة ، وأنشد للأعشى :

بسهام يثرب أو سهام بلام^(٣)

ولكن البيت في ديوان الأعشى :

منعت قياس الماسنجية رأسه بسهام يثرب أو سهام بلاد^(٤)

وقد أجاد أوس بن حجر وصف رجه ، قال إن كهوبه ضامرة صلبة كئوى التمر
البابس ، وإنه لدن مهز ، وفي طرفه فصل لامع كمصباح النصرانى الذى أوفده فى عيد
القصص وملاؤه زيتا :

وإن امرؤ أعددت للحرب بعدما رأيت لها نابا من الشر أعصلا

أصم رديئا كان كهوبه نوى القصب عراضا مزججيا منصلا

عليه كمصباح العزير يشبه^{١٨٤} لفضيح ، ويحشوه الذبال المفتلا^(٥)

ووصف راشد بن شهاب الأيسكري رجه بأنه لدن يضطرب كله إذا هزه ، على

أنه صلب :

(١) الديوان ٤٧ المقصد : المسكر ، أى حين يفتد القتال وتنسكر الرماح فى صدور الخيل

(٢) العمدة ١٧٩/٢ (٣) العمدة ١٨٠/٢ (٤) الديوان ١٨

(٥) ديوان أوس ٢١ وشعراء النصرانية ٣٨٠ أعصل : معوج صلب . أصم : رجع متعرج .
كهوبه : عقد أنابيبه . القصب : التمر البابس . العراض : المهز . القصص : عيد لئنصارى .

وَمَطْرَدُ السَّكْبِينِ أَسْمَرُ عَاتِرٌ وَذَاتُ قَيْبِيرٍ فِي مَوَاصِلِهَا أَدْرَمٌ^(١)

وهذا المزرد بن ضرار يبدع في وصف عدده الحربية ، ومنها الرمح فهو لين مهتز كأنما يهتاه زيت سائل لا ينقطع عن سقيه ، وهو مصمت إذا ما هزه من مقبضه اهتز أعلاه كأنه ثعبان خدر ، وله سنان حاد مشرق كأنه هلال يتلألأ في ظلام الليل :

وَمَطْرَدُ لَدُنْ السَّكُوبِ كَأَنَّمَا تَنْفَسُهُ مَنِيَّاعٌ مِنَ الزَّيْتِ سَائِلٌ

أَصَمٌّ إِذَا مَا هَزَّ مَارَتْ سَرَائِهِ كَمَا مَارَ ثَعْبَانُ الرَّمَالِ الْمُوَاتِلِ

له فارطٌ ماضى الفِرَارِ كَأَنَّهُ هَلَالٌ بَدَأَ فِي ظِلَّةِ اللَّيْلِ نَاحِلٌ^(٢)

(٣) القسي :

أعواد من خشب لين مثنى قوى تقوس كالللال ، ويثبت فيها وتر من جلد الإبل ترمى به السهام ، وكانت السهام تراش لتسكون أسرع مضيا ، وأعدل اتجاهها إلى الهدف .

وأجود القسي العصفورية منسوبة إلى رجل يسمى عصفوراً والسكنائن ، محافظ النبال ، والسكنائن الزُغرية منسوبة إلى زُغَر موضع بالشام كانت تصنع به كنانن حمر مذهبة ، أو إلى زُغَر وهي قبيلة كانت تصنع هذه السهام^(٤) .

قال الثمنفري : في وصف قوس :

وَإِنِّي كَفَانِي فَقَدَّ مِنْ لَيْسٍ جَازِيًا بِحَسْنِي وَلَا فِي قَرَبَةٍ مُتَعَلِّئًا

ثَلَاثَةُ أَصْحَابٍ : فَوَادٌ مُشَيِّعٌ وَأَبْيَضٌ إِصْلِيئٌ ، وَصَفْرَاءٌ عَيْطَلٌ

هَتُوفٌ مِنَ الْمَلْسِ الْمُتَوْنِ يَزِينُهَا رَصَائِعُ قَدْ نَيْطَلَتْ إِلَيْهَا وَرَسْمَلٌ

(١) الفضليات ١٠٨/٢ السكبين : أراد بهما أعلاه وأسفله . عاتر : صاب . ذات قيبير : درع

والقبيبر رهوس مسمية الدرع . الأستواء

(٢) الفضليات ٩٧/١ مطرد : ابن مهتز . منبوع : سائل . أصم : ليس بأجوف . سرائه : أعلاه .

موائل : مجازر . فارط : سنان . فرار : حد

(٣) القاموس المحيط مادة زغر

إذا زل عنها السهم حنت كأنها مرزأةٌ سُكِلَى تَوْرِبٌ وتُعول^(١)
 وقد تناول أوس بن حجر وصف القوس مذ كانت غصنا في شجرة ، فقال إن
 الشجرة التي أخذت منها القوس كانت نابتة على جبل أشم بجباله السحاب ، وهذا
 الجبل أملس كأن صخوره أرويت بدهن تزاج منه قدم من يصعد إلى الجبل ، يريد
 بذلك أن الشجرة بعيدة المنال ، وأن القوس المأخوذة منها نادرة المثال ، فهي أحسن
 الأقواس المروضة للبيع أو المهددة للحرب . وقد أبصرها من أبصرها ورأى في جانب
 الجبل صدعا ورأى لقدمه في كل مكان مرتفع موضعا ومزلا ، فحشم نفسه أن يصعد
 إليها ، فصعد متحملا للدوب التي يحمدها الصخر بأصابعه ، وسمحلا أن يأكل الصخر
 أظفاره ، وما زال كذلك حتى وصل ، وقطع الغصن وصنتله ، وقد اعتاد أن يصقل
 القسي ويرى أعوادها ، وآخر يجهها صفراء وسطا بين الطول والقصر ، ملء الكف ،
 إذا ما استعملت سمحت لها صر تاهو النيم والأزمل ، وإذا شد وترها تقارب قاباها حتى
 يتصل السهم بمقبضها ، ثم ينطلق إلى غايته البعيدة :

ومبضوعة من رأس فرع شظية	بطود تراه بانسحاب مجللا ^(٢)
على ظهر صفوان كان متونه	علين بدهن يزلق المتزلا
يُطيف بها راع يحشم نفسه	ليكلا فيها طرفه متاملا
على خير ما أبصرتها من بضاعة	التمس يبعها أو تبكلا ^(٣)
فوق جبل شاخ ان تناله	بقته حتى تصكِل وتعملا
فأبصر أهابا من الطود دونه	يرى بين رأسي كل نيقن مهيللا ^(٤)
فأشرط فيها نفسه وهو مصم	والقي بأسباب له وتوكلا
وقد أكلت أظفاره الصخر كسا	تعبا عليه طول مرقي تسلا

(١) أعجب العجب في شرح لامية العرب . الزعشري ص ١٥ . شجاع . أبيس إصابت : سيف صقيل . صفراء عيطل : قوس طويقة . حنت : صوتت . مرزأة : مصابة
 (٢) مبضوعة : مقطوعة (٣) التبكيل : التنبية
 (٤) الألباب : جمع لب : الصدع في الجبل الثيق : المكان المرتفع . الليل : للزلزل

فأ زال حتى نالها وهو عَشْفُقٌ نعلى موطن لو زَلَّ منه تَقَصُّلا
 فلما قضى مسأريد قضاءه وحل بها حرصا عليها فأطولا
 أمرٌ عليها ذات حدٍّ ، غُرَابُهَا رَفِيقٌ بأخذ بالمداوس ، صَبَقْلًا (١)
 على نَجْدِيهِ من برأية عودها شبيه سَفَا البهي إذا ما تَقَصَّلَا (٢)
 فجردها صفراء لا الطولُ عابها ولا قَصْرٌ أزرى بها قَتَعَطَّلَا
 كَتُومٌ طلاع السكف لا دون ملثها ولا يَجْسِمُها من موضع السكف أفضلا (٣)
 إذا ما تماطروها ممدت لصورتها إذا أنبضوا عنها نثما وأزملًا (٤)
 وإن شدَّ فيها النزعُ أدبر سَهْوُهَا إلى منتهى من عَجَسَها ثم أقبلا (٥)
 ووصف راشد بن شهاب اليشكري نبأه بأنها متشابهة ، وطوال ، ووصف قوسه
 بأنها فرع من أعلى شجرة مصونة ، وليست هذه الشجرة نابتة على سيف نهر فتسكون
 ربا دائما فتضعف أغصانها ، وليست شجرة ضعيفة كالخيزر مثلا :

ونبلُ قرانُ كالسيور سَلَاجِمُ وفرعٌ هَتُوفٌ لا سَبَقِيٌّ ولا نَثَمٌ (٦)

(٤) الدروع :

الدروع أردية من الحديد المنسوج حلقات متصلة ، تلبس لتغطي الظهر والصدر
 ونصف الذراعين تقريبا ، فرد الطلعنات وتقي لابسها السهام .
 ولم يكن لابسها والاتقاء بها جينا وتبريا من الموت ، بل كان حافزا على الصبر في
 المواقع والبيات في المقاتلة . وكان بعض المشجعان يلبس درعين لأنه هدف الأعداء .
 يقول علقمة بن عبدة في مدح الحارث بن جبلة :

- (١) غرابها : حدها . صيقل : صفال (٢) البهي : نبات ، وأسفت البهي سقط مسفاها
 (٣) كتوم : لا صدع في نبتها . طلاع السكف : ملء السكف . العجس : مقبض القوس
 (٤) أنبضوا عنها : حركوا وترها : النثم والأزمل : صوت القوس
 (٥) الديوان ٢١ وشمراء النصرانية ٤٩٥ النزع : شد القوس
 (٦) الفضليات ١٠٨/٢ . قران : متشابهة . سلاجم : طوال . السقي : ما نبت على النهر . الغنم :

مظاهر سر بالي حسسديك عليهما عقيلًا سيوف عظيم وزسوب^(١)
وفي يوم أحد كان على النبي صلى الله عليه وسلم درعان^(٢)، وكانت درع على
رضي الله عنه صدرًا لا ظهر لها به قيل له في ذلك فقال: إذا استمكن عدوي من
ظهري فلا يبق^(٣)

وقد نسبوا إلى فرعون وداود وسليمان وتبع ومُحترق يريدون أنها قديمة جيدة
الصنعة^(٤)، فقد كان الناس وما زالوا يتخبرون أن القديم أجود صناعة وأشد إحكاما
من الجديد. قال بشامة بن الغدير:

وحشوا الحرب إذا أوقدت رماحا طوالا ونيلًا خولًا
ومن نسج داود موضوثة رى للقواضب فيها صليلا^(٥)
وقال طرفة:

وهم ما هم إذا ما لبسوا نسج داود لباس مختصر^(٦)
وقال سلامة بن جندل:

لبسوا من الماضي كل مفاضة كأنهى يوم رياحه الرقاق
من نسج داود وآل محرق غال غرائبهن في الأفاق^(٧)

ونسبوا أيضا إلى سلوق - قرية اليمن - قال: الزابغة في وصف سيوف الفسامة:

تقد السلوق المضعف نسجه وتوقد في الصفاح نار الحجاب^(٨)

ونسبوا أيضا إلى الفرس، قال عمر بن امرئ القيس إنهم يمشون في الدروع
الفارسية كأنهم خول الإبل:

(١) الفضليات ١٩٤/٢ عظيم: فاطم، زسوب: غائم في الضريبة وكان الحارث يحمل سيفين أيضا

(٢) عربون الأخبار ١٢٨/١

(٣) المرجع نفسه ١٣١/١

(٤) العمد ١٧٩/٢

(٥) الفضليات ٥٧/١ (٦) ديوان طرفة ٥٨ (٧) ديوان سلامة بن جندل ١٤

(٨) العقد الفريد ١/٥٧١ الصفاح: حجارة رقائق عراض، نار الحجاب: ما اقتدح من شرر النار

من اصطكاك الحجارة، أو نار ذباب يطير بالليل له شرر كالسراج

إذا مشينا في الفارسي كما نمشي جمال مصاعب قُطِف

نمشي إلى الموت من حفاظنا مشيا ذريبا وحكنا نَصَف^(١)

وقال دريد بن الصَّمَّة في رثاء أخيه :

نصحتُ عارض وأصحاب عارض ورهط بني السرداء والقوم شهدي

فقلت لهم ظنوا بالني مدحج سراتهم في الفارسي المسرد^(٢)

ونسبها إلى عاد ، قال راشد بن شهاب اليشكري بعد أن افتخر بسيفه ونبله

وقوسه ورمح ودرعه :

لعادية من السلاح استعرتها وكان بهم فقر إلى الغدر أو عدم^(٣)

ونسبها إلى تبع . قال المزرد بن ضرار الذيباني في وصف سلاحه ، إن له درعا

ضافية واسعة مفسوبة إلى تبع ملك النين ، وقد شدت المسامير حلقاتها وأحكمت اتصالاتها ،

ولذا تهبها السهام الطوال ذات النصل العريض ، وهي درع لينة ملساء تشبه ظهر السمكة

لينا وملاسة ولذا تعجز عن قطعها الرماح والسهام ، وفيها طرائق كالوشاح ، سابعة

ضافية تزيد على أنامله ، ذات صيت يدوي ، فإذا اجتمعت القبائل للذياد عن المحارم

أشارت الأيدي إليها .

ومسفوحة فضفاضة تبعية وآها القنير تجتموها المعابل

دلاص كظهر النون لا يستطعها سنان ولا تلك الحياض الدواخل

وموشحة بيضاء دان حبيكها لها حاق بعد الأنامل فاضل

مشهرة تحق الأصابع نحوها إذا جمعت يوم الحياض القبائل^(٤)

وقد أعجبوا بسبوغ الدرع وافتخروا به ، قال امرؤ القيس في قصيدة يهدد بها

بني أسد بقوته وعدده الحرية .

(٢) جهرة أشعار العرب ٢٢٥

(١) جهرة أشعار العرب ٢٦٢

(٣) المفضليات ١٠٩/٢

(٤) المفضليات ٩٦/١

وَمَسْفُودَةُ السَّكِّ مَوْضُوعَةٌ تَمَّامٌ فِي الدَّبِي كَالْمَسْبُودِ

تَقْبِضُ عَلَى الْمِرَّةِ أَرْدَانَهَا كَقَبْضِ الْآقَى عَلَى الْبَدَجِدِ (١)

ووصف راشد بن شهاب اليشكري درعه بأنها ذات رموس من المسامير تصل الخلفات وأنها مستوية الموصل ، ومنسوجة حلقتين حلقتين نسيجا محكما ، وأنها قديمة منسوبة إلى حطمة بن محارب بن عبد القيس وكان صانع درع ، ثم هي ضافية سابغة تقطى الكف والأصابع والقدم :

وَمُطَرَّدُ السَّكِّينِ أَسْمَرُ عَاتِرٌ وَذَاتُ قَتِيرٍ فِي مَوَاصِلِهَا دَرَمٌ

مُضَاعَفَةٌ جَدَلَاءُ أَوْ حُطْمِيَّةٌ تُقْسَى بِنَانَ الْمِرَّةِ وَالْكَفِ وَالْقَدَمِ (٢)

وقد افتخر عمرو بن كلثوم في معلقته بعددهم الحربية ومنها الدروع السوابغ ، قال ان دروعهم كاسية ضيقة الخلق محكمة النسيج خفيفة حتى إنها تغضن ، وإنيهم قد ألفوا لبسها حتى إنها سودت جلودهم ، وعاد إلى تغضنها فشبها بسطح الفسدير إذا مرت به الريح :

عَلَيْنَا كُلُّ سَابِغَةٍ دِلَاصٍ تَرَى فَوْقَ النَّطَاقِ لَهَا غَضُونَا

إِذَا وَضَعْتَ عَنِ الْإِبْطَالِ يَوْمَا رَأَيْتَ لَهَا جُلُودَ الْقَوْمِ جُونَا

كَانَ غَضُونَهُنَّ مُمُونٌ غُدْرِيٍّ تُصَفِّقُهَا الرِّيَّاحُ إِذَا جَرَيْنَا

وكانوا معجبين بالدروع الخفيفة التي تبدو غضونها ، وكافين بتشبيه غضونها بتجمعات الماء إذا ما صفقه النسيم ، فهذا أوس بن حجر يصف درعه بهذا كما وصف عمرو بن كلثوم ، ويزيد عليه أن درعه وضادة كأن أشعة الشمس تبعث منها ، وهو معجب بها ، يقي بها نفسه ، ويتحصن ، ويزين :

وَأَمَلَسَ حَوْلِيَا كَنِيهِ قَرَارُهُ أَحْسَنُ بَقَاعٍ تَفْعَحُ رِيحٌ فَأَجْفَلَا

كَأَنَّ قُرُونَ الشَّمْسِ عِنْدَ ارْتِفَاعِهَا وَقَدْ صَادَفَتْ طَلْعًا مِنَ النُّجُومِ أَعْرَلَا

(١) شعراء الصمرانية ٤١ الآقَى : السبل . المجدد : الأرض الصلبة المستوية

(٢) اللقبليات ١٠٨/٢ درم : استواء .

تردد فيه عضوها وشعاعها فَأَحْصَيْنِ وَأَزَيْنِ لَأَمْرِي أَنْ تَسْرِبَ لِي (١)
وافتحتر عنقرة بأن وسادة درعه وصيفه ، وبأن مضيله ظهر حصانه :

أيا عيل ما كنت لولا هسواك قليل الصديق كثير الأعداى
وحقك لا زال ظهر الجسواد مقبلي ، وسيفي وشرعي وسادى (٢)

وافتحتر بأن سنان رجه كثيرأ ما اخترق الدروع فوصل القلوب بالدروع :
ولو أن السنان له لسان حكي كم شكك درعا بالفؤاد (٣)

٥) البيضة :

التونس أو المغزر أو البيضة عظام الرأس في الحرب ، كانوا يتون بها رموسهم
من السيوف ، قال عباس بن مرداس :

فلم أر مثل الخي حيا مُصْبِحًا ولا مثلنا يوم التقينا فوارسا
أكرَّ وأهى للحقيقة منهم وأضرب منا بالسيوف القوانسا (٤)

وقال الأخص بن شهاب بن شريق إنهم يضربون رؤس القوم وحاميمهم وهو
يلبس البيضة ضربا تسيل منه الدماء طرائق على وجهه :

هم يضربون الككبش يبرق بيضه على وجهه من الدماء سباب (٥)
وقال المهلب في رثاء كليب ووعيده بالانتقام من بكر :

وترى سباع الطسير تنقر أعينا ونجر أعضاء لهم وضلوعا
والشرفية لا تخرج عنهم ضربا يمدُّ مقافرا ودروعا (٦)

٦) الترس :

الحجن والترس والدرقة بمعنى واحد ، وهو ما يحمل من بعض الجلود للوقاية من
وقعات السيوف على الأبدان .

(١) الديوان ٢١ وشعراء النصرانية ٤٩٤ النهي : القديم . الطنم : السكان الرنم . النجم :

النبات . أعزل . متجرد . تسربل : لبس

(٤) الخلسة ١/١٧٥

(٢) ديوان عنقرة ٥٣ (٣) الديوان ٥١

(٦) شعراء النصرانية ١٧٢/٢

(٥) الفضليات ٧/٢ سباب : طرائق

وقد عُدَّ المزرد بن ضرار عدده الخيرية ومنها الترس اللامع كأنه الشمس في طبقات النيام :

وجوب يرى كالشمس في طخية الدجى وأبيض ماض في الضرية قاصل (١)
وعدد أيضا أبو قيس بن الأسلت عدده التي يخوض بها الحروب ومنها الترس :

أسفرها عنى بذى رونق مهند كالملاح قطلاع
صدق حسام وادق جدده ويحيا أسمر قراع (٢)

(٧) اللواء :

علم يسكه رئيس المحاربين ، ثم صار يحمله على رأسه . وقال أبو بكر بن العربي :
اللواء غير الراية لأن اللواء ما يمد في طرف الريح ويلوى عليه ، والراية ما يمد
فيه ويترك حتى تصفحه الرياح ، وقيل اللواء دون الراية ، وقيل اللواء العلم الضخم .
والعلم علامة على محل الأمير يدور معه حيث دار . والراية يتولاها صاحب الحرب .
وكانت عاداتهم اتخاذ اللواء في حروبهم ، ومن عاداتهم جعل الرايات في أطراف
الراح ، ومن هنا نعرف الحكمة في إضافة الظل إلى الريح في قوله صلى الله عليه وسلم :
« حمل رزقي تحت ظل رحمي » .

وبعض الفرويين لم يفرق بين العلم والراية واللواء ، قال الفيروز آبادي : العلم :
الراية وما يمد على الريح ، وقال : اللواء : العلم (٣)
ولقد تعدد الألوية في الجيش الواحد ، ففي غزوة أحد خرجت قريش وحلفاؤها
ومعهم ثلاثة ألوية عقدوها في دار الندوة ، لواء يحمله سفيان بن عوف بن كنانة ،
ولواء الإساحيش يحمله رجل منهم ، ولواء قريش يحمله طلحة بن أبي طلحة . ويقال
خرجوا جميعا بلواء واحد يحمله طلحة (٤)

(١) الفضليات ٩٧/١ جوب : قوس

(٢) الفضليات ٨٤/٢ بنأ : معطوف . نحن أُرَادَ به الترس وجعله أسمر لأنهم كانوا يتخذون الترس
من جلود الإبل . القراع الصلب

(٣) القاموس المحيطة مادة علم ولوى

(٤) شرح نهج البلاغة ١٥٩/٣

وكان لواء المسلمين مع مصعب بن عمير ، ولما قتل أعطاه رسول الله على بن أبي طالب^(١)

وكان حامل اللواء مختار صديداً شجاعاً ، روى ابن هشام أن عثمان بن أبي طلحة كان يحمل لواء المشركين يوم أحد ويقول :

إن على أهل اللواء حقاً أن يَحْتَضِبُوا السُّدَّةَ أو تَدْفَأُ^(٢)

٨ الخيل :

أعزوها ، وحذبوا عليها . وافتخروا بها ، لأنهم كانوا يمتطونها في كرم وفرم ، وكانوا في ضربتهم إلى المركة يركبون الإبل ، ويقودون الخيل ليرجوها ، فإذا قربوا من عدوهم نزلوا عن الإبل وامتطوا الخيل ، لأنها أكثر عونا وأسرع حركة ، وكذلك فعلت قريش في غزوة أحد ، فقد تعبت في ثلاثة آلاف رجل ، ومعهم مائتا فارس قد جنبوها ، وجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد ، وعلى ميسرة عكرمة بن أبي جهل^(٣) .

وكثيراً ما كانوا ينزلون عن الخيل ويقاثلون على أقدامهم ، ويتداعون : نزال ، كما قال ربيعة بن مقروم الضبي :

ولقد شهدت الخيل يوم طرادها بسليم أو ظففة القوائم هيكل
فدعوا نزال فسكنت أول نازل وعلام أركبه إذا لم أنزل^(٤)
وقال مهلهل .

لم يطبقوا أن ينزلوا فنزلنا وأخو الحرب من يطبق النزول^(٥)
وكان الرجل منهم بيت طاويبا ويشبع فرسه ويؤثره على نفسه وولده ، من ذلك قول ربيعة بن مقروم الضبي :

(٢) سيرة ابن هشام ٢٠/٣

(٤) بلوغ الأرب ٨٥/٢

(١) سيرة ابن هشام ١٠/٣

(٣) سيرة ابن هشام ١١/١

(٥) بلوغ الأرب ٨٥/٢

وَتَمْرٌ شَفُوفٌ أَقْنَا بِهِ هَبَابٌ بِهِ غَيْرُنَا أَنْ يَصِيحَا
جَمَلْنَا السُّيُوفَ بِهِ وَالرِّمَاحَ مِمَّا قَسْنَا وَالْحَدِيدَ النَّظِيمَا
وَجُرْدًا يُقَرِّبُ دُونَ الْعِيَالِ خِلَالَ الْبُيُوتِ يَلْسُكُنَ الشُّحُوكِمَا
تَعَوَّدَ فِي الْحَرْبِ أَنْ لَا يَرَاكَ إِذَا كَلَّمَتْ لَا تَشْكِي الْكَلُومَا (١)

وكانوا يخصونها بلبن الإبل ، تقوية لها وإعزازاً . قال المتلمس في تهديده عمرو

ابن هند :

أَبَيْتَ لَنَا الْإِيَّامَ وَاللَّيْلَ زَبَاتٌ وَالصَّانِ الْمَرْهُقُ
جُرْدًا بِأَطْنَابِ الْبُيُوتِ تَعَلُّ مِنْ حَلَبٍ وَتُفَيِّقُ (٢)
وقال الأعرج المصنعي :

أرى أم سهل ما تزال تَفَجَّعُ تلوم وما أدري علام توجع
تلوم على أن أعطي الورد لِقِيحةً وما تستوى والورد ساعة تفزع
إذا هي قامت حاسراً مشمعةً نخيب الفؤاد رأسها ما تقنع
وقت إليه باللجام ميسراً هنالك يمجزي الذي كنت أصنع (٣)
وقال عترة لامرأته ، وكانت لا تقفأ تلومه في فرس يؤثره على نخيله :

لا تذكرى مهري وما أطعمته فيسكون جلدك مثل جلد الأجر
إن التَّبُوقَ لَهُ وَأَنْتِ مَسُودَةٌ فتأوهي ما شئت ثم تحوي (٤)
فأندرها أن يهجرها كأنها جرباء ، وأصر أن يكون اللبن شراب فرسه في كل
مساء ، وإن حزننت زوجته وألمت .

(١) المقضييات ١/١٨٣

(٢) ديوان المتلمس ٩ مخطوط بدار السكتب اللزيات : السنون العداد . انماي : الأسير .
المرهق : الذي أعجلته الخيل فرهقته

(٣) معجم الشعراء للرزباني ٢٥١ وشرح ديوان الحماسة المرزوقي ٣٤٩/١ الورد : اسم فرسه .
لقية : لبن الناقة . مشمعة : مسرعة . نخيب الفؤاد : طائفة الب . ميسراً : مهيئاً

(٤) ديوان عترة ١٩

وقد صور حاجب بن سيب الأمدى عواراً دار بيته وبين زوجته في شأن
فرسه ، تريد الزوجة أن يديه ليقتضوا بثمنه وقد راجت سوق الخيل ، وبأبي الزوج
وزداد إعزازاً لفرسه واعتزازاً به ، ويحدثها بميزانه والحاجة إليه في الحرب والسلام :

باتت تلوم على ناديتي ليشرى فقد جددت عصبانها
ألا إن نجهواك في نادق سواه علي وإعتلانها
وقالت : أغشنا به ذاتي أرى الخيل قد تاب أثمانها
فقلت : ألم تعلمي أنه كريم المسكبة ميدانها
كُتبت أمرٌ على زفرة طويل القوائم عريانها
نراه على الخيل ذا جراه إذا ما تقطع أقرانها
وهن يردن ورود القطا عثمان وقد مد مرانها
طويل العنان قليل المنا ر خاضى الطريقة ربانها
وقلت ألم تعلمي أنه جميل الطلالة حسانها
يجم على الساق بعد المنان يجموما ويبلغ إمكانها^(١)

وأكثرها من الحديث عنها ، وعن الجراح التي تصيبها من رماح الأعداء وسيوفهم
وافتحروا بثباتهم بها في اللقاء وهجمهم بها على الأعداء ، ومن أبدع ما قيل في ذلك
قول عنتره في معلقته :

لما رأبت القوم أقبل جمعهم يتنامرون كزرت غير مذمم
يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بر في لبان الأدم
ما زالت أرميم بشفرة نجره ولبانه حتى تسريل بالدم

(١) المفضيات ١٦٨/٧ نادق اسم فرسه . يشرى : يباع . تاب أثمانها : زادت . كريم المسكبة
نافع في كعب الأعداء والخل ملهم ، ميدان : سجن . كتبت : شديداً الحجر أو يخاطب حرته سواد . أمر
قتل كالخيل ، الزفرة : واحدة الزفير أي كأنه زفر وصار على حاله وهو زائر ، عريان القوائم : معروق
لا تحمل في قوائمها ، المنان : الرماح ، سد مرانها : المراد سد أو سد الأوتى : خاضى الطريقة : مكنت
الطهر ، الطلالة : ما يبرز منه ، حسانها : كامل الحصن ، يجم يكثر جريه ، المنان : البعد في الغاية ، يبلغ
إمكانها : تنال ساق منه ما تريد من الجرى أي أحركا بساقي فبزداد جريه

فأزور من وقع القنا بلبانه رشكا إلى بيورة وتعمس
لركان يدري ما الخاورة اشكي ولشكان نور علم النكلام مكسبي
وقال إن حبيته بحلة تسمى وتصبح على فراش رثير ، ولكنه بيت فوق ظهر فرس
أدهم ملجم ، وهو يستلين السرج كأنه حشيب ، ووصف فرسه بأنه غليظ القوائم
منتفخ الجنبين سمينما ، وهو فرس ضخم مشرف ، عظيم موضع الخزام :
تسمى وتصبح فوق ظهر حشيبه وأيت فوق سراق أدهم ملجم
وحشيب سرج على عبل الشوي تهيد مراكله ، نيل المنجم
وقد اشتهر وصف امرئ القيس لخصانه ، وهو في وصفه قد عزا إلى خصانه
كل المزايا الجسدية التي تصور قويا سريعا خفيفا ، فهو قصير الشعر ضخم الهيكل ،
بارع في الجري ، إلى الأمام وإلى الوراء ، سريع كأنه صخرة تنحدر من أعلى الجبل
ينفخها السيل . لونه بين السواد والحمرة ، وظهره أملس حتى لينزج عنه اللبد ، وينزلق
عنه الغلام الخفيف والرجل الثقيل المحرب للغيل ، وهو ضامر مندفع جياش كأن
ضباحه إذا اشتد جريه غليان مرجل ، سبوح لا يكاد يبطأ الأرض إذا ما أثارته
الخيال البطء النبار لأنها تلبث على الأرض . ويخيل لمن يراه يعدو أنه خذروف يدور
في بجلة وسرعة ، وشبهه في بيت واحد بعدة تشبيهات : فخاصرناه خاصرنا ظي
لضموهما ، وساقاه ساقا نعاما لختنهما وقلة لهما ، وجريه كجري الذئب وإسراع
الذئب ، وهو عظيم الأضلاع طويل الذيل ، لامع الظاهر ، كأن عليه طيب عروس
أو دهن حنظل ، وقد اصطبغ صدره بدماء الصيد فسكانه شيب مصبوغ :

وقد أخذى والطير في وكناتها	بمنجرد قيد الأوابد هيكل
مسكر مقر مقبل مدبر معا	بكله صخر حمله السيل من عل
كبت يزل اللبد عن حال منته	كأزلت الصنفواء بالمتزل
يزل الغلام الخفيف عن صهواته	ويأوى بأثواب الصنف المقل
على الذئب جياش كأن اهتزاه	إذا جاش فيه حيه غلي مرجل

مَسَّحَ إِذَا مَا السَّابِغَاتِ عَلَى الْوَتِيِّ
دَرِيرٍ كَعَذْرُوفِ الْوَلِيدِ أَمْرُهُ
لَهُ أَيُّطَلَا ظَلِي وَسَافَا نَعَامُهُ
ضَلِيلٌ إِذَا اسْتَدْبَرْتَهُ سَدُّ فَرْجِهِ
كَأَنَّ عَلَى الْمَتْنَيْنِ مِنْهُ إِذَا اتَّجَى
كَأَنَّ دِمَاءَ الْهَادِيَاتِ بِنَعْرِهِ
وَبَلَّغَ مِنْ إِعْرَازِهِمُ لِلخَيْلِ أَنْ رَفَضَ أَحَدُ فَرَسَانِهِمْ عَمِيدَ بْنِ رَبِيعَةَ الْعَمِيْنِ أَنْ يُعْطَى
أَحَدَ مَلُوكِهِمْ فَرَسَهُ إِلَى نَسْحَى سَكَابِ حَيْنَ طَالِبِهَا مِنْهُ ، وَتَوَعَّدَ الْمَلِكُ أَنْ يُجَارِبَهُ
إِذَا مَا حَاوَلَ أَنْ يَأْخُذَهَا عَنْرُهُ :

أَبَيْتَ اللَّعْنِ إِنْ سَكَابِ عَاقَى
مُضَادَّةٌ مَكْرَمَةٌ عَلَيْنَا
سَلْبَةٌ سَابِقَيْنِ تَسَاجِلَاهَا
فَقِيهَا عِزَّةٌ مِنْ غَيْرِ تَقَرَّرِ
فَلَا تَطْمَحُ - أَبَيْتَ اللَّعْنِ - فِيهَا
وَكُنِّي تَسْتَقِلُّ بِحَمَلِ سِنِي
وَحَوْلِي مِنْ بَنِي تَحْفَانِ شَيْبِ
إِذَا فَرَعُوا ظَمْرَهُمْ جَمِيعِ
وَمِنْ عَلَى حَقِّ فِي حَرَصِهِمْ عَلَى الْخَيْلِ وَفِي إِعْرَازِهَا وَالْفَتْخَانِ بِهَا ، لِأَنَّهَا تَعْنِيهِمْ عَلَى
النَّصْرِ وَتَجْمِيعِهِمْ مِنَ الْإِعْدَاءِ . قَالَ عَمْرُو بْنُ كَلْثُومٍ فِي مَعْلَقَتِهِ :

وَتَحْمِيْنَا غَدَاةَ الرُّوعِ جُرْدٌ
وَرَدْنَ دَوَارِعَا وَخَرَجْنَ شُهُمًا
عُرْفُنَا لَنَا نَقَائِدُ وَأَقْلَانَا
كَأَمْثَالِ الرِّصَائِعِ قَدْ بَلَيْنَا

(١) شرح القصائد العشر ٤٠

(٢) بلوغ الأرب ١٠/٢ السكرانج : مستوفى السابق . القراع : الحرب . شعاع : متفرقة سرية

ورثناهن عن آباء صمدى ونورثها إذا متنا بنينا^(١)
ومن عزازم الخيل واعتزازهم بها أنهم سموها ونسبوها كما يسمون أبناءهم
وينسبون رجالهم .

وقد مر بنا بعض أسمائها على ألسنة الشعراء ، ومن ذلك ما يذكره ابن هشام في
غزوة ذي قرد أن اسم فرس سعد بن زيد (لاحق) وفرس المقداد (بجزية) أو
(سبعة) وفرس عكاشة بن محصن (ذو اللمة) وفرس أبي قتادة (حزرة) وفرس
عباد بن بشر (لماع) وفرس أسيد بن ظهير (مسنون) وفرس أبي عبيد (جلوة)^(٢)
وكان لزيد الخيل - الذى سماه النبي زيد الخير - خيل كثيرة منها ستة ذكر
أسماءها في شعره ، فهنا يقول في الهطال :

أقربُ مربيط الهطالِ إني أرى حرباً ستلقحُ عن حبالِ
ويقول في الورد :

أبت عادة للورد أن يكره القنا وحاجةً نفسى في نُبيرٍ وعامر
ويقول في دوقل :

فأقسم لا يفارقنى دوقل أجول به إذا حكك الضراب^(٣)
وأحياناً كانوا يضطرون إلى القتال بأخجارة إذا فقدت الأسلحة أو لم توجد
وكثيراً ما كانت النساء يساعدن رجالهن برمي الأعداء بالحجارة
قال عامر المحاربى :
زواح بالصخر الأصم رموسهم إذا القلع الرومى عنها ثلماً^(٤)
وقال بعضهم :

(١) اللغات الصغرى ١٠٦ القلائد : جمر قيضة : الفرس التى أخذتها من السدو والدرع أيضاً ،
انتابن : اختزنناهن ، دوارع : علبين الدروع ، شمت : مقبرة ، الرصائع : عقد اللجام

(٢) سيرة ابن هشام ٣٢٦/٣ (٣) الأغانى ٦/١٦٦

(٤) الفضليات ١١٩/٢

جلاميدُ أملاءُ الأكتف كأنها رموسٌ رجالٌ حطقت في المراسم^(١)
وقال الأعشى :

ولا تقائل بالنسب عني ولا تراسي بالحجارة

إلا علالة أرب بدأمة سائج تذر الجزاره^(٢)

وفي غزوة أحد قاتل أبو عامر والأسايش الأوس بالحجارة قبل الموقعة^(٣)

(هـ) الأسرى والسبياء

١ - الأسير من وقع في قبضة الأعداء من الرجال المحاربين ، والسبية من وقع
في يدهم من النساء والأطفال ، والأسير والسبي أيضا بمعنى واحد .

وطالما غرُّ الشعراء بأخذ الأسرى ، لأنه برهان عملي محسوس على النصر المبين .
ولذلك يقول أكتثم بن صيفي في إحدى خطبه : « وأهنا الظفر كثرة الأسرى »^(٤)

ومن المفخر التي شاد بها المهمل أنهم أسروا أعداءهم :

لجأوا بهرعون وهم أسارى ققودم على رغم الأنوف^(٥)

واقترض عمرو بن كلثوم بعودتهم من الحرب ظافرين ، معهم الأسلاب والسبائا

والأسارى وبعض الأسارى هلوك :

وكنا الأيمنين إذا التقينا وكان الأيسرين بنو أينا

فصالوا صولة فيمن يليهم وصلنا صولة فيمن يلينا

فآبوا بالثأب وبالسبائا وأبنا بالملك مصفدنا^(٦)

(١) شرح الحماسة للرزوقي ١١٨/١ (٢) ديوان الأعشى ١١٤ العلالة : بقية السير .

بداعة : مفاجأة (٣) سيرة ابن هشام ١٢/٣ وشرح نهج البلاغة ٣/٣٦٦

(٤) أيام الربيع ١٢٦ (٥) شعراء النصرانية ٢/١٨٠

(٦) الملقات العصر الشنقيطي ١٠٥

(٢) من أسيارهم :

وكان الأسرى يساقون سوقاً فيه امتنان ، وهذا شأن العالاب والمثلوب ، وكان
الأسير يُصَفَّد بِعُنُقِ بَنِيهِ مِنَ الْحُرُوكِ وَيَقِيدُهُ فِي نِقْلِهِ :

أَبْلَغُ سَرَّاءَ بَنِي شَيْبَانَ مَالِكَكَ أَنِّي أَبَأْتُ بَعْدَ اللَّهِ بَسْطَامًا
فَأَظَلُّ الشَّرْبَةَ فِي قَيْدِ وَسَلْسَلَةٍ صَوْتُ الْحَدِيدِ يُقْتَبِيهِ إِذَا قَامَا^(١)

وقال عمرو بن كلثوم :

فَأَبُوا بِالنَّهَابِ وَبِالسَّبَايَا وَأَبْنَا بِالْمُلُوكِ مَصْفَدِينَا
وَفِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ كَانُوا يَسْخَرُونَهِمْ عَيْدِيَا ، فَيَسْتَعْلَمُونَهِمْ فِي الْحَدَمَةِ ، قَالَ
الْمُنْخَلُ الْإِشْكَرَى :

ولقد شربت الخمر بالحبيد الصحيح وبالأسير
وفي بعض الأحيان كانوا يوردونهم حتفهم ، فقد أغار المنذر بن النعمان بن امرئ
القيس على امرئ القيس بن حجير وإخوته وهم في صيد ، فأصاب منهم اثني عشر
رجلاً من بني حجير بن عمرو لثأر كان له عند أبيهم ، ثم أمر بضرب أعناقهم^(٢) .
وفي يوم أواراة الأول أسر المنذر بن ماء السماء من بكر أسرى كثيرة فأمر بهم
فذهبوا على جبل أواراة وأمر بالنساء أن يحرقن^(٣) .

وكان بنو سهم - بطن من هذيل - أسروا عمرو بن عاصية السلمي في حرب
كانت بينهم ولم يعرفوه ، فلما عرفوه قتلوه ، وكان قد عطش فاستساقهم فذبحوه وقتلوه
على عطشه . فقالت أخته ترضيه وتذكر ما صنعوا به :

هَلَا سَقَيْتُمْ بَنِي سَهْمٍ أَسِيرَكُمْ نَفْسِي فَنَادَاؤُكَ مِنْ ذِي عُغْلَةٍ صَادِ
الطَّاعِنِ الطَّلُوعَةَ النَّجْلَاءَ يُقْبِعُهَا مُضْرَجٌ بَعْدَ مَا جَادَتْ بِأَرْبَادِ^(٤)

ولما أسر بنو نعيم عبد يفيث بن سلامة قال قبل مقتله قصيدة منها .

(١) لفظ : أقام وقت القبط - العربية : موضع ، أي أقام بهذا المكان
(٢) مهذب الأغانى ٢٥٠/١ (٣) أيام العرب ٩٩ (٤) الأغانى ١٣/١١ ساسي

أممشر تيم قد ملكتم فأسهجوا فإن أنشاكم لم يكن من بوائبا
فإن تقاتوني تقتلوا في سببا وإن قتلوني تحربوني بمالبا
ولسكن قتل الأسير كان في أحوال شاذة ، لأن العرب كانوا يستقبلون قتل
الأسرى ، يدل على ذلك قول ابن جفنة لعامر بن مالك : ما قتلنا أسيرا قط (١) .
٣ (إطلاق الأسير .

وبعضهم كان يمن على الأسرى فيطلقونهم .
وأحيانا يجوزون نواصيهم ، تشميرا بهم ، وتوكيدا للذلة ، لذلك كان الأسرى يخبر
أسيره بين جز الناصية والتخلية ، وبين الأسر ، فإن اختار جز الناصية جزها وخلى
سبيله وجعل شعره في كنانته ، وأخرجه في المفارقة (٢) .
ولما أسر زيد الخليل الحطيطي الشاعر جز ناصيته وأطلقه (٣) ، وكذلك فعل بعامر
ابن الطفيل (٤) .

وكانوا يفاخرون بذلك ، كقول الخنساء :

جززنا نواصي فرسانهم وكانوا يظنون أن لن تجزا (٥)

وكانوا يحرصون على جز ناصية الأسير الشريف ، ذلة له ، واعتزازا بالعفو
عنه بعد المقدرة ، فثلا بعد هزيمة الفرس وحلفائهم في يوم ذي قار جاء أسود
ابن بجير بن عائد بن شريك الصجلي إلى النعمان بن زرعقة يستنجد به بجز ناصيته وخلى
سبيله (٦)

وكان إطلاق الأسير نعمة جسيمة بأن يفخر بها صاحبها ، وأن يمدح وقد
أكثر الخنساء في رثاء أخيها ضمر من مدحه بإطلاق الأسرى :

- | | |
|------------------------|-------------------------|
| (١) المقاضيات ١٥٥/١ | (٢) مهذب الأغاني ٧٥/١ |
| (٣) نهاية الأرب للتوحي | (٤) الأغاني ٥١/١٦ |
| (٦) الأغاني ١٣٧/٢٠ | (٥) ديوان الخنساء ١٤٥ |
| | (٧) الأغاني ١٣٧/٢٧ ساسي |

رُبِّي قَدْ عَلِمْتَ وَجَسَدِكَ بِالْحَمْدِ وَإِطْلَاقِكَ الدُّنَا الْجَنَانَا (١)
وَقَالَتْ أَيْضاً :

رَدَادُ عَادِيَةِ فَسْكَكَ عَانِيَةَ كَضِيغِهِمْ بِاسِلٍ ، لِلْقَرْنِ حُصَارٍ (٢)
وَقَالَتْ :

وَرَبِّ نَعْمَى مِنْكَ أَنْعَمْتَهَا عَلَى عُنَاةٍ عُلُقُوا فِي الْإِسَارِ (٣)
وَأَضْحَرَ لِيَبْدَ بِاطْلَاقِهِمُ الْآسَرَى بِغَيْرِ فِدَاءٍ :

وَعَانَ فِسْكَكُنَا بِغَيْرِ سِوَامِهِ فَأَصْبَحَ يَمْشِي فِي الْمَهْلَةِ جَاذِلًا (٤)
وَلَقَدْ يَطْلُقُونَ الْآسِرَ مَكْرَمًا إِذَا شَمِعَ فِيهِ شَاعِرٌ ذُو مَكَانَةٍ أَوْ عَظِيمٍ فِي قَوْمِهِ ،
كَمَا حَدَّثَتْ لِي بِنْتُ تَيْمِيمٍ حِينَ أَسْرَمَ الْحَارِثُ بْنُ أَبِي شَمْرَةَ التَّمِزَانِيَّ وَفِيهِمْ شَاسُ بْنُ عَبْدِ
فَقَصَدَهُ عُلُقَمَةُ بْنُ عَبْدِ مَدْحَةَ وَتَشَفَّعَ فِي أَخِيهِ بِقَوْلِهِ :

فَلَا تَحْرَمْنِي نَائِلًا عَنْ جَنَابِيَةِ فَاثِي أَمْرًا وَسُطَى الْقِيَابِ غَرِيبِ
وَفِي كُلِّ حَى قَدْ خَبَطْتَ بِنِعْمَةٍ حَقَّقْتُ لَشَاسٍ مِنْ فِدَاكَ ذُنُوبِ
فَقَالَ الْحَارِثُ : نَعَمْ وَأَذِنْبِهِ وَأَطْلُقْ شَاسًا وَأَسْرِ بِنْتِ تَيْمِيمٍ ، وَمَنْ سَأَلَ فِيهِ
الشَّاهِرُ أَوْ عَرَفَهُ مِنْ غَيْرِهِمْ (٥) .

ولما غزا عمرو بن هند طيئا وأسر منها ، وكان في الأسرى قيس بن جحدر
- جد الطرماح بن حكيم ، وابن خالة حاتم - وقد حاتم إلى عمرو - وكذلك كان
يصنع - وسأله أن يطلقهم فومئذ لم يوافقهم له إلا قيس بن جحدر ، فقال حاتم :
فَسَكَكْتَ عَمْدِيًّا كُلَّهَا مِنْ إِسَارِهَا فَأَنْعَمَ وَشَفَّعَنِي بِقَيْسِ بْنِ جَحْدَرِ
أَبُوهُ أَبِي وَالْأَمَهَاتُ أَمَهَاتُنَا فَأَنْعَمَ فِدَاكَ الْيَوْمَ نَفْسِي وَمَعْشَرِي
فَأَطْلَقَهُ (٦)

(١) ديوان الحفصاء ٣٥ الدناة : الأسرى . الجناح الذين يجنون إلى الإطلاق

(٢) الديوان ١٣٦ (٣) الديوان ١٢٩ (٤) ديوان لبيد ٢٦

(٥) العنيدة ٣١/١ خبطت : أعطيت . ذنوب : نصيب

(٦) الديوان ١٥ والأغاني ١٩/١٢٨ ساسي

وفي حديث بين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومستم بن نيرة عن أخيه مالك :
وأنشد أسرف بنو تغلب في الجاهلية ، فبلغ ذلك مالكاً فجهأ لينتدبني ، فلما رآه القوم
أعجبهم بهاله ، وحدهم فأعجبهم حديثه ، فأطلقوني له بغير فداء ، (١) .

وفي أخبار الأعشى أنه هجأ رجلاً من كلب وعيره الثامن بهجائه ، فتغيظ منه ، ثم
أغار على قوم قد بات عندم الأعشى فأمر نقرأ وأمر الأعشى وهو لا يعرفه ، فجهأ
حتى نزل بأسراه عند شريح بن السموأل ، فر شريح بالأعشى فنأدى به الأعشى
مستقيماً :

شريح لا تتركني بعد ما علققت حبالك اليوم .. بعد الأبد .. أظفاري
قد جلت بين يانقيا إلى عدن وطال في المعجم تردادي وتسياري
فكان أكرمهم عهداً وأوثقهم عهداً : بورك يعرف غير إنكار
فطلب شريح من الكلب أن يهب له هذا الأسير ، فقال : هو لك ، فأطلقه شريح ،
وحباه وأكرمه (٢) .

وأنشد يطلق الأسير أسيره أيضاً جزءاً مدحة بسمها ، ويؤثرها على الفداء ، فقد
أسر صمصمة بن محمود أمر بن جندل ، فبحث إليه سلامة بن جندل أبياتاً منها :
فإن شئت أهدينا ثناء ومدحة وإن شئت عدينا لكم مائة معا
فأطلقه وقال : المدحة والثناء أحب إلينا (٣) .

وقد ذكر كثير أنهم كانوا يشدون لسان الأسير إذا كان شاعراً حتى لا يهجوهم
لأن عهد يفرح يقول :

أقول وقد شدوا لساني بنسمة أمشر تيم أطلقوا من لسانيا

(١) عبون الأخبار ٣٢/٤

(٢) الأغاني ٧٩/٨ سمي

(٣) ديوان سلامة بن جندل ٢٢

ولست أعقل هذا ، لأن الأسير لا يستطيع أن يهجو ، وإن هجأ فن يروى
هجاه ؟

على أن القائل فسر بيت عبد يغوث بما يبرز هذا الاستبعاد ، فقال : هذا مثل ،
لأن اللسان لا يشد بنسعة ، وإنما أراد اذبلوا في خيرا ينطاق لسان بشكركم ، فإن لم
تفعلوا فلسانك مشدود لا يقدر على مدحك ^(١) .

٤ (فداء الأسرى :

وأحياناً كانوا يفدون الأسرى فقد أسر رجل من هوازن فذهب أخوه مستشفعاً
له ، فلم يفلح ، فذهب إل عكاظ بنشد شعراً لعله يطلقه فأخفق ؛ ثم ذهب إلى أحد
وجوه القوم فقال له : اشتر أخاك وعلى الثمن ولا يملك غداً سلاوه ، ثم أحاله على
آخر .. فقال له : فإن وهب لي أخاك شكرته ، وإلا أغرت عليه حتى يتقني بأخيك
فإن ناتها وإلا دفعت ليد كل أسير من بني تميم فاشتريت أخاك ، ^(٢) وهذا الشراء
هو المفاداة ، من ذلك أن بني عامر لما أسرهم زيد الحليل وطال عليهم الأسر قالوا :
يا زيد فادنا ^(٣) .

وقد أسرت بنو شيبان الشنفرى الأزدي ولم يزل فيهم حتى أسرت بنو سلامان
رجلاً منهم فقدته بنو شيبان بالشنفرى ^(٤) .

وأكبر قيمة دفعت في فداء أسير ثلاثمائة بعير ، فقد دفعها أم بسطام بن عبد الله
فداء لابنها ^(٥) .

وقيل إن الأشعث بن قيس الكندي غزا مدحجاً فأسر ففداه نفسه بألني بعير
وألف من الهدايا والطرف قاله الشاعر :

فكان فداؤه ألني بعير وألفاً من طرفات وتلد ^(٦)

(١) ذيل الأغانى ١٢٣

(٢) مهذب الأغانى ٩/١

(٣) الأغانى ٤/١٦٥

(٤) الأغانى ٨٧/٢٦

(٥) أيام العرب ٢٠٠

(٦) الميداني ١١/٢

ودفع هرذة الخنفي ثلاثمائة بغير فداء لنفسه لما أمره بنو سعد ، وفي ذلك يقول
شاعر بنو سعد :

ومنا رئيس القوم لیسلة أدلجوا هرذة مشرورة البدين إلى النحر
وردنا به نخل الیمامة عانیا عليه وثاق القسد والخلق السم (١)

٥ - الزواج بالسبايا :

وأحياناً كانوا يستولون السبايا ، وبعضهم كان يعتقهن ويتخذهن زوجات لهم ،
ولكن السبايا ما كن لينسين قومن ، فمن وإن طال العهد بين يحتلن الرجوع ، لأن
العربية حرة أیة لا تحمل السباء ولا طاقة لها بتعبير النساء لها ، فقد أصاب هروة
ابن الورد امرأة من بنی ملال اسمها لیلی بنت شعواء ، فسكنت عنده زماناً تظهر له
إعجاباً به وحبا له . ثم استأذنه أهلها فحملها حتى أنام بها ، فلما أراد الرجوع أبت أن
ترجع ، وتوعده قوماً بالقتل ، وندم على أنه سكر وأجابهم إلى ما طلبوا وتحسر على
زوجته في قصيدة طويلة (٢) .

ولقد تبخع السيدة الحرة نفسها حتى لا يستذلها الإسام ، كما فعلت فاطمة بنت
الخرشب أم الربيع بن زياد وإخوته ، ذلك أن حمل بن بدر أغار على بنی عبس فظفر
بفاطمة راكبة على جمل لها ، فقادها بحملها ، فقالت : أي رجل ضل حملك . والله
لئن أخذتني فصارت هذه الأكمة بي وبك ورائنا لا يكون بينك وبين بنی زياد صلح
أبداً ؛ لأن الناس يقولون في هذه الحالة ما شاءوه ، وحسبك من شر سماعة . قال :
إني ذاهب بك حتى ترعى على إلی . فلما أيقنت أنه ذاهب بها رمت بنفسها على رأسها
من البعير ، فماتت ، خوفاً من أن يلحق بنيتها عار (٣) . وقد أسرت امرأة من طسم
يقال لها عنز ، وحملها أسروها في هودج وأطفوها بالقول والفعال ، فقالت : « شر

(١) الأغانى ٢٦/١٦ ساسی

(٢) الأغانى ٢٦/٣ الدار ، والشعر والشعراء ٢٦٠

(٣) الأغانى ٢٦/١٦

يوميها وأغواها لها ، أي شر أبيها حين صرت أكرم وأناستية^(١) .
على أن أنفة المرأة من العبي ليست دليلا على سوء معاملة العرب للسبايا ، فقد
كانوا بكرمونين ويخطونهن بنسأهم إلا في حالات قليلة يملك فيها الحقود ، والتشفي .
وكانوا يتزوجون كما قدمنا . وكثير من ساداتهم أبناء سبايا ، مثل دريد
ابن الصمة ، فأمه ربحانة بنت معد يكرب ، أسرها الصمة بن عبد الله ثم زوجها فأعجبت
دريدا وإخوته ، وهي التي يقول أخوها عمرو في حديث إسارها :

أمن ربحانة الداعي السميع يورقي وأصحاب هجوع
سباها الصمة الجشمي غصبا كأن بياض غرتها صديع
وحالت دونها فرسان قيس تكشفت عن سواعدها الدروع
إذا لم نستطع شبتنا فدعه وجاوزه إلى ما نستطيع^(٢)

(و) الصلح

تشمعل الحرب ، فزهق الأرواح وتوتم الأطفال ، وترمل النساء ، وتشكل
الأمهات ، وتخرّب وتدمر ، فتستيقظ في نفوس المتحاربين أحيانا نوازع الخير
والسلام والأمن . ويأسى بعض عقلائهم وأشرفهم بما يرى من دماء تراق ، وصلات
تقطع ، وذعر يقض المضاجع ، فتنازعهم نفوسهم إلى الصلح ، على أن تقدر ديوات
القتلى من الثريقين ، أو تسلّم القبيلة القائل للقصاص .

رووا أن سيار بن عمرو بن جابر الهزاري احتمل دية شر حبيبل بن الأسود
ابن المنذر ألف بعير — وهي دية الملوك — فأنقض النزاع الذي كان بين القبيلتين^(٣) .

(١) بحج الأمثال الميداني ٢/٢٢٨

(٢) الأغاني ٢/٦ ساسي الصديع : الصبح

(٣) المقد الفريد ١٥/٦

وساطة الحارث بن عوف وهرم بن سنان المري بين عيس وذيان واستمالها
ديات القتلى - مشهورة ، وقد أشاد بها زهير في معلقته :

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعد ما نزل ما بين العسيرة بالدم
فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قرظس وجرعم
يمينا انعم السيدان وجدتما على كل حال من سمحيل ومبرم
تداركتما عيساً وذيان بعدما تقانوا ، ودقوا بينهم عطر منشم

ولخلعة بن قيس السكنافي قصيدة جيدة تحدث فيها أنه نهى أبا عمرو عن الحرب ،
وبين له جناباتها حتى على المتصمرين ، فلما ينثه وتمادى في شره قابل شره بمثله ، فنكسب
الجميع بمرحى وموتى وبكاه .

نهيت أبا عمرو عن الحرب لو يرى
وقلت له دع عنك بكرأ وحرها
ومها عن الحرب التي لا أديمها
فإن يظفر الخبز الذي أنت فيهم
فلا بد من قتلى ، وعلك فيهم
دعاني يشب الحرب بيني وبينه
فلما أبى أرسلت فضلة ثوبه
وأملته حتى رمان بخرها
فلما رمانها رميت سواده
فبتنا على لحم من القوم غودرت
وأصبح بيكي من بين وإخوة
ونحن نبتكي إخوة وبينهم
برأى رشيد أو يؤول إلى عزم
ولا تركب منها على مركب وخم
صحیح ولا تنفك تأتي على سقم
وأبوا بدهم من سباه ومن غنم
وإلا فجرح لیس یکنی عن العظم
فقلت له : لا ، بل هلم إلى السلم
إليه فلم يرجع بعزم ولا حزم
تغلغل من غي غوي ومن لأم
ولا بد أن ترمي سواد الذي يرى
أستقنا فيه ، وباتوا على لحم
حسان الوجوه طيب الجسم والنم
ولیس سواہ قتل حق علی ظلم^(١)

وكذلك كان يتوسط الأشراف في الصلح فيحسبون دماء القتلى من الفريقين ،
ومن زاد قتلاهم أخذوا ديتهم : الصريح ديته وللطيف ديته ، كما حدث يوم حدير ،
فقد أرسل الأوس إلى ثابت بن المنذر بن سحراهم فقالوا له : إنا سنكفناك . فقال :
أخاف أن تنتصروا حكمتي كما رددتهم حكم عمرو بن قيس . فقالوا : إنا لا نردك حكما
فاحكم بيننا . قال : لا أحكم حتى تعطوني موثقا وعهدا أن ترضوا بحكمتي وما قضيت ،
فأعطوه عهدهم وموافقتهم ، شكمت بأن يودي حليف مالك دية الصريح ، ثم تكون
السنة بينهم على ما كانت عليه : الصريح على ديته والحليف على ديته ، وأن تعد القتلى
الذين أصاب بعضهم من بعض في حربهم ، ثم يكون بعضهم ببعض ، ثم يعطوا الدية
لمن كان له فضل في القتلى من الفريقين ^(١) .

وفي المفارقة التي كانت بين طريف بن العاص والحارث بن ذيبيان عند بعض
مقاول حمير قال الحارث إن سبب خروجهم عن قومهم ولحاقهم بالنمر بن عثمان أن
هجمنا لقوم طريف قتل هجمنا لنا وعرضوا علينا أن نأخذ ديته نصف دية الصريح
فأبينا إلا دية الصريح ، وأبوا إلا دية الهجين ، فظاهروا علينا حسدا فلهحقنا بأضغ
بطن من الأزدد ونارنا لصاحبنا ^(٢) .

ولم تكن شهرة الانتقام والثأر والكف بالخروب لتجلب عنهم شرورها ، ففي
كلامهم ما يدل على معرفتهم بوبلائتها ، قال عمر بن الخطاب لعمر بن معد يكرب :
صف لنا الحرب ، قال : مُرَّة المذاق ، إذا كشفت عن ساق ، من صبر فيها عُرف ،
ومن نكل عنها تَلَف ، ثم أنشأ يقول :

الحرب أول ما تكون قتيَّة تسعى بزبتها لكل جَول
حتى إذا حمت وشب ضرامها عادت عيصوزا غير ذات خليل
شمطاء جزت رأسها وتسكرت مكروهة للشم والتقبيل

وقيل لبنترة الفرار من حصف لنا الحرب ، فقال : أو شاشكوى ، وأوسطها
جوى ، وآخرها بأوى (١) .

وقد أجاد زهير في التنوير من الحرب إذ يقول : لقد جرتكم الحرب وذقتكم ويلاتها ،
وما أحدثكم عنها حديثاً مكذوباً ، وإنكم لتظنون أنكم إذا أشعلتموها احترقتم
بآثارها وذتم عواقبها ، وإذا أجمتموها استقرت واقترست ، وأهلكتكم وحطمت
قواكم كما تحطم الرجي ما نطعته . ثم إن الحرب تلد الحرب لأن العداة يورث جيلاً
عن جيل ، والحرب تلد تورمين ، يقصد أن ضرورها تتضاعف ، ولن يكون المولودون
والناشئون في بيئة تضطرب بالعداء والبغضاء إلا مورتون ناقين مشائيم يحدون في النار
وتأريك الشر ، كان كلا منهم أحر عاد الذي عقر الناقة فأهلك القوم ، وسخر زهير
وتهمك إذ قال لقومه إن شرور الحرب يستفوق في كثرتها خيرات العراق ، أو أن
الديارات التي تتقاضونها ستنافس في الكثرة هذه الخيرات :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم	وما هن عنها بالحديث المرجم
متى تبعوها تبعسوها ذميمة	وتفصر إذا ضرمتوها قضم
فتعركم عرك الرجي بفالها	وتلقح ككشافا ثم تنتج فتثم
فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم	كأحر عاد ثم ترضع فتقطع
تغزل لكم ما لا تغزل لأهلها	قرى بالعراق من قفيز ودرم (٢)

ويقول النابغة الجعدي :

ألم تعلموا ما تورث الحرب أهلها	وعند ذوى الأحلام منها التجارب
لها السادة الأشراف تأتي عليهم	فتهلكهم والساجات النجائب
وتستلب المال الذي كان ربه	ضئناً به والحرب فيها الحرايب

ويقول ممن بن أوس :

(١) المقفد الفريد ١٠٩/١ ورواه جامع شعراء الصراية لامرئ القيس ١/٦٢

(٢) الحقايق المعسر - الشنقيطي ٨٣

دعاني أشب الحرب بيني وبينه تتلت له لا بل صلِّم إلى السلم
ولياك والحرب التي لا أدبها صحيح ولا تنفك تأتي على رنم
فلما أبي خلعتُ فضل عتانه إليه فلم يرجع بعزم ولا عزم
فكان صريع الخيل أول وملة فبدأ له مختارٌ جهل على علم^(١)

(٢) الثأر

١ - ولا بد أن تنجلي الحرب عن بحر حتى وقتلي وأسرى ، وعن تخريب
وتدمير ، ولا بد أن يسقط هذا في نفس المهزوم والموتور حفيظة وهو جده لا يطلقها
إلا أن يثار لقتلاه .

وبلغ من كفرهم بالثأر أنهم كانوا يتجاوزون النساء والخمر والطيب ، لأنها ضرب
من التثمم والبهجة لا يليق بحزين موتور ، أو لأنها قد تلهي وتشغل عن الجهد في الثأر .
قال المهلب :

خذ العهد الأحمق على عمري بقركي كل ما سوت الديار
وهجرى الغايات وشرب كأس ولبي جبة لا تستعار
ولست بخالع درعي وسيفي إلى أنت ينزع الليل النهار
وإلا أن تبيد سراً بهكسر فلا يبقى لها أبداً آثار^(٢)

وقال قيس بن الخطيم :

ومنا الذي آل ثلاثين ليلة عن الخمر حتى زاركم بالسكتاب
ولما هبطنا الحرث قال أميرنا حرام علينا الخمر ما لم نحارب
فسامحه منا رجال أعزة فاسرعوا حتى أحلت لشارب

(١) جمرة الأمثال لأبي حلال ٩٣

(٢) شعراء النصرانية ١٦٤ وأخبار الرئاسة وأشعارهم ٤٩

ويظهر أن الخمر كانت أهم ما يصدون عنه ، ولذا فقد أكثروا من التحدث بتركها حتى يثاروا ، قال دريد بن السهمي :

سُتتِ عَيْنٌ ولم أشرب مُعْتَقَةً إن أخطأ الموتُ أسماءَ بنِ زُبَاعِ
وحدثوا أن امرأ التيس حلف ألا ينسل رأسه ولا يشرب نهرأ حتى يدرك
نار أبيه ، فلما أدرك بعض ما يشفيه قال :

حلفت لي انتر وكنت امرأ عن شربها في سُفلٍ شاغلٍ
فاليوم أَسْقَى غير مستحَقِّبٍ إنَّما من الله ولا من وائلٍ (١)

وقال تأبط شراً :

حلت الخمر وكانت حراما وبِلايٍ ما أَلَمْتُ تَحْمِلُ
فاسقنيها يا سوادُ بنَ عمرو إن جسمى بعد خطاي لَحَلَّ (٢)

وقد فصل المثلج بن عمرو السنوخي آلامه إن لم يثار : في صدره هم راسخ كالجيل
لا يحس للخمر ولا لأي شراب لذة وإن كان العسل ، وإن يزول همه إلا إذا ثار :

إني أرى الله أن أموت وفي صدري هم صكأنه جيل
بمعنى لذة الشراب وإن كان قطابا كأنه العسل
حتى أرى فارس الصموت على أكساء خيل كأنها الإبل
لا تحسبني مُجَجَّلا سبط الساء حين أبكي أن يظلم الجبل
إن امرؤ من تنوخ ناصرهُ محتلم في الحروب ما احتملوا (٣)

(١) الديوان ١٥٢

(٢) شرح الحماسة للبربري ١٦٠/٢ حل : ضعيف هزيل

(٣) المؤلف والمختلف ١٨١ وشرح الحماسة ١٨/٢ قطاب : مزوج بغيره . فارس الصموت :

يريد به قسه والصموت اسم فرسه أو حبه . أكساء خيل : على ما خبرها القرد كسه . وشبهها بالإبل لعظمتها وطولها . مججل : مقيد أو ذو حيلة كالنساء والتي لا يبكي إذا مس اطالع جله خوفا من أن يثني أو لا يجزع من النزالة الصغيرة كما يجزع الرجل من طاع جهله . سبط : وخبو

وكان عصمه بن حذرة اليربوعي قد نذر ألا يطعم لنا ، ولا يشرب نحرأ ، ولا يقرب امرأة ، ولا يتنسل ، حتى يقتل من بني عيس سبعين رجلا بان عم له ، فلما قتلهم قال :

الله قد أمكنني من عيس سخا شراي وشفيت نفسي
وصكنت لا أقرب طهر عرس وكنت لا أشرب فضل الكأس
ولا أشد بالخواف رأسى^(١)

٢ - الثأر من الأتارب :

ولم تكن القرابة الأصرة لتحول بين الأكثرين وبين الاستغناء بالثأر من أقاربهم ، قال قيس بن زهير بن جذيمة العبسي في قتله حمل بن بدر يوم جفر الهبابة ثأراً لأخيه مالك الذي قتل في أول الحرب :

شفيت النفس من حمل بن بدر وسقي من حذيفة قد شفاني
فإن أك قد بردت بهم غلبي فلم أقطع بهم إلا بساني
فهو يصور عاطفة راحته بالانتقام مشوبة بماطفة الأسي والندم ، لأنه ثأر من قريبه وهما منه كالإصبع من كفه ، ضروريان لا غنى عنهما وبترهما موحج .
فالقرابة ما كانت لتكسكف من حفيظة غير الحكاء ، ولم يكن يشفيهم إلا أن تسهل رماحهم من دماء أقاربهم الذين قتلوا من هو أقرب منهم ، وإذا ما ذكرهم بعض العقلاء بحق القرابة أنهموا مذكريهم بأنهم لا يحسون إحساسهم ، ولو أحسوه ما حاولوا أن يثبؤهم ، قال زيادة الحارثي :

أبعد الذي بالتحف نصف كويكب رهينة رمس ذي تراب وجندل
أذكر بالبقيا على من أصابي وبقياي أتى جاهد غير مؤتلي
فإن لم أنل ثأري من اليوم أو غد بني عننا فالدهر ذو متطول

(١) معجم الشعراء ٢٧٤ الخواف : الخطمي ينسل به الرأس

فلا يدعني قومي ليوم كريمة
لأن لم أعجل ضربة أو أعجل
أنتم علينا كسكل الحرب مرة
فمن منيخوما عليكم بكسكل
يقول رجال ما أصيب لهم أب
ولا من أخ: أقبل على المال تعجل
ذكرت أبا أروى فأسبلت عبرة
من الدمع ما كانت عن العين تسجل^(١)
وقال أبو سفيان في غزوة أحد:

ولو أنني لم أشف نفسي منهم
لكانت شجاً في القلب ذات ندوب^(٢)
ولقد تصارع في نفس ولى الدم عاطفة الثار للميز القليل ، وعاطفة الحب للقریب
القاتل ، فتغلب الثانية ، ويقنع بالأسى والحسرة ، ويبقى على وآثره ، قال أعرابي قتل
أخوه ابناً له :

أقول للنفس ناساءً وتجزية
إحدى يدي أصابني ولم ترد
كلاهما خلف من فقد صاحبه
هذا أخي حين أذعوره وذا ولدي^(٣)
وقال الحارث بن وعلّة الجرمي ، وقد جفحه قومه في أخيه ، إنه إذا نأر منهم
أصاب نفسه وأوهن عظمه ، ولسكنه سيعفو عنهم ، والعفو إذاً عظيم :

قومي هم قتلوا أمم أخي
فإذا رميت يصيني سهمي
فلئن عفوت لأعفون جلا
ولئن سطوت لأوهن عظمي^(٤)
ولقد يحد الرجل ليأر لقریب له ، وهو على ثقة أنه إن قتل فسيتأر له قریبه ،
فتلا تأبط شرأ كان يتأر لخاله ، وتوقع أن يتأر له ابن أخته إذا ما ملك :

إن بالشعب الذي دون مملع
لقتيلاً دمه ما يطل
خلف العبه على وولّى
أنا بالعبه له مستقل
ووراء الثأر مني ابن أخت
مصع عقده ما تحصل

(١) شرح الحماسة لتبزي/١٣٠١ العف : مقدم الجبل . كويكب : جبل . البقا : الإجماع . مؤثلي : مقصر . متطول : طول . متقل : تقدم لك الدية . أبو أروى : كنية أبيه زياد الحارثي
(٢) سيرة ابن هشام ٧٢/٣ . (٣) الحماسة ٧٣/١ . (٤) الحماسة ٧٢/١

مطرق يرشح سماً كما أما رقى ألقى بنفت السم حمل^(٥)
٣ - النساء والأثر:

وكانت النساء يزوجن الصدور حفيظة ويلهين النفوس حية للأخذ بثأر القتل ،
قالت الحنفاء في رثاء صخر :

ولن أسأل قوما كنت حرام^(٦) حتى تعود بياضاً جؤنة القار^(٧)
وقالت تحرض قوما :

لا نوم حتى تعود الخيل عابسة يفيذن طرفها بمهرات وأمهات
أو تحضروا حفرة الموت ومكتع عند البيوت حصينا وابن سيار
فتفسلوا عنكم عاراً تجلسكم غسل العوارك حيصاً بعد أطهار^(٨)

في لا تقر ولا تريد أن يقر قوما حتى يهجموا على الأعداء شجمة قاسية صارمة
تمس منها الخيل وترمي ما في بطونها ، وتمجلى الفزوة عن قتل واتريها ، وعن غسل
العار الذي لصق بقوما ،

ومن التحريض العجيب للأخذ بالثأر ما روى أنه كانت لبني رثام عجوز تسمى خويلة ،
وكان يدخل عليها أربعون رجلاً كلهم محرم ، بنو إخوة وبنو أخوات ، وكانت خويلة
عقبها ، وكان بنو ناعب وبنو داهن متظاهرين على بني رثام - وهم جميعاً من قضاة
جيران بين الشحر وحضرموت - فقتلوا من بني رثام ثلاثين رجلاً ، وأقبلت خويلة
مع الصباح فوقفت على مصارعهم ، ثم عمدت إلى خناصرهم فقطعتها ونظمت منها
قلادة وألقتها في عنقها ، وخرجت حتى لحقت بمرضاوي بن معة المهرى وهو
ابن أختها ، فأناخت بفنائه وأنشأت تقول :

(٥) الخمسة ٣٤٨/١ الشعب : الطريق في الجبل . سلم : مكان . يطل : يهدر . سمع : نابت
شديد في القتال . مطرق : ناظر بينيه إلى الأرض . صل : خبث من الأفاعى
(٦) ديوان الحنفاء ١١٢ . جؤنة : سواد
(٧) الديوان ١١٧ تحضروا : قطعوا . مكتع : دان . حصين بن ضمضم ومنصور بن سيار الربان
فانلا سخر .

يا خيرَ مُعْتَمِدٍ وَأَنْعَمَ مَلِجًا وَأَعَزَّ مُتَقَسِّمٍ وَأَدْرَكَ طَالِبَ
جَاهِكَ وَافِدَةَ الشَّكْلِ تَتَسَلَّى بِسِرْوَاهِمَا فَوْقَ النَّضَاءِ النَّاضِبِ
هَذِي خَاصِرَ أَسْرَتِي مَسْرُودَةً فِي الْجَيْدِ مَنَى مِثْلَ سَمَكِ السَّكَابِ

فَارْدُ تَهْلِيلِ نُصُوبَةِ الشُّكْلِ الَّتِي رُمِيتْ بِأَثْقَلِ مِنْ صَخُورِ الصَّاقِبِ
وَتَلَاَفِ قَبْلِ الْفُتُوحِ ثَارِي إِيَّاهِ عَلَّقَتْ بِثُوبِي دَاهِنًا أَوْ نَاعِبِ

تفخرج في تفسير من قومه ، فطرق ناعبا وداهنا فأرجع فيهم (١)

ولم تبحر المرأة من تشبيه قومهها ... إذا لم يثاروا لأخيها - بالنساء العواهر ،
فلم يكفها أن يكونوا نساء فزادت هذا الوصف المنفر ، قالت هند بنت حذيفة
في رثائها لأخيها حسن :

فَإِنْ أَتَمُّ لَمْ تَوْطِئُوا الْقَوْمَ نَارَةً يَحْدُثُ عَنْهَا وَارِدٌ بَعْدَ صَادِرِ
وَتَرْمُرًا عَقِيلًا بَالِيٍّ لَيْسَ بَعْدَهَا بَقَاءُ فَمَكْرُونَا كَالنِّسَاءِ الْعَوَاهِرِ (٢)

٤ ... أثر البيئة في أهمية الثأر :

والثأر نظام بدوي حيث لا حكومة ولا محاكم ولا سلطة تحول بين الموتور
والواثر ، وقد كان هناك شيوخ القبائل ، ولكنهم لم يكونوا يملكون القوة التنفيذية
التي بها يقتصون من الجاني ، لأن القبيلة لم يكن لها قانون جنائي ، فليس أمام الموتور
إلا أن ينتقم من واثره .

وكان الثأر واجبا على أقرب الناس للقتيل ، وكانت عشيرة الجاني لا تتخذله أو
تسله إلى الموتور بل كانت تحميه وتؤازره ، فإذا ما قُتل جدت عشيرته لتأثر له أيضا
وبذلك تجددت الحروب والمنازعات وسفك الدماء وتطاولت .

صحيح أن من واجب الرعماء في القبيلة أن يعملوا على إيجاد تسوية بين المتخاصمين

(١) الأملال ١٢٧/١ - ١٢٨ السمعط : القعد

(٢) بلاغات النساء ١٧٤ الصائب : جبل معروف

من دون أن يملكوا حق فرضها عليهم ، ولكن المشائر كثيرا ما كانت لا تنتهي إلى الاضطرار بهذه التسويات إلا بعد أن تكون قد تناوت ودقت بينها عطر منشم . أما إذا أسلم القاتل طوعا لاكرها إلى الفريق الآخر لينتقم منه فمعدن لا يبقى مجال للثأر ، ولكن مثل هذا المنفع يعتبر وصمة للعشيرة ، فهي تفعل أن تقتل الجاني على أن تسلبه طوعا ويلحق بها العار . إن حاسة الشرف الهامية هذه التي تسم جميع أعمال البدوي هي الأساس الذي ينهض عليه صرح الأخلاق عنده^(١)

وكان للثأر بعض النفع لأنه يكبح من جماح بعض الحمقى الذين تسيرهم شهوات القتل والقسوة ، ولولاها لانغمسوا في إهابة غرازهم ونز وجهم على القانون دون خوف أوربة من عقاب^(٢) .

ه - وكما كان تسليم القاتل عارا كان قبول الدية عارا أيضا ، لأنه سمة الضعف والحجز والهوان ، قال مرة بن عداة الثقفي :

فلا تأخذوا عقلا من القوم إنني أرى العار يبي والمعاقل تذهب^(٣)

وقالت امرأة من ضبة لقومها : لا تأخذوا نوقا ولكن رووا سيوفكم من دماء أعدائكم ، فإن لم تثاروا فلا درت نياقكم لنا :

ألا لا تأخذوا لبنا ولكن أذيقوا قوعكم حد السلاح

فإن لم تثاروا عمرا يزيد فلا درت لبون بني رباح^(٤)

ومن ذلك أن العباس بن مرداس حرض رجلا من خزاعة اسمه عامر على أن يطلب يثار جاره هرم بن مرداس قتله رجل من خزاعة :

إذا كان باغ منك نال ظلامه فإن شفاه البغي سيفك فافضل

ونبت أن قد عوضوك بأعرا وذلك للجيران غزل بمغزل

(١) العرب والامبراطورية العربية . بروكلمان ١٧ - ١٨ (٢) Nicholson . P. 94

(٣) الحماسة ١/٧٧ . المعامل : الدييات (٤) حماسة البعترى ٧٣

فقدما فليست لتعزير بنصرة وفيها متاع لا يرى متذلل
 فلما بلغت الآيات آلى ألا يصيب رأسه ولا جسده ماء يضل حتى يثار هريم^(١)
 وكانوا يؤخرون البكاء على القتل حتى يثاروا له . فإذا ما تآروا بكى النساء
 قتلين وتذبذ . قال الشاعر :

من كان مسرورا يقتل مالك فلبات نسوتنا بوجه نهار
 تجد النساء حواسرا يذبذ يلعطن حرَّ الوجه بالأسفار^(٢)
 ومن أعظم النيات ما فدى به ساجب زارة وهو خمسمائة من الإبل ، وفي الوقت
 نفسه فدى عمرو بن عمرو بمائتين^(٣)

(٢) الخلف والجوار

١ - في هذه البيئة الحربية لم يكن يد من معاملات بين الفرد والفرد ، وبين الفرد
 والقبيلة ، وبين القبيلة والقبيلة ، لتعزير القوة وتقوية الحماية ، وذلك لكثرة الحروب ،
 وتوجس الإغارات ، واعتادهم على أنفسهم في حماية الميرض والمال والروح ، فلا
 جيش يحمي ، ولا شرطة تحفظ ، ولا قانون يعصم .
 ولقد تخلع العشيرة أحد أفرادها فله حق بعشيرة أخرى ويستجير بأحد رجالها
 فيجيره ، ومن أمثلة ذلك أن البراص بن قيس بن رافع أحد بني ضمرة بن بكر بن
 عبد مناة بن كنانة كان سكيراً فاسقاً خلعه قومه وتبرؤوا منه ، فشرب في بني الدليل
 فخلعوه ، فأتى مكة وأتى قريشا فنزل على حرب بن أمية فخالفه فأحسن حرب جواره ،
 وشرب بمكة حتى هم حرب أن يخلعه ، فقال لحرب : إنه لم يبق أحد ممن يعرفني إلا
 خلعتني سواك ، وإنك إن خلعتني لم ينظر إل أحد بعدك ، فدعني على خلفك وأنا
 خارج عنك . فتركة وخرج فاجق بالنعمان بن المنذر بالحيرة^(٤)

(١) الأغاني ٦٦/١٣ ساسي

(٢) السكامل في التاريخ لابن الأثير ١/١٣٣

(٣) سبج الأعمى ١/٤٠٥

(٤) الأغاني ٦٥/١٩ ساسي

وكانت الشيرة إذا خلعت رجلاً منها أشهدت على ذلك في المراسم والأسواق
تتكون في حل من بنائاته كما فعلت خراطة بقيس بن الحارثية إذ خلعت يسوق عنكاظ
وأشهدت الناس على أنها خلعت فلا تحمل عنه بمرورة ولا تآر له (١) .
وكذلك كانت تفعل إذا أجازت ، وكانت أحياناً تغطي حليها برامة بأنه يمارها
فتدفع إليه سهماً مكتوباً عليه فلان فلان ، كما كان يفعل بنو غنم بن عوف بن
الحزرج بالمدينة ، وهم كانوا يدفعون إلى حليفهم المستجير بهم سهماً ويقولون له :
قول قلبه يثرب ، حيث شئت (٢) . والثوقلة ضرب من المشي ، ولذا سموا بالثوقلة ،
والقاموس يسميهم القواقلة .

وكثيراً ما كان يستعد الحلف بين القبائل ليلب نفع اقتصادي ، من غارة على أعداء
أو لدفع عدوان مترقب ، لأنهم كانوا ، ينسبون إلى الأعز ، لحماية الحمية وإيلاء الدنية ،
وسكون النفوس إلى نفيس الكثرة والخصية ، (٣)

٢ - توثيق الحلف :

ورغبة في توثيق الحلف كانوا يحتالون على ربط النسب بين القبيلتين المتحالفتين
إن لم تكونا من أصل واحد ، فيمقدون الحلف على دم الذبائح التي تنحر للألهة ،
وهذا الدم يرمز إلى أن العلاقة بين الحليفين هي كعلاقة الدم الذي هو أساس القرابة
الدموية ، فقد كانوا يبدون الأوصاب وينسبتون عندها -- يذبحون -- ويقطعون
العهود ويحلفون ، وفي ذلك يقول عمرو بن جابر الحارثي ثم السكبي :

حلفتُ حُطَيْفٌ لا تُنْبِئُهُ سِرِّيَّهَا وحلفتُ بالأنصابِ ألا يرعدوا

ويقول رشيد بن رميض من عنزه :

حلفتُ بمائزاتٍ حولِ عَوْضٍ وأنصابٍ تُرْكَنُ لدى السحير (٤)

(١) الأغاني ٢/١٣ ساسي

(٢) سيرة ابن هشام ٤٠/٢

(٣) نهاية الأرب ٢/٢٦٧

(٤) الأسمان ١٧ . عرض : صنم كان يعبده حلفاء عنزة من بكر بن وائل . سمير : صنم لعنزة

ومن تقاليد الحلف لمسح الدم ، يقدس كل فريق يديه في جفنة ملأى بالدم ثم يمسح كل رجل ما علق بيده ، وكانوا يسمون هؤلاء لمسح الدم^(١) ومن شأنهم إذا تحالفوا أن يمسحوا أيديهم في الدم وما زادوا على ذلك إلى أن كان الحلف الذي شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حلف المطيين^(٢) وأطلقوا على دم الحلف (الأسحم) قال الفيروز آبادي : الأسحم : الدم تغمس فيه أيدي المتحالفين ، وقال ابن منظور في قول الأعشى :

رضيحي لبان ثدى أم تحالفنا بأسمهم داج عَوْضَ لا تنفرق
الأسحم في قول الأعشى : الدم تغمس فيه اليد عند التحالف^(٣)

وكان الغرض الذي يهدفون إليه من ذلك توثيق الحلف ، وكإثباته بلحق الدم في حياتهم الأولى وثقوه فيما بعد بسوائل أخرى مثل الرب - عصارة بعض الثمار - ومن ذلك حلف الرباب الذي عقد بين أحياء من ضبة ، وسمى بذلك لأنهم غمسوا أيديهم في الرب وتعاقدوا عليه^(٤) ، ولعلمهم اختاروا الرب لأنه أحر كالدّم الذي كانوا يتعاقدون عليه ، ومن ذلك دلت كلبة الربيب على المعاهد ، ودلت كلبة الرباب والربابة على العهد^(٥)

وقد وثقوا العهد بالماء في حلف الفضول ، وسببه أن رجلا من اليمن قدم مكة ببضاعة فاشترها رجل من بني سهم ولم يعطه الثمن . فقام في الحجر قائلا :

يا لَقْصَى لِمَظْـلُومِ بَضَاعَتِهِ يَبِطُّنُ مَكَّةَ نَائِي الدَّارِ وَالنَّفَرِ
وَأَشْمَعْتُ مُحْرَمٌ لَمْ يَنْقُضْ حَرَمَتَهُ بَيْنَ المَقَامِ وَبَيْنَ الرُّكْنِ وَالْحِجْرِ^(٦)

فقام العباس وأبو سفيان حتى رداً عليه ، واجتمعت بطون قريش فتعاقدوا على رد الظلم بمكة والإبظام لرجل بمكة إلا منعه وأخذوا له بحمته ، وكان حلفهم في دار

(١) الأغانى ٢٦/٧ (٢) أعان الرب لتجبري مخطوط وسيرة ابن هشام ٢١٣/١

(٣) القاموس المحيط ولسان العرب مادة سحيم (٤) العقد الفريد ٣٩٢/٢ - ٤١ بولاق

(٥) القاموس المحيط مادة رب (٦) الأغانى ٦٢/١٦ - ٦٥ سامي

ابن جدهان ، وحضره رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان يقول : لقد شهدت حطفاً في دار ابن جدهان ما أصيب أن لي به حمر النعم ولو دعيت به لأجبت . ثم عمدوا إلى ماء من ماء زمزم فجملوه في جفنة ثم بنوا به إلى البيت ففسلت به أركانها ثم أتوا به فشر به . ولم يتعاقدوا على ماء معتاد بل تعاقدوا على ماء من زمزم ، وقد غسلت به الكعبة ، ثم شر به ، كأنما يريدون أن يسرى العهد في كيانهم .

وهذا نوع آخر من تركيد الحلف ، لا تمس فيه الأيدي في دم ولا رب ولا ماء ، وإنما تمس في الطيب ثم تمسح بها الكعبة ، ذلك كان في حلف المطيبين .

فقد اختلف بنو عبد مناف بن قصي وبنو عبد الدار بن قصي في الحجابة والواء والسقاية والرئاسة — وكانت بأيدي بني عبد الدار — فمعد كل قوم على أمرهم حطفاً مؤكداً على ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً ما بل بحر صوفة ، فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند الكعبة ثم غمس القوم أيديهم فيها فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفائهم ، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم تركيداً على أنفسهم ، فسماوا المطيبين (١) .

وتعاقد بنو عبد الدار وتعاهدوا هم وحلفائهم عند الكعبة حطفاً مؤكداً على ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً ، فسماوا الأحلاف (٢) .

وأحياناً كانوا يتعاقرون على النار ، ولعل ذلك سرى إليهم من الجوسية الفارسية ، فقد كان من العرب من يعبد النار ، وعبادها يفضلونها على التراب ، ويصوبون رأياً إبليس في امتناعه عن السجود لآدم ، ولا شك أن عبادة بعضهم للنار ذات صلة وثيقة بالتحالف عليها ، وقد كانوا يضعون فيها الملح والكبريت للتهويل ، وإنما سموها المهولة ، وسموا التميم عليها المهول ، ومنفصل القول في ذلك في الحياة الدينية . قال أوس بن حجر في وصف نور وحشي :

(١) سيرة ابن هشام ١/١٤٧—١٤٤

(٢) المرجع السابق ١٤٣

إذا اشتبكت الشمس صد بوجهه كما حد عن نار المهول حالف^(٤)
وقال النكيت :

مستكبراً ما أوقد الخيلفون لدى الخالفين وما هو لرا
وقال :

وما ضرب الأمثال في الجور قبلنا لأجور من حكامنا الممثل
ثم خوفونا بالعمى هوة الزدى كما شب نار الخالفين المهول^(٥)

وهم إنما يريدون من مصاحبة الدم والرب والماء والتطيب للطف والتسبح بالكعبة
توكيده والإشهاد المسدى على عزيمته الوفاء ، والنص على الدوام والاستمرار ، قال
الحداد بن حذافة في معانيته :

واذكروا حلف ذى الحجاز وما قُدم فيسه اليهود والسكفلاء
حدّر الجور والتعدى وهل يد قُض ما في المهارق الأهواء^(٦)

ويذكر الجاحظ أنهم كانوا يوثقون العمى بالناسخ بالأكف والتخالف على النار ،
والتعاقد على الملح ، والخبين الغموس مثل قولهم : ماسرى نجم ، وهبت ريح ، وبلى بحر
صوفة ، وخالفت جرة درة^(٧) .

ويذكر الميداني أنهم كانوا يقولون الدم الدم ، والمدم المدم بمعنى أبايكم على أن
دى فى دمك وهدمى فى هدمك^(٨)

٣ --- إعرازهم للحليف والجار وحمايتهم له :

وقد أعرزوا الحليف حتى إن قريشا كانت تترفع عن تزويج بناتها من غيرها إلا
إذا كان من حلفائها .

(٢) البيان والتبيين ٦/٣ — ٧

(٤) البيان والتبيين ٦/٣

(١) البيان والتبيين ٦/٣

(٣) المظلمات للمعتمد المتعملى ١٢٨

(٥) جهم أمثال الميداني ٧٤٣/١

وقد كانت السنة الشائعة بينهم أن الحليف نصف دية الصريح ، وإن كان مالك ابن الصلطان قد رفض أن يأخذ من بني عوف في جهاره إلا الدية كاملة فرفضوا ، ففتيت حرب بين الأوس والمخزوم إلى أن احتكروا إلى ثابت بن المنذر — والد حسان — فحكم بأن يردى لطيف مالك دية الصريح ثم تكون السنة فيهم على ما كانت عليه : لتصريح دية والحليف نصفها . وفي ذلك يقول حسان بن ثابت مفتخراً بتضاء أبيه :

وَأَبِي فِي سَمِيحَةِ النَّائِلِ الْفَا سَلَّ حِينَ التَّمَّتْ عَلَيْهِ الْحَسْمُ (١)
 وبلغ من مكانة الحليف أنه كان يهد من المشيرة ، ولذا كان الجبير يرثه في ماله (٢)
 ونادوا في حياية الجار إلى حد أن سموه من الموت ، وذلك أنه إذا مات دفع حامية وجبيرة دية إلى أهله ، فقد رووا أن الأعشى تخاف بني عامر على ما معه من عطايا الأسود العنسي فأنى علقمة بن علاثة فقال له : أجزني أقتال : أجزتك ، قال : من الجن والإانس ، قال : نعم ، قال : ومن الموت ، قال : لا . فأنى عامر بن الطفيل فقال : أجزني ، قال : قد أجزتك ، قال : من الجن والإانس ، قال : نعم ، قال : ومن الموت ، قال : نعم ، قال : وكيف تجبرني من الموت ؟ قال : إن مت وأنت في جوارى يموت إلى أهلك الدية . فقال : الآن علمت أنك قد أجزتني من الموت ، فمدح عامراً وشما علقمة (٣) :

بل بولغ في التشويه بجمايتهم للجار واللاجيه ، حتى قالوا إن مدح بن سويد الطائي خلا يوماً في خيمته فإذا هو بقوم من طيئه ومعهم أوعيتهم ، فقال : ما خطبكم ؟ قالوا : جراد وقع بفنائك فنجئنا لناخذه ، فركب فرسه وأخذ رحله وقال : والله لا يعرضن له أحد منكم إلا قتلته ، إنسكم رأيتموه في جوارى ثم تردون أخذه ،

(١) الأغاني ١٧٠/٢ - ١٧١ - سلسي

(٢) البخاري ٨٩/٦ بولاق

(٣) الأغاني ٨/٨

فلم يزل يمرسه حتى حبيت عليه الشمس وطار ، فقال : شأنكم الآن ، فقد تقول عن
جوارى ، وحضر بها به اللث فقالوا : أسمى من بغير الجراد ، ويقال إن الجبير كان حارثة
ابن مر الظاير ، أبا حنبل وفيه يقول شاعر طيبي :

ومنا ابن مرٍّ أوبر حنبل أجاد من الناس رجلاً الجراد
وزيد لنا ولنا حاتم غياث الورى في السنين الشداد^(١)

والمقد كان الحليف ينصر حليفه على بني عمه ، يقول أحد شعراء الحماسة وقد
اعتدى بنو عمه على حليفه حوشب :

سأخذ منكم آل حزن حوشب وإن كان سركي وكتمتني أبي
قتل لبني سمي فقد - رأيتهم - منوا بهريت الشدق أئوس أغلب
أيقروا بني حزن وأهواؤنا معا وأرحامنا مرصولة لم تقضب^(٢)

لكنهم لم يبيروا على الملوكة ، فقد أوصى حصين بن حذيفة بن بدر أولاده
وهو مختصر ، وجاء في نصحه لهم : ، ولا تجيروا على الملوكة فإن أيديهم أطول
من أيديكم^(٣) .

٤ - واقتنروا بحياته ، قال عبيد بن الأبرص :

إنا للمرك لا يفضا م حليفنا أبدأ لدينا^(٤)

وقال :

تحصى حقيقتنا ونمتع جارنا ونلف بين أرامل الأيتام^(٥)
ومن مفاخرهم أن جيرانهم محتمون بهم ، وأنهم لا يهابون شيئاً ، قال عون بن
عطية التيمي :

(٢) شرح الحماسة للمرزوقي ١/٣١٢ صرحت الكندي : واسمه ،

(١) اليباقى ١/٢٠٢

ومى من صفات الأسد

(٤) ديوان عبيد قصيدة ٧ Lyall

(٣) أمالي المرتضى ٢/١٦٨

(٥) الديوان ٤

وَتَمَلُّ أَسْيَادَ وَرَاءَ بِيوتِنَا حَذَرَ الصَّبَاحِ وَالْعَيْنِ بِالْمَسَدِ عَضْرًا^(١)
وَكَانَ الْإِعْتِدَاءُ عَلَى الْجَارِ كَثِيرًا لِحَبْرَتِهِمْ كَأَنَّهُ اعْتَدَاءٌ عَلَيْهِمْ ، فَيَسْتَقْبِرُونَ الْحَسَامَ
لِلذَّبِ عَنِ الشَّرَفِ الْمُحْتَمِنِ وَالْإِتْقَانِ مِنَ الْمُتَجَرِّئِ عَلَى الْجَارِ الْخَصِيِّ ، وَذَا مَدَسُوا
بِالذَّبِ عَنِ الْجَارِ ، فَقَالُوا : فَلَانَ مَنِيحَ الْجَارِ حَامِي الذَّمِّارِ . . . حَتَّى نَأَى نَبِيهِمْ مِنْ بَحْمِي
الْجَرَادِ إِذَا نَزَلَ فِي جَوَارِهِ فَسُمِّيَ بَحْمِي الْجَرَادِ^(٢) نَحْنُ سَبَقُ
اعْتَدَى قَوْمٌ مِنْ سَعْمَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ عَلَى جَارٍ لِأَسَدِ بْنِ كَرَزٍ فَأَوْقَعَ بِهِمْ وَافْتَضَرَ
بِحِمَاةِ جَارِهِ .

وَمَا جَارٌ يَبْقَى بِالذَّلِيلِ فَتَرْجِيهِ ظِلَامَتُهُ يَوْمًا وَلَا الْمُتَهَيِّمِ^(٣)
وَافْتَضَرَ حَسَانَ بْنَ ثَعْبَةَ الْعَدَوِيَّ أَوْ جَسَّاسَ بْنَ نَشْبَةَ التَّمِيمِيَّ مَأْتَمَهُمْ سَارِبُوا حَمِيرَ
وَقَدْ أَتَتْ بِرِمَاعِهَا لِحَارِبِ كَلْبِيَا ، وَقَدْ انْتَصَرُوا عَلَى حَمِيرِ نَصْرٍ أَمْوُزْرًا فَارْتَدَّتْ مَكْلُومَةٌ
مِنْ رِوْمَةٍ تَسْوِقُ مَطَايِيهَا الدَّلِيلَةَ :

نَحْنُ أَجْرْنَا الْحَيَّ كَلْبِيَا وَقَدْ أَتَتْ لَهَا حَمِيرُ زُهَيْبِ الْوَشِيحِ الْمُقَوَّمَا
تَرَكَنَا لِهَمِّ سَيْقِ الشَّمَالِ فَأَصْبَحُوا جَمِيعًا يَزْجُونَ الْمُطَى الْخَنْزَمَا^(٤)
وَكَانَتْ حِمَاةُ الْجَارِ دَلِيلًا عَلَى الْقُوَّةِ وَالرَّهْبَةِ وَإِنْ قَلَّ عَدَدُ أَفْرَاقِ الْقَبِيلَةِ ، قَالَ
السَّمُودِيُّ أَوْ ابْنُهُ شَرِيحٌ أَوْ غَيْرُهُمَا :

وَمَا حَضَرْنَا أَنَا قَلِيلٌ وَجَارُنَا عَزِيزٌ وَجَارُ الْإِكْثَرِينَ ذَلِيلٌ^(٥)
وَلَمْ يَتَصَرَّفْ نَحْرُهُمْ عَلَى حِمَايَتِهِمْ لِلجَارِ ، بَلْ تَحَدَّى ذَلِكَ إِلَى تَعَدُّهِمْ بِخَيْرَاتِهِمْ ، قَالَ لَيْدٌ
بِئْسَ رِيحَةُ الْحَامِرِيِّ فِي بِيحَالِ الْفَضْرِ :

وَهُمْ رِيحٌ لِلْمَجَاوِرِ فِيهِمْ سَمٌّ وَالْمَرْمَلَاتُ إِذَا تَطَاوَلُوا عَامِبًا^(٦)

(١) الفُضْلِيَّاتُ ١٢٨/٢ (٢) القَدُّ الْفَرِيدُ ١٥٩/١

(٣) الْبَيَانُ وَالْقَبِيحُ ٢١٧/٧ (٤) الْحَمْسَةُ ١٣١/١

(٥) الْبَيَانُ ١٢١/٣

(٦) الْمَعْلَقَاتُ السَّمْرُ ٩٦ الشَّقِيقِيُّ ، الْمَرْمَلَاتُ : الْقَبَائِلُ الْفَقِيرَةُ

وسدح هدى بن زيد السكوني بن شيان في حديثه عن يوم ذي قار ، بأنهم
تخلطون بنارهم بأنفسهم . ويكرهونه ريمسونا :

إني حدثت بني شيان إذ حدثت نيران قومي وفيهم شبت النار
ومن تكرمهم في المحل أنهم لا يسلم الجار فيهم أنه الجار
حتى يكون عزيزاً من قومهم أو أن بين جميعاً وهو مختار
صكأته سدح في رأس شاهقة من دونه لتناق الطير أو كرا^(١)

ولم يكن من السهل المحتمل أن يفتيس حليف بعده ، أو ينقض ساع ذمة عقدها
لجار ، فإنهم كانوا إذا غدر منهم أحد رفضوا له لواء بسوق عكاظ ليشهروا به ، وفي
ذلك يقول قطبة بن أوس بن محسن بن عمرو (الحادرة) :

أسمي ويحك هل سميت بغيره رُفِع اللواء لنا بها في يجمع^(٢) ؟

(٤) الغنى والفقر

مظاهر الغنى : مظاهر الفقر : سخيف بعض الفقراء . نشوء المملعة والمماليك . حياة المماليك وأدبهم ومذهبهم

١ - عاش العرب كما عاش غيرهم متفاوتي الغنى والفقر ، لكن الفقر كان أكثر
شمولاً وأوسع دائرة ؛ لأن بيئتهم - ولا سيما الصحراء - غير ذات زرع يؤمنهم ،
ولا صناعة ينشرونها في الآفاق فتسكبهم مالا .

على أن أطراف الصحراء - الحبرة والشام واليمن - كانت أكثر خيرات لأنها
أخصب وأعظم حضارة وأشد بالأمم اتصالاً ، وقد وضعنا هذا في الحديث عن هذه
الإمارات . وبحسبنا هذه الصورة التي يصورها النابغة ترف بنى غسان ، يصورهم
لابسين نمالاً رفاقاً لا هي مخصوفة ولا هي غليظة كجمال البدو ، تحييهم الوصيفات

(١) الحماسة ١/١١٤ (٢) المفضليات ١/٤٣ وحاسة البصري ٢١٦ ودبوان الحادرة ص ٧

باليامين في يوم الثعابين ، وملا بسهم من الحزن الأحمر شعار المارك ، وإذا ما نشروها
صاقرها على المشاجب ، وهم منعمون من عهد يمين :

رتاق الصال طيب حجازتهم يحيون بالرحمان يوم السباب
تحييهم يرض الولائد بينهم وأكسية الإضرب فوق المشاجب
يصونون أجساداً قديماً نعيمها بخالصة الأردن خضر المناكب (١)

ولم يكن الفتي والترف مقصوراً على اليمن والحيرة والشام ، بل كان في الصحراء
نفسها غنى وترف ، وهل أدل على الفتي والرفاهية من إفاضة المسك على الأجسام بعد
الاستحمام؟ يقول ابن علقمة الجيني في مدح بني غطفان :

إذا جاورت في غطفان طراً فعدت الأكرمين بني رياح
هما جارا المساوئك فيوآها بأرض سهلة رُدح المراح
إذا غسلنا جلودهما أفاضنا قَتِيت المسك عن أدم صحاح (٢)

وطرفة بن العبد يتحدث بأن الإماء شوين لهم ولد الناقة في النار ، وبأن الخدم
سحوا عليهم بتطعم السنام السمين :

فظل الإماء يمتلئن حوارهما ويسعى علينا بالسديف المسرهد (٣)
وقال :

تبيت إماء الحلى تطوى قدورنا ويأوى إلينا الأشعث المتحرف (٤)
ولست بحاجة إلى الإفاضة في علاقة الخمر والفتاء بشئ المدمنين على الشراب
والسباع في الصحراء نفسها وفي الأطراف ، فقد سبق هذا في مواطن آخر ، ولكنني
أدل على غنى بعض الناس بشئ آخر هو وصف الشعراء الحلى ببعض النساء ، فالمرقس
يقول إنهن تحلين بالياقوت وباللؤلؤ أو حبات الذهب ، وبالخرز الجاني منظوما
في عقود :

(١) الديوان ص ٨

(٢) المؤلفات والمختلص ١٨٩ . رُدح المراح : واسعة المجال والرعي (٣) ديوان طرفة ص ٣٥

(٤) الديوان ٤٤ الأشعث : الغير الرأس . المتحرف : الذي أكل الدهر ماله .

تحلين ، ياقرتا وشذورا وعسيفة . وجزعا ظفاريها ودرأ ترائما^(١)
 ويقول : إنهن يلبسن أتراطا مذمبة لما عذبات مدلاة :
 يبدان في الأذان من كل مذنب له ريدٌ وبها به كل واضح^(٢)
 والمثقب المبدى يقول : إنهن حلين بالذهب ترائبن التي تشبه العاج لونا وملاسة :
 أرينَ حماساً وسكننَ نحرى من الأحياد والبشر المسون
 ومن ذهب بلوح على قريب ، كلون العاج ليس بنى غضون^(٣)
 وفي الإسلام كانت حبيبة الفرار بن منقذ تيجر في بخترها ثوبا سابغا يلامس
 البلاط ، وتمشى على طنافس من الحرير غير مبالية بنفاسها ، وتلبس نفيس الثياب
 حتى في تبذلها ، فلا تصونها بل تبدلها ثوبا بعد ثوب :

لا تمس الأرض إلا دونها عن بلاط الأرض ثوب منعفر
 تطأ الحز ولا تكرمه وتطيل الذيل منه وتجر
 وترى الریط مواديع لها شعراً تلبسها بعد شعر^(٤)
 ثم هي تتطيب بالعبير والمسك حتى ليكاد ينصرف من أكماها :
 عبق العنبر والمسك بها فهي صفراء كمرجون العمر
 وهي لو يُعصر من أردانها عبق المسك لكادت تعصر^(٥)
 وامرؤ القيس يتحدث بأن المسك كان يوضع من صاحبه كأنه نسيم المعطر
 برائحة القرففل :

إننا قامنا توضع المسك منها نسيم الصبا جاءت بريا القرففل

(١) المفضيات ٤٥/٢ (٢) المفضيات ٣١/٢

(٣) المفضيات ٨٩/٢

(٤) المفضيات ٨٩/١ الریط : الملافة . مواديع : حم مبدع : الثوب الذي يصون غيره ، شعر

جم شمار : ما يلي الجسد

(٥) المفضيات ٩٠/١ العمر : نخلة السكر وهو ثمر جيد

وإن صاحبة أخرى كانت تهنئ من نومها ضحا فإذا فتحت المسك على فراشها .
وتُضحى فتبت المسك فوق فراشها . قروم الضحا لم تنتقل (١)
ما من شك إذن في غنى بعض الناطقين في الصحراء ، وفي ترف بعضهم ، وما من
شك في أنه لولا هذا الغنى لما استطاع بعض ساداتهم أن يجزوا العطاء للصحراء ، وأن
يصلوا ديات القتلى إذا ما سعروا أن تضع الحرب أوزارها .

٢ - ومهما يكن من شيء فقد كان الفقراء أكثر عدد . وكان بعض الفقراء أدق
حسا وأبعد أملا من بعضهم الآخر ، فبدموا بالشظف والحمران ، فهذا أعرابي
اقتصر وقد في الحرب بدأ وربلا فتسكر له قومه ، فعز عليه أن يتسكروا ، فصور
شعوره هذا التصوير الحزين :

الله يعلم أن من رجالهم وإن تحدّد عن متى أطاري
وإن رزئت يدا كانت تجماني وإن مشيت على زجج ومسار (٢)

وإذا كان هذا الأعرابي قد أقام مع من أنسكروه سائطا عليهم فإن غيره لم يطق
أن يقيم بين من يزدرونه لفرقه ، فيزهون بقوله إن تكلم : ويصمونه بالحي إن
صمت ، وهو لهذا سير تمل حتى ينتهي أريوت :

سأعمل نص العيس حتى يكفني غنى المال يوما أو غنى الحدثنان
فلأموت خير من حياة يرى لها على الحر بالإقلال وسّم هوان
متى يتكلم يبلغ حكم كلامه وإن لم يقل قالوا عديم بيان
كان الغنى في أهله - بورك الغنى - بفسير لسان ناطق بلسان (٣)

ويضجر عروة بن الورد من تسكر الناس للثقل ، ويزيده ضجرا أن تجتوى
الروح زوجها الفقير ، لأن هذا أشد مرارة :

ذري للفسنى أسهى فإني رأيت الناس شرهم الفقير

(١) اللغات المشتغلي ٥٩ ، ٦٤

(٢) البيان والتبيين ٤٨/٣ (٣) البيان والتبيين ١٨٩/١

وأهون نسيم رأه قمرم للبهيم رزن أمسى له نسب رنخور
 ويَقصِي في الندى وتزدرية حطيته ، وينهره التفسير
 وبلقي ذوالنخى وله جلال بكاد فؤاد صاحبه يبلور
 قليل ذنبه والذنب جيم ولكن اللغني رب، نفور^(١)
 ويشهد البرم بعيد بن الأبرص فلا يحفل بفراق زوجته التي قلته لفقره وأسامت
 معاشرتها له :

تلك عرسي نضبي تريد زيال ألبين تريد أم لبلان ؟
 إن يحسن طلبك الفراق فلا أحد فمل أن تعطلي صدرر الجمال
 حكمت يضاء كانهاة وإذ آتيك نشوان مرخيا أذبال
 فانركي عط ساجيك وعيش معنا بالرجاء والأمال
 زعت أتي حكمت وأني قل مالي وضرب عني الموال^(٢)
 ومي سعيد بن عمرو بن فضيل زوجته - وقد سألتاه التلاق لما افتقر - بأن ماله

قد يكثر ، فيقتي البيد والإماء والخدم ويمتعهما ويكسرهما معارض ذوات ذبول :
 تلك عرسي تنطقان علي عم لى اليوم قول زور وفتر
 سألتاني الطلاق أن رأنا ما لى قليلا ، قد جثما بنسك
 فلبلى أن يحسب كثر المال عندي ويسرى من المغارم نظري
 وترى أعبد لنا وإماء ومناصيف من خوادم عشر
 وتجرا الأذبال في نعمة زو ل ، تقولان : ضع عصاك لدهر
 وي كأن من يكن له نسب يح بيب ومن يفتقر بعش عيش ضر
 ويحسب سر النجى ولس كين أضا المال محضر كل سر^(٣)

(١) البيان واليبين ١٩٨/١ وشعراء الصرازية ٨٨٨ وديوان ٢٠

(٢) البيان واليبين ١٩٩/١ وديوان عبيد القصيد ١١ ١٧٨١

(٣) البيان واليبين ١٩٩/١ ورواها الأغاني لثيبه بن الخطاب السهمي ٦٠/١٦ ، وأسبها الزمخشري
 عن ابن الأعرابي لى زيد بن عمرو بن ثعلب . مناسب : جم منصف وناصف وهو الحادم . زول : ظريف

وَنِيَّةُ بِنِ الْحَبَّاحِ بِنِ عَامِرٍ يَتَمَسَّرُ لِأَنَّهُ مَعْدَمٌ فَلَيْسَ مِنْ حَوْلِهِ أَشْيَاعٌ وَخِلَانٌ ،
وَلَيْسَ مِنْ حَوْلِهِ مِنْ يَدِيحِهِ وَتَمَاتِقِهِ وَرَيْحِهِ ، وَلِأَنَّهُ عَاجِزٌ عَنِ بَدَلِ الْمَعْرُوفِ لِلنَّاسِ .
ولو أنه كان غنيا لفاقهم في عطايتهم .

قَصَّرَ الْمَدْمُ بِي وَلَوْ كُنْتُ ذَا مَا لَرِ كَثِيرٍ لِأَجْلِ النَّاسِ حَوْلِي
وَلَقَالُوا أَنْتَ الْكَرِيمُ عَلَيْنَا وَخَطُّوا إِلَى هَوَايَ وَصَلِي
وَلِكَلْتُ الْمَعْرُوفَ كَكَيْلَا مَنِيَا يُعْجِزُ النَّاسَ أَنْ يَكِيلُوا كَكَيْلِي (١)
وقد تنوع تصوير الألم من الفقر حسب ظروف الفقير ، فهذا شاعر يتحسر
على أن أمطرت السماء وليس عنده ناقة ترعى البقل :

نَمُ مَطْرُنَا مَطْرَةً رَوِيَّةً فَجَبْتَ الْبَقْلَ وَلَا رَعِيَّةً
وَقَالَ آخَرُ :

أَمْرَعْتَ الْأَرْضَ لَوْ أَنَّ مَالًا لَوْ أَنَّكَ نُوَقًا لَكَ أَوْ جَمَالًا
أَوْ نَلَّةً مِنْ غَنَمٍ إِمَّا لَا (٢)

الصعاليك والصعاليك

في هذه البيئة التي ينعم فيها بعض الناس ويشقى الآكثرون ويحس بعض الفقراء
أنهم مبرهنون مبعدون عن المشاركة في الحياة الاجتماعية الراقية ليس بمجيب أن ينقم
بعض الفقراء ذوى الطماحية والحس المرهف والشجاعة على تحقيق ما ينتفون - على
نظام المجتمع المالى ، وكان هذا سببا فى نشأة الصعاليك والصعاليك فى مجتمع لا تحميه
شرطة ولا يخضع لقانون ولا يلجأ إلى محاكم ، مجتمع يدين للقوة ويمجد الأقوياء .
وهل كان الصعاليك فقراء ؟ نعم كانوا من الفقراء ، فلسان العرب يقول
لإنهم الفقراء (٣)

(١) الأغاني ١٦/٦١

(٢) البيان والتبيين ١٣١/٢ - ١٣٢

(٣) اللسان مادة صعلك

والتاموس المحيط يقول : صعلوك : أقره ، والسمارك : الفقير ، وتصلك :
افتقر ، وعروة الصعاليك هو ابن الورد . لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم
بما يغمه ^(١) . ويقول : ذؤبان العرب : اصوصهم وصعاليكهم ^(٢) .

وساتم بن عبد الله يقول .

غنيا زمانا بالتصعلك والغنى فكلما سقناه بكأسيهما الدهر
يعنى بالفقر والغنى ^(٣) ، وقد جعل التصعلك متابلا للغنى .

وقال أوس بن حجر :

يا عين جودي على عمرو بن سمود أهل العفاف وأهل الخزم والجود
أودي ربيع الصعاليك الأولى انتجعوا وكل ما فوقها من صالح حود ^(٤)
وكذلك يقول الأعشى :

على كل أحوال الغنى قد شربتها غنيا وصعلوكا وما إن أقاتها ^(٥)
ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستفتح بصعاليك المهاجرين أى يستنصر
بفقرائهم ^(٦) .

والصعلوك الذى لا مال له . قال الشاعر (جابر بن ثعلبة الطائي) :

كأن الغنى لم يعرف يوما إذا اكتفى ولم يك صلوكا إذا ما تمولا ^(٧)
وهذه النصوص لا تدع مجالاً للشك فى أن الصعلوك هو الفقر ، وإن كان قد
تطور مدلول الكلمة فيما بعد .

ولسكن الصعاليك ليسوا الفقراء حَسْب ، فهم فقراء يدركون ما بينهم وبين الأغنياء
من فوارق فى النعمى والبؤس ، فيمضهم هذا الإذالك ، ويمضهم خلاء أيديهم ومعجزتهم

(١) التاموس مادة صعلك (٢) التاموس مادة ذب

(٣) ديوان حاتم ١٢ والأما ٢٨٧/٢ (٤) مرات وأشعار لقيزى بن عطلوط (٥) ديوان الأعشى ٦١

(٦) الأما ٢٨٧/٢ (٧) تهذيب السكامل ٩٨/٢ وشرح ديوان الحماسة للرزوق ٣٠٠/١

وسوء حظهم ، ثم هم تراشون إلى أن يحبوا حياة أرقى مما يحبون ، فإذا يسمون ؟
 إن في قلوبهم شجاعة وفي أجسامهم قوة وقسوة ، وهم لهذا كله يترشون على النظام المثل ،
 ويشمرون عنوة مائة حرموه ، ويحسدون سعادته أن يأروا لأنفسهم من ذوى الجلالة .
 وقد وجد بينهم الحرمان والألم فحطفت بعينهم على بعض وتقاسموا ما ضاعوا ، ولقد
 تبر بعضهم الأرنجية والإشفاق فيؤزى الصعاليك العاجزين عن السلب ويكفّل لهم
 أسباب الحياة . كهذا كان يفضل عروة بن الورد ، فقد لاقب بعروة الصعاليك بلحمه
 وإيامه وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم . ولم يكن لهم مماش ولا مغزى ،^(١)
 وكان هذا كراماً من عروة حبيه إلى الصعاليك حتى لاقب بأبي الصعاليك ، وعروة
 الصعاليك .

وخير ما يمثل منج عروة قوله إن المرء إن لم يكن ذا مال ويحبو بامن أقاربه فوته
 خير من حياته ، ولقد نسأله زوجته عن وجهه ومسالكه فلا يستطيع أن يجيبها ، لأن
 الصعاليك لا يعرف لنفسه وجهه ولا مسالكها ، فالأرض كلها مسالكه . وهو شقيق
 بإخوانه الصعاليك محب لهم فلا يدعهم للجوع ، وإنه في حبه لهم يشبه الظمان المحب للماء ،
 ومن طبعه أن يحميهم ويحمي جاره وبني لصديقه :

إذا المرء لم يبعث سوانا ولم يرح	عليه ولم تنطق عليه أقاربه
فلموت خير للفتى من حياته	فقيراً ومن مولى تدب عقاربه
وسائلة أين الرحيل ، وسائل	ومن يسأل الصعاليك أين مذاهبه ؟
مذاهبه أن التجاج عريضة	إذا ضن عنه بالفعال أقاربه
فلا أترك الإخوان ما عشت للردى	كما أنه لا يترك المسام شاربه
ولا يستصام الدهر جارياً ولا أرى	كن بات تسرى للصديق عقاربه ^(٢)

(١) الأغاني ٢٢/٣ الدار

(٢) الديوان ٤ وضمراء النصرانية ٦/٦٠ وفي شرح ديوان الجليلة للرزوني والأغاني ١١/٤٢
 ساسي أن الأبيات لأبي الشنان من لوسون بني تميم في الإسلام

ولحنا المنج ، ولهذا الحلق ذاعت شهرة عروة ، وجرى تقديره على السنة السادسة ، قال عبد الملك : « من زعم أن حاتمًا أصبح الناس فقد ظلم عروة بن الزورد »^(١) ، وقال : ما كنت أسب أن أحداً ولدني من العرب إلا عروة بن الزورد لقوله :

أثراً مني أن سمعت وأن ترى بحسبي مس الجوع والجوع جاهد
لأن امرؤ عافى إناني شركة وأنت امرؤ عافى إنائك واحد
أفسم جسدي في جسم ككيرة وأحسوا قراح الماء والماء بارد^(٢)

كان أمل الصعاليك أن يعيشوا في غنى ، فيعضوا ساجلتهم ، ولا يشعروا بمرارة الحرمان ، ولذلك يتامرون ليثروا أو ليهلكوا فيتنخلصوا من شقوة الفقر ، قال عروة :

أقل على اللوم يا ابنة منذر وناني فإن لم تشتهي النوم فاسهري
ذري ونفسي أم حسان إنني بها قبل ألا أملك البيع مشتر
أحاديث تبني والفتى غير خالد إذا هو أمسى هامة فوق صير
ذري أطوف في البلاد اعلمي أخليك أو أغنيك عن سوء محضر
فإن فاز سهم للنية لم أكن جزوعاً ، وهل عن ذلك من متأخر
وإن فاز سهمي كنفكم عن مقاعد لكم خائف أديار البيوت ومنظر^(٣)

ويظهر أنهم كانوا يعتقدون بأنهم على حق فيما يصنعون ، فيزعمون أن المال مال الله ، فليأخذوا منه ما يشاءون ، فهم إذا أوغل في الاشتراكية من الاشتراكيين وقد عبر الأعيان السعدى في الإسلام عن هذه الفسكرة بقوله إنه يتعجل من الله أن يراه يجر مجبلاً لا يعير فيد ، وأن يسأل اللئيم الشحيح بغيراً وقد خلق الله بحراناً كثيرة ، فلما لا يأخذ منها ما يشاء ، ثم أفصح عن بفضته للجمع بقوله إنه يأنس إلى عواء الذئب ويفرق من صوت الإنسان ، وأشهد الله على كراهيته للناس حتى لتأذى عينه وقلبه برآهم :

(١) الأغاني ٣ / ٧٤ الدار

(٢) الديوان ٧ والمقد القريد ١ / ٢٧٥ والماء بارد أي في فصل الشتاء لأنه يشربه على جوع

(٣) الديوان ١٣ وصورة أشعار العرب ٢١٤ صير : ذير

يعني يبرده .

وإن لا استحي من الله أن أرى أجبر رجلا ليس فيه بهيمة
 وأن أسأل الجبس اللجم بيده ويعرف ديدن البلاد كثير
 عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوت إنسان فاستكثت أطير
 يرى الله أتي للأئيس لشاني ويفضهم لي عقلة وضير^(١)

وخاطب عروة بن الورد زوجته بأنه محبوب البلاد ليضني فيتحصل حقوقا يعجزه
 الفقر عن تحملها ، وأنه ليتألم أن تنزل نازلة بمن يعني بهم ولا يستطيع أن يقدم إليهم
 مساعدة . ونظرت هنا إلى الصعلكة نظرة من راعها وسيلة شريفة لأنها تبسر عليه
 أن يقضى حقوقا ويقوم بعمل عظيم :

دعيني أطرف في البلاد لطوي أفيد غنى فيه لندى الحق نهميل
 أليس عظيما أن تلم ملهة وليس علينا في الحقوق رسول^(٢)

الصعاليك منارون شجعان ، يعتمدون في حماية أنفسهم وفي نيل مآربهم على
 الفتك والجرأة والسلاح . وعم ذرو أفة لا يرضون ذلة ولا يخضعون لتهديد .
 حدث المفضل أن رجلا من همدان يقال له حريم أشار على إبل لعمر بن براق وخيل
 فذهب بها . وعزم عمرو على أن يغير على حريم ، فقالت له امرأة كان يتردد عليها
 ويحك لا تعرض لتلفات حريم فإني أخافه عليك ، فخالفها وأغار عليه ، فاستاق كل
 شيء له . فأناه حريم بعد ذلك يطلب إليه أن يرد عليه ما أخذه منه ، فقال : لا أفضل ،
 وأب عليه ، فأنصرف وقال في ذلك حريم :

تقول سليبي لا تعرض لتلفة وليلك عن ليل الصعاليك نائم
 وكيف ينام الليل من اجل ماله حسام كاون الملح أبيض صارم
 صموت إذا عض الكريمة لم يدع له طمعا طوع اليمن ملازم
 فقدت به إلفا وساحت دونه على النقد إذ لا يستطاع الدرام

(١) مجمع الصحراء ٣٧

(٢) الديوان ٣١ وشعره النصرانية ١١٦/٦

ألم فلعلى أن الصالحك نردهم قليل إذا نام الدثور المسام
 إذا الليل أديني را كفترت نجرمه وسلاح من الإفراط علم سحرهم
 ومال بأصحاب الكرى غالباته فإني على أمر الفسوية حازم
 كذبتهم ويدي الله لا تأخذونها مراغمة ما دام للسيف قائم
 كأن حرميما إذ رجا أن يضمها ويذهب مالي يا ابنة القوم حالم
 متى تجمع القلب الذكي وصارما وأنفا حيا تجذبك المظالم
 ومن يطلب المال الممنوع بالقنا يش ذ غنى أو تحتقرمه المخارم^(١)
 وكانت الصالحك مفخرة لأنها شيمة الأقبياة الشجعان ، قال الأحمير السعدي
 في الإسلام إن سيفه كقيل بأن يستولى على مال التجار :
 تعيرني الإعدام والبؤ معروض وسيفي بأموال التجار زعيم
 ولما تاب كاد لا يطيق صبراً وهو يرى القوافل محملة بالطعام والمتاع :
 أشكو إلى الله صبري عن ذواملمهم وما ألقى إذا مروا من الحزب
 قل للصوص بن اللخناء يحسبوا بز العراق وينسوا طرفة العين
 قرب ثوب كريم كنت آخذة من القطار بلا نقد ولا ثمن^(٢)
 وكان الأحمير هذا يستبشر إذا ما سمع نهيق حمار ، لأنه يؤذنه باقتراب التجار :
 نهق الحمار فقلت أين طائر إن الحمار من التجار قريب^(٣)
 وقال عمرو بن براقه :
 متى تطلب المال الممنوع بالقنا تعش ماجداً أو تحتقرمك المخارم

* * *

وهم لشجاعتهم وقوتهم لا ينامون إلا غراراً ، يتسمعون سائر الناس وأصواتهم
 لعلمهم أن ينالوا منهم شيئاً ، قال عمرو بن براقه الهمداني :

(١) الأغانى ٢١/١١٣

(٢) الأمالي ١/٩٩ ، اللخناء : نال لم تحتقن . القطار : جماعة الإبل المقطورة

(٣) معجم الشعراء ٣٧

وكيف ينام قليل من جمل ماله
 يحسب إذا عض السكرية لم يدع
 لم تعلم أن الصعاليك نومهم
 متى تصعب القلب الذي وصار ما
 متى تطاب المال المنعج بالفتا
 حسام تكون الملح أبيض صارم
 له طسقا ، طوع العين ملازم
 قليل إذا نام الخليل المسام
 وأنا حيا نجتك المظالم
 تعش ما جدد أو تحترق ما الخزام^(١)

ثم هم ذوو ألفة يسلمون ولا يطلبون ، وإذا عضهم الجوع صبروا ولم يتلبوا ،
 حتى لقد وصف الشفري نفسه بأنه يديم الصبر على الجوع حتى يذهب ويذهل عنه
 ويفضل أن يستف التراب على أن يكون لإنسان نعمة عليه ، ولولا هذا لعاش
 في رعد ، ولكن نفسه أية لا ترتضى المذلة :

أديم عقال الجوع متى أمية
 وأسف تيب الأرض كي لا يرى له
 ولو لا اجتناب الدم لم يلق مشرب
 ولكن نفساً حُسرة لا تقيم في
 وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل
 علي من الطول امرؤ متطول
 يعاش به إلا تدي وما كل
 على الضيم إلا ريثاً أنحول^(٢)

وإذا ذم عمرو بن الورد الصعلوك المتكاسل الخامل الذي يفتع بأن يعرق العظم
 ويجلس حول الحجاز ، ويقنع بأنه يملأ بطنه وينام نوما عميقا ، ويخدع نفسه الخي لأنه
 لا عمل له ، فإذا ما أذى الليل صار هز يلا منكسرا . وهدح الصعلوك المشرق الوجه
 الذي يفامر ، فإن قتل كان مشكورا مذكورا بالجرأة ، وإن غنم كان بالغبيمة جديرا :

خا الله صلوكا إذا جن ليله
 يعد الغنى من نفسه كل ليلة
 ينام عيشاه ثم يصبح ناعسا
 مصاف المشاش آلفاً كل مجزر
 أصاب قراها من صديق ميسر
 بحث الحصا عن جنبه المنقصر

(١) الأمل ١٢٢/٢ والأغانى ١١٣/٢١

(٢) أصعب السبب في مرح لامية العرب ، عمود الزمخشري ٢٥ - ٢٠

يُعين نسامة الخي ما يستننه
ويمن ظليها كالبصير المسر
ولكن صعاوكا ضئيلة وجهه
كضوء شهاب القنابس المتثور

فذلك إن ياق المنيه يلقيها
حميدا وإن يستنن بر ما فاجدر^(١)

وقال حاتم إنه يجوس في ظلمات الليل مدرعا بالظلام إذا تخوف الجبان أن يجوس
خلال الصحراء ، وإن الصعاوك لن يكتسب ثناء ولا مالا إذا هو لم يقتحم المخاطر ،
ودعا بالملك الصعاوك الضئيل العزيمة الذي لا أمل له إلا أن يأكل ويلبس ، وأعجب
بالصعاوك البعيد الهمة ، المقدم على الأحداث :

وليل بهم قد تسربت موهله
إذا الليل بالنكس الضئيل تجمها
وإن يكتسب الصعاوك حمدا ولا غنى
إذ هو لم يركب من الأمر مَعْظما
لما الله صعاوكا مناه ومهده
من العيش أن يلقى لبوسا ومطما
وته صعاوك يساور شهده
وبعض على الأحداث والذهر مُقْدِما^(٢)

o o o

وما يدل على أن الصعلكة كانت فتوة وقوة أن لقيط بن زرارة لما قتل أشيم بن
عوف من قيس بن ثعلبة أثار لآخيه علقمة افتخر بأنه ثار من مأوى الصعاليك ، وبأنه
قطع بقتله أنف الإمامة كلها ، وخير رجالها :

فإن قتلوا منا كريما فإننا
قتلنا به مأوى الصعاليك أشيما
جددنا به أنف الإمامة كلها
فأصبح عرين الإمامة أكثما
قتلنا به خير الضئيلات كلها
ضئيلة قيس لا ضئيلة أصحما^(٣)

وقد سبق إيجاب عبد الملك بن مروان بعروة وجعله عدلا لآبيه .

o o o

(١) الديوات ١٥ وجمهرة أشعار العرب ٢١٤ والجلسة ١/١٦٥

(٢) شعراء النصرانية ١١٩ (٣) للؤنث والمختلف ١٧٥ وسجع الشعراء ٢٢٢

والصبايك كثير ، أشد رحمة عروة بن الرور ، وتأبط شراً ، والشنفرى ، والسايك
ابن النسلكة ، وحمير بن بركة ، والأسيعر السعدى ، وهم جميعاً يمتازون بمروعة
الحركة والخفة والندو والجرأة بدروب الصحراء ، وقد روي عن تأبط شراً
والشنفرى والسايك أعاجيب في ذلك .

وموجز مذهبهم :

(١) أنهم يهيمون على أموال البهلاء ، أما الكرماء فإنهم يعفون عن ما لهم
(٢) أنهم كانوا يقسمون ما يضمنون ، وكانوا ديموقراطيين في انقسامهم ،
فليس الرئيس نصيب أعظم من غيره : فقد أغار عروة ونغم كثيراً ذات مرة ، وكان
في غنائه امرأة ، فأراد أن يستأجرها ويقوم أحبابه منها عبيد ، فرفضوا ، وقالوا
تقومها بإبل ثم يكون كل منا حراً في أن يأخذها إذا شاء .

(٣) كانوا ذوي نجدة وعطف على الفقراء الماجزين عن الكسب والغارة ،
لذلك كانوا يعطونهم من الأسلاب أنصبه مثل أنصبتهم

(٤) لم يبدوا مرة في عملهم ، بل إنهم فاشروا به ، ورأوه نوعاً من الفتنة
والاقتصاص من البخلاء ، والاشتراكية العادلة ، والتضامن الاجتماعي . لذلك شاد
بذكر عروة عبد الملك بن مروان كما سبق .

أما أدبهم فيمتاز بخصائص .

١ - إنه يصور ضرباً من ضروب الحياة العربية لا نجدده في غيره .

٢ - أكثره مقطعات لا قصائد ، ولعل مرد هذا إلى أنهم ذور خفة وسرعة
واختلاس ، لم يأنقروا التمهيل والتروى والتمثيق ، فجاء شعرهم صورة من حياتهم .

٣ - ويتميز شعرهم بوحدة الموضوع ، فليس فيه غزل وبكاء أطلال ووصف
للرحيل والرواحل ، لذلك كانت مقطعاتهم موحدة الموضوع .

٤ - شعرهم يصور أعمالهم ونفسياتهم ، فهو صدى للواقع ، لهذا لا نجد فيه
غزلاً . وكيف ينزل من يقضى نهاره ترقب ، وليله يترصد ، ولا يستقر في مقام ؟

الباب الثالث

الحياة الخلقية

من الشعر

السكرم

بواعثه ، مثله في أويته وأنواعه ، سمايه الخفيف ، شر بالسكرم وشدج

١ - بواعثه

كانوا يجيئون في بادية شحية بالزاد ، وحياتهم ترحال ونجوان ، فكل واحد منهم معرض لأن يفقد زاده ، فهو يقري ضيفه اليوم لأنه سيجتهد إلى أن يضاف في يوم ، ثم هم يكرمون لسكرمهم بحسن الأحدوة وطيب الشتاء ، ولأنهم ذوو أريحية وحساسية تسعد نفوسهم بمساعدة المحتاج وإطعام الجائع وإغاثة الملهوف ، وكان المال في نظرهم وسيلة لا غاية ، وسيلة إلى الحياة الشريفة وإلى كسب المحامد ، ولذا عاب بعضهم قيس ابن عاصم «لأنه أوصى بنيه فكان أكثر وصيته أن يحفظوا المال ، والعرب لا تفعل ذلك وزاه قبيحا»^(١)

وكان كرم العربي من وسائل ميادته قال حاتم :

يقولون لي أهلكت مالك فاقصد وما كنت لولا ما تقولون سيداً^(٢)

وكتب الأدب والتاريخ حوافل بأخبار كرمهم وقصص كرماتهم ، ولستنا نشك في أن كثيراً منها قد تطرق إليه الخيال والمبالغة ، ولكننا على ما فيها من خيال ومبالغة ضرورة لأصالة السكرم في نفوسهم وشيوعته بينهم .

وما يدل على أن السكرم أثير عندهم أنه كان من بواعث الميسر عند أجوادهم وأثرياتهم إذا اشتد البرد وكَلَب الزمان ، ليضعوا ذوى الحاجة الجزور الذي تياسروا عليه ، قال لبيد في مصلحته : رب جزور ما يندج أصحاب الميسر دعوت ندماني لتجرها بسهام الميسر المشابهة الأجسام ، وأنا أدعو بالقداح لتجر هذه الناقة سواء أكانت عاقراً أم ذات ولد ، وأبدل لحمها الجعيران جميعاً ، فالضيوف والجيران يشبهون كأنهم نزلوا برادى تبالة الخصية سهوله .

(٢) الديوان ٨ وشمراء النصرانية ١/٢٠٠

(١) الأغانى ١٢/١٥٠ ساسي

وَجَزُورٍ أَيْسَارٍ دَعَوَتْ حُضْرَهَا بِمِثَالِ مِثْلَابِ أَجْسَامِهَا
أَدْعُو بَيْنَ أَمَا تَرَى أَوْ تَطْفَلِ بِذَلِكَ الْجَبْرَانَ الْجَمِيعَ الْجَامِئَا
فَالضَّيْفَ وَالْجَارَ الْجَنِيبَ كَأَنَّمَا مِثْلًا تَبَالَةٌ مَخْصِيًّا أَهْضَامِهَا^(١)

ب - مظاهره

١ - فرحوا بالضيف وأعزوه ، وبالغ السكرام في الحفاوة به والتعهد له حتى صاروا له كالنبيذ ، ولكنهم شرفوا بهذه العبودية ، قال حاتم :

وإني لعبد الضيف مادام ثاريا وماتني إلا تلك من شيمة العبد^(٢)

وافتخروا بتقديمهم للضيف أشهى ما يمكن ، قال مضر بن ربيعه إنه يقدم لضيفه دهن سنام البعير وهو أنفس ما فيه :

وإني لأدعو الضيف بالضيوف بعدما كما الأرض أضاح الجليلد وجامده
لأكرمه إن السكرامه حتته ومثلان عندي قربه وتباعده
أبيت أعضيه السديف وإني بما نال حتى يترك الحمي حامده^(٣)
وأشهدوا نساءهم على إكرامهم لضيفانهم كما أسبقنا .

ومن صنوف الحفاوة بالضيف أن ينلقاه المضيف ببشر وإناس ويتوسط معه في الحديث ، قالوا : تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة ، وإطالة الحديث عند المؤاكلة ، قال حاتم :

سلى الجائع الغرثان يا أم منذر إذا ما أتاني بين ناري وسجوري
هن أبسط وجهي إنه أول التري وأبذل معروفى له دون منكر^(٤)
وقال عمرو بن الورد العبسى أو عتبة بن بجير :

(١) تبالة : موضع بلاد اليمن يضرب المثل بخصبه وهي غير تبالة الحجاج - بلدة مشهورة من أرض
هامة في طريق اليمن - مجمع البلدان ٣٥٧/٢
(٢) ديوان حاتم ٩
(٣) الجلسة ٣٠٢/٢
(٤) البيان والتبيين ٢٢٢/٦ وفي الجلسة ٢٤٦/٦ وشعره النصرانية ٩٢١/٦ أنها لعروة بن الورد

فراش فراش العفيف والبيت به ولم يَأْتِ عنده خزانك مُقْتَم
أحدته إن الحديث من القرى وتعلم نفسي أنه سوف يجمع^(١)
وقال عمرو بن الأختم :

فقلت له أملاً وسهلاً ومرحياً فهذا ميت صالح وصديق^(٢)
٢ - وسنخروا على الأرامل واليتامى واليتامى والسائين ، قال أوس بن حجر
في رثاء فضالة بن كلفة :

أبا ذكيفة من يوصى بأرملة أم من لأشعث ذي يهدمين طملا^(٣)
بقوله ملجأ الأرامل وموئل الفقراء

وقالت ابنة وثيمة في رثاء أبيها وثيمة بن عثمان إنه يب المال لليليد العزيز عليه ،
ويجود إذا اشتد البرد وقل المطر واشتد القحط ولم يجد الناس ملجأ خيراً من هشيم
الشجر ، وهو في هذا الجذب نادى الأرامل واليتامى :

الواهب المال التلا د لنا ويكفينا العظيمة
واحمر آفاق السما ء ولم تقع في الأرض ديمة
وتصدّر الأكل حتى كان أحدهما الهشيمة
لا تلمة ترعى ولا إبل ولا بقر مسيمة
ألفيته مأوى الأرا مل والمدفنة القيمة^(٤)

٢ - ومن أنواع كرمهم صلة الأرحام وإعطاء السؤل ، قال ابن ربيع المنذل
في رثاء ربيعة :

أعني ألا فابكي ربيعة إنه وصول لأرحام وممطاء سائل
فأقسم لو أدرتكم لحميمته وإن كان لم يترك مقالاً لائقاً^(٥)

(١) الديوان ٢٢ وشعره النصرانية ٩١٣/٦ واخماسه ٣١٤/٢ والبيان والتبيين ٢٤/١

(٢) البيان والتبيين ٢٤/١

(٣) ديوان أوس بن حجر ٢٣ والبيان والتبيين ١٥٩/١ هدم : بان . طملا : فقير

(٤) البيان والتبيين ١٦١/١ (٥) البيان والتبيين ١٨٢/١

رسن يجيب شأنهم في الكرم أن بعضهم كان يوزر المحتاجين على نفسه وأولاده ،
فقد حدثت امرأة عاتق أن ستاً بجدة أسابهم ، ون ليلة كان صبيهم يتضاغون
جوعاً ، فهد عاتق وزوجه في إسكانهم ، ثم حال زوجة بالحديث ففرفت أنه يسرى
عنها فتناومت ، ون آخر الليل جاءت إلى عاتق جارة تشكو إليه جوع بنينا ، فقال :
أجلبهم فقد أشبعك الله وإياهم . فأقبلت تحمل اثنين ويمشى إلى جانبها أربعة كأنها
نعامة حولها رثالها ، فقام إلى فرسه فذهب ، ونادى في الخي فهوا جميعاً واجتمع
التقوم على اللحم يشورون ويأتون ، أما عاتق فقد التفع في ثوبه وجلس في ناحية ينظر
وما ذاق قطعة مما ذبح ، وقال :

مهلا نوارُ أظلي النوم والعدلا ولا تقولى لشيء فأت ما قفلا
ولا تقولى لمال كنت مهاسكة مهلا وإن كنت أعطي الإنس والحبلا
يرى البخيلُ سبيل المال واحدة إن الجواد يرى في ماله سبلاً^(١)
ج- أوقاته وأنواعه

وهم كرماء في كل وقت ولكنهم يشيدون بالكرم إذا أجدبت الأرض وكفت
السياء ، لأنه كرم يحرص النفوس فيه على البقاء والاحتفاظ بالمال ، فهو كرم جدير
بالثناء . قالت الخنساء في رثاء صخر :

وإن صخرأ لكافينا وسيدنا وإن صخرأ إذا نشئتو لنحار^(٢)
وقال ابن أحرر بن العمرد :
وكم حلها من تَبَّحَانِ سَمِيْعٍ مَصَافِي النَّدى ساقِ بِسَهْمَاءَ مُطْعَمِ
طَوِيَّ البطن متلاف إذا هبت الصبا على الأمر غواص وفي الخي شَيْظِمِ^(٣)

(١) الديوان ١٩ والقعد الفريد ٣٣٤/١ وأمثال السيداني ١٢٣/١ الخيل : الجين . وق الديوان
البحر والحبلا . (٢) ديوان الخنساء ٧٩
(٣) البيان والخبيرين ٢٢٠/١ التيجان : الكثير الحركة . السميع السيد الكرم . السهماء : السنة
الشديدة المهزلة للاجسام . شَيْظِمِ : قبي جسم طويل

وقد أكثروا من الافتخار بالسكرم ، وأكثروا من المدح به إذا ما هبت ريح الشمال ، لأنها لا تهب إلا في الجذب ، قالت بنت لبيد بن ربيعة العامري :

إذا هبت رياح أبي عقيل ذكرنا عند هبتها اليليدا
أشم الأقفأ ايض عيشيا أعان على مروءته لبيد^(١)

وهذه الريح مهبها من كرس بنات نفس إلى مغرب الشمس صيفا ، وكانوا يكرهونها لبردتها وذهابها بالغم والحيا والخصب في زعمهم ، وهي عندم الشامية ، وكانوا يمدحون بالإفناق والسكرم إذا هبت هذه الريح^(٢)

وهي غير ريح الصبا التي تهب من المشرق إلى المغرب ، وكانوا يحبونها لرقمتها ولأنها تجيء بالسحاب والمطر والري والخصب^(٣) .

وهم يقدمون اللب قري للضيف ، قال الخارث بن حازة : لا تترك في ضروع النوق بقايا لبن ، وصب لضيفائك ألبانها ، فإن شر اللبن الذي يدخر في البيت :
لا تصكسع الثول بأخبارها إنك لا تدري من الناتج
واصيب لأضيفك ألبانها فإن شر اللبن الراج^(٤)

ويقدمون اللحم ، ويفخرون بتقديم شحم السنام ، قال محسلم بن فواس برئي منصورا وهما ما ابني المسجاح :

ومن قتي يملأ الشيزى مكلة شحم السديف ندي الحمد مطام^(٥)
كما يفخرون بسعة الجفان لأنها تدل على كثرة الأكلين ، قال أبو قردودة برئي ابن عمار :

يا جفنة كإزاء الحوض قد هدموا ومنطقا مثل وشى اليننة الحبرة^(٦)

(١) بلوغ الأرب ٩٣/١ (٢) بلوغ الأرب ٣٧٣/٣

(٣) نهاية الأرب ٩٧/١ وبلوغ الأرب ٣٧٣/٣

(٤) البيان واليبين ١٨٤/٣ الأخبار : بقايا اللبن . الثول : النوق . الراج : الدخر في البيت

(٥) المرجع السابق ٢١٥/٢ (٦) المرجع السابق ١٩٠/١

وقال أمية بن أبي الصلت في مدح عبد الله بن جدعان .

له دَاعٌ بِسَمَكَةٍ مُشَمَّلَةٌ وَأَخْرَ فَوْقَ دَارَتِهِ بِنَادِي
إِلَى رُدْحٍ مِنَ الشَّيْزِيِّ عَلَيْهَا لِبَابِ الْبِرِّ يُبَلِّغُكَ بِالشَّهَادِ (١)

وصور الأعرشى جفنة الحقائق مئة فاضة في قوله :

تروح على آل الحقائق جفنته كجناية السبيح العراقي تفهق

وكان أبو عمرز خلف يروي البيت هكذا ، ويقول (بكناية الشيخ) تصحيف ،
والسبيح الذي يسبح على وجه الأرض ويمجى ، والجناية الحوض الذي يجمع فيه الماء (٢)
وخير ما يمثل نهجهم في الكرم قول المتنخل الهدلي إنه لا يستحق الخير إن أضرم
ضيفه قشر المقل (الدموم) وهو يستطيع أن يقدم قعقا :

لأدر دري إن أطعمت نازلم قرف الحنبي وعندي البرم مكنوز (٣)

وأى عمل أدل على الكرم ورعاية الغريب من أن يقتطع الرجل إبله يأخذ ما بقي
في كروشها من الماء فؤثر به الغرياء فيحفظ بهذا الماء حياتهم وإن لم يكن فيه رى لهم ،
قال زيد الخيل :

نصول بكل أبيض مشرفي على اللاتي بقي فيهن ماء

عشية فؤثر الصبرياء فينا فلا هم هالكون ولا رواء (٤)

ولم تكن مفتخرة العربي بأن يقدم أضيفه طعاما عظيما لتزيد على مفخرته بأنه جاد
بأنفس ما يملك ، وقد علمت أن حاتميا وكعبا وهما لم يجعلوا أمثالا في الجود لعظم
عظياتهم في القدر ؛ لأن الواحد منهم إنما كان يقرى ضيفا أو يهب بغيراً أو عدداً
من الشام قليلا ، ولكن ذهب صيتهم في السماح وبعد ذكرهم في الجود لأنهم كانوا
يعطون وهم محتاجون ويبنون وهم محتلون ، وكان عطاء الرشيد والبرامكة والمأمون

(٢) الأمل ٢/٢٩٦

(٤) الأمل ١/١١٧

(١) المرجع السابق ١/٣١

(٣) البيان والتبيين ١/٣٠

والأمين في اليوم الواحد أكثر من يبيع ما أعطاه أو نك في جميع أيامهم ، ولم يضرب بواحد من هؤلاء المثل كما ضرب بأولئك ، فهذا يدل على أن الناس إنما استحسنوا منهم بدلهم مع ضيق أحوالهم وقلة ذات أيديهم ، فبعضهم أمثالا مضرورية لكل من استغبروا فعله ،^(١)

و - هداية الضيف

ولقد يسدل الليل أستاره والغرباء يضربون في الصحراء رجلا وعلى كل ضامر ، وهم في حاجة إلى زاد أو ماء أو مبيت ، فالذي يهديهم إلى محلة أو يبيع ؟ يهديهم النار التي يوقدها السكرام لهداية الضيفان واجتذابهم ، و يهديهم النار التي يوقدها العرب لإفصاح الطعام أو للاستفاد ، وقد أكثروا من التحدث بنار التمرين ، قال عمرو بن عبد الله السعدي :

إذا أخذ النيران من حذر القبري رأيت سنا ناري يشب احتضارها^(٢)
وقال حاتم إنه يأمر غلامه بإيقاد النار إذا ما أطفأ البخيل ناره ، ولما يأمر من يوقدها أن يتوسع فيها لتسكبر وتتلو ، فإن جعلت ضيفا كان خيرا ، وإلا فقد أدوا ما رأوه واجبا عليهم ، وإن حاتما ليصف غلامه الذي يسبق الآخرين بإيقاد النار بالعفة وبأنه يستحق الثناء :

إذا ما البخيل الحجب أخذ ناره أقول إن يصلي بناري أوفدوا
توسع قليلا أو يكن ثم حسبنا وموقدها البادي أعف وأحد^(٣)
ويقول لغلامه في ليلة باردة الريح : أوقد لي ناري نارك من ير ، وزن جهانا
ضيف فأنت حر :

أوقد فإن الليل ليل قر والريح يا غلام ريح صر

(١) السكرام لأبي حلال السكري ٣٠-٣١

(٢) معجم الشعراء ٢٢٣ (٣) شعراء النصرانية ١١٣/١

عسى يرى نارك من يمر إن جلبت ضيفا فانت سر^(١)
وكانوا يرقونها على المرتفات لتسكون آيين وأوضح ، وربما أوقدوها بالمتدل
الطيب ... وهو عطر ينسب إلى متدل بلد بالهند -- ونحوه مما يقصر به ليهتدى
إليها العميان ،^(٢)

ولا نوافق على أن إيقاد النار بالشجر العطر الرائحة كان لهداية العميان إليها ،
ونرى أنه نوع من الترف وإظهار المقدرة ، والتباهى بالثراء ، ورغبة أن يشموا
هم رائحته الطيبة ، قال عدى بن زيد إن ناره كانت تحرق الشجر الطيب الرائحة :

رُبُّ نَارِ بَثُّ أَرْمَقِهَا تَقْضِمُ الْهِنْدِيَّ وَالْفَارِيَّ^(٣)

وقال الأعشى في مدح الخلق :

لسرى لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها زبات على النار الندى والمخلق

وقد هدوا الغرباء إلى منازلهم في الليل بنباح الكلاب أيضا ، وكثروا عن كرم الرجل
بجبن كلبه لأنه يذبح في الليل فاذا ما رأى الغرباء كف لأنه قد اعتاد أن يطرق الدار
غرباء ، قال أحدهم في كلب له .

أوصيك خيرا به فإن له خلائقا لا أزال أحمدها
يدل ضيفي على في غسق الليل إذا النار نام موقدها^(٤)

وإذا ضل السارى ليلا وتحوير فلم يدرك أين البيوت نبج قسمعه الكلاب فتنبج
فيقصد أصواتها ، وهذا الذي تقول له العرب (المستنجح) قال الشاعر لقد ضل مستنجح
في ظلمات الليل ، فرقع له ناره و تلقاه هشاشة ، وإن كانت نياقه قد ذعرت من مقدمه
لأنها تحوقت العقر :

(١) شعراء النصرانية ١١٦/١ (٢) بلوغ الأرب ٧٠/١

(٣) الأمل ٦٠/١ (٤) بلوغ الأرب ٧٠/١

ومستنج بات الصدى يستبيه
رفت له ناراً تقوياً زنادها
فتأه وجوز الأيل مضطرب الكسر
طليح إلى الساري : هلم إلى فدري
فلما أتى والبؤس رادف رحله
تلقيته مني بوجه امرئ بشر
فقلت له : أهل كاهل ، فلم يجز
بك الليل إلا للجميل من الأمر
وكانت تطائر الشؤل عرطان صوته
ولم تمس إلا وهى خائفة العقر^(١)

وهذا عتبة بن بجزير الحارثي يقص قصة ضيف مستنج ، أضله صدى الصوت فسمع بجزير رغاء ناقته وسمع نباح كلاب الحى ، فسأل أهله ففعلوا إنه غريب طوحت به الصحراء والخطوب ، فنهض بجزير إلى نجدته ولقائه ، ولم تقمده مآذير تحتلقها النفس الشعبيحة ، ونادى ابنه شيلاً فلبى نداءه لأن الكرم سجية لها ، وربما أكرما من يعاديان ، وقام متهللاً فنهض من نوقه الباقيات ، وظالماً لبحروا من نوقهم وأهانوها ليصونوا أعراضهم . وجهيل منه أن يسمي نفسه أبا الضيف :

ومستنج بات الصدى يستبيه
فقلت لأهلى : ما بُغْماً مطية
إلى كل صوت فهو فى الرجل جانح^٢
وسار أضافته السلاب التواج ؟
فقالوا : غريب طارق طوحت به
متون الضيافى والخطوب للطواشح
فصمت ولم أجتهم مكافى ولم تقم
مع النفس علات النفوس الشحاح
وناديت شيللاً فاستجاب وربما
ضمننا قرى عشرى لمن لا نصافح
فقام أبو ضيف كريم كأنه
وقد جد من فرط الفكاهة مازح
إلى جذم مال قد نهكنا سوامه
وأعراضنا فيه بواق صمخ
جعلناه دون الذم حتى كأنه
إذا عد مال المسكرين منخ^(٢)

ومن هذا القمص المصور للكرم قول المثقب العبدى إنه رأى سارياً أعياء المبيت ولم يجد فى الظلماء طريقاً ، ولكته رأى على البعد كوكبا فظنه ناراً فأسرع إليها

(١) الأمالى ٢١٠/١ تلحج : تشير . وجه بشر : وجه منطلق

(٢) الكرماء ١٤٠ والمهاسة ٢١٠/٢

ليجد قراه وميته وأمانه ، فلما بين أنه وامم رفع له المثقب ناره ، وأمر عبده أن يشعلها ، فقدم المنيق إليها مبتلا من الطر فرحب به أيما ترحيب ، ونهض إلى إبله الراقدة فتغير منها أعضها ، وشعرها ، وأفضج له لحمها وقراه :

وسار تمناه الميت فلم يدع	له طامس الظلام والليل مذهباً
رأى ضوء ناره من بعيد فبهاهما	لقد أكذبت النفس بلى رأى كوكباً
فلما استبان أنها إنسيه	وصدق طنا بعدما كان كذباً
رفعت له بالسكف نارا أشهباً	شامية نكباه أو عاصف صياً
وقلت ارفعاها بالصعيد كفى بها	مناد لسار ليلة إن تأوبا
فلما أتاني والسما تبسه	فلقته أهلاً وسهلاً ومرحبا
وقت إلى البرك المواجد فأنقت	بكوماه لم يذهب بها التي مذهباً
فرجعت أعلى الجنب منها بطنه	دعت مستكناً الجوف حتى تصيباً
نسأى بنات الفلى في حجراتها	تسأى عناق الجبل ورداً وأشهباً ^(١)

ه - نخر بالسكرم ومدح به

وإذا كانوا قد افتخروا بالشماعة فقد افتخروا أيضا بالسكرم ، وكان شخرم بالسكرم دليلاً على أنهم قعدوا شره نفوسهم وتغلبوا على شحها ، وآثروا غيرهم على أنفسهم أو أشركوه في خيرهم .

وقد مر بنا طرف من نخرهم بهذا ، ومن ذلك نخر حاتم بأنه سيد ماله ينفقته ويسته فليس ماله عليه سلطان كسلطانة على بعض الناس ، وهو ينفق ماله في الخير فيفك به الأسرى ، ويقدمه طعاماً للأكسين ، ويغيث به السائلين والمحتاجين إذا نزل الناس : إذا كان بعض المال ربا لأهله فإن يحمس الله مالى ممدد^١

(١) ديوان المثقب الهندي ١٨ مخطوط . تمناه : أنسيه . البرك المواجد : الإبل الناعمة . كوماه : حمينة . الفلى : السمن . نسأى : ترضع . بنات الفلى : قطع اللحم . حجراتها : نواحي القدر

يفك به العسل، ويؤخذ مثل طيباً ربيعي إذا من الجبل المسرد^(١)
وقال الشعبي التزاري :

ألم تعلق يا عمرك الله أني كريم على من العنترام قليل
وأن لا أنزى إذا قيل مقيتر جواد وأخرى أن يقال بجبل^(٢)
وقد تبرأ طرفه بن العبد من أن يكون نزوله إلى مسايل الماء والرهات تهربا
من القرى :

ولست بحلال التصالح بخافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد^(٣)
وقد رووا عن سلمي بن ربيعة أو علباء بن أرقم قصيدة ، يقول في بعض أبياتها
إن النذاري يفضح لـ اللهم على عجل فيدور به على الطالبين في مفاقي :
وإذا النذاري بالدخان تمتعت واستعجلت ثم القصور فقلت
دارت بأرزاق العفنة مفاقي يدي من قمع العشار الجلة^(٤)

* * *

وكانت لبعضهم فلسفة عملية صائبة مبنية على بعد النظر والتجربة ، فهم لا يرون
مدعاة للبخل ، لأنهم لن يموتوا جوعاً ، ولأن المال الذي يخلفونه سيرثه غيرهم ، وقد
يكون من الورثة عدو يتلفه ، ويشوف ، ثم هم سيموتون وغير لهم أن يخلفوا
ذكر طيباً . قال طرفه :

أرى قبر نحام بجبل بماله كقبر غوري في الباطلة مفسد
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد^(٥)
في هذا المعنى قال ساجم :

أماوى إن المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر

(١) شعراء النصارية ١١٧

(٢) البيان والتبيين ١٥٤/٣ (٣) ديوان طرفه ٧٧

(٤) الأمالي ٨١/١ ، ونوافر أبي زيد ١٨٤

(٥) ديوان طرفه ٣١ . يعتام : يصطفى . الفاحش : البخيل

أدأوى ما بيني الزراء عن النبي إذا حشر حيث نفس وضاق بها الصدر^(١)
وتبدو النية على بطل المال في قوله :

أمن الذي تهرى التلاد فإنه إذا من كان المال منها مقبها
ولا تقبني فيه فيسط وأرث به حين تقبني أخير اللون مظلما
يُسمه غنماً يهرى مسكرامة وقد صرفت في غل من الأرض أعظما
قليل به ما يمسد ذلك وأرث إذا ساق بما كنت تجمع مغنيا^(٢)

حاتم مناسا خط نائم حزين ، يشمل الموت والوارثين ، وبعضهم يشوفون
موت النبي ليرثوا ، لذا يوصي حاتم النبي أن ينفق ماله في الكرم حتى لا يستمع به
شائمه ، وقد يشترى هذا الوارث الشائمه حامد ومفاخر لنفسه بالمال الذي ورث .
« ولعنه بكرم حاتم أكثر احتفاء من كرم غالب بن صعصعة ، لأن الناس بما أثر
الجاهلية أشد كائفا . وإلا نال بال أيام الإسلام ورجالها لم تكن أكبر في النفوس
وأصل في الصدور من رجاء الجاهلية ، مع قرب العهد ، وعظم خطر ما ملكوا ،
وكثرة ما جادت أنفسهم ، ومع الإسلام الذي شملهم ، وجعله الله تعالى أولى بهم
من أرحامهم »^(٣)

ورثوا الكرماء فأشادوا بكرمهم في حياتهم ، قال معية بن النمام في رثاء أخيه حصين :
نعت حيا الأضياف في كل شقة - ومدره حرب إذ تخاف الزلازل
ومن لا ينادى بالفضيمة جاره إذا أسلم الجار الألف المواكل^(٤)
وأشاد السجاح بن بكر بن معدان اليربوعي بسعة وعمق القمصاع التي كان يقدمها
لضيوفه يحيى بن شداد بن ثعلبة بن بشر :

والماء الشيزي لأضيافه كأنها أعضاد حوض بقاع
لا يخرج الأضياف من بيته إلا وهم منه رواء شباع^(٥)

(١) شعراء التمرانية ١٠٩/١ (٢) شعراء التمرانية ١١٩/١

(٣) الحيوان للجاحظ ١٠٨/٤ تحقيق هارون

(٤) الأملاني ٦٢/١ الألف : الناجر النبي بالأمر (٥) المغنليات ١٣٣/٢

وود حازم بن أبي طرفة أن تربيته ابنته بالكرم إذا ماتت ، فتعدد من آثاره
أنه كان ممطاه جوادا ، وأنه كان مأوى الجياع والبائسين :

بنيّة إن الموت لا بد لاحق بشيخك ماضي الأناج المودع
فإن قتت تبكى فقولى أبو الندى ومأوى رجال بائسين وجوع^(١)
ومن رثاه شداد بن الأسود - أبي بكر بن الأسود - لقتلى بدر :
فاذا بالقلب قلب بدر من القينات والشرب السكرام
وماذا ، ، ، من الشبزي تكفل بالسنام^(٢)

البنخل

بعض الرجال بخلاء . بخل النساء ولوهم على السكرم . لسأذا بخلت النساء ؟

١ - على أن شيوخ السكرم فيهم ، وتقديرهم للسكرام لا يثنى أن بعضهم كان على
بخل ، يرضى بماله على السؤال ، ويشتهر من النوال ، وقد هجى بالبنخل بعض رجالهم ،
وسمى أن نساءهم كن أبخل من الرجال . قال الأعشى :

تبتون في المشى ملاء بطونكم وجاراتكم غرّني بيتن تحالفا
وعبر عروة بن الورد خصمه بالبنخل ، واقتخر بالسكرم في قوله :

إن امرؤ عافى إنائي شركة وأنت امرؤ عافى إنائك واحد
أنهزأ مني أن سميت وأن ترى بوجهي شحوب الحق والحق جاهد
أنتم جسمي في جسم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد^(٣)

على أن تفسيرهم من البخل دليل على وجوده ، وإلا فلماذا يهجنونه وينفرون منه ؟
إن الداعين إلى الخير والمنفريين من الشر إنما ينفرون من شر واقع في المجتمع ويريدون
أن يطهروا المجتمع منه ، أقول ذلك لأن ثبت أن بعض العرب كان بخيلا ، غير مجتريه

(١) الأوزن والخلف ١٠٠ سيرة ابن هشام ٢/٤٠٠

(٢) شعراء النصرانية ٢/٨٨٧

بأهاجي الشعراء وتعميرهم خصومهم بأنهم بخلاء ، فقد يقال إن الشعراء يصقون
بأعدائهم ما ليس فيهم .

فإننا نرى المثل أن طريق السيادة صعب المرتقى ، وأصعب ما فيه أن يكسر
الراغب في السيادة من حرصه على المال :

وإن سيادة الأقبام فاعلم
لما صعّبنا مطلبها طويلا
أزجر أن تسود ولن قنّى
وكيف يسود ذو الدعة البخل^(١)؟

وحذر رجل بنت عمه من أن تزوج ببخل جبان ، وإن قدم مهرًا مغربًا ؛ ستين
ناقة سميات وغيرها من عبيد ورضاً بما يريدون :

لا تقرّبي يا بنت عمي بوهة
من القوم دفناسًا غيبًا هفتدا
وإن كان أعطى رأس ستين بكرة
وحسبك على حكم وعبدًا مولدا
ألا فاحذري لأتوردك هجمة^(٢)
طوال الأذى جيبنا من القوم هفتدا^(٣)

وقد استرعى انتهى وأنا أنقب في الشعر القديم فيض من شكايّة الرجال من
نساءهم المانعات من السكرم اللامعات على الإسراف ، فبالحاولت امرأة حاتم أن تغل
يذه عن العطاء بدعوى أنه بسخائه قد أضر بنفسه وبها ، ففصاها ؛ لأن السكرم عادة
راسخة عنده لا يستطيع أن يظلمها :

وقائلة أهلكك بالجوود ماننا
ونفسك حتى ضر نفسك جودها
فقلت دعيني إنما تلك عادتي
لكل كريم عادة يستعيدها^(٤)
وضاق المظلم بن رباح المرى بلاماته على كرمه ، لأنّه جاهلات بما يشرّ الكرم
من محامد ، ويدعيان أنه إسراف وطيش ، وما الطيش إلا البخل والأمر بالبخل :

(١) البيان والتبيين ١/٢٢٥

(٢) المرجع نفسه ١/٢٠٧ بوجه : أحق . دفناس : بخل حقير . بكرة : ناقة نثية . هجمة :
تطليم من الإبل من أربعين إلى ما بعده . جيبس : تقييل . قدود : جبان خامل

(٣) شعراء النصارية ١/١٢٦

بكر الخواذل بالسواد بلعن ^{جهداً} بقلن : ألا ترى ما فصيح ؟
أضوت نالك في السواد وإنما ^{أمر} السفاهة ما أمرتك أجمع (١)

ورد خطاط بن يضر التيمي رداً من صاع على زوجه رجم التي زعمت أن جوده
أملكهم ، لأنه كلما اقتوا ^{بلا} بذلها كما يصنع أخوه الأسود . فقال لها خير عاجز
عن الجواب : تبصرى ، فهل ترين أن الهزال هو الذي أمات زيدا وأريد : وإنك
لتعجزين أن تسمى لي كريمة مات من الهزال ، وتعجزين أن تسمى بخيلا قد تحطاه
الموت . فلا الكرم يميت ، ولا البخل يقي :

تقول ابنة العباب رجم حرقنا ^{خطاط} لم تترك انفسك مفيدا
إذا ما أقدنا حرمه بيد هجته تكون عليها كأن أمك أسودا
فقلت - ولم أتي الجواب - تبيي أكان الهزال حطب زيد وأريدا
أرى جواداً مات حزلاً لطنى أرى ما ترين أو بخيلا غلدا (٢)

ويملك الخبل السدى مسلكا آخر في الرد ، حين تدعى عاذلة التي لا نعلم الغيب
ولا تعرف ما يحيى به الضد أن الفنى يخلد صاحبه ، وأن الفقر يجلب المصائب ، فكأنها
تقول إنه ينقص العمر ويسرع بالأجل ، فيقول لها : أقسم أنى لو ملكت مائة من
الإبل الخالصة البيضاء التي طار وبرها من سمها ما نجوت من الموت :

وتقول عاذلة وليس لها ^{بفسد} ولا ما بعده علم
إن الثراء هو الخلود وإن (م) المرء ^{يتمكرب} يومه العدم
إنى وجدك ما تخسلدى مائة يطير عناقوما أدم
وئن بنيت لى المشتر فى ^{مضب} تقصر دونه العضم
لتعقب عنى المنية إن (م) ^{لك} الله ليس ^{لك} حكمه حك (٣)

(١) الخجاسة ٢٨٦/٢

(٢) الخجاسة ٣٧٠/٧ - حرقنا : سلبنا مالنا الذى نعيش به . سرمة : جماعة من الإبل من عفرة

لك أربعين . هجته : من الأوبىين لى ما بعده (٣) الفضليات ١١٦/١

وإذا كان الثراء السابقون قد ردوا على العاذلات ردوداً شتى ، فإن أوجسها
 رد معاوية بن مالك السامري ، فقد اتهمته زوراً بالسنة والتمليل للمارات الناس بقصدونه
 فقال لها : ليسكن علي تلالاً ، فسأله دائماً لاني تمردته ، وهو بهذا يشيطا مرتين :
 قالت شمية : قد غويت بأن رأيت سقنا تناوب مالنا وورود
 غي اسررك لا أزال أعوده ما دام مال عندنا موجوداً (١)

وليدض الرجال أقاصيص مع نسائهم البخيلات ، كذه التي رووها عن حبيبة
 ابن المظرب ، فقد رأى جاربه ومبها فمب من ابن قتال : أين تذهبين ؟ قالت :
 إلى أولاد أنيك اليتامى ، فأراه ، فلما أراح راعيه إبه عليه قال لعبيده :
 أريحا هذه الإبل على أولاد أخي ، فأراحها كلها عليهم ، ففضت امرأة حجة غضبا
 شديدا ، فقال :

لجينا ولجت هذه في التنضب	ولط الحجاب دوننا والتنقب
تاوم على مال شفق مكانه	فلومي على ما فاتك اليوم واغضب
ولا تحسبيني مندما إذ تكلمته	ولكنني حجة بن المظرب
فإن تجلسي فانت أفتي عيالنا	وإن تكرهي هذي المعيشة فاذهي
وخطت بعود إمد فوق عينها	لتذهب عتلي بالثواكة زيني
رحمت بني معدان إذ ساف عالمهم	وحق لهم من ورب انصعب
ولما رأيت النفس الأتقرها	هندايا لهم في كل قب مشعب
رثيت لهم لما رأيت سوامهم	عطاء الموالى من أفيل ومصعب
فقلت لعبيدنا أريحا عليهم	سأجعل بيتي مثل آخر معرب
وقلت خذوها واعلموا أن عنكم	هو اليوم أولى منكم بالتكسب

أجابها قير امرئى لو أتيته - عربيا لأساني على كل مركب

اخوك الذى إن تدعته للذة - يوبك وإن تعصب اليراسيف يعصب^(١)

فهو هنا يصور زوجه تفضي لأنه أتف أن تُهدى إلى أولاد أخيه لينا في قعب كما يهدى إلى المييد والباثسين ، فأمر عبديه أن يرثعا الإبل على أولاد أخيه ليطلبوا ما يشامون ، ولم يمياً بلومها وغضبها لأن هذا العمل قد أراح نفسه ، وهو ليس بليد الخس حتى يتصاع اللومها ، وليس أحمق حتى تدععه بكملها فتدسيه ما وجب عليه ، ولكنه رجل يحفظ لنفسه بحقوقه ، فلتمش معه على ما يربد وهو ، إذن موضع رعابته كأنها أعز بنيه وإلا فلتفارق ، ثم صور الباعث له على عطفه .

وشبهه بهذا قول خنزة بن ضمرة ان زوجه عجلت بلومه بعد موهن من الليل ، لأنه أعان ابن عمه بلبن من إبله ، فقال لها : كيف أتى اللين في أضراعها وابن عمي جائع ؟ هل ترين أنى إذامت تخمش على الإبل وجورها أو تعصب رموها ؟

بكرت تلومك بسد وهن فى الندى - بسل عليك علامتى وعنايى

ولقد علمت فلا تضى غيره - أن سوف تخجلنى سبيل صحابى

أأصرها وبني عمى ساخب - ففككناك من إربة على وعاب

أرأيت إن صرخت بليل هامتى - وخرجت منها باليا أنوابى

هل تخشمن إبلى على وجورها - أم تعصبن رموها بسيلاب^(٢)

ويظهر أن هذا النساء كان شائعا متنادا ، حتى إن بعض الشعراء المادحين تحدثوا به ، فزهير في مدحه لخصين بن حذيفة يقول انه رآه صباحا والمواذل يمدنه تارة ويتوسلن إليه تارة ولكنه أعجز من في كلتا الجانبين :

(١) المؤلف والمختلف ١٨٣ ط ١ : لزم . لدم : أحق بقبل لجم . أفى عيانا : خيرهم . التواكفة : الحنى . ساف ما لم : قد . أدبل : ولد الناقة . مصوب : ش من الإبل . حرب : فى شدة

(٢) الأمل ٢ / ٢٨٠ * بكرت : المراد هنا عجات . البسل : الحرمان هانئا . تخجلنى : تخذبنى . الإربة : الهياه . السلاب : خرفة سوداء تتفتح بها المرأة فى المأم

وأبيض فياض بدهاء غمامة على منفيه ما تَنسِبُ فواضله
بَكَرَتْ عليه غدوة فرائته تعوداً ليديه بالقرصم عواذله
يُضَيِّبُهُ طوراً وطوراً بلبته وأعبا لنا يدرين أين مخاضه
فأقهرن منه عن كريم مرزاً عزوم على الأمر الذي هو فاعله
أخى ثقة لا تلتف آخر ما له ولكن قد يلف المان ناقله
تراه إذا ما جتته به سلالا كأنك تهطيه الذي أنت سائله

ب -- وبعد ، فيحق لنا أن نقف هنا وقفتين :

أما الأولى فهي أن الشعر الجاهلي ليس كله مثلاً للعرب أجواداً كراماً كما ذهب الدكتور طه حسين ، يمثل لنا العرب أجواداً كراماً مهينين للأموال مسرفين في ازدرائها ، ولكن في القرآن إلخاها في ذم البخل وإلخاها في ذم الطمع ، فقد كان البخل والطمع إذن من آفات الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الجاهلية . (١) وهو يعني على هذه الدعوى وأمثالها أن الشعر الجاهلي مصنوع منهجول ، لأنه لا يصور الحياة الجاهلية ، وإنما بصورها القرآن الكريم .

وقد رأينا أن الشعر الجاهلي يتحدث بالبخل كما يتحدث بالكرم ، وأن بعض الناس عُيروا بالبخل ، وأن بعض الناس نُقروا منه ، ولم ينفروا من رذيلة غير موجودة في المجتمع ، ثم رأينا أن النساء أبخل من الرجال أو هن حقاً ببخلات .

وأما الوقفة الثانية فهي تتصل بالمرأة البخيلة ، لماذا نجد كثيراً من الشعراء حين يفخرون بالكرم أو يمدحون به يصورون النساء عاذلات لا ثمات ؟ حتى قالوا إن حاتماً طلقت امرأته ، أو طلقها لأنها ألحت عليه أن يبخل .

ولماذا خصوا الزوجات بهذا العذل واللوم ؟

نستطيع أن ندعى أن هذا تخيل من الشاعر أراد به أن يعظم من عزيمته ورموهته،
لأنه يكرم حتى حين بلام ، والشاعر أدار هذا الخيال على زوجته ولم يدبره على أمه
أو أخته أو ابنته لأن الزوجة ليست من قرابته ، ولسكننا زد على هذه الدعوى بأن
من دواعي شرف الرجل أن تكون زوجته كريمة مثله لأنها من أصحاب كرماء ، أو لأن
كرم زوجها أعداها ، فليس بما يشرف الزوج أن يتخيل اللوم من الزوجة لا من
أمه أو أخته .

ولم يبق في نظرنا إلا أن الشعراء صوروا حقيقة واقعة هي أن النساء يتخيلات أو
على الأقل أبتذل من الرجال ، فهن لا يتأن بلبن على السكرم ويسمينه سفها ، ويعذلن
على مساعدة الضعاف ، ويدعين أنها تجلب الفقر والملاك . . ولعل يتلبن راجع إلى
ظروف خاصة بهن ، منها أنهن يجدات عن المجتمعات التي يشتخر فيها بالسكرم ، وأنهن
ربات البيوت والحريصات على زاد الأسرة ، والمباشرات لما تحتاجه من طعام ، على
أنهن عمليات أكثر من الرجال ، فلا يمان بثناء يجر نقصا في الأموال أو فقرا وحاجة .
وإذا صح هذا فإن أصدق الناس بالرجل زوجته ، فهي تلومه وتغضب من سخائه ،
وهو يصور هذا اللوم وهذا الغضب ، ويرد على زوجته بما ترتضيه نفسه .

الشجاعة

١ - براعتها

مفخرة العربي وحلته شجاعته ، بلبسها وتلبسه سواء أكان غنيا أم فقيرا ، ذا
قبيل أم وحيدا ، وذلك أن أهل البادية متفردون عن المجتمع ، بعيدون عن الحماية ،
يعيشون في العراء غير محتمين بأسوار أو جدران أو أبواب ، فهم يقومون بالدفاع
عن أنفسهم ولا يكلونه إلى سواهم ، يحملون السلاح دائما ، ويتلفون عن كل جانب
، ويتجافون عن الهجوم ، ويتوجسون للنبات والهيئات ، ويتفردون في اليداء ،
مدلين بياسهم ، واثقين بنفوسهم ، قد صار لهم البأس خلقا والشجاعة سجية (١)

وإذا تفصيلاً: إن حياة العربي منذ طفولته أدركنا أن الشجاعة ولدت معه، وأنه شب وكبر وهي تسمى في دمه، وكيف لا رقدت في بيته تمدح بالبطولة والإقدام، وحسن البلاء في حماية الذمار والأخذ بالثار، وبالعدوان في كثير من الأحيان، وطالما فزع طفلاً على قعقة السلاح وصيحات المتقاتلين، وسمع الأفاضل عن شجعان من القبيلة هزها، وردوا المنيرين عليها، أو هجموا على أخرى وأجرها، ثم شب فرأى الرماح تشبك والسيوف تتقارع والأبطال في ميدان الوغى يتنازع، ثم كبر فشارك في المواقع، وأفتى العمر في المعارك، فلا عجب أن كانت الشجاعة خلقاً عاماً عند العرب. وقد كانت شجاعة العرب تشبه شجاعة قدماء الإغريق أتمتد على اللباسه وتحتفي سرياً أمام الفتور والتأخير،^(١).

وكان العربي يشجع إلى أن يلقي بنفسه في التهلكة راضياً مختاراً إذا كان بذلك يحمي المرأة ويصونها من الأسر أو المهانة، وقد علمنا أن النساء كن كثيراً ما يصحبن المقاتلين، قال عمرو بن معد يكرب، إنه لما رأى نساءهم يحرمين خائفات فتوتر أقدامهن في الأرض الصلبة، وبدت حبيته ليس كالدر، وكشفت عن عاصنها — التي كانت تخفيها من قبل — فلماً وذعراً، لما رأى الشاعر ذلك هجم على رئيس كتيبة الأعداء، ولم يجد وميلة غير ذلك:

لما رأيت نساءنا يفتحصن بالمعزاة شدأ
وبدت لميسُ ككأنها بدر السماء إذا تبسدى
وبدت عاصنها التي تخفي وكان الأمر جدأ
نازلت ككيشهم ولم أر من نزال الكيش بدأ^(٢)

ب — مظاهرها

وقد تنوعت مظاهر شجاعتهم، فمدحوا الموت في ظلال السيوف والبنود،

وشجراً بالموت على الفرائس ، وسموه الموت حَتَفَ الأنوف . قال السمويل
ابن عدياء :

ولما لَقِومٌ ما زى القتلُ سُبَّةً إذا ما رأته عاسرٌ وسلولٌ
يُقَرِّبُ حُبُّ الموتِ آجالنا لنا وتسكره آجالهم فتطول
وما مات منا سيدٌ حَتَفَ أَنفَهُ ولا طُلُّ منا حيث كان قتيلٌ
تَسِيلُ على حدِّ الظُّبَاةِ نفوسنا وليست على غيرِ الظُّبَاةِ نَسِيلٌ^(١)

وقال عمرو بن شاس :

لسنا نموت على مضاجعنا بالليل بل أداؤنا القتل
وزأوا أن الإقدام لا يدنى الأجل ، وأن الحياة الجديرة بالبقاء إنما هي حياة
الفتوة والمجد والشجاعة ، فمن العار أن يفر المحارب من لقاء أعدائه ؛ لأن فراره موت .

قال الحصين بن الحزام المري :

تأخرت أسدتي الحياة فلم أجد انفسى حياة مثل أن أقدمها
فلسنا على الاعتاب تدمى كلونا ولكن على أقدامنا تقطر الدماء^(٢)

وفي هذا يقول عنتره :

بَكَرَتْ مُخَوِّفِي الختوفِ كأنني أصبحتُ عن غرض الختوفِ بمعزلٍ
فأجبتها : إن النية منهلٌ لا بد أن أسقى بكأس المنهل
فأقنى جياك - لا أبالك - واعلى أنى امرؤ سأموت إن لم أقتل
وإذا حلت على السكرية لم أقل بعد السكرية : لبتني لم أفعل^(٣)

وشعارهم أن الإقدام حياة ومجد والفرار معرفة وموت حتمي ، قال الأمدى :

فإن السنان يركب المرء حده من العار أو يعدو على الأسد الورد^(٤)

(١) الخمسة ٣٨/١

(٢) الخمسة ٦٧/١ وفي عيون الأخبار ١٢٥/١ نسب الشعر إلى يزيد بن الهباب

(٣) ديوان عنتره ١٢٠ والمقد الفريد ١٢٤/١ (٤) البيان والبيان ٢٥/٣

واقترحوا بصبرهم عند اللقاء وإن كان لقاءً عنيفاً ، حتى ينتصروا ، قال نهشل
ابن حري :

ويوم كان المصطلين بحره .. وإن لم تكن نار - قيام على حجر
صبرنا له حتى يُؤخَّ وإنما تُفرِّج أيام الكربة بالصبر^(١)
وذلك أنهم استطابوا الموت في المبارك واستطابهم الموت ، قال حارثة بن بدر :
وشب رأسي واستخف طومنا رعود المنايا فوقنا وبروقها
ولما لمستحلي المنايا نفوسنا وتترك أخرى مرة ما تدوقها
رأيت المنايا بادئات وعوداً إلى دارنا سهلاً إليها طريقها^(٢)
وقد أسلفت أن الفرسان والشجعان كانوا يردون ببساتهم في طديهم إلى
حيياتهم وزوجاتهم ، ومن ذلك قول عامر بن الطفيل لزوجه :

طُلقت إن لم تسألني أي فارس حليلك إذ لاقى صُعداء ونخعا
أكر عليهم دحلاً ، ولبانه إذا ما اشتكى وقع الرماح تحمجا^(٣)
٣ - وإذا ما تأقت القبيلة إلى أن يشيد شاعرها بمحامدها فلتشجع قلوبها ولتنتفع
سيوفها ، عندئذ يحق للشاعر أن يملأ الأسماع نظراً ، قال شاعر لقومه وقد افتخر
عليهم أعداؤهم بالنصر :

وقافية قلت لكم لم أجد لها جواباً إذا لم تضربوا بالمناصل
فأنطق في حق بحق ولم يكن ليرحض عنكم قالة الحزى باطل^(٤)
ولذلك اعتذر عمرو بن معد يكرب عن سكوتيه بأن قومه لم تنطقه شجاعتهم بفخر :
فلو أن قومي أنطقني رماحهم نطقت ولكن الرماح أجرت^(٥)
وكان من محامد القبيلة أن يكثر في الحروب قتلاها لأن هذا دليل على أعلى أنهم

(١) عيون الأخبار ١/١٢٥
(٢) الأغاني ٢١/٢٠ ساسي
(٣) الجلسة ١/٥١
(٤) البيان والتبيين ١/١٨٣
(٥) المرجع السابق ١/١٨٤ . أ.جرت : أسكنت

ألفوا الحروب وألفتهم : وزيروها وزيبتهم ، قال بشامة بن حزن النهشلي
أو المرقش الأكبر :

إني لمن مشر أنفي أوائلهم قيل السكاة : ألا أين الحامرنا ؟
لو كان في الألف منا واحد فدعوا من فارس ؟ غلهم إياه يعنوننا
إذا السكاة تدعوا أن يصيبهم حد النظاة وحلناها بأيدينا
ولا تراهم وإن جلت مصيبتهم مع البكاة على من مات يسكونا
وزكب الكره أحيانا فيفرجه عنا الحفاظ وأسايوف تواتينا^(١)

وقال دريد بن الصمة إنهم بأبون إلا أن يموتوا في الوغى ، وإنهم دائما على وتر ،
وحياتهم كلها إما أن يثاروا لأنفسهم وإما أن يثار منهم :

أبي القتل إلا آل صمة إنهم أبرا غيره والقدر يجرى إلى القدر
فإما ترينا لا تزال دماؤنا لدى وافر يسعي بها آخر الدهر
فإنا للحم السيف غير نكيرة ونلذمه أحيانا وليس بذي نكر
يفسار علينا وافر ين فيشتق بنا إن أصبتنا ، أو نغير على وتر
قسما بذلك الدهر شطرين يننا فا ينقضى إلا ونحن على شطر^(٢)

ولقد يقال إن شجاعتهم ثور ، وسكننا نقول إن هذا الذي نسجه ثورا كان
هو الشجاعة في أعلى مراتبها في نظر أولئك الشجعان ، والشعر السابق يقتخر بالهجوم
على الأعداء إذ يتهيب الأبطال أن يهجموا ، ويقتخر بانتافس على الإقدام وكثرة
القتلى في الحروب ، وتلك في نظرهم هي الشجاعة .

٤ - ونكاد نوقن بأن بعض شجعان العرب كانوا ينقرون عن الموت تنقيرا حين
لا يتصورون من مظان الخوف ، وإلا فما بال أبي سلبط طريف بن تميم يأنف أن

(٢) الخلة ١/٣٤٧ والقدر

(١) الحاسة ١/٣٤٦ وشعراء الصراينة ٣/٢٨٨

يجرى لك القدر : القتل مقدر لهم وهم مقدرون له . نكيرة : عيب ومنكر .

يتشع في المراسم والترح كما يفضل الناس غفانة أن يتناهم الأعداء ؟ وما باله لا يزال
أن يسهفه جميع فرسان العرب ؟ ولما أقبل خصيصة الشيباني يتأمله قال طريف :

أوكسا وردت عكاظَ قبيلةً بعثوا إلى عريفهم يشوم ؟
فترسموني إنني أنا ذاك شك سلاحي في الشواذث معلّم
تحتي الأغر وفوق جلدى نثرة زغف ترد السيف وهو مثلّم^(١)

وقد عبر درهم بن يزيد بن ضبيعة مالك بن العجلان ، لأنه كان إذا شهد الحرب
بغير لباسه ويتشكر لكلا يعرف فيقصد :

إنك لآق غدا عوآة بني عمي فانظر ما أنت مزدَهف
فأبد سيماك يمسرفوك كما بيدون سيمام فتعترف^(٢)

فالشجاع الصندي يعلم نفسه بشارة كأنه يتعدى أعداءه ويقول لهم ها أنا ، وكان
حزة بن عبد المطلب يوم بدر ممسلاً بريشة نمامة حرام ، وكان الزبير بن العوام ممسلاً
بعمامة صفراء^(٣)

ومن ضروب بسالتهم شرم بأنهم يخطون إلى الأمام ليدرکوا العدو إذا ما قصرت
سيوفهم عن أن فصل إليه ، قال الأحنس بن شهاب بن شريق التغلبي :

وإن قصرت أسيفنا كان وصلها خطانا إلى القوم الذين تضارب^(٤)
وقال آخر :

إن لتيس عادةً تتعادها سلّ السيف وخطى زادها^(٥)

ومن ذلك أن الفارس ربما زاد في طول ربحه ليخبر عن فضل قوته ، ويخبر
عن قصر سيفه ليخبر عن فضل نجدته ، قال كعب بن مالك :

فصل السيف إذا قصرن يخطونا قدما وتلحجها إذا لم تلحق

(١) البيان والخبير ٦٩/٣ والأسميات من مجموعة وألم البروسي ٦٧/١ فترة : درع متينة . زغف :
لينة واسعة حكمة . (٢) الأغانى ٢١/٣ الدار . مزدَهف . مقتحم : تعرف : تعرف .
(٣) البيان والخبير ٧٠/٤ . (٤) الفضليات ٧/٢ . (٥) البيان والخبير ٢٠/٢

وقال ربهيل من بني تميم بن كعب :

وصلنا الرقاق المرهفات بظنونا
على الملوك حتى أمكننا المضارب^(١) ،
و لم تسكن النساء لينحن على قتيل في الحرب ، لأن تطله بحسد وشرف ،
ولأنهن تعودن أن يفقدن أعراف في الحرب ، ولأن النواح عليه ينيه أن دمه مظلول ،
قال عمرو بن كلثوم :

معاذ الإله أن تتوح نساؤنا
على هالك أو أن تضج من القتل^(٢)
وقد اصطحب المحاربون نساءهم ليعلنن الحمية والنجاسة والبسالة فيهم ، كما فعلت
مدحج يوم فيف الريح ، فقد كانت معهم النساء والذراري حتى لا يفروا ، فأما
ظفروا وما قفروا جيداً^(٣) . وفي هذا يقول عمرو بن كلثوم :

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن نقسم أو تهونا
أخذن على بعولتهن عهداً إذا لاقوا كتابت محليتنا
ليستأنن أفراساً ويضاً وأسرى في الحديد مقريننا
يثن جسادنا ويقلن لستم بعولتنا إذا لم تمنعونا^(٤)
وقد مر بنا أن بعض حكمائهم عاب هذا وعده مجازفة^(٥)

٦ ... ونحن نعلم كلهم بالخمر ، ومنتحدث عن هيامهم بها وإعزازهم لها ، ولكنهم
رأوا أن الخمر لا يجدر بها غير الشجاع المقدم ، أما الرعديد الجلبات فغير خليق
بأن يشرب إلا المرق ، قال عمرو بن جبلة بن باعث بن صريم في يوم ذي قار يحضض
قومه على القتال :

يا قوم لا تفرركم هذي الخرقى
ولا ويص أبيض في الشمس برقى
من لم يقاتل منكم هذا العنق
لجنبوه الراح واسقوه المرق^(٦)

(١) البيان والبيان ١٩/٣ (٢) النجاسة ١٨٨/١ (٣) أيام العرب ١٣٢

(٤) شرح الصائد المشرقي لبيد ١٥٧/١ (٥) النقد الفريد ١٥٧/١

(٦) معجم الشعراء ٢٢٥ ويص : لمان ، العنق : بضم العين والنون أو فتح النون الجماعه من الناس

وإذا كان الأسد أشجع الوحوش وملتحمتكها وأعظمها رعبه ألحقوا الرجل الشجاع به في جرأته وغلبه، وكذلك شهبوا الشجاع بالنفر لقوته وبسالته، قال امرؤ القيس .

قولا لسودان عبيد العصا ما غرّم بالأسد الباسل ؟ (١)
وقال عوف بن عطية بن الخرع :

ألم تر أننا مردى حروب نسيل كأننا دُفَّعَ بَحْرٌ
ونلبس للعدو جلود أسيد إذا تلقاهم وجلودُ نمر (٢)
وقال البراق في رثاء ظليل بن الروحان أخيه :

عين تجود وقلب والله كد لما نوى في الثرى الضرغامة الأسد (٣)
وفي قصيدة للهلhel بعد مقتل أخيه كليب وانتقامه من قاتليه يدح بن شقيق
الذين أقبلوا النصرته بأنهم أسود الغاب :

فدى لبني شقيق حين جاءوا ككأسد الغاب نُجِيبُ بالزبير (٤)
وقد صور خداش بن زهير بن ربيعة شجاعته وشجاعة أعدائهم حين التحموا
في عراك بأنهم كانوا جميعاً نموراً وأسوداً :

فما نقنا الكماة وعانقونا عراك النمر واجهت الأسودا (٥)
٧ - إنصاف الأعداء :

ويبلغ من حبهم للشجاعة أن شهدوا بها لأعدائهم ، فأنصفوهم اعترافاً بشجاعة
الخصم . قال مالك بن حطان - في يوم قشاة وقد انهزم :

وما ذنبنا أنا لقينا قبيلةً إذا واكنت فرساننا لا تواسل
بساقتونا كأساً من الموت مرةً وعرد عنا المقرنون الحناكل (٦)

(١) اللسانيات ١٢٨/٢ النمر . جمع نمر

(٢) شعراء النصرانية ١٧٠/٢

(٣) البان والبيبين ٥٦/٣

(٤) شعراء النصرانية ١٤٤/٢

(٥) طبقات الشعراء لابن سلام ٥٢

(٦) النفاض ٢٣ الحناكل : القصار الأفعال .

وقال عباس بن مرداس السلمي يصف أعداءه ويخمد بطولتهم :

فلم أر مثل الجني حيا ^{مُصَبَّحًا} ولا مثلنا يوم التقينا فوارسا
أحسرا وأصعب للحقيقة منهم وأضربنا بالسيف القوانسا
إذا ما شددنا شدة نصبوا لنا صدور الذاك والزماح المداعسا
إذا الخيل جالت عن صريع نكرها عليهم فما يرجعن إلا عوابسا^(١)

ومن المصنفات قول خنداش بن زهير بن ربيعة :

فأبلغ إن عرضت بنا عساما وعبد الله أبلغ والوليدا
أولئك إن يكن في الناس خير فإن لديهم حسبا وجودا
عمو خير المعاشر من قريش وأوراعم إذا قدحت زودا
بأنا يوم شهده قد أقننا عمود انجسد إن له عمودا
فجاءوا ما رضا بردا وجننا كما أضرمت في التاب الوقودا
فعاقتنا السكاة وعاقبونا عراقك الثر واجهت الأسودا
فلم أر مثلهم هزموا وقلوا ولا كذبادنا عنقا بجودا^(٢)

وليس الغرض من الشهادة للعدو بالشجاعة أن يتخذها الناصر سلما للفتنار المضاعف، لأنهم هم موا الشجعان ، وإنما هي شهادة متبعة عن إعجاب بالشجاعة وتقدير للشجعان ، ففي المثلين السابقين إقرار بشجاعة الخصوم ، وفي المثال الثالث إقرار بأنهم خير قريش ، وأن الشاعر لم ير مثلهم في قلتهم وشجاعتهم ، ولو أنه أراد الفخر بالنصر ووصف خصومهم بالشجاعة كذبا لقال إنهم كثير وإنهم شجعان .

ومن أحسن ما قيل في إنصاف العدو الشجاع قصيدة لعبد الشارق بن عبد المزى

الجني ، منها :

تنادوا يا كِبْشَةَ إذ رأونا فقلنا : أحسنى ضرباً جبيناً

(١) الحماسة ١/١٧٥ والأغاني ١٣/٦٨ سلمي . مصبجا : أغرنا عليه صبجا . القوانس : البيضاء .

المذاكر : الخيل التامة السن والقوة . المداعس : الطاعنات (٢) طبقات الثمرا ، لابن سلام ٥٣

سَمِعْنَا دَعْوَةً مِنْ ظَهْرِ غَيْبٍ نَهَيْتُنَا بِجَوْلَةٍ سَمِ ارْعَوِينَا
فَلَمَّا أَنْ تَرَاقَمْنَا قَلِيلًا أَنْخَسْنَا السِّكَاكِلَ فَارْتَمِينَا
فَلَمَّا لَمْ نَدْعِ قَوْمًا وَسَمِيمًا شَيْنَا نَجْوَاهُمْ وَمَشُوا إِلَيْنَا
تَأَلَّوْا مِرْزَةَ بَرَقَتِ لِأَخْسَرَى إِذَا حَاجَلُوا بِأَسْيَافِ رَدِينَا
شَدَدْنَا شِدَّةً فَفَقَلْتُ مِنْهُمْ ثَلَاثَةَ فِتْيَانَةٍ ، وَقَتَّتْ فَيْتَانَا
وَشَدَدُوا شِدَّةً أُخْرَى فَجَرُّوا بِأَرْجُلِ مِثْلِهِمْ وَرَمَوْا جُورِينَا
وَكَانَ أَخِي جُورِيْنٌ ذَا حِفَاطِ وَكَانَ الْقَتْلُ لِلْفَتْيَانِ زَيْنَا
فَأَبْرَأَ بِالرِّمَاحِ مَكْسُرَاتِ وَأَبْنَا بِالسِّبْوَيفِ قَدِ انْحَيْنَا
فَبَاتُوا بِالسَّيْدِ لِحَمِّ أَعَاطِ وَلَوْ خَفَّتْ لَنَا الْكَلْبِيُّ سَمِينَا^(١)

فهذا شاعر أشاد ببطولة أعدائه ، وقال إن هؤلاء الأعداء قد رجسوا برماحهم مكسرة من أجسامنا ودروعنا ، وإنا رجسنا بسيفنا منحنية من دروعهم وبيضناهم ، وانجالت الحركة عن جرحى من الأعداء يذنون ، وعن جرحى منا عاجزين عن السرى معنا إلى قومنا .

ويفصل المنفصل العبدى بلاءهم وبلاء أعدائهم تفصيلا لا يتميز فيه ، يقول في ختامه :

بِكُلِّ قَرَارَةٍ مَنَا وَمِنْهُمْ بَانَ قَفِيٌّ وَجِجْمَةٌ فَلَيْقِ
وَصَكْمٍ مِنْ سَيْدِ مَنَا وَمِنْهُمْ بَدَى الطَّرْفَاءُ مَنْطِقَهُ شَيْقِ
فَأَشْبَعْنَا الضَّبَاعَ وَأَشْبَعْرَهَا فَرَاخَتْ كَلْمَا تَتَّقُ يَفُوقِ
فَتَلْقَى الْحَارِثَ الْوَضَّاحَ مِنْهُمْ كَانَ سَوَادَ لَمْتِهِ الْعَذُوقِ
وَقَدْ قَتَلُوا هَمَّ مَنَا غَلَامَا كَرِيمَا مَا تَخَوَّنَهُ الْعُرُوقِ^(٢)
وَاعْتَرَفَ عَمْرُو بْنُ مَعَدٍ يَكْرَبُ بَأَنْ نَسَاهُمْ وَلَوْ أَنْ نَسَاهُ أَعْدَاؤُهُمْ :
عَجَّتْ نِسَاءُ بَنِي زِيَادٍ عَجَّةً كَعَجَجِ نِسْوَتِنَا غَدَاةَ الْأَرَنْبِ^(٣)

(١) الحماسة ١٧٧/١ تالؤا مِرْزَةَ : شبه لعان السلاح السكيت بالزينة البارقة . حاجلوا : خطروا خطلوا متفاربوا . ردينا : أسرعنا . قين : اسم فارسهم .

(٢) حماسة البعدي ٦٢ ثق : ملآن . العذوق : العائيد . العروق : الأصول .

(٣) المرجع السابق ٦٣

الجسامين

وفي بعض المزاميم اعترف الشاعر بحين حلفائه وضميف قومه ، وتحمس لأن جبينهم
عقل لسانه عن مدحهم والفتخار بهم ، قال عمرو بن معد يكرب الزبيدي :

لما الله جرماً كلها ذرّ شارقاً وجره كلاب هارشت فازارت
فلم تكن جرماً نهدما إذ تلاقنا ولكن جرماً في اللقاء ابذعرت
ظلت كأني للرماح درية أقاتل عن أبناء جرم وفرت
قلو أن قومي أنطقني رماحهم نطقت ولكن الرماح أجرت^(١)

وذلك أن جرماً قتلت رجلاً من بني الحارث وارتحلت إلى بني زيد قوم الشاعر ،
وهب بنو الحارث للأثر ، فعبا عمرو قبيلة جرم لقتال بني نهد حلفاء بني الحارث ،
وتعابوا وقومه لقتال بني الحارث ، ففرت جرم من قتال بني نهد وانهمزت زيد ،
فلام الشاعر جرماً ولا م قومه أيضاً . ورواية البيت الثاني في الحماسة (فلم تكن) ولكن
المعنى لا يستقيم إلا بتصحیحها كما صححناها .

ولقد صرح كثير من الشعراء بفرارهم ، وتلصقوا المهادير لنفوسهم ، وتوعدت
معاذيرهم ، ولا يعنيها صدقهم أو كذبهم في تبرير فرارهم ، وإنما يبتغينا أنهم اعترفوا
بالفرار ولم يكتموه .

فرأوس بن حجر ذات يوم من جموع بني عبس وغيرهم ، واعتذر بأنه لما شهد
الجموع خاف ، لأنهم شجعان ، ودافع عن نفسه بأن فراره اليوم لامعة فيه إذ أن
شجاعته مشهورة وبلاءه محمود من قبل .

(٢) الحماسة ١/٢٧١ هارشت : احترشت . ازبارت : نهأت للفر ، والمهادرة والاستعاضة ، يقال
في الكلاب . ابذعرت : فرت .

أجاعتها أم الحصين خرابية
ورحمة أبي شهب وعمر بن عامر
مطاعين في الهيجا مطاعهم القري
كان جلود الثور حبيبت عليهم
فضموا علينا حبيرتينا بصادق
وليس الفرار اليوم عاراً على الفتى

على فرارى إذ لقيت بني عيس ؟
ونكراً ، بقاشت من لقايمهم نفسى
إذا اغبر آفاق السماء من القوس
إذا جمعوا بين الإناخة والحبس
من الرأى حش النار في الحطب اليس
إذا جريت منه الشجاعة بالأس (١)

وفى يوم بدر فر الحارث بن هشام وترك أعماه أبا جهل ، فصوره حسام بن ثابت بقوله من قصيدة طويلة :

إن كنت كاذبة الذى حدثنى
ترك الأجابة لم يقائل دونهم
ملاّت به الفرجين فارمدت به
فأجابه الحارث بهذه المعاذير — وكان ذلك قبل إسلامه — :

الله يعلم ما تركت قتالهم
وشمت ربح الموت من لقايمهم
وعلمت أنى إن أقاتل واحدا
فصددت عنهم والأجابة فيهم

حتى علوا فرسى بأشقر من يد
فى مازق والحيل لم تبسدد
أقتل ولا يضُرُّ عدوى مشهدى
طمعنا لهم بعقاب يوم مرصيد (٢)

وقد فر حيان بن الحكم الذى سمي (الفرار السلمي) وحسن فراره تحسينا ، واعتذر عنه اعتذاراً لا يخلو من طرافة ، قال إنه خاطط السكيتيين فلما اختلطتا نقض يده منها

(١) ديوان أوس س ١٠ وحاشية البيهقي ٥٢ ورواها صاحب المقد الفريد ١٧٢/١ لعمرو بن معديكرب مع تغيير كثير . الفرس : البرد . الثور : جمع نمر . حبيرتينا : ناحبينا
(٢) المقد الفريد ١٧٠/١ وسيرة ابن هشام ٣٨٢/٢ الطمرة : الأثى الوثابة من الخيل . ملاّت به الفرجين : كناية عن سرعة عدوها حتى لا تترك سعة بين فرأئها . ارمدت : أسرعت
(٣) الحاشية ٦٤/١ والمقد الفريد ١٦٥/١ وسيرة ابن هشام ٣٨٥/٢ . أشقر مزيد : هم أحر مجهد . مرصد : معد للشر .

وتركهما فكسر الرماح ظهور عن فحيمها ، هم بين قتيل وهو شك أن يموت ، وظرف
في اعتداله بقوله : رأى خير لي في أن تقول نساؤهم لي بعد قتلي : أيتك لم كنت
وكتيبة لبيتها بسكتية حتى إذا اكتسبت نفقت لما يدي
وتركهم تقص الرماح ظهورهم من بين مقتول وآخر مسند
من يفتني أرب تقول نساؤهم .. وقلت دون رجالها لا تبع^(١)
وإذا كان الفرار السلي قد نظرف في تبرير فراره ، فإن حبيب بن عوف فر يوم
مرداء بغير ، وبرفراره بسبب آخر هو أن له روحا واحدة يحرص عليها ، ولو أن له
روحين لجاد بإحدهما وضم بالآخرى :

بذلك لسكم يا قوم - حولي وفوق
فلم تنأى في الأمر من عدوك
وطرت ولم أحضل ملامة عاجز
فلو كان لي روحان عرضت واحداً
وفسجى وما ضمت يداي من الذهب
إلى مهبتي وليت أعداءكم ظهري
يفيم لأطراف الرديفة السمير
لكل رديني وأبيض ذي أثر^(٢)

وما من شك في أن الفرار عار ، والنار يجذ في تبرير فراره صادقا أو كاذبا ،
وهذا عذر آخر لقيصة بن النضراني يلقي فيه التبعة على حصانه ، ويقول إنه نفر فباعه
بينه وبين الحرب ، فباعه أو أهمله عتابا له :

ألم تر أن الوردَ عردَ صدره
وأخرجني من فتية لم أرد لهم
وعض على فأس اللجام وعزني
فقلت له لما بلوت بلاه
أحدث من لاقيت يوما بلاه
وحد عن الدعوى وضوء البوارق
فراقا وهم في مأزق متضائق
على أمره إذ رد أهل الخفايق
وأبنا : تمتع من خليل مفارق
وهم يحسبون أتى غير صادق^(٣)

(١) المقفد التبريد ١٦٤/١ وشرح ديوان الخنساء المرزوقى ١٩١/١

(٢) المقفد ١٧٧ الأثر : فرند السيف وجوهه

(٣) الخنساء ٢٥٢/١ الورد : اسم فوسه . عرد : انحرف . الدعوى : نول السكاة . من يبارز ؟
البوارق : السيوف والسلاح . عزني : غلبني . رد أهل الخفايق : أرجع للداغون من الحمى شيابهم للقاء
الأقران ، بلاه : سوء بلائه .

الطيش ومرعة الأفعال

كان الطيش نفاقاً شامخاً في البداية ، وذلك طبيعي حيث لا حكومة تردع ، ولا قوانين تمنع ، وحيث ينتقد كل امرئ في نفسه السمو والسيادة والقوة وعرافة المحتد ، ويتوقع كل فرد أن تصره قبيلته وعشيرته فيثور محتماً على أسناده وأعوانه ، ولا يتبلد حسه إذا سمع ما يزرى به . ثم يثور أيضاً لنصرة قريب أو حليف ولم يجس العربي عواطفه وهو ربيب الحرية والانطلاق وحليف الصراحة واتقناح الأخلاق ؟

العربي سريع الأفعال ، عصبى المزاج ، تثيره كلمة ، وتوجيه إشارة أو حركة ، إذا ظن أن شرفه قد مس غضب غضبة الأسد ، وطاوع هياجه واستسلم لثورته واستمرأها دون أن يفكر في عاقبة ، يمثل نفسيته قول سعد بن ناشب المازني مقتخراً بنفسه :

إذا مَّ لم تُردع عزيمة همسه ولم بات ما يأتي من الأمر هاتبا
إذا لم أني بين عينيه عزمه ونسكب عن ذكر العواقب جانباً
ولم يستشر في أمره غير نفسه ولم يرض إلا قائم السيف صاحبا^(١)

وأى دلالة على الجهل والطيش أقوى من قول عمرو بن كلثوم إنهم يبطشون بالناس عن قدرة وعن عدوان ، وإن لم يمسسهم عدوان ، فهم يبدون بالظلم ، وإن لم يلحق بهم ظلم :

لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبطش حين نبطش قاديونا
بناة الظالمين وما ظلمنا ولسكنا سنبداً ظالمينا^(٢)

وفي قصيدة لقرابط بن أنيف شكوى من قومه وتهكم بهم لضعفهم وتحليلهم عن نصرته ، ومدح لبني مازن الذين نصره ، مدح لهم بالإسراع إلى الشر والتسابق إليه ، ومدح لهم بنصرة أخيهيم دون أن يعرفوا أنه مظلوم يستحق النصرة :

فوم إذا الشر أبدى نأجديه لم
لا يسألون أنعم حين يندبهم
طاروا إلى ذرافات ووسداناً
في الثنابات على ما قال برمانا (١)
وقد تهكم بحلم قومه وصفحهم عن المسوء ، وعجب من خلقهم هذا وسماه ضحفاً ،
وعجب من أوصافهم وحدهم بالضعف ، كأن الله لم يخلق للخوف منه أحداً غيرهم :
لسكن قومي وإن كانوا ذوي عدد
ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
يمزون من ظلم أهل الظلم مغفرة
ومن إساءة أهل السوء إحساناً
سكان ربك لم يخلق لحشيتة
سوام في جميع الناس إنساناً (٢)
ومن مفاخر القبيلة ومفاخر الشراء بها أن تتجدد بنيتها وتصرغم ، قال أدهم
ابن أبي الزعراء الطائي :

وليس أخونا عند شرٍ يخافه
ولا عند خيرٍ - إن رجاه - يراهد
إذا قيل من للمضلات ؟ أجابه
عظام اللهى منا طول السواعد (٣)
وما من شك في أن هذا الخلق مصانفا إلى أخذهم الثأر كان له بعض الأثر في كبح
العدوان ، لأن الضعيف مركب ذلول ، قال الثابغة :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له
وتحتمى مريض المستأسد الحماي (٤)
وقال زهير في معلقته :

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه
يهدم ومن لا يظلم الناس يُظلم

الحلم

١ - ليس طبيعياً أن يكون العرب كلهم سحقي أو طائشين نائرين ، بل الطبيعي أن
تختلف طباعهم بعض الاختلاف ، فيكون فيهم الأحمق لا يتروى ولا يتدبر
ولا يرعى ، ويكون فيهم القريب إلى الحلم ، وبين هذين درجات مختلفات ، ويكون

(٢) الحماسة ١٤/١

(٤) حماسة البحتري ٢٦٤

(١) الحماسة ١٤/١

(٣) معجم الشعراء ٢١

فيهم الحليم ، وإن كان الجلباء ثقلاً . وكان الحليم فضيلة في نظرهم وإن نال السائد من أخلاقهم . مدح خالف بن خليفة مولى قيس بن ثعلبة قوماً من العرب بالحلم وإن حدث ما يثيرهم ، فإذا ناروا كانت ثورة عارمة :

عليهم وقار الحليم حتى كأنما وليدهم من أجل هيئته ككل
 إن استجبهوا لم يمزب الحليم عنهم وإن آثروا أن يجهاوا عظم الجبل^(١)
 ولم يصف بالحلم إلا بعض الطاعنين في السن المجريين الذي أطنأت السنون
 حدتهم ، وإلا بعض الأقارب الذين يهتمون مساةً القريب الآحق ، وقد صور ذو
 الإصبع العدواني تحمله على ابن عمه تصويراً رائعاً بارعاً شمل فيه تناقض خلقيهما ،
 وصبره على زراية ابن عمه به وعدوانه عليه ، من ذلك قوله :

ولي ابن عم على ما كان من خلق مختلفان فأقلية ويقليتي
 فإن ترد عرض الدنيا بمنقصتي فإن ذلك مما ليس يشجيني
 ولا تُرى في غير الصبر منقصته وما سواه فإن الله يكفيني^(٢)
 وفي إحدى مرثي المهلهل لأخيه كليب يعدد من مناقبه أنه حليم وعفو مع قدرة
 على العقاب والانتقام :

وإنك كنت تحلم عن رجال وتمفو عنهم^(٣) ولك اقتدار
 وتمنع أن يمسهم لسان مخافة من يجير ولا يجار^(٤)
 ومع حقهم كانوا كثيراً ما يعادون على القريب والصديق ، لأن الحلم عليه لا يعد
 في نظرهم مذلة . ولعمري بن أوس قصيدة في الحلم على صديقه واستعطافه أملتأ عليه
 عاطفة سارة صادقة ، قال لصديقه : وحياتك ما أدرى أين يموت قبل الآخر أنا
 أم أنت ؟ فلماذا الهجر والقطيعة يا صديقي والموت سيفرقنا لا محالة ؟ وأنا أخوك
 الثابت الود لم أخذك حين بطش بك عدو أو عاكسك الخط ، كنت حرباً على من

(١) بلوغ الأرب ١٠٢/١

(٢) الفضائيات ١٦٠/١

(٣) شعراء الصراية ١٦٣/٢

حارثوك ، وكنت أعينك بمالي ، وكنت أسمع عن إسمائك أملا في أن تشوب إلى
رشدك . فلماذا قصر على إسمائك كأن في نفسك داء قديما تشبه بها ؟

ثق أنك إن قطعتني فقد قطعت يملك ، فمن أين لك بيدل مني ؟ على أني لن أعدم
غيرك بنى ويخلص ولن أعدم داراً غير الدار التي تقم فيها أنت :

لعمرك ما أدري وإنى لأوجل على أينا تعدو المنية أول
وإنى أخوك الدائم العهد لم أخن إن أباك خصم أو نبا بك منزل
أحارب من حاربت من ذى عداوة وأحسب ما لي إن غرمت فأعقل
وإن سؤرتي يوماً صفحت إلى غد ليصعب يوماً منك أخسر مقبل
كأنك تشنى منك داء مسامتي وسعتلى ، وما في ربيتي ما تعجل
وإنى على أشياء منسك تريبي قديماً لنوصفح على ذلك تجميل
ستقطع في الدنيا إذا ما قطعتي يمينك فانظر أى كف تبدل ؟
وفي الناس إن رئت حبالك واصل وفي الأرض عن دار القلي متحول^(١)

ويصور أوس بن حجر حله على ابن عمه وإن كان ظالماً بأنه لا يشتمه ، ويصفح
عن عدوانه ، وإن استشاره هذا الممدى وجده قريباً محباً له عطفوا فظرفوا :

لا أشتم ابن العم إن كان ظالماً وأغفر عنه الجهل إن كان جاهلاً
وإن قال لي ماذا ترى ؟ يستشيرني يجدى ابن عم مخلط الأمر مزبلاً^(٢)

ب - وقد رويت عن بعض حكمائهم قصص تبعث العجب والإعجاب ، وإن
صحت أو صح بعضها كانت دليلاً على عزيمة راسخة كالجمال ، وضبط للنفس عز أن
يكون له مثال ، فمثلاً قيس بن عاصم كان شريفاً في قومه وكان حليماً ، وكان الأحنف
ابن قيس يقول : إنما تعلمت الحلم عن قيس بن عاصم ، أتى بقاتل ابنه فقال : رعبتم الفتي ،

(١) المهاسنة ٢/٢ أوزاه : يعاش به وغلبه

(٢) حمامة البجترى ٢٨٣ . مزبل . ظريف لعلي . مخلط : مجرب

وأقبل عليه وقال : يا بني ، نقصت عددك ، وأوهنت ركنك ، وأشمت عدوك ،
وأمدأت بقومك ، خلوا سيلاه . وما حل حبوته ولا تغير وجهه (١)
وفي رواية الميداني : سئل الأحنف بن قيس هل رأيت أحلم منك ؟ قال : نعم ،
وقعلت منه الحلم ، قيل : ومن هو ؟ قال : قيس بن عاصم المنقري حضرته يوماً وهو
محتب يحدثنا إذ جاءوا بابن له قتيل وابن عم له كتيف ، وقالوا : إن هذا قتل ابنك
هذا ، فلم يقطع حديثه ولا نقص حبوته حتى إذا فرغ من الحديث التفت إليهم فقال :
إن ابني فلان ؟ فجاهه ، فقال له : يا بني قم إلى ابن عمك فأطلقه ، وإلى أخيك فادفته ،
وإلى أم القاتل فأعطها مائة ناقة فإنها غريبة ، لعلها تساو عنه (٢)

وقيس هذا هو الذي سئل : بم مدت قومك ؟ قال يبذل البندی ، وكف الأذى
ونصر المولى (٣) . ولما جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر الرسول إليه
وقال : هذا سيد أهل البر (٤) :

أما تلميذه الأحنف فقد سأله رجل : دلني على حمد بلا مشرزة ، قال : الخلق
السهج ، والكف عن الصبيح ، ثم اعلموا أن أدوى الداء اللسان البذيء
والخلق الرديء (٥) .

الحرية والإباه

١ - وإذا كان العربي قد عاش في بيئة مجذبة قليلة الضرع نادرة الزرع شحيحة
بالخير عامة ، فإنه قد استعاض عن هذا الفقر المادي بأعظم الغنى وأكثره إمتاعاً
وإسعاداً ، ذلك هو الحرية والإباه ، قست عليه الطبيعة حرمة كثيراً من الوسائل
المادية الحسية التي يترقبها المتحضرون ، ولكنّه استمتع بخير مما يستمتعون به ،

(١) أمال المرتضى ٧٦/١ والأغانى ١٤٠/١٢ س١

(٢) الميداني ٢٠١/١

(٣) البيان والتبيين ٩٣/٢ (٤) المرجع السابق ٢٦/٢

(٥) المرجع السابق ٩٤/٢

فعاش في الصحراء حراً كاللهواد ، طليقا كالطير ، أياً كالأسد ، قوي القلب كالصخر ،
مبسوط النفس كالبلحاح ، صافي المشاعر كالشمس المشرقة والبدن السافر .

وكانت الحرية طبيعة العرب منذ أقدم عصور التاريخ ، فقد روى ديودورس
الصقلي أن الأنباط وهم من أعراب بلاد الحجر العربية (بئرا) كانوا يمتسكون من بذر
التمح وغرس الأشجار المثمرة وبناء البيوت ، لما في هذه الأعمال من التفضحية بالحرية
طوعاً ، والأعراب لذلك لم يستدلهم أحد ، وهم الذين لم يعطوا الفرس الجزية ، وقد
أعطاهما أهل فينيقية وفلسطين كما ذكر هيرودوتس ^(١)

ولما قسمت دولة الإسكندر بعد موته أخضعت البقاع القريبة من حدود مصر
وفلسطين والتي كان العرب يسكنونها من نصيب بطليموس ، وشايح الأنباط
بطليموس على أتقيون الذي فتح أحد قواده الماهرين بلاد الحجر بنته بمدأن أصبح
سيد سورية وفينيقية ، وأباد الأنباط بعدئذ جيش أتقيون المؤلف من ٦٤٠٠ جندي ،
فساق إليهم جيشاً آخر بقيادة ابنه ديمتريوس ، ولما بلغ ديمتريوس بلادهم خابوهم بما
رواه ديودورس : « لماذا تحاربنا أجا الملك ديمتريوس ؟ ونحن من سكان الصحاري
التي لا تُسدُّ فيها خلة . ترانا نقطن في هذه البقاع القاحلة فراراً عن العبودية ، فاقبل
هديتنا وارجع إلى حيث كنت فسنكون من أوفى الأصدقاء لك . ولكنك إذا رغبت
في حصرنا سحرت كل هناة ، ورأيت عجزك عن إكراهنا على تبديل طرق حياتنا
التي تعودناها منذ نعومة أظفارنا ، وإذا قدرت على أسر بعضنا أيقنت أنك لن تجد
واحداً ممن أسرت يستطيع أن يألف حياة غير التي ألفناها . »
فراى ديمتريوس أن يقبل هدية الأنباط ، وأن يرضى بالآب خاتماً بالسلم حرباً
أبصرها ملومة بالمصاعب ^(٢) .

(١) حضارة العرب . جوستاف لوبون ٩٣

(٢) حضارة العرب . جوستاف لوبون ٩٤

وقد اشتهر قتل عمرو بن كلثوم بدمرو بن هندلانه بنى و غامكه الزهو ، واستعلت
 أنه على ليلى أم عمرو بن كلثوم ، وأرادتها أن تقوم منها مقام الوصيفة ، فصاحت :
 واذلاه يا لثالب ، فسميها عمرو بن كلثوم قثار ، ووثب إلى سيف ضرب به رأس
 عمرو بن هند^(١) ، وكانت هذه الحادثة سبب قوله معلقته المليئة بالفخر التى
 يقول فيها :

ألا لا يجهلن أحدنا	فجهل فوق جهل الجاهلينا
بأى مشيئة عمرو بن هند	نكون لقبيلكم فيها فطينا ؟
بأى مشيئة عمرو بن هند	نطيع بنا الوشاة وتزدرينا ؟
تمددنا وأوعدنا . رويدا	مى ككنا لامك مقوتونا ؟
فإن قناتنا يا عمرو أعييت	على الأعداء قبلك أن تلينا
ونحن التاركون لما نهضنا	ونحن الآخذون لما رضينا
وأنا المانعون لما أردنا	وأنا النازلون بحبب شينا
وأنا العصامون إذا أطعنا	وأنا العارمون إذا عصينا
إذا ما الملك سام الناس خسفاً	أيينا أن نقر الذل فينا ^(٢)

وكيف يقيم العربى على ضيم أو يجبس نفسه فى مذلة ، وقد علم أنه لا يرضى
 بالضيم إلا الحار ووتده ؟ قال المتلمس الضيمى :

ولا يقيم على ضيم يراد به إلا الأذلان غير الحى والوتد^(٣)

ثم هو شجاع كما قدمنا ، لا يتهيب الموت وإنما يقدم عليه ويقبل ، والحياة الجديرة
 بالحفاظ فى نظره إنما هى حياة البطولة والقنوة والقوة ، فلماذا يقبل العبودية ؟ إن الناس
 تستبدم الشهوات والمطامع والبقيا على الحياة وإن كانت مرنقة مقيدة ، والعربى بعيد
 عن ذلك كله .

(١) الأغانى ١٨٢/٩

(٢) شرح التصانيد الصغر القليل : الملك . القطيعين : التابع والحادم . مقوتون : خدام . العارمون :

(٣) هامة البحرى ١٩

اصحاب الدراسة .

كل عربي يعتز بنفسه ، يألف أن يخضع لغيره ، فلا يدين لرئيس أو حاكم إلا إذا كان من القبيلة نفسها وذا ميزات يمتاز بها كالشجاعة أو الحسب أو الذكاء أو السن ، وهم يخضعون لمشايخهم خضوع عصبية وائتلاف لا خضوع تملك وسلطان .

ثم لماذا يخضع العربي لغيره وليس له مأوى يلزمه فلا يريم عنه ؟ حياته متقلبة لا تناسبها أحكام مازمة ، استعاض بالمدن ظهور الإبل والحليل ، وأسبى بالقوانين والشرطة العصبية والنصرة والشجاعة .

ب - وكان من آثار الشجور البحرية والإباه أن ملأ العربي الصحراء نظراً بقوته وعدته ، وهل ينخر بالقوة إلا الحر ؟ إنه يرعى كبريائه بهذا الفخر ، وإنه يخيف أعداءه منه ، يقول طرفة بن العبد إنه رجل نشيط ماض في أموره يخوف كالحية وإنه لا يقنأ بحمل سيفه القاطع ، وإذا ما انتصر به أو انتقم كفته ضربة ، حتى إن الذي يحجزه عن الضربة الثانية يقول له كفالك كفالك ، وإذا ما حمل القوم سلاحهم فإنه مسلح منيع إذا ما ظفرت يده بقائم سيفه :

أنا الرجل الضربُ الذي تعرفونه	خَشَّاشاً كَرَأْسِ الحَيَّةِ المَتَوَقِّدِ
فَأَيُّ لَآ يَنفَكُ كَشْحِي بِطَانَةٌ	لَا يَدُضُّ عَضْبِ الشَّفْرَتَيْنِ مُهَيَّدٌ
حُسَامٌ إِذَا مَا قُتُّ مَتَصِرًا بِهِ	كَفِي العُودِ مِنْهُ البَدءُ لَيْسَ بِمِعْصَدِ
أَخِي ثِقَةٌ لَا يَنْثَنِي عَن غَوَايَةِ	إِذَا قِيلَ مَهَلًا قَال سَاجِرُهُ : قَدْرِي
إِذَا ابْتَدَرَ القَوْمُ السِّلَاحَ وَجَدْتَنِي	مُنِعَا إِذَا بَأَتْ بِقَائِمِهِ يَدِي (١)

وكأنهم لم يكفهم التفاخر بالقوة والشجاعة والبأس على أنه بين أفراد أو قبائل ، بل أبوا إلا أن يفخروا بتعاليمهم على الملوك كما قدمنا في معلقة عمرو بن كلثوم ، وكما قال أعشى بنو حنورة عبد الله بن سنان ، أو أبو الحويرث :

(١) ديوان طرفة ٣٣ - ٣٤ الضرب : المهيف القليل اللحم . خَشَّاش : انرجل الماضى في الأمور .

المعصد : الرعي المتين . بَأَتْ : ظفرت . قَام : مقبض

أباح لنا ما بين بصرى ودومة كتابنا منا يلبسون السُّوراً
إذا شو سامانا من الناس واحد له الملك نلئ ملسك وتقطرا
فت مفسر الجراء عنا ميوقنا كما طرد الليل النهار فأدبرا^(١)

وهذا جابر بن حتى التغلبي يوبخ الملوكة الذين لا يستحون منهم ويتقون عارهم
عفاة أن يتقموا منهم ، ويقول إنهم يسألون الملوكة ما الملوهم وما عدلوا ، ولسكنهم
يقتلونهم إن جاوروا ، وليس قتل الملوكة عندهم حراما ولا محالا ، وهم بهذه الصورة
أنداد الملوكة ونظراؤهم ، وطالما أنزلوا الخنثف بالملوك الذين احتقروا قوتهم
ولم يحسنوا السيرة :

ألا تستحي منا ملوك وتتي عارنا ، لا يوء الدم بالدم
تعاطى الملوكة السلم ما قصدوا بنا وليس علينا قتلهم بمحرّم
وكأئن أزرنا الموت من ذى تحية إذا ما ازدرانا أو أسف لنا^(٢)

ومثله قول الشّدّاخ بن عوف السكّاني :

أينا فلا نعطى مليكا ظلّامة ولا سوقة إلا الوشيح المقوما
والاحساما يبرق العين لحه كصاعقة في غيب من تركا^(٣)

العربي أبي يؤثر الموت على حياة الذلّة ، قال المتلمس الضبي :

لا تأخذن ضيحا ولا تقبل ضئولة وموتن بها حرا وجلدك أماس^(٤)
وهو الذي ينفر من المرضاة بالضميق بقوله إن الضميق لا يصلح به إلا اثنان : الخمار

والوئد :

إن الهوان حمار الأهل يعرفه والحر ينسكره والرّسلة الأجد
ولا يقيم على خصف يراد به إلا الأذلان غير الخي والوئد
هذا على الخصف معقول برمته وذا يشح فلا يبكي له أحد^(٥)

(١) مجمع الشعراء ١٥

(٢) شعراء النصرانية ١٩٠/٢ (٣) حاسة البحري ٢٣ (٤) حاسة البحري ١٨

(٥) حاسة البحري ١٩

وشعار كل عربي يتمثل في قول عمرو بن براقة :

مَنْ تَجَمَّعَ الْقَلْبَ الذِّكْرُ وَصَارَ مَا وَأَنْفَا حَمِيًّا تَجْتَنِبُكَ الْمَظَالِمُ^(١)

حر - وقد تبادى العرب في حب الحرية تماذياً أخرج بهم عن معنى الحرية وحدودها ، لأنهم فهموها حرية مطابقة من القيود التي تتنافى وطبائعهم ، وكان لهذا الفهم آثار سيئة بجانب آثاره الحسنة ، فلم يكف العرب يرضعون للقانون العام المنظم للعلاقات الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية إلا لينفثوا منه ، ذلك أن هذا التماذى في حب الحرية أو هذا التصور الخاطئ للحرية كان من أسباب ردة بعض المسلمين عن الإسلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ رفضوا أن يخضعوا لسلطان أبي بكر ، وامتنعوا من أداء الزكاة ، مدعين أنها إتاوة لأبي بكر ، جاهلين بحكمتها وآثارها الاجتماعية والروحية ، وكان أبو بكر حازماً إذ صمم على قتالهم لأن الإسلام وحدة لا تتجزأ ، وأقسم أن لا بد من حربهم إذا متعوه عقاب بعير كانوا يؤدونه لرسول الله .

الوفاء

١ - في العالم المتحضر يلزم الناس بالوفاء ما يتعارفون عليه من عهود وصكوك ووثائق مدونة وشهود وعقود مسجلة الخ . . . ولكن البيئة البدوية كانت خلواً من هذه الضمانات المسجلة والوثائق المدونة ، فكانت الكلمة ينطقها الرجل عهداً يجب عليه أن يفي به وإلا عرض شرفه للتجريح .

كان الوفاء إذاً من أخلاق العرب ، وقد أسلفت في الحياة الاجتماعية أنهم كانوا يتعاقدون في المحالقات على الدم والرب والماء والطيب ويتمسحون بالسكبة ، يريدون تركيد الخلف ومصاحبه بعمل مادي يذكر بالوفاء ، وكان الغدر معرفة يتجافونها ،

وإذا ما ندر أحدهم رفعا له لواء سرق عكاظ ليشهروا به ، وفي ذلك يقول قطبة
ابن أوس بن محسن بن جرول إنهم لم يندروا ، وإنهم لا يأتون ما يشكك حليفهم فيهم :

أَسْمَى وَيَعْلَمُ هَلْ سَمِعْتَ بَعْدَرَةَ رَفَعَ الْوَأَاءَ لَنَا بِهَا فِي جَمْعٍ ؟
إِنَّا قَعَفْ هَلَا نُزَيْبُ حَلِيفَتَنَا وَنَسْكُفُ شُحَّ نَفُوسِنَا فِي الْمَطْمَعِ^(١)

واقفخر عوف بن الأحوص بأنهم ملوك ولكنهم لا يتكبرون على الناس وإنما
يحييهم الناس بتحية العامة ، وهم يفون بأيمانهم وبنذرهم :

ملوك على أن التحية سُوقَةٌ الْآيَاهُ يُوَفِّي بِهَا وَنُفُورَهَا^(٢)

ب - وقد ضربوا المثل في الوفاء بالسمومل بن عادياء ، وكان امرؤ القيس
قد أودعه مائة درع ، فأتاه الحارث بن ظالم ويقال الحارث بن أبي شمر الغساني
ليأخذها منه ، فتنص منه السمومل ، فأخذ الحارث ابنا له غلاما وكان في الصيد
فقال : إما أن سلبت الأدرع إلي وإما أن قتلت ابنك ، فأبى السمومل أن يسلم إليه
الأدرع ، فضرب الحارث وسط الغلام بالسيف فقطعه قطعتين ، وقال السمومل
في ذلك :

وَفَيْتُ بِذِمَّةِ الْكِنْدِيِّ لِنِي إِذَا مَا دُمَّ أَقْوَامٌ وَفَيْتُ
وَأَوْصَى عَادِيَاءَ يَوْمَا بِالْأَلَا تَهْتَدُمُ يَا سَمُومَلُ مَا بَنَيْتُ
بِنِي لِي عَادِيَاءَ حَصِينًا حَصِينًا وَمَا كَلِمَا شَتَّتِ اسْتَقْبَيْتُ

وقد أشاد الأعشى بهذه الأريحية في مدحه لشريح حين وقع أسيرا في يدرجل
كأبي كان الأعشى قد هجاه ، ومر به شريح فاستغاث به ليخلصه ، فذكره أولا بكرم أبيه
السمومل ، ثم عرض لوفائه فقال :

كن كالسمومل إذ ظاف الهمام به في جهنل ككزيغ الليل جرار
إذ سامه خطني خسف فقال له قل ما تشاء فإني سامع حار

(١) المضايقات ٤٣/١ وحاسة البعثرى ٢١٦

(٢) المضايقات ١٧٦/١ . الأيام . أيمانهم جمع أية .

فقال : غدو وثكل أنت بينهما فانتز وما فيها حفظ لختار
 فمشك غير طويل ثم قال له اقل أسيرك إلى مانع جارى
 فاختر أدراعه كي لا يُسب بها ولم يكن وعده فيها بختار^(١)
 وروون قصة أخرى كرده بظلم هانئ بن مسعود ، فقد وفى للنعمان وفاء غضب
 كسرى وأثيب حربا ، وقد تقدمت فى صلة العرب بالفرس .

وقد ضرب المثل فى الوفاء بقوس حاجب بن زرارة التى رهنها عند كسرى ، ذلك
 أنه أتى كسرى فى جذب أصحابهم ، وسأله أن يأذن له ولقومه أن يصيروا إلى ناحية
 من نواحي مملكته حتى ينتجعوا ، فقال كسرى : إنكم تمسحون غدو ، فإن أذنت لكم
 أفسدتم البلاد ، وأغرتم على الرعية وآذيتموها . قال حاجب : فإني ضامن لذلك ألا
 يفعلوا ، قال : فن لى بأن تقي أنت ؟ قال : أرهنتك قوسي ، فضحك من حوله ، فقال
 كسرى : ما كان ليسلها أبدا فقبلها منه ، وأذن لهم أن يدخلوا الربيع .
 ولما مات حاجب شخص ابنه عطارذ إلى كسرى يطالب قوس أبيه ، فردها عليه ،
 وكساه حلة ، فلما وفد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى تميم وأسلم أهدى الحلة
 إلى رسول الله ، فباعها بأربعة آلاف درهم^(٢) . وإلى قوس حاجب يشير أبو تمام
 فى قوله :

إذا افتخرت يوما تميم بقوسها نخرأ على ما وطدت من مناقب
 فأتم بذى قار أمالت سيوفكم عروش الذين استرهنوا قوس حاجب
 وبسبب الوفاء نصر والخلفاء ، وذوا عن الجار ، وقد تقدم ذلك .

ح - وأعظم الوفاء ما كان لعظيم مات أولمذهب مضطهد ، وقد رويت عن
 العرب فى ذلك أعاجيب ، وأعجبها ما يتصل بالنساء ، فقد كانت أم الخير بنت الحرث

(١) الأغانى ٧٩/٨ و ٨٥/٦ و ساسى وحاسة البحرى ٢١٥ وطبقاته الشعراء لابن سلام ١٠٩ .

(٢) المعارف ٢٦٢

البارقية تعرض المسلمين على قتال جند معاوية يوم قتل عماد بن ياسر ، ولما آلت الخلافة إلى معاوية بحث إليها وحشبا وقص عليه أسد جلساته شطبتها ، فقال لها معاوية : والله لو قتلتك ما حرجتُ في ذلك ، فقالت : والله ما يسوءني يابن هند أن يجرى الله ذلك على يدي من يستدني الله بشقائه (١) .

ومثلها سودة بنت عمارة ، كانت تعرض المسلمين يوم صفين على قتال معاوية بأبيات منها :

شمر كفعل أليك يا بن عمارة يوم الطمامن وملتقى الأقران
وانصر علياً والحسين ورهطه واقصد لهنسد وابنها بهران

تم وفدت على معاوية في خلافته فذكرها بما قالت ؛ فقالت : أي والله ، ما مثلي من رغب عن الحق أو اعتذر بالكذب (٢)

وقد روى كثير من أشباه هذا ، وقد يكون التصيب الجزبي قد صاغه أو شكله أو لونه أو زيد فيه ، ولكنه دليل على الرفاه للذهاب المضطهد ، وإذا كان العصر إسلامياً فإن الأخلاق الجاهلية التي لا تناقض الإسلام قد ظلت حجة قوية .

وهذه قصة يروها الأصمعي عن رجل من بني ضبة ، تصور وفاء زوجة عربية من بني سليم ما زالت حالية بخناق البادية في العصر الجاهلي ؛ ضلت لى إبل فخرجت في طلبها حتى أتيت بلاد بني سليم ، فلما كنت في بعض أحومها إذا جارية غشى بصرى لإشراق وجهها ، فقالت : ما بفتيك ؟ إنى أراك مولداً قالت : إبل ضلت لى فأنا في طلبها قالت : فتحب أن أرسدك إلى من هي عنده ؟ قلت : نعم ، قالت : الذي أعطاكهن هو الذي أخذهن ، فإن شاه ردهن ، فاسأله من طريق اليقين لا من طريق الاختبار ،

(١) بلاغات النساء ٤١ والمقدّم الفرید ٢١٧/١

(٢) المقدّم الفرید ٢١١/١ وبلاغات النساء ٣٥

فأعجبني ما رأيت من جمالها وحسن منطقتها ، فقلت لها : هل لك من بعل ؟ قالت : كان والله ، فدعني فأجاب إلى ما منه خلق ، ونعم البعل كان ، قلت لها : فهل لك في بعل لا تدم خلافة ولا تخشى بوائقه ؟ فأطردت ساعة ثم رجعت رأسها وعيناها تذرفان دموعا ، وأثنت :

كنا كمنصين من بان غذاؤهما ماء الجدول في روضات جنات
فاجتث صاحبها من جنب صاحبه دهر يهتكر بفرحات وترحات
وكان عاهدتني إن خانتني زمن ألا يضاجع أثنى بعد موثاة
وكنت عاهدته أيضا فما جلته ريب المنون قريبا مذ سنينات
فأصرف عتابك عن ليس يصرفه عن الوفاء له خلب التحيات
قال : فانصرفت وتركتها (١) .

و ... على أن الاستمسك بالمهد كان يؤول في بعض الأحوال بالضعف والجنوح إلى الهوينى ، ولم يكونوا في تأولهم هذا إلا كالأقوياء في زماننا ، فطالما مزقوا معاهدات في العصر الحاضر ، وقد استمسك بها الضعفاء نصاً وروحاً ، ولكن الأقوياء تسكروا لها وعدوها قصاصة ورق ، ولنا هجاء العرفي أحياناً بعدم الغدر :

فبَحَّ الإله بنى كليب إنهم لا يندرون ولا يفون لجار
يسقيمظنون إلى نهيق حمارهم وتنام أعينهم عن الأوتار
وافتحروا بالغدر كما افتخروا بوثاقة العهد :

فما يستطيع الناس عقداً نشده وتنفذه منهم وإن كان مبرماً (٢)

(١) أخبار النساء . ابن قيم الجوزية ٦١ وعيون الأخبار ٣١/٤

(٢) المقضيات ١٢١/٢

العفة والخيرة

١ - في هذه البيئة التي قامت فيها الأخلاق على الإيثار والاعتزاز بالشرف وحسن الأجداد كان لا بد للرجال والنساء من العفة ومن التمسك ، لأن العدوان على عرض الغير يجر ويلا وحرماً كما سبق . وكان لا بد من العفة على العرض أن يمس أو يחדش ولم تكن الخلاعة والمجانة مما يتفاوضون عنه ، فامرؤ القيس طرده أبوه لخلاعته ، والمنافرة التي كانت بين علقمة بن علاثة وابن عمه عامر بن الطفيل كان سببها قول علقمة له : « إنك أعور البصر عاهر الذكر ، وأنا عفيف »^(١) . فتنازرا إلى هرم بن قطبة حكيم العرب ، فقال لعلقمة : « بأى شيء أنت أسود من عامر ؟ » قال : « أنا بصير وهو أعور ، وأنا أبو عشرة وهو عقيم ، وأنا عفيف وهو عاهر »^(٢)

والعفة شرط من شروط السيادة فهي كالشجاعة والكرم ، لذلك كانت أحد أسباب ثلاثة في تفضيل بسطام بن قيس على منافسيه .

و بما فضل به بسطام بن قيس على عامر بن الطفيل وعتبة بن الحارث بن شهاب أن بسطاماً كان فارساً عفيفاً جواداً ، وكان عتبة فارساً عفيفاً بخيلاً ، وكان عامر فارساً جواداً عاهراً ، فاجتمعت في بسطام ثلاث خصال شريفة فضلهما^(٣) .

وقد لقبوا احسان ملك حمير وهو أحد الأذواء بلقب (ذو معاهر) لأنه كان يرمى بالفجور^(٤) .

ب - ولذا كثر الضحك بالعفة والمدح بها ، فقد افترى برزخ بن عدى الأوسى بأنه لم يخن زوجته ولم يخاتل زوجة جاره :

لعمرو أيها لا تقول حليلتي
وأحفظ جاريتي أن أخاتل عرسه
ألا إنه قد خانتني اليوم برزخ
ومولاي بالنكران لا أتطلع^(٥)

(٣) أخبار النساء ٨٦

(٢) أخبار النساء ٨٦

(٥) مجالس تغلب ١/٣٥٣

(١) ملهارة العرب ١٢

(٤) ظهارة العرب ١٢

وافنخر شاعر آخر بأنه لا يعود من بيت جاره وهو يشعر بحاجة ملحة إلى العودة ، كالمبار الوحشي الذي لم يروّبه حاجة إلى معاودة الماء ، وهذه كناية لطيفة عن عنقه ، ثم كرر المعنى بطريقة ثانية أنه لا يسأل جاراته عن أزواجهن ورجلهن أم حاضرون أم غائبون ؟ ثم إنه لا يلبي الصبي ليخاوه هو بأمه :

ولست بمصادر عن بيت جاري صدور العسبير غمره البرود
ولست بسائل جارات بيتي أغياب رجالك أم شهود
ولا ألقى لدى الردعات سوطي لألميسه وريته أريد^(١)

ح - ولم تكن العفة حلية العاجزين أو قلة المحرومين ، وإنما كانت حلية الرجال ومفخرة من مفاخر الأبطال ، هذا عنقرة بن شداد يفخر بأنه لم يراود أنثى عن نفسها وإنما يتزوجها من وليها بمرها ، وأنه يرى جاراته ويغشى دور جيرانه ما دام الرجال مقيمين ، فإن سافروا للغير وكف عن التردد ، وأنه بغض نظره إن مرت به جارته حتى يواربها بيتها :

ما استمتت أنثى نفسها في موطن حتى أوفى مهرها مولاها
أغشى فناة الحى عند حليلها وإذا غزا في الجيش لا أغشاها
وأغض طرفي ما بدت لي جارتي حتى يوارى جارتي ماواها^(٢)

ولم يتدفع الشاعر وراء الحاجة والادعاء وهو يغرى حبيته ، فيدعى أنه قد تم أمثالها ، بل إنه قصر هؤلاء الأتراب على البعيدات الطليقات ، فهن لا زوجات ولا جارات ، قال قيس بن الخطيم :

ومثلك قد أصيبت ، ليست بكثة ولا جارة أفضت إلى خباها^(٣)

وكانت الخنساء في مراتبها لأخيها صخر حفية بعفته واستحباته أن يفعل الفاحشة أو يتبع بنظراته النساء :

(١) الأمل ٤٥/١ تنوير . لم يرو به حاجة إلى ورود الماء (٢) ديوان عنبره ١٨٥

(٣) طبارة العرب ٣٣

لم تره جرة يعنى بمساحتها زوية حين يغلي بيته الجرار^(١)
وقالت :

ولا يقوم إلى ابن العسم يشتمه ولا يدب إلى الجارات تحويدا^(٢)
على أنه أكثر حياء من فتاة عذرة وأعظم شجاعة من أسد فاتك :

وأحي من مخبأة ككباب وأجراً من أبي شبل هزبر^(٣)

كذلك رثت خرقتي بنت همام أخت طارق بن العبد لأمه ، رثت قومها بفضائل ،
العفة إحداهما :

النازلون بكل معترك والطيون معاهد الأزر^(٤)
ورثي أعشى بأهله المنتشر بن وهب بأنه عفيف النظرات :

لا يهتك السر عن أثنى يطالعهما ولا يشد إلى جاراته النظر^(٥)

و — وأما عفة نسائهم فكانت مثلاً أعلى ، وهذا حديث هند بنت عتبة مع النبي صلى الله عليه وسلم على وجازته دليل على هذه العفة ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما تلا عليها قوله تعالى : « ولا يسرقن ولا يزنين » ، قالت : ما أقبحه - حالاً فسكيف به حراماً ؟^(٦)
وهم جميعاً أشادوا بعفة الحبيبات وتمنعن وبخلهن بحيث لا ينولن شيئاً ، قال
علقمة بن عبدة بن النعمان بن قيس :

منعمة ما يستطاع ككلامها على باجا من أن تزار رقيب
إذا غاب عنها البعل لم تقس سره وترضى إياب البعل حين يثوب^(٧)
وقال سويد بن أبي كاهل اليشكري :

تسمع الحسادات قولاً حسناً لو أرادوا غيره لم يستمع^(٨)

(١) الديوان ٨٢ وبلاغات النساء ١٦٨

(٢) الديوان ٦٨

(٣) الديوان ٧٠

(٤) ديوان الحرق ٢١

(٥) طبارة العرب ٣٤

(٦) طبارة العرب ١٢

(٧) المفضليات ١٩١/٣

(٨) المفضليات ١٩٠/١

بالأول لا سبيل إلى محادثتها ، وليس ذلك لأن علياً باباً رقيقاً ، فإن العفة طبيعة فيها ، على أنها لا تروح بسر ذوبها الثقاب ، وإذا ما عاينته أنها حفظته ، والثانية تجرد على جلساتها بحديث حسن ولا أسل طم في غير الحديث .

ولم يكن الحديث محظوراً دائماً ، وإنما كان يباح كثيراً ، لما كانوا يرون من النقص في الريب ، ويأخذون أنفسهم بحفظ الجيران وما يعرف بعضهم عن بعض من الوفاء والحرص من العار ، لأن الريب منهم كان يصون حرمة جاره وصاحبه كصيانة الابنة والأخت ، والزوجة ولا يرى أحد منهم لنفسه رخصة في إضاعة ذلك . وإنما يتحمل العذر ويرخص نفسه فيه من بين البرادى ومخالط الحضرة ، لأنه رأى أجناس السيد وأخلاق العوام وقد نشأوا على عادة جفروا عليها^(١)

هـ — وهؤلاء المتمدحون بالعفة لا بد أن يكونوا شُعباً على النساء ، وغيره العربي ما زالت مضرب الأمثال ، ولذا قالوا : « كل شيء معه ما خلا النساء وذكرهن ، أي كل شيء يسير جميل سهل يحتمله الرجل إلا ذكر الحرم فإنه يتحضر منه »^(٢) . وقد مر بنا أن من الأسباب التي عزى الوأد إليها تفضيل سبية أسرها على أيها . ورووا أن أكل المرار قتل امرأته هندا لما سبها ابن المبولة في غيابها ، فلما قدم تبعه وقتله وأنقذها منه . وربطها في أذنان أثيل حتى تقطعت أوصالها ، ولم يرض أن يسكبها بعد أن نال منها ابن المبولة وطره^(٣) .

وروا حادثة أخرى : كان القتال — عيد الله بن المضرحي — يتحدث إلى ابنة عمه عبد الله ، فقدم أخوها ورأهما فهى القتال وحلف ، لئن رآه ثانية ليقتابه ، فلما كان بعد ذلك بأيام رآه عندها فأخذ السيف وبصر به القتال فخرج حارياً ، فخرج في إثره فلما دنا منه ناشده القتال بالله والرسم فلم يلتفت إليه ، فبينما هو يسير وقد كاد يلاحقه وجد رجلاً مراكوزاً أو سيفياً فأخذه وعطف على زياد فقتله ، وقال :

(٢) أمثال المبداني ٢/٣٠٧

(١) أخبار النساء ٨٦

(٣) الأغاني ٨٢/١٥ وطهارة العرب ٦

نبيت زياداً والمهامة بينا رد ذكرته أرسام سعد وهيم
 فلما رأيت أنه خير منته أملت له كفى بلذت مقوم
 ولما رأيت أنني قد قتلته ندمت عليه أى ساعة مندم^(١)

وغاز العري من الغزل في المرأة التي يحميها ، لأنه جرح لشرفه . علم الإصبع بن
 محسن بعب مالك بن الصمصامة لأخته جنوب ، فألى يميناً لئن عرض لهما أو زارها
 ليقتله ، ولئن عرض بها في شعره أو ذكرها لياسرته ثم لا يطلقه حتى يجر ناصيته
 في نادى قومه ، فبلغ ذلك مالكا فقال قصيدة طويلة منها :

فما الحلق بعد الأسر شرُّ بقية من الصد والهجران وهي قريب
 أحب هبوط الوادين وإنني لمشتهر بالواديين غسريب
 أحقا عباد الله أن لست خارجا ولا والجا إلا على رقيب
 ولا زائرا وحدي ولا في جماعة من الناس إلا قيل أنت مريب
 وهل ريبه في أن تحن نجية إلى إلفها أو أن يحن نجيب^(٢)

وكان الغزل بالمرأة أحيانا يتخذ وسيلة للإغاطة فحسب ، كما فعل قيس بن
 الخطين في يوم بعث ، إذ غاظ عبد الله بن رواحة بالغزل في أخته عمرة
 بقصيدة مطلعها :

أترف رسماً كاطراد المذاهب لعمرة قفراً غير موقف راكب^(٣)

وكان هذا الغزل الانتقامي سبياً في هلاك الشاعر أحيانا ، كما حدث لسكعب بن
 الأشرف ، فإنه بكى قتلى بدر وشبب بنساء رسول الله صلى الله عليه وسلم ونساء
 المسلمين ، فأمر رسول الله محمد بن مسleme ورمطاً معه من الأنصار بقتله فقتلوه^(٤)

(١) الأغانى ١٥٩/٢٠ سامى

(٢) الأغانى ٨٣/١٩ سامى

(٤) ابن سلام ١١٠

(٣) طبقات الشعراء لابن سلام ٨٩

أما لحش امرئ القيس ومن شساكاه فإنه يمثل أخلاق قلة من العرب
تأثرين على العرب خارجين على التقاليد منبوذين من المجتمع . وهذه القلة
من ذوى الدعارة كانوا يقصدون المظلمات أصحاب الرايات ، قالت العوراء
بنت سبيح في رثاء أخيها عبدالله :

أبكي لعبد الله إذ حُتِّتْ قَبِيلَ الصَّبْحِ نَارَهُ
طَيَانِ طَارَى الْكُفْحِ لَا يُرْخَى الْمُظْلِمَةَ إِزَارَهُ (١)

(١) مرآئى شعاع العرب ١٤٧ لويس شيخور ، حشت : أوقدت.

الباب الرابع

الحياة الدينية

من الشعر

زريد أن نقف ونقفات نستشف منها عقائد العرب الدينية ، ونعرف إلى أي حد يستطيع ما بقي من شعرهم أن يصور هذه العقائد .
 ووجهتنا في ذلك أن ندرس ونستنبط لا أن نستعجب ونبرر ، لأن دراستنا يجب أن تقوم على إيراد ما كان يعتقده العرب ، وهذا أول من بذل الجهد في نقد ما كانوا يعتقدون ،^(١) .

ولسنا نتظر أن يحدثنا هذا الشعر حديثاً مستفيضاً مفصلاً يوقفنا على دقائق الحياة الدينية ، بل ليس من حقنا أن نتظر هذا التفصيل ، لأن الشعر إنما يتناول الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية بطريقة فنية وجدانية ، تمس التفاصيل مساً رفيعاً أو لا تمسها ، وهو عن هذه الناحية لا يتقيد بما يتقيد به النثر من طرائق وبراهين وتفصيل .

وثمة شيء آخر زريد ألا نحسفه ونركب العنت من ورائه ، ذلك أنه لا يصح لنا أن نتوقع باباً خاصاً في الشعر الجاهلي يدور حول الدين كالأبواب الأخرى من مدح وهجاء ورناء ، فإن النزعة الدينية مبثوثة في أبواب شتى ، فقد تكون في الغزل أو في الفخر أو في وصف الحرب إلخ . . . كما سيهجي .

ولا أن نتوقع كثرة من الشعراء تغلب النزعة الدينية على شعرهم كما غلبت على شعر أمية بن أبي الصلت ، وبحسبنا أن يكون في شعراء الجاهلية شاعر واحد يسم الطابع الديني شعره ، حتى نسميه شاعراً دينياً . بحسبنا هذا الشاعر الواحد ، فإننا لا نجد في العصور الإسلامية المتعاقبة المتطاوله إلا قلة من الشعراء الدينيين بين آلاف من الشعراء .^(٢)

وليس من الطبيعي أن نرتقب من كل شاعر جاهلي أن تكون له في الدين جولة ، فإن كثيراً جداً من الشعراء المسلمين على شوقهم وعظمت مكاتبتهم لم يتصرفوا على الدين بعض شعراً ، حتى يصعب على الباحث أن يستشف من خلال قصائدهم عقيدة دينية متميزة ، كالمتنبي والبحتري وابن الرومي .

هل عجز الشعر الجاهلي عن تصوير الحياة الدينية ؟

اعتمد الدكتور طه حسين على أسباب في رفض الشعر الجاهلي الذي وصل إلينا ، منها : أن القرآن حين يتحدث عن الوثنيين واليهود والنصارى وغيرهم من أصحاب النحل والديانات إنما يتحدث عن العرب وعن نحل وديانات ألهمها العرب ، فهو يبطل منها ما يبطل ، ويؤيد منها ما يؤيد ، وهو يلقي في ذلك من المعارضة والتأييد بمقدار ما لهذه النحل والديانات من السلطان على نفوس الناس ، وإذا فاء أبعاد الفرق بين نتيجة البحث عن الحياة الجاهلية في هذا الأدب الذي يضاف إلى الجاهليين ونتيجة البحث عنها في القرآن . فأما هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين فيظهر لنا حياة غامضة جافة بريئة أو كاهريئة من الشعور الدني القوي والعاطفة الدينية المتسلطة على النفس المسيطرة على الحياة العملية . وإلا فإين تجد شيئاً من هذا في شعر امرئ القيس أو طرفة أو عذرة ؟ أو ليس عجيباً أن يعجز الشعر الجاهلي كله عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين ؟ (١)

١- تأريخ هذا الرأي :

١- شجاع شمر كثير

أما أن الشعر الجاهلي يتحدث عن الأديان فهذا مما لا ريب فيه ، ولكن الشعر الذي سلم من النوادي ووصل إلينا أقل مما كان ينتظر ، ولا عجب ، فإن الشعر الجاهلي قد فقد كثير منه في تحطيه الانقلاب الطويل حتى عصر التدوين ، قال أبو عمرو بن السلاء : « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وأقرأ الجاهل علم وشعر كثير » .^(١) وقال عمر بن الخطاب : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ، فبجاء الإسلام فتناسخت عنه العرب وتناسخوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولحيت عن الشعر وروايته ، فلما كثرت الإسلام رجاءت الفروع واعلمت العرب بالأمصار واجتمعت رواية الشعر فلم يبقوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، فأنفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب عنهم منه أكثره » .^(٢)

٢- تناسى كثير من شعر الوثنية وأديان الجاهلية :

ثم إن الشعر الديني أقدم آداب الأمم كلها كالإبادة هو ميريس ، ومهاجرات الهند فلا بد أن نظم العرب كثيراً في آلهتهم ، وشاطبيها ، وتوساوا إليها واستعطفوها ، ولكن قصائدهم توارت مع الزمن ، لعدم تدوينها ، ولا نصر أقيم إلى الشعر والحاسة وما يتصل بالحرب ، فلما أنعم الله عليهم بالإسلام وشرح له صدورهم تناسوا كثيراً مما كان لهم من شعر وثني ثم نسوه فلم يجد الرواة إلا أثاراً قليلة منه ، أو أغضوا عن كثير مما وجدوا أنفة من دينهم الوثني ، واعتزازاً بالإسلام ، ونعفية على العقائد التي قوضها تقويضاً .

ومن الطبيعي أن يحدث هذا الإغضاء عن رواية الشعر الجاهلي الديني حتى لا يثير

في بعض النسخ ذكرات عن الماض قد ترجح لها الضمآن ، وقد حدث ما يشبه هذا في الأمازيغ التي كانت بين المسلمين وكفار قريش بعد أن استنزل الجميع بآية الإسلام . من ذلك أن عمر بن الخطاب أن يشدوا شيئاً من مناقضه الأنصار ومشركي قريش ، ويقال : ه في ذلك شتم الحى بالميت (أو والميت) وتحديد الضمآن ، وقد هدم الله أمر الجاهلية بما جاء من الإسلام^(١) .

ومن ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام نبى عن رواية قصيدة لأمية بن أبي الصلت كان يمرض فيها قريشاً بعد وقعة بدر ، منها :

بأذا يسسدر والعقد سقل من مرانبة جهاجح
ملا بهكيت على الكرام م بنى الكرام أولى المادح^(٢)

وقد كفروا عن روايتها حيناً من الدهر ، فلما تمت للإسلام النصره زالت علة المنع فرويت القصيدة ، وقد أثبتها ابن هشام في السيرة ما عدا بيتين اثنين ، لأن الشاعر « نال فيهما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم »^(٣) .

٢ - اليهود يعضون عن شعرهم في أصنامهم :

على أن الذين تمودوا منهم أو تنصروا قبل الإسلام قد أعضوا عن شعرهم الوثني ، يعزز ذلك قول هشام بن الكلبي في حديثه عن يعوق : « ولم أسمع همدان سميت به ، ولا غيرها من العرب ، ولم أسمع لها ولا غيرها فيه شعراً ، وأظن ذلك لأنهم قربوا من صنعاء واختلطوا بحمير ، فدأوا معهم باليهودية أيام تمود ذو نواس فتهودوا معه »^(٤) . وكان يعوق بقربة خيوان القريبة من صنعاء

ثم يقول في حديثه عن نسر : « واتخذت حمير نسراً ، فعبده ، ولم أسمع حمير سميت به أحدا ، ولم أسمع له ذكراً في أشعارها ولا أشعار أحد من العرب ، وأظن ذلك كان لانتقال حمير أيام تبع عن عبادة الأصنام إلى اليهودية »^(٥)

(٢) الأغاني ١٢٧/٤ الدار ، والبيان والتبيين ٢٣٦/١

(٤) الأصنام ص ١٠

(١) الأغاني ١٤٠/٤ الدار

(٣) سيرة ابن هشام ٤٠٥/٢

(٥) الأصنام ص ١١

ويقول في حديثه عن رثام : « رثود تبع وأهل اليمن ، فمن ثم لم أسمع بذكر رثام ولا نسر في شيء من الأسماء ولا الأسماء ، ولم تحفظ العرب من أشعارها إلا ما كان قبيل الإسلام »^(١)

فهو يعلن أن هذه الأسماء الثلاثة قد انقطع عنه ما قيل فيها من شعر ؛ لأن عبادها لما هودوا عذبوا على جهالتهم الأولى ، واستنكفوا أن يتخلدوا شعرًا قيل فيها. أو ليس من المنطق ومسيرة الخواص والقياس الصحيح أن نعلن نحن أيضًا أن كثيرًا من شعر الجاهلية الوثني قد عني عليه المسلمون أنفة من ضعة روحية وعقلية تردوا في حمايتها ؛ ووزعا وثقية وانصرافا إلى دينهم الجديد ، واستزاجا به ؟ يلي :

٤ - الشعراء لا يتخافون بالدين :

ولم يكن شعراء الجاهلية مرتبطين بدينهم ارتباطًا يُدبر ألسنتهم بقصائد كثير تُتبع من هذا الدين وتدور حوله ، ونحن نجد قلة من الشعراء في الإسلام والمسيحية واليهودية يسموهم بسمات دينية ، فلماذا لا نصدق أن شعراء الجاهلية كانوا متحالين من النزعة الدينية ؟ يقول بروكلمان : ولم تكن الصلة بين القبيلة عند العرب وبين آلهتها وثيقة جدًا كما كانت الصلة عند بني إسرائيل مثلاً ، بين حيوة وشعبه ،^(٢)

ويقول : « وليس من شك في أن العرب كانوا في أول الأمر يؤدون الشعائر الدينية إلى تلك الآلهة التي كانت أقرب إليهم من الله رب العالمين العظيم ، حتى إذا أوْشك فجر الإسلام أن يزع لم تبق هذه العبادة قادرة على أن تملأ وجدان العرب الديني ، وهكذا انحط شأن هذه العبادة ، وانحطت دلالتها انحطاطًا متواصلًا كان كان يرافقه أبدا تماظم في أهمية الشعور الديني العام القائم على أساس الإيمان بالله ، »^(٣) ويتفق نيكلسون مع بروكلمان في هذا الرأي ، فيقول : « كان تأثير الدين على حياة العرب قبل الإسلام ضئيلاً ، حتى لا نتوقع تأثيراً كبيراً له في شعرهم والعربى

(١) الأضنام ص ١٢

(٢) العرب؛ والإمبراطور العربية ص ٢٦

(٣) العرب والإمبراطورية العربية ص ٢٧

لم يكن يولى الدين اهتماماً كبيراً ، وكان تقديره لدينه يقتصر على مزايه الصلابة ، وإذا غضضنا النظر عن الشهوات ، فقد كان العربي البدوي يجد في الدين راحة وأماناً خلال الأشهر الأربعة المقدسة التي يمنع فيها الحرب ، في حين كان موسم الحج في مكة يمكنه من الاشتراك في احتفال وطني (٩) .

٥ — ما بقي من الشعر الجاهلي بصور الحياة الدينية

ومع ذلك كله فإننا نرى فيما سلم من عوادي الزمن من الشعر الجاهلي مثلاً للحياة الدينية ، ونسج كيف وصلت الأمانة العلمية بالرواة أن يحرصوا على هذا الشعر حتى أن أوان تدوينه ، وكان المترجم أن يعنى من سجلات الزمن نحو ٢١ بقى لنا من الشعر الجاهلي كثير يصور حياتهم الدينية ، وثنية وغير وثنية ، تصويراً واضح المعالم في شعر أمية بن أبي الصلت ، وتصوير عجولان في شعر غيره ، ولكن هذا الأخير ليس بأقل عدداً أو أفضلاً تصويراً من شعر مئات من شعراء الإسلام الذين لم يصبغوا شعرهم بصبغة دينية .

٦ — وقد حفلت بعض المراجع بأشعار شتى تنبع من عاطفة دينية ، أو تدور حول هذه العاطفة ، أذكر منها كتاب الأضنام لابن الكلبي ، وسيرة ابن هشام ، والأغانى ، وديوان أمية بن أبي الصلت ، ولسان العرب ، وملحق كتاب الأضنام للحج. وسأقتصر على التمثيل بطرف مما يتصل بالدين ، لأن استيعابه كله يخرج بالبحث عن منهجه الأصل إلى منهج آخر .

وإذا كان الشعر الجاهلي قد تعرض للشك ، وكان نصيب الشعر الديني من الشك أكبر من غيره ، فإننا لا نسترسل مع الشك الذي لا يدعمه برهان من التاريخ أو من طبيعة الشعر نفسه ، ونكاد نوقن أن ابن سلام وأبا الفرج وأضربهما من جهابذة النقاد القدماء قد نبهوا على الشعر المتحول فلم يفهم شيء منه .

ويعتبر قول نيكسون : « ربما لا يمكن تجاهله أن قد أثيرا من المشاعر الدينية
مثل في الشعر الجاهلي ، وإنما كان قد سبق تحول بعض الناس بأن بعض تلك الفصائد
متحول ، فإن هذا القول لم يرد قائما ، والفضل في تقويضه أولا إلى فون كريب ،
وسير شارلس ليال ، وفلم اوزن ؛ لأنهم أثبتوا :

١ — أن الشعور الديني الذي تمثله هذه التصانيد ليس في كثير من الحالات (إسلامياً
في طبيعته .

ب — وأن الموضوعات التي ورد فيها ليست من الإسلام .

ج — وأنه نتيجة طبيعية وحتمية لتأثير المسيحية واليهودية الذي عم انتشاره^(١) .
وإذا ما تبصرنا في الشعر الذي نوردته لنتنبه من الحياة الدينية وجدناه مستمداً
من عاطفة وثنية أو مسيحية أو يهودية ، لا إسلامية ، ووجدناه أيضاً يدور على
موضوعات بعيدة عن الإسلام ، فهو إذن شعر جاهلي صحيح لا إسلامي موضوع .
أما الشعر الديني الذي يمثل عاطفة إسلامية أو يبشر بالدين الإسلامي وبالتالي محمد فهو
الموضوع ، كقصيدة خنافر الهيرى^(٢) وما يشبهها .

٧ — ضعف الوثنية في أواخر العصر الجاهلي .

وما من شك في أن اليهودية والنصرانية قد أنارت كل منهما الطريق في بلاد
العرب فاهتدى هما خلق كثير ، هداية تصل إلى أن يدين الشخص بإحدهما أو يتبصر
بعض التبصر في دينه الوثني ، وما من شك في أن بعض العرب الذين كانوا على أثاره
من دين إبراهيم وإسماعيل كان لهم أيضاً تأثير في تفكير الناس في الخرافات التي
يدينون بها .

على أن العرب في أواخر العصر الجاهلي كانوا على أبواب يقظة عقلية وروحية ،
وكانوا في ريعان نهضة أدبية ، وكل هذه أمور من شأنها أن هزت أركان الوثنية
هزات كادت تقوضها .

ويستفتح نيكسون من ظهور شعر بحث على التضييق، ويدعو إلى التأمل والتشكير في الموت إلخ...، أنه في خلال القرن السادس الميلادي كان الدين والمدنية يمتدان بشكل ظاهر في أنحاء الجزيرة العربية، ويفيران من أفكار العرب الوثنيين، ويهدان الطريق للإسلام^(١).

وإنا لنجد طرفاً من ضعف تأثير الوثنية، والسخرية بها في الشعر نفسه :

١ - كان لبني ملكان بن كنانة بن خزيمية بن مدركة بن إلياس بن مضر صنم يقال له سعد، وهو صخرة طويلة بفلاة عن أرضهم، فأقبل رجل من بني ملكان يابل كثيرة ليقفها عليه، التماس ركته فيما يزعم، فلما رأته الإبل - وكانت مرعية لا تُركب، وكان يهراق عليه السماء - نفرت منه، فذهبت في كل وجد، وغضب صاحبها فأخذ حجراً فرمى به سعداً، ثم قاله: لا بارك الله فيك، نفرت عليّ إيلي، ثم خرج في طلبها حتى جمعها، فلما اجتمعت له قال :

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد، فلا نحن من سعد

وهل سعد إلا صخرة بتنوفة من الأرض لا يدعوني ولا رشده^(٢)

ب - وعبيد بن الأبرص هجماً بنى جدله، فميرم بعبادة الصنم (اليعسوب)

وتبدلوا اليعسوب بعد إلههم صنم ففروا ياجدليل وأعدبوا^(٣)

ج - وأي شيء أدل على الاستخفاف بالوثنية من أن يأكل الناس الإله الذي

صنعوه بأيديهم؟ ذلك أن بني حنيفة اتخذوا صنم من الحيس^(٤) فعدوه دهرًا طويلًا

ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه فقال قائل :

(١) Nicholson, P. 140

(٢) سيرة ابن هشام ٨٥/٤ والأسماء ٣٧ والمثل والنهل قشور ستاني على هامش الفصل ٣/٢٢٢

تنوفة : قفر لا يبت شيئاً

(٣) ديوان عبيد - فروا - افرحوا - أعدبوا : استطيروا هذه العبادة

(٤) تمر يخالط بسمن وأنط نعيمين مجنا شميدا وريعا جعل فيه سويق

أكلت حنيفة ربهما زمن التثنية والجماعة
لم يجذروا من ربهما سوء العواقب والنباعة^(١)
وقال قائل من تميم :

أكلت ربهما حنيفة من جر ع قديم بها ومن إعواز^(٢)

و - وبلغ من ضعف الوثنية في أواخر العصر الجاهلي أن عبادتها صارت أقرب
إلى العادة ، أو صارت عادة لا عقيدة ؛ يدل على ذلك حديث أبي رجاء الطاردي :
« كنا نعبد الحجر في الجاهلية فإذا وجدنا حجرا أحسن منه تلقى ذلك وتأخذ ، فإذا
لم نجد حجرا جمعنا حفنة من تراب ، ثم جئنا فخلبنا عليه ، ثم طغنا به ، »^(٣) .

ه - وفي هذا الدور الذي تزعزعت فيه العقيدة الوثنية ، واستنارت البصائر ،
استشار بعضهم الأصنام ، على أن الاستشارة نوع من تزويد النفس بالثقة بحسب ،
لا على أنها حكم لا نقض فيه ، فإذا لم توافق المشورة هواه رفضها في استخفاف وازدراء
كما فعل رجل من العرب قُتل أبوه فأراد الطالب بثأره ، فأتى ذا الحُلَصَّة فاستقسم عنده
بالأزلام ، فخرج سهمه بنهيه عن ذلك ، فقال :

لو كنتَ يا ذا الحُلَصَّ الموتورا مثل وكان شيخك المقبوراً

لم تته عن قتل العداة زورا

ومن الناس من يتعلمها امرأ القيس بن حُجر الكندي^(٤)

و - وثمة شيء آخر يدل على هذا الضعف ، لأنه كان نتيجة له ، ذلك أنما لم نجد
شعرا كثيرا يتحدث عن عبادة الشجر والكواكب والملائكة والجن ، وذلك بأن
هذه العبادات كانت أقدم من عبادة الأصنام ، وانظمت معالم الشعر الذي قيل فيها

(١) طبقات الأمم لصاعد الأندلسي ٤٣ . النباة : المارعة إلى العصر

(٢) بلوغ الأرب ٢٢٧/٢

(٣) سيرة ابن هشام ١/٩١ والأصنام ٣٥

(٤) بلوغ الأرب ٢٢٧/٢

لما غتر تأثيرها ونفلال الزمان بها ، ولكن بقي شعر كثير يتحدث ، عن الأصنام لانها أحدث عهداً ، والشعر المقول فيها قريب من فجر الاسلام فلم يندثر .

ز --- وقد تأله بعضهم في الجاهلية وترك عبادة الأصنام ، ومن هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل القائل :

ترسكت اللات والعزى جميعا كذلك يفعل الجهل الصبور
فلا العزى آدين ولا أبتياً ولا صنمى بنى غنم أزور
ولا موبلاً أزور وكان ربا لنا في الدهر إذ سطى صغير^(١)
ولم يكنوا يرون في الخمسة الأصنام التي رفضها عمرو بن لُحى رأيتهم في هذه ولا
قريباً منه ، فظننت أن ذلك كان لبعدها منهم^(٢)

(١) الأصنام .

تعدد المصوبات . كيف نشأت عبادة الأصنام ؟ ما ترمز الأصنام اليه . بعض أصنامهم .
إخلاصهم لها . الأصنام في الشعر .

١ - تعدد المصوبات

انقسم العرب في دينهم طوائف قديدا ، شأن الأمم البدائية كلها ، فاعتقدوا كما اعتقد غيرهم أن الطبيعة مملأى بتوى أعظم من قوة الإنسان ، يتوسل إليها في كسب الخير ودفع الشر ، ثم ارتقوا فاعتقدوا بحلول هذه القوى في الأشجار والكهوف والينابيع والحجارة العراض على الخصوص .

« ومن طريق الشعائر الدينية التي تولف التضحية نواتم ارتبطت الآلهة برباط دموى مع القبائل المقدسة لها ، وأصبحت بمثابة الحامى الذى تلوذ به القبيلة بل بمثابة

(١) الأصنام ٧٧ والأغاني ١٧٤/٣ وشطر البيت الأول (عزات الجن والجنان هي)

(٢) الأصنام ٢٧

بعدها وسيدتها الأعلى ، وكانت كل قبيلة تتعبد لإلهها الخاص ، ولكنها تعترف بسطان
 آلهة القبائل الأخرى في مناطقها الخاصة . . . وقد كانت بعض البشر تتخذ أحيانا
 آلهة غير التي تدين لها القبيلة ، كما كانت بعض القبائل تشتري أحيانا في عبادة إله واحد .
 وقد جرت العادة أن تزور القبيلة المرتحلة مقام إلهها مرة أو مرتين في العام أيام
 الأعياد . . . وكان السلام الإلهي يقيم على الصحراء في الأعياد الدينية (المواسم) ،
 فيكف الناس عن القتال والحرب ، والواقع أن الأسواق التي كان العرب يقيمونها
 في الجاهلية ارتبطت بالاحتفالات الدينية ، ومن هنا كانت سجالات التاج الروسي
 بالإضافة إلى البضائع والعروض المادية .^(١)

تعددت آلهتهم قبل الإسلام وإن كانت عبادة الشمس أهم النجوم وأكثرها
 انتشارا ، وأخذت القبائل العربية عن الاسم التي كانت تتصل بها كثيرا من آلهتها ،
 فكان زونها كالأوليميا الإغريقية الرومانية جاسعا لشيء الأصنام .^(٢)

وهم مع تعدد آلهتهم يقررون بالخالق سبحانه وتعالى ، هو خالق السكون والحوي
 والميت ، لم يخالف أحد منهم إلا التنوية المتأثرون بالجويسية ، وهم الذين أنكروا
 البعث : « أنذا متنا وكنا ترابا وعظاما أنا لبعثون ؟ » ، قال تعالى : « ولئن سألتهم
 من خلق السموات والأرض ليقولن الله » ، « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله »
 « قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ » ليقولن الله .

ولسكنهم اتخذوا الأصنام وغيرها وسائل ووسائل وزلني : « ما نعبدهم إلا
 ليقربونا إلى الله زلني » .

ولكن ما الأنصاب؟ وما الأصنام والأوثان؟

قال الفيروزبادي إن الأنصاب حجارة كانت تنصب حول الكعبة فيل عليها ،
 والأصنام والأوثان بمعنى واحد : ما عبد من دون الله ، وقال أبو المنذر هشام

(١) بروكلمان . العرب والإمبراطورية العربية من ٧٥ - ٧٦

(٢) حضارة العرب ١٧٢ . جوستاف لوبون

ابن محمد الكلبي : إذا كان من خشب أو ذهب أو فضة على صورة إنسان فهو صنم ، وإذا كان من حجارة فهو وثن^(١) وقال : إذا كانت تماثيل دعواها الأصنام والأوثان^(٢) ، والأصاب حجارة أمام الحرم وأمام غيره يطوفون بها كطوافهم بالكعبة^(٣) .

ب - نشأة الأصنام وما ترعى إليه

روى ابن الكلبي^(٤) أن النبي سلخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظن من مكة ظاهراً إلا احتل منه حبراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم وصباة بمكة ، فثبثوا حجاراً وضموه ، وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، وهم بعد يعضون الكعبة ومكة ، ويحجون ويعتصرون على إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، ثم سلخ بهم ذلك إلى أن عبدوا ما استعجبوا ، ونسوا ما كانوا عليه فعبدوا الأوثان ، وعادوا إلى ما كان عبده قوم نوح ، وأشركوا وإن دانوا بالرؤية ، وجعلوا ملك الأصنام بيده تعالى ، يقول تعالى : وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ، أى ما يوجدوننى إلا جعلوا معى شريكاً من خلقى .

وفى موضع آخر روى أن أول من غير دين إسماعيل عليه السلام ، فنصب الأوثان وسبب السائبة ووصل الوصلة وبحر البهيرة وحى الحامى ، عمرو بن ربيعة ابن حنيفة الأزدي وكان قد مرض واستشفى بالشام ووجد أهلها يعبدون الأصنام فقدم بها مكة ، ونصبها حول الكعبة^(٥) ، وعمرو هذا هو الذى قاتل جرم حتى أخرجهم من حرم مكة واستولى عليها وأجلاهم عنها وتولى حجابة البيت بعدهم^(٦) .

ثم ذكر أن كل دار فى مكة كان لأهلها صنم يعبدونه ، فإذا أراد أحدهم السفر تمسح به ، وإذا قدم تمسح به ، فلما بعث الله نبيه بالتحديد قالوا : ه أجعل الألهة إلهاً واحداً ؟ إن هذا لشيء عجاب ، يعنون الأصنام . واستهزئت العرب بها وأولعت ، ففهم من اتخذ بيتاً ومنهم من اتخذ صنماً ، ومن لم يقدر نصب حجراً أمام الحرم

(٤) الأصنام ٦ - ٨

(٥) الأصنام ٢٣

(٦) الأصنام ٥٣

(٦) مجمع البلدان لياقوت ٦٥٢/٤

(٥) وسيرة ابن هشام ٨٢/١

أو غيره، وطاف به كطوافه بالبيت، وسموها الأنصاب. فإذا كانت تماثيل دعوها الأصنام والأوثان، وسموا طوافهم بها التَّوَارُ (١).

وخطرت لهم فكرة تمثيل النظام وذوى الأثر الصالح فيهم من الأسلاف، أو تمثيل القوى التي يأنفونها وهي سبب عظيم في نفوسهم، فصنعوا تماثيل لها وتقربوا إليها، وبما يؤكد ذلك قول ابن الكلبي في وصف ود: «تنت لملك بن حارثة صف لي ودًا حتى كأنى أنظر إليه»، قال: كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال، قد ذُبر (نفس) عليه حلتان، مُزْرِبِحْلَة مرتد بأخرى، عليه سيف قد تقلده، وقد تنسكب قوساً، وبين يديه حربة فيها لواء ووفضة (جمبة) فيها نبل (٢).

وهذا يشبه أن يكون تمثالاً لإله الحرب.

وقال في وصف هبل: «وكان فيما بلغنى من عميق أحر على صورة الإنسان» (٣).
وقال في وصف النّاس: «وكان أمّا أحر في وسط جبلهم الذى يقال له أجا، أسود كأنه تمثال إنسان» (٤).

وقال: «المعمول من خشب أو ذهب أو فضة على صورة إنسان فهو صنم، وإذا كان من حجارة فهو وثن» (٥).

وقال: «وكان من تلك الأصنام ذو الحَلْصَة، وكان مَرَوَّةً بيضاء منقوشة عليها كهيئة التاج» (٦).

فهذه الأوصاف تدل على أن الصنم كان تمثالاً على صورة إنسان، وهو إذا يرمز إلى إنسان أو إلى فكرة.

قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى: «ولا تَدْرُونَ ودًا ولا سواعًا ولا يغوث ويعوق ونسرا» (٧) إنها انتقلت عن قوم نوح إلى العرب. . . وقيل هي أسماء رجال

(١) الأصنام ٢٢ . (٢) الأصنام ٥٦ . (٣) الأصنام ٢٨ . (٤) الأصنام ٥٩ .
(٥) الأصنام ٥٤ . (٦) الأصنام ٣٤ . (٧) سورة نوح .

صالحين ، وقيل من أولاد آدم ماتوا قتال إبليس لمن بعدهم : لر صورتهم صورهم
فكنتم تنظرون إليهم فقتلوا ، فلما مات أولئك قال لمن بعدهم : إنهم كانوا يعبدونهم ،
فعبدوهم^(١) .

ومما يبرز أنهم كانوا يقيمون تماثيل لأهلهم ما جاء في أحد النقوش الآشورية
المشيرة إلى عودة أسرحدون من غزوه لبلاد العرب : « أتى الملك العربي إلى عاصمتي
نينوى ومعه هدايا كثيرة ، فقبل قدمي طالبا أن أعبد إليه تماثيل آلهته ، فرق له قلبي
فأعدتها إليه بعد أن أمرت باصلاحها ، ونقش تمجيد ربي أشور عليا وتوقيعها ،
وجعلت الأميرة العربية طوبة التي نشأت في بلاطي ملكة ، وأعدتها إلى بلادها
مع آلهتها »^(٢) .

ولم يكن ذلك عبييا أو مقصورا على العرب وحدهم ، فقد كان الرومان يعبدون
الامبراطور ، وعندهم هيكل لعبادته^(٣) .

— بعض أصنامهم —

مناة :

أقدم أصنامهم التي عبدها منذ أدخل عمرو بن لحي عبادة الأصنام ، وكانت
تعظمه الأوس والخزرج ، ومن ينزل المدينة ومكة وما قرب منهما ، ويذبحون له
ويهدون ، وكانت العرب كلها تعظمه ، وقد سموا به فقالوا : عبد مناة وزيد مناة^(٤) .

وكان مناة صخرة لمذيل وخزاعة ، وسميت الصخر بذلك لأن دماء النساء كانت
تسقى عندها أي تراق ، ومن قرأ بالمد فلعلها مفعلة من النوم ، كأنهم كانوا يستمطرون
عندها الأنواء تبركاً بها^(٥) .

(١) الكشف ٤٩٢/٢

(٢) حضارة العرب جوستاف لوبون ١٢٢ (٣) روح الأجناب ٨٨ - ٨٩

(٤) الأصنام ١٣ (٥) النيسابوري على خامس الطبري ٤١/٢٧

وفي بعض بلاد نجد كشف Pely عن عمود مسيحي حطمه الرومانيون ، وقرر
دوتى وآخرون أنه كان بالطائف تمثالان من الحجر لا شكل لهما كان يعبدهما القدماء
على أيهما اللات والعزى ، وقد حطمهما الرومانيون ، ويظن أن ثالث هذين التمثالين
— وهو تمثال مناة الذى قد يرجع إلى عصر ما قبل التاريخ أيضا — يوجد إلى
الجنوب من الطائف (١).

وظلت مناة قائمة إلى أن بعث النبي صلى الله عليه وسلم سعد بن زيد أو أبا سفيان
ابن حرب أو على بن أبى طالب فهدمها (٢).

ويرى بروكلمان أن مناة إلهة القضاء والقدر التى تقابل إلهة الحظ المختص
Tyche Soteira عند الإغريق ، وكانت معروفة فى مكة ، ولكن عبادتها شاعت على
الخصوص بين قبائل هذيل البدوية المجاورة (٣).

اللات :

اتخذها أهل الطائف ، وكانت صخرة مربعة ، وكانت قريش وسائر العرب تعظمها
وسموا زيد اللات ، وقيم اللات (٤).

وكان أهل ثقيف يكفون عليه للعبادة ويطوفون ، وزعموا أنه سمي برجل كان
يلت عنده السمن بالزيت ويطعمه ، الحجاج ، فلما مات عبده ، وهذا على قراءة من
يشدد التاء ، وقال آخرون إنه بيت كان بنتخله فعبده قريش (٥).

ويرى بروكلمان أن اللات هى الإلهة التى كانت تعرف فى الطائف بالربة أى السيدة
والتي شبهها هيرودوس بإلهة الفلك Urania وهى تقابل الأم الكبرى للإلهة عشتروت
عند الساميين الشماليين (٦). وذكر الطبرى أن اللات مشتقة من الله ، ألحقت فيه التاء
فأنت كما قيل عمرو للذكر وللأنثى عمرة (٧).

(١) عصر ما قبل الإسلام . مبروك تانم ٦ (٢) الزبي دحلان على هامش السيرة الحلبية ٢/٣٤٧

(٣) العرب والإمبراطورية الرومية ٢٧ (٤) الأستام ١٦

(٥) الطبرى ٢٧/٣٥ والنيسابورى على هامش الطبرى ٢٧/٤١

(٦) العرب والإمبراطورية الرومية ٢٧ (٧) تفسير الطبرى ٢٧/٣٤

وظلت إلى فجر الإسلام إذ بعث النبي صلى الله عليه وسلم أبا سفيان والمغيرة بن
شعبة لهدمها بالطائف^(١). بعد أن أسدلت ثقيف، وعلاها المغيرة بضرب بالمحول
وجاه قومه بنو مغيبة خشية أن يرعى أو يصاب كما أصيب عروة، وخرجت نساء ثقيف
حسراً يبكين عليها ويتهمن بالجن كل من لم يدافعوا عنها^(٢)

العزى:

كانت العزى أعظم الأصنام عندهم، وسموا عبد العزى، وكان العرب يطوفون
بالكعبة ويقولون: اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، فإنها الفرائق الملا،
وإن شفاعتهن لترجي. وزعموا أنها بنات الله وشفعاؤه إليه، قال تعالى: «أفرأيتم
اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى. ألكم الذكر وله الأنثى؟ تلك إذا قسمة ضيزى،
إن هي إلا أسماء سميتموها أتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان».

وكانت بواد من نطقة الشامية يقال له حراض، فبنى عليها بيت، وكانوا يسمعون
فيه الصوت، وكانت العرب وقريش تسمى عبد العزى، وكانت أعظم الأصنام عند
قريش، وكانوا يزورونها، ويهدون لها، ويتقربون عندها بالذبح^(٣).

ويختلفون في عبادها، فإن هشام يذكر أنها كانت لقريش وبني كنانة، وأن
حجاجها وسدتها من بني شيبان من سلمة حلفاء بني هاشم أو حلفاء بني طالب خاصة^(٤)
وغيره يرى أنها كانت لخطفان، وهي شجرة سمرة بعث إليها رسول الله خالد بن
الوليد فقطعها، وزعموا أنها خرجت منها شيطانة مكشوفة الرأس ناشرة الشعر
تضرب رأسها وتدعو بالويل والثبور فضرها خالد بالسيف... حتى قتلها وهو يقول:
يا عز كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك

فرجع إلى النبي وأخبره بما فعل فقال: تلك العزى ولن تعبد أبدا^(٥) ولكن في

(١) دحلان ٣٧٩/٢ (٢) سيرة ابن هشام ١٩٨/٤ (٣) الأستام ١٨ - ١٩

(٤) سيرة ابن هشام ٨٧/٤

(٥) أخبار مكة للأزرقي ٧٤/١ والنيسابوري على هامش الطبري ٤١/٢٧ والزبي دحلان على هامش

هذه الرواية خيالا ، والأقرب إلى السواب ما ذكره ابن هشام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث خالد بن الوليد بهد ففتح مكة إلى العزى ، فلما سمع صاحبها السلمي بمسيره إليها علق عليها سيفه وهرب في الجبل الذي هي فيه ، وهو يقول :

أيا عزٌ شدى شدة لا موى لها على خالد ، ألي القناع وشمري
يا عزٌ إن لم تقتلي المرء خالداً فبوتى ياثم عاجسل أو تمصرى
فلما انتهى إليها خالد دمها ، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١) ولم تكن العزى غير شكل آخر للإلهة الثانية اللات ، وكانوا يبدونها في صورة الكوكب السماوى الزهرة (فينوس)^(٢) . وتسمية هذا الاسم مشتقة من اسم الله تعالى العزيز^(٣) أو هو مؤنث الأعز كما ذهب التيسابورى .

ولكن الآراء مختلفة في حقيقة العزى : أكانت صنما كما ذكر هشام الكلبي ؟ أم كوكبا كما ذكر بروكلمان ؟ أم شجرات ، أم حجراً أبيض ، أم بيتاً كما ذكر الطبرى^(٤) وكما ذكر ابن هشام في موضع آخر أنها بيت تعظمه قريش وكنانة ومضرب كلها^(٥) وقد سماها بعض الأصنام بأسماء كانت منذ عهد نوح عليه السلام . من ذلك أن هذيل اتخذوا سواعاً بأرض بئع ، واتخذت كلب وداً بدومة الجندل ، واتخذت مذحج وأهل جرش يعوث ، واتخذت همدان يعوق ، واتخذت حمير نسرأ ، ولم يزل تعبد حتى هودها ذو نواس ، وهذه الأصنام ذكرها الله تعالى في كتابه الكريم : وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يعوثاً ويعوقاً ونسرأ^(٦) وكان ود لكلب ، وسواع لهمدان ، ويعوث لمذحج ، ويعوق لمراد ، ونسر لخمير وسموا عبداً ود وعبداً يعوث^(٧)

(٢) سيرة ابن هشام ٦٤/٤ لا شوى لها : لا تبقى على شيء . بوتي : ارجعي . تمصرى : كوفى نصرانية وروى تنظري

(٣) بروكلمان ٢٧

(٤) سيرة ابن هشام ٦٤/٤

(٥) تفسير الطبرى ٣٤/٢٧

(٦) السكشاف ٤٩٢

(٧) الأصنام ٩ - ١٠ وسورة نوح

ركان ود على صورة رجل ، وسواع على صورة امرأة ، ويثوث على صورة أسد ، ويعوق على صورة فرس ، ونسر على صورة نسر^(١)

و — إخلاصهم للأصنام

والأصنام عندهم كثيرة ، وهم يعبدونها مخلصين ، ويعظمونها تعظيمهم للحرم ، حتى إنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجر آمن حيازة الحرم تعظيما للحرم وصباية يمكك ، فخيشا حاوروا وضموه وطافوا به كطوافهم بالكعبة^(٢)

ويرى المرحوم الأستاذ محمود جمعه أن السبب في حمل هذا الحجر عقيدة العربي في أن الحجر فيه روح الإله ، فهو يحمله معه تيمنا به^(٣) . ولكني أوافق على رأي هشام ، لأن الظاعن من مكة لم يغادر جزيرة العرب التي تسرى فيها كلها روح الإله ، فإنه مكة هو إله الطائف واليمامة والحجر . . . الخ ثم لماذا يتحدث هذا من سكان مكة وحدهم ؟

و بلغ من تعاطفهم بأصنامهم أن يتخوف أبو أحيحة ألا تعبد العزى من بعده ، ذلك أنه مرض مرضه الأخير فدخل عليه أبو لبب يعوده فوجده يبكي فقال : ما يبكيك يا أبا أحيحة ؟ أمن الموت تبكي ولا بد منه ؟ قال : لا ، ولكن أخاف ألا تعبد العزى بعدى . قال أبو لبب : والله ما عميدت حياتك لأجلك ، ولا تركت عبادتها لموتك . فقال أبو أحيحة : الآن علمت أن لى خليفة^(٤) .

وقاتل بعض العرب لحماية أصنامهم من التدمير ، كما حدث لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وأسلمت العرب ووفدت عليه وفودها ، وكان في القادمين جرير بن عبد الله الذي جاء مسلما ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : يا جرير ألا تكفيني ذا الخلصة ؟ فقال : بلى ! فوجهه إليه ، فخرج حتى أتى بنى أحسن من بجيلة ،

(١) الكشف ٤٩٢

(٢) الأنعام ٢٣

(٣) النظم السياسية والاجتماعية ١٤٠

(٤) الأنعام ٦

فسار بهم إليه فقاتلته خشم وبأهله دونه ، فقتل من سدنته عن بأهله برميذ مائة رجل ،
وأكثر للقتل في خشم ، وقتل مائتين من بني قحافة بن عامر بن خشم ، فظفر بهم
وهزمهم وهدم بنيان ذي الخلصة وأضرم فيه النار فاحترق ، فقالت امرأة من خشم :

وبنو أمامة بالولية صرعوا مُسلاً يعالج كلهم أنبوبا
جاموا ليضتهم فلاقوا دونها أسداً تقب لدى السيوف قيبيا
قسم المسئلة بين نسوة خشم فتیان أحسر قسمة تشعيا^(١)

ونقل ابن هشام والأزرق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نرج إلى حنين
ومعه مسلمون بعضهم حديث عهد بالجاهلية ، فلما رأوا في الطريق ذات أنواط
- شجرة خضراء عظيمة كانوا يأتونها كل سنة ويلقون أسلحتهم عليها ويلبسون
عندها ويكفون عليها يوماً - قال بعضهم : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط
كما لهم ذات أنواط . فقال : الله أكبر ، قلت - والذي نفس محمد بيده - كما قال قوم
موسى لموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال إنكم قوم تجهلون ، إنها السنن ؟ لتركن
سنن من كان قبلكم^(٢) .

ولا سبيل إلى ادعاء أن هؤلاء وأمثالهم كانوا يحمون استقلالهم بمثلاً في حماية
الصنم ، فقد حدثت حروب بسبب الأصنام أيضاً لم تكن فيها مظنة الذود عن استقلال ،
وحدثت بين بعض قبائل اليمن لاقتناء يفرث ، منها موقعة رزم بين الحارث وهمدان
وسدنة الصنم وبين مراد^(٣) .

وإلى هذه الموقعة يشير الشاعر بقوله :

وسار بنا يفرث إلى مراد فساجزناهم حتى الصباح^(٤)

وقد أسبقنا أن ملكاً عربياً ذهب إلى الملك أسرحدون في نينوى ومعه هدايا

(١) الأصنام ٣٦ . الولية : موضع . عملاً : جمع غلاوى الحب والسويق . أنبوب : رمح . تقب :
نضرب ونفقع أنيابها (٢) سيرة ابن هشام ٧١/٤ وأخبار مكة ٧٧/١
(٣) معجم البلدان ٧٧٦/٢ و١٠٢٢/٤ (٤) الأصنام ١٠

وجنا أمامه وقيل قدمه طالبا أن يعيد إليه تماثيل آلهته ، فرق له قلب أسرى سدون وأعادها إليه بعد أن أمر بإصلاحها^(١).

وذكر ابن هشام والأزرقي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل البيت يوم فتح مكة ، فرأى فيه صور الملائكة وغيرهم ، فرأى إبراهيم عليه السلام مصورا في يده الأزلام يستقسم بها ، فقال : قاتلم الله ، جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام ؟ ما كان لإبراهيم يهوديا ولا نصرانياً ولكن كان حنيفا مسلما ، ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست^(٢).

وروى في موضع آخر أن الرسول عليه الصلاة والسلام لما دخل مكة يوم الفتح على راحته طاف عليها ، وحول البيت أصنام مشدودة بالرصاص ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يشير بقضيب في يده إلى الأصنام ويقول : (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) فأشار إلى صنم منها في وجهه إلا وقع لغفاه ، ولا أشار لغفاه إلا وقع لوجهه ، حتى ما بق منها صنم إلا وقع ، فقال تميم بن أسد الخواصي في ذلك : وفي الأصنام معتبرٌ وعلم لمن يرجو الثواب أو العقاب^(٣).

هـ - الأصنام في الشعر

(١) القسم بها :

أقسم العرب بالأصنام كما يقسم الصياد بالأرباب ، وجاء هذا القسم على أسنة كثير من الشعراء ، وإن لم يتسموا بزعة دينية . أقسم طرفة بالنصب في قوله : فأقسمت عند النصب إن مالك بمنالفة ليست بضبط ولا خفض^(٤) وأقسم المتلمس بالأنصاب وباللات في قوله هيجو عمرو بن المنذر : أطرَدتني حذر الهجاء ، ولا واللات والأنصاب لا تسيل^(٥)

(١) حذارة العرب ١٢٣

(٢) سيرة ابن هشام ٣٧/٤

(٣) سيرة ابن هشام ٣٧/٤ وأخبار مكة للأزرقي ١٥٠/١

(٤) الأصنام ١٦

(٥) ديوان طرفة ٤٩ غبط : أرض مستوية يرتفع طرفها

وأقسم عبد العزى بن وديعة المزني بمناة :

إني حلفت يمين صدق برة^(١) بمناة عند محل آل الخزرج^(٢)
وحلف طرفة بالأنصاب التي يذبحون القرابين عليها في اعتذاره لسمر بن هند :
إني وجدك ما همجسوتك وال أنصاب بسفح بينهن دم^(٣)
وحلف أوس بن حجير باللات والعزى وبالله :

وباللات والعزى ومن دان دينها وبالله ، إن الله منهن أكبر^(٤)
وكانت قريش قد حمت لها شعباً من وادي حراض يقال له مقام يضاھون به
حرم الكعبة ، فذاك قول أبي جندب المنذلي في امرأة كان يهاها :

لقد حلفت جهداً يميناً غليظة بفرع التي أحت فروع مقام
لئن أنت لم ترسل ثيابي فأنطلق أباديك أخرى عيشنا بكلام
يعز عليه صرم أم حوريرت فأمسي بروم الأمر كل مرام
وحلف الشنفرى الأزدي بأثواب الأقيصر في قوله :

وإن امرأ أجار حمراً ورهطه على .. وأثواب الأقيصر .. يعتف^(٥)
وأقسم زيد الخيزر (زيد الخليل الطائي) بعائمه :

تخبر من لاقيت أن قد هزمتهم ولم تدر ما سيحاهم ، لا ، وعائمه^(٦)
وإذا كان مؤلف الأصنام قد قرر أنه لم يسمع شعراً في (نسر) فإن ياقوتاً أورد
شعراً فيه عند كلامه على (بأنجع) وهي الأرض التي عيّد فيها نسر ، ونسبه إلى الأخطل ،
والصواب نسبته إلى عمرو بن عبد الجمن الفارس الجاهلي كما في تاريخ الطبري^(٧) ، وقد
رواها ابن منظور في لسان العرب في مادة (أبل) وكذلك رواها البغدادي في خزنة

(٢) ديوان طرفة ١٥

(١) الأصنام ١٤

(٣) تاريخ الأمم وللوك ٢٤/٢

(٤) الأصنام ٤٠

(٥) الأصنام ١٢

وديوان أوس بن حجير نمرة ٧

الأدب ، وتاج السروس في (أبل) ، وهي أيضاً في ديوان الأخطل طبعة اليسوعيين
ص ١٤٩ ، ويرجع طابعه الأب أنطون صالحاني أن الأبيات لتغير الأخطل :

أما ودماغ مائرات تفضالها على قنة المزوي أو النسر عندما
وما سبغ الرهبان في كل يعيسة أيل الأيليين المسيح بن مريم
لقد ذاق منا عامر يوم لطلع حساما إذا ما هن بالكف صمما

وكانوا أحيانا يتحالفون على النار ، ويأخذون العهد المؤكك واليمين الغموس ،
وأحيانا يضعون فيها الملح للتحويل ، قال الشاعر :

حلفت لهم بالملح والنوم شهد وبالنار واللات التي هي أعظم
(٢) ذكرها :

وحسبنا هذا الشعر الدائر على القسم والتحالف ، فلنأخذ في شعر آخر يدور حول
الأصنام وغيرهما مما كانوا يعبدون . فن شعرهم في ود :

حيالك ود فانا لا يحل لنا هو النساء وإن الدين قد عزما^(١)
وعن شعرهم في بغوث :

وسار بنا يغوث إلى مراد فاجزناهم قبل الصباح^(٢)
وفي اللات بقول عمرو بن الجعيد :

فاني وتركي وصل كأس لكالذي تبرا من لات وكان يديها^(٣)
وكانت هذيل تعبد سواعا ، وقد شبه الشاعر خضوع أناس لحاكمهم بخضوع
هذيل لسواع ، وذكر القرابين التي كانت تذبحها عنده :

تراهم يحول قيلهم عكوكا كما عكفت هذيل على سواع
نظل جنابه صرعي لديه عسائر من ذخائر كل راع^(٤)

وذكر الجاحظ أن الرجل كان يذبح أن يذبح عند الأصنام كذا عبثية إذا بلغت إليه أو غنمه كذا ، فإذا اكتمل العدد استعمل التأويل ، وقال : إنما قلت إني أذبح كذا شاة ، والظباء شاة كما أن الغنم شاة ، فيجعل قربانه شاة كما يصيده من الظباء ^(١) ، ولذلك يقول الحارث بن حازمة اليشكري في مملقته :

أم علينا جناح ككندة أن يف — نم غازيهم ومنا الجسرام
عَنَّا باطلا ، وظلماً ، كما تُه تر عن حجرة الربيض الظباء ^(٢)

ويقول الروزني في شرح البيت ، العبثية ذبيحة كانت تذبح للأصنام في رجب ، وقد كان الرجل يذبح إن بلغت غنمه مائة ذبح منها واحدة للأصنام ، ثم ربما ضنت نفسه بما فأخذ ظلياً وذبحه بدل الشاة الواجبة عليه .

وكانت لهم حجارة عُبر منصوبة بطوفون بها ، ويعبثون عندها يسمونها الأصاب ، ويسمون الطواف بها الدوار ، يقول عامر بن الطفيل وقد أتى غنبي بن أعصر يوماً وهم بطوفون بنصب لهم ، فرأى في قبتائهم جمالا وهن يظفن :

ألا باليت أخوالي غنبياً عليهم كلما أمسوا دواراً ^(٣)

وقال امرؤ القيس في مملقته يشبه قطع البقر أو الظباء بالعداري اللابسات ملامات :

فَعَنَّ لَنَا سِرْبُ كَأَنَّ نَعَاجَهُ عَدَارَى دَوَارٍ فِي مَلَامٍ مُذْبِلٍ

شبه نعاج السرب في مشيها وطول أذنانها بفتيات حول الضمن يدرن وعليهن الملام الطوال ذوات الأهداب .

وكان سعد بن أحية جددة ، وكان صخرة طويلة ، فأقبل رجل منهم بإبله ليقفها عنده تبركاً به ، فلما دنت منه — وكان الدم يراق عليه — نفرت وتفرقت ، فغضب الرجل وتناول حجراً فرمى به بسداً ، ثم جمعها وانصرف وهو يقول :

أتينا إلى سمسد ليجمع شملنا فمشتنا سمد ، فلانحن من سمد .
وهل سمد إلا صخرة بتنوفة من الأرض لا يذهي لني ولا رشد (١)
وشبه سلامة بن جندل أعناق الخيل بالأنصاب :
والعاديات أسابي الدماء بها كأن أعناقها أنصاب ترجيب (٢)
... (٣) الاستقسام عندها :

وكانوا يستقسمون عندها بالأزلام أي القداح ، فإذا أراد أحدهم سفراً أو غزواً أو تجارة أو أمراً عظيماً ضرب بالقداح ، قالوا إنها ثلاث قطع من الخشب مكتوب على أحدها : هاني ربي ، وعلى الآخر : أمرني ربي ، وأما الثالث ففضل ، فإن خرج الأمر مضي لطيفة ، وإن خرج الناهي أمسك ، وإن خرج الغفل أجال القداح مرة ثانية . وقالوا إنها كانت سبعة ، وإن سادن الصنم هو الذي كان يتولى إجلتها ، وسواء كانت ثلاثاً أم سبعمائة أم أكثر ، وسواء كانت عليها كتابة أم لم تكن فإن الذي يريد أن تقرره أن الأصنام كانت تستشار . قال طرفة ساخرأ بالاستقسام لما بعث عمرو بن هند قائداً من قواده هو الفلاق بن شهاب العدوي ليصلح بين بكر وتغلب فاصطلحوا على دخن فأغارت تغلب على بكر وكان الفلاق ضالماً مع تغلب :

فَسَعَى الْفَلَّاقُ بَيْنَهُمْ سَعَى خَبِّ كَذِبٍ شِيمَةٍ
أَخَذَ الْأَزْلَامَ مَقْتَمًا فَأَتَى أَعْوَامَهَا زَلْمَةً
عِنْدَ أَنْصَابِهَا زُفْرًا فِي صَعِيدِ جِمَّةٍ أَدْمَةٍ (٣)

ويروون أن امرأ القيس لما قتل بنو أسد أباه حجراً استقسم عند الصنم ذي الخلفة ، فخرج له القدح المانع من ائثار ، فكسر الأزلام وضرب بها وجهه الصنم ، وقال : لو كان أبوك قتل ما عقتني ، وأنشد :

(١) الأصنام ٢٧
في رجب أو تغلب .
(٢) الفضليات ١١٩/١ أساب : طرائق . ترجيب : ذبح
(٣) ديوان طرفة ١٧ - ١٨ أدمه : جلود ما حمله إلى الأنصاب ليذبحه
عليها . زفر : من معانيها البحر والنهر الكثير الماء ، وهو المراد هنا ليدل على الدماء الفزار .

لو كنت يا ذا الخلعة الموتورا مثلى وكان شيخك المقبوراً
لم تته عن نخل العداة زورا^(٤)
وكان كثير منهم يتنصع لما تخبره له قداحا ، وللقداح الأرى الفصل ، قال شملة
ابن أخضر النبي :

رئيس ما ينازعه رئيس سوى ضرب القداح إذا استشارا
وكان منهم الخازم الذى يستشير قداحا ، وإذا هم بالأمر مضى فيه ، بكذع بن سنان
فإنه عزم على الحرب ولم يستشر قداحا :

أتانى قاشر وبنو آيه وقد جنّ الدجى والليل لاحا
وحذرنى أمورا سوف تأقى أهنّ لها الصوارمَ والرماحا
سأمضى للذى قالوا بمسرم ولا أبغى لندلكم قداحا
(٤) النوار بها :

وكانوا يطوفون بحجارة غير منصوبة ، ويصترون عندها ، ويسموننا الأنصاب
ويسمون الطواف بها النوار ، وفى ذلك يقول عامر بن الطفيل وقد أتى يوما غنى
ابن أعصر وهم يطوفون بنصب لهم ، فرأى فى فتيانهم جمالا وهن يظفن :

ألا يا ليت أخوالى غنيا عليهم كلما أسوا دوار
وقال المثقب العبدى لعمرو بن هند :

يُطيفُ بنصبهم حجن صغار فقد كادت حواجبهم تشيب^(٥)
(٥) قرأينهم لها :

وكانوا يذبحون لها ، ويسمون الذبائح العتائر ، وهم عارفون بفضل الكعبة عليها ،
يحجونها ويشمرون إليها .

وجمها بعض الأنواع من الذبج والعمل ، تقرباً إلى الأصنام أيضا ، وفى تفسير

هذه الأنواع آراء شتى، ويظهر أن السبب في تشعب الآراء اختلاف القبائل في الاصطلاح نفسه، وسنقتصر على رأي واحد:

البحيرة: الناقة التي نتجت خمسة أبطن آخرها ذكر، فيحرون أذنفا ويبرمون نحرها وركبها، ولا يطردونها من ماء ولا يئتمونها عن مرعى.

السائبة: التي تنتج عشرة أبطن إناث فتهمل ولا تركب ولا يجز وبراها ولا يشرب لبنها إلا ضيف.

الوصيلة: كانوا إذا ولدت الشاة ذكراً جعلوه لأهلهم وإذا ولدت أنثى اختصوا بها، فإن ولدت ذكراً وأنثى، قالوا إن الأنثى وصلت أخاها فلم يذبجوه للأهله.

الحامى: الفحل يولد من ظهره عشرة أبطن فيقولون قد حمى ظهره، فيهمل ولا يطرد عن ماء ولا مرعى.

وقد نهى القرآن الكريم عن ذلك كله: «ما جعل الله من بحيرة ولا مائة ولا وصيلة ولا حام»

وقد تحدث الشعر عن هذه القرايين:

حَوَّلَ الوصائلُ فِي شُرَيْفِ حِقَّةٍ وَالْحامِياتُ ظهورَها وَالْمَيْبُ^(١)

وقال تميم بن أبي في وصف حمار الوحش:

فِيهِ مِنَ الأَخْرَجِ المُرْباعِ قَرَقَرَةٌ هَدَرَ الدِّبائِيَّ وَسَطَ المِجْمَعَةِ البُحُر^(٢)

ومن أنواع القرايين.

الفرع: ذبح كان في الجاهلية، وهو أول النتاج إذا نتجت الناقة أول نتاجها ذبح يتبركون به، قال أوس بن حجر:

(١) سيرة ابن هشام ٩٧/١ الوسائل: جمع وصيلة. شريف: ماء لبني نجر. حقة: الإبل التي دخلت في الراجعة.

(٢) السيرة ٩٨/١. الأخرج: الظلم فيه لوان. المرباع: التي وعى في الرميم. قرقرة: صوت فيه ترجيع. هدر: صوت. الدياي: نسبة إلى دباب قرية بالشام. المجمة: قوقعة من الإبل. البحر: جمع بحيرة وهي المشقوقة الأذن.

وشبه الهيدب العجّام من لا أقوام سقبا مجللاً فرعاً^(١)
 وكانوا يسمون الذبايح للأصنام عتائر والمذبح الذي يذبحون فيه لها العتير . قالت
 امرأة في رثاء والدها :

ما زلت أصدبه وأحدره من قتر مومة إلى قتر
 هرباً به والمسوت يطلبه حيث اتويت به ولا أدري
 حتى دفت به لمصرعه سوق المعيز نساك للعتير^(٢)
 وقال زهير بن أبي سلمى :

فزل عنها وأوقى رأس مرقبة كنصب العتير دمي رأسه النسك^(٣)

(٢) التوحيد

تمهيد :

لا حاجة بنا إلى أن نعرض لليهودية والنصرانية من حيث نشأتها ومراكزها
 وتأثيرها في بلاد العرب فقد فصلنا ذلك في الباب الأول ، واليهود والنصارى
 موحدون ، وحتى عباد الأصنام وغيرها على قسط كبير من التوحيد .

وإنما كانت عبادتهم لها ضرباً من التدين بدين الصابئة في تعظيم الكواكب
 والأصنام الممثلة بها في الهياكل ، لا على ما يعتقد الجاهل بديانات الأمم وآراء الفرق
 من أن عبدة الأوثان ترى أن الأوثان هي الآلهة الخالقة للعالم . ولم يعتقد قط هذا
 الرأي صاحب فكرة . بدليل قوله تعالى : ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى^(٤)

وإذا كان العرب قد عبدوا الأوثان وغيرها ، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم
 قبلهم من الضلالات ، فإن فهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم يتمسكون بها من تعظيم

(١) الأملئ ٨٤/١ الهيدب : الثميل الكثير الشعر . العجّام : العمى الثقيل . مجللاً فرعاً : لابساً

جد فرح (٢) زهر الآداب على حاشى العقد القريد ٨/٢ . قتر : جانب (٣) الأصنام ٣٤

(٤) طبقات الأمم لصاعد الأندلسي ٤٤

البيت والطواف به ، والحج ، والعمرة ، والوقوف على عرفة والارداقة ، ومدى البدن والإهلال بالحج والعمرة ، مع إدخالهم فيه ما ليس منه ، فكانت كذابة وقريش إذا أهاوا قالوا : ، لييك اللهم لييك ، لييك لاشريك لك إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك ، فيوحدهونه بالتلبية ثم يدخلون معه أصنامهم ، ويحسون ملكها بيده ، يقول الله تبارك وتعالى محمد صلى الله عليه وسلم : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم شركون ، أى ما يوحدهونى لمعرفة حتى إلا جئوا معى شريكا من خلقى . » (١)

وهم على توحيدهم المشوب بالشرك يعظمون الكعبة ويعرفون فضلها ، وقد اتخذوا معها طواغيت ، وهى بيوت يعظمونها كتعظيم الكعبة ، ولها سدة وحجاب ، ويهدون إليها كما يهدون للكعبة ، ويطوفون بها كهوا فهم بالكعبة وينحرون عندها ، ولكنهم يعرفون فضل الكعبة عليها ، لأنهم قد عرفوا أنها بيت إبراهيم الخليل ومسيحده (٢) .

وإذا كان الشعر الجاهلى الوثنى الذى أوردنا بعضه قد مثل الوثنية تمثيلا يضطرنا إلى الإقرار بأن الشعر الجاهلى لم يتخلل الدين إغفالا : فإننا سنجد شعرا أكثر منه يتصل بالتوحيد والإيمان بالله مالك الملك البارى المصور الواهب المكافئ ، ويتصل باليهودية والتصرانية اتصالا وثيقا .

وقد قلنا إن الشرب -- على وثنيهم -- اعتقدوا بإله هو خالق الكون ، ولم ينقلوا فكرتهم عن اليهود والنصارى كما يظن كثير من الباحثين (٣) ، وإنما كان هؤلاء فريقا من المستبصرين المفكرين الذين جروا على دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام .

(٢) سيرة ابن هشام ٨٧/١

(١) سيرة ابن هشام ٨٢/١

(٣) العرب والإمبراطورية العربية - بروكلمان ٢٧

التوحيد في الشعر

١ - أمية بن أبي الصلت :

وهذا شاعر جاهلي حفل ديوانه بتوحيد الله وتمجيدِهِ ، وبالكُونيات والبِعث والحساب إلخ ، قال فيه الأصمعي : « ذهب أمية في شعره بعامة ذكر الآخرة ، وذهب عنقرة بعامة ذكر الحرب ، وذهب عمر بن أبي ربيعة بعامة ذكر الشباب »^(١) .

وهو بحق أعظم شعراء الجاهلية استتمالا بالدين ، وأكثرهم قصائد دينية ، وقد تعرض لما لم يتعرض له غيره من دقائق وتفصيل ، حتى قال فيه ابن سلام : « وكان أمية كثير العجائب ، يذكر في شعره خلق السموات والأرض ، ويذكر الملائكة ، ويذكر من ذلك ما لم يذكره أحد من الشعراء ، وكان قد شام أهل الكتاب »^(٢) .

وقد أدرك أمية الإسلام ، وتوفي سنة ٥٩ هـ ، وقد قرأ الكتاب واتصل بالقدسيين ولبس المسوح ، وتنسك وحرم الخمر ونبت الأوثان^(٣) ، وما من شك في أنه سمع كثيرا من سور القرآن الكريم .

وقد أنشد النبي عليه الصلاة والسلام قول أمية :

الحمد لله مَسَانَا وَمُصَبِّحَنَا بِالْحَيْرِ صَبَّحْنَا رَبِّي وَمَسَانَا

فقال إن كاد أمية لَيُسْلِمَ^(٤) .

وفي ديوانه دالية عرض فيها قدرة الله في خلقه ونعمه على عباده ، وعدد بعض مظاهر قدرته ، من تربة مختلفة النوع وسحب ومطر ، ثم عرض لخرافة الهدد وأنه دفن أمه في قفاه . . . ثم ذكر أن السموات سبع ، وذكر العرش وذكر الشياطين وأنها تُرْمَى بالكواكب ، ثم وصف مواكب الملائكة وسامهم تلاميذ الله . . . إلخ^(٥) .

(١) الأغانى ١٢٥/٤ الدار (٢) مبعثات الشعراء ١٠٣ (٣) شعراء الضمرانية ٢١٩

(٤) الأغانى ١٢٩/٤ الدار (٥) ديوان أمية ٢٥ - ٢٩ .

ومن القصص الدينية التي ذكرها قصة نوح والطوفان :

بجزى الله الأجل المرء نوحاً
بما حملت مسفينته وأنجت
وفيها من أرومته عيال
وإذ هم لا لبوس لهم ، عراة
عشية أرسل الطوفان تجرى
على أمواج أخضر ذى حبيك
وأرسلت الحمامة بهسد سبع
تأس هل ترى في الأرض متناً
بفامت بعد ما ركضت بقطف
فلما فقسوا الآيات صاعوا
إذا ماتت توره بنهبها
بجزاء البر ليس له كذاب
غسدة أتاها الموت القلاب
لديه لا الظماء ولا السخاب
وإذ صخر السلام لهم رطاب
وفاض الماء ليس له جراب
كان سعار زانخره الهضاب
تدل على المهالك لا تهاب
به تيس أو اضطراب
عليه الشاطئ والطين الصخاب
لها طوقا كما عتد السخاب
وإن تقتل فليس لها استلاب^(١)

فهو هنا يتحدث عن الطوفان وسفينة نوح ونجاة ركبها ، ويستطرد إلى خرافة قديمة أن الحمامة هي التي دلت الركاب على اليابسة فكافئوها بطوق ملازم لعنقها .

وعرض أيضاً لقصة إبراهيم وإسماعيل ، وذكر فيها تفاصيل لم ترد في القرآن الكريم ، مثل :

فاقض ما نذرت لله واكفف
واشدد الصفد أن أجد عن الله
بيننا يخلع السراويل عنه
وقد خلق الله الكون لحكمة عظيمة يعلمها سبحانه :
عن دمي أن يمسه سراويلي
كزين حديد الأسير ذى الأغلال
فكفره بكيش جلال^(٢)

(١) ديوان أمية ٣ حبيك : طرائق الماء والوج . ناط : طين . كذاب : كثير . سخاب : فلاة . القلاب : الملك . السخاب : الجباع .
(٢) الديوان ٣٣ الصفد : الشد والربط . جلال : عظيم

لم يُخْلَقِ السَّمَاءُ وَالنَّبُوءُ وَالشَّمْسُ مَعَهَا قَرَّ يَقُومُ
قَدْرَهُ الْمَيْسَنُ الْقِيَوْمُ وَالْحَشُّ وَالْجَنَّةُ وَالنَّبِيمُ
إِلَّا لِأَسْرَ شَأْنُهُ عَظِيمٌ^(١)

وكل شيء هالك إلا وجهه :

فَكُلُّ مَحْمَرٍ لَا بَدَّ يَوْمًا وَذِي دُنْيَا يَصِيرُ إِلَى زَوَالٍ
وَيَفِي بِعَسَدِ جِسْمَتِهِ وَيَبْلِي سِوَى الْبَاقِي الْمَقْدَسِ ذِي الْجَلَالِ
وَتَعْرِضُ أُمِيَّةٌ لِلْبَعَثِ وَالْحَشْرِ وَالْحِسَابِ وَالْمِيزَانِ :

وَيَوْمَ مَوْعِدِهِمْ أَنْ يُحْشَرُوا زَمْرًا يَوْمَ التَّفَانِ إِذْ لَا يَنْفَعُ الْخَنْدَرُ
وَأَبْرِيؤَا بِصَمِيدٍ مَسْتَوْجِرِيْزٍ وَأَنْزَلَ الْعَرْشَ وَالْمِيزَانَ وَالزُّبْرَ^(٢)

ويطول بنا القول لو ذهبنا نستشهد بشعر أمية ، لأنه حافل بالسكونيات والتوحيد ،
وأرجح أنه تأثر بالقرآن الكريم في بعض شعره ، لأن الفكرة واحدة وبعض
التعابير مشتركة مثل قوله :

عَرَفْتُ أَنْ لَنْ يَفُوتَ اللَّهُ ذُو قَدَمٍ وَأَنْهُ مِنْ أَمِيرِ السُّوءِ يَنْتَقِمُ
الْمُسْبَحِ الْحُشْبِ فَوْقَ الْمَاءِ سَخَّرَهَا خَلَالَ جَرَّتِهَا كَأَنَّهَا عَوْمٌ^(٣)

وهو في البيت الثاني متأثر بقوله تعالى : « وسخر لكم الفلك لتجري في
البحر بأمره ، ،

ومثل قوله في سفينة نوح :

فَار تَوْرَهُ وَجَاشَ بِمَاءٍ طَمَّ فَوْقَ الْجِبَالِ حَتَّى عَلَاهَا
قِيلَ لِلْعَبْدِ سِرٌّ ، فَسَارَ وَبِاللَّهِ عَلَى الْهَوْلِ مَسِيرُهَا وَسُرَاهَا
قِيلَ فَاهْبِطْ فَقَدْ تَنَاهَتْ بِكَ الْفَلَكَ عَلَى رَأْسِ شَاهِقٍ مُرْسَاهَا^(٤)

(١) الديوان ٢٤ - ٢٥ الخص بفتح الحاء وضمها : البستان والنخل .

(٢) الديوان ٥٦ التفان : غيب أهل الجنة لأهل النار . جز : لا تثبت .

(٣) الديوان ٣١ عوم : جمع عومة : دوية (٤) الديوان ٣٧

فهنا من القرآن الكريم (فأر تنوره) و (سيرها وسراها) مأخوذة من قوله تعالى : باسم الله بحرها ومرسأها .

وفي شعر أمية تميم مسيحي ما زال حيا :

يُجِدُّوا الله وهو الجِدُّ أهل ربنا في السماء أمسى كبيرا^(١)

٢ - وكان عدى بن زيد نصرانيا ديانا ، وترجمانا وصاحب كتب ، وكان من دهاة أهل ذلك الدهر . قال عدى بن زيد يذكر شأن آدم ومعصيته وكيف أغواه الشيطان ، وكيف دخل في الحية ، وأن الحية كانت في صورة جمل فسخطها الله عقوبة لها حين طاولت عدوه على وليه :

قضى لستة أيام خلقتَه	وكان آخرها أن صور الرجل
دعاه آدم صوتا فاستجاب له	بنفخة الروح في الجسم الذي جبلا
تُمت أورثه الفردوس بعمرها	وزوجه صنعة من ضلعه جملا
لم ينهه ربه عن غير واحدة	من شهير طيب أن شم أو أكلا
فكانت الحية الرقشاء إذ خلقت	كما ترى ناقة في الخلق أو جملا
فصدا لاني عن أكلها نهيا	بأمر حواء لم تأخذ له الدغلا
كلامها خاط إذ بزأ ابوسهما	من ورق التين ثوبا لم يكن غزلا
فلاطها الله إذ أغوت خليفته	طول اللبالي ولم يجعل لها أجلا
تمشى على بطنها في الدهر ما عمرت	والتريب تأكله حزنا وان سهلا
فأتعبا أبوانا في حياتهما	وأوجدا الجرع والأوصاب والعللا
وأوتيا الملك والإنجيل نقرؤه	نشنى بحكمته أحلامنا عللا
من غير ما حاجة إلا ليجعلنا	فوق البرية أربابا كما فعلا ^(٢)

(١) الديوان ٤٣

(٢) الحيوان للجاحظ ١٩٧/٤ مطبعة هاروت

٣ - شعراء آخرون غير أمية وعدي :

ومشتر بعدة من شعراء الجاهلية ونقر في أشعارهم لتستنبط منها مذاهبهم الدينية، غير طاميين في أن يطلق أسمهم انطلاقاً أمية بن أبي الصلت ، فإن أمية شاعر ديني بمعنى الكلمة ، فهو في العصر الجاهلي كأبي النخعي مثلاً في العصر العباسي ، كل منهما في عصره لا نظير له في اتجاهه .

وحتى ليبد مع تميزه بنخبة دينية قبل إسلامه لم يبلغ شأواً أمية ، قال أبو عمرو ابن العلاء : ما أحد أحب إليّ شعراً من ليد ؛ لذكره الله عز وجل وإسلامه ولذكره الدين والخير .

وهذه بعض اتجاهات دينية مستقاة من شعرهم :

١ - أقسموا بالله :

أقسم عبيد بن الأبرص بالله المنعم الغفور :

حلفتُ بالله ، إن الله ذو نعمٍ لمن يشاء وذو عفوٍ وتصّافح
ما الطّرف مني إلى ما لستُ أملكه مما بدا لي بياغي اللحظ طامح^(١)
وأقسمُ النّابغة بالله الذي لا قسم أقوى من القسم به :

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريةً وليس وراء الله للره مذهب
وأقسم رب السكبية :

فلا ، لعمرُ الذي مسّحتُ كعبته وما هريق على الأصاب من جسد
ما قلتُ من مبيء مما أنيت به إذا فلا رفعت سوطي إلى يدي
وأقسم أوس بن حجر بالأصنام وبالله الأكبر :

باللات والعزى ومن دان دينها وبالله إن الله منهن أكبر
وحلف المهلهل رب البيت :

قتلوا كلياً ثم قالوا لا تئيبُ كلا ، ورب البيت والإحرام

وحلف ذو الإصبع المدواني بالله :

والله لو كرهتُ ككفي مصاحبي
لقلتُ إذ كرهتُ قُرْبِي لها بيني^(١)
وحلف بالله عامر المحاربي :

فما إن شهدنا خمركم إذ شربتم
على دهشٍ والله شربة أشأما^(٢)
وحلف به نُقِيمُ الشيباني :

إني وبيت الله لولا شديتي
لشمتا (المليد) في رجالم موصد^(٣)
ومن التسمم بالكعبة بيت الله قول راشد بن شهاب يخاطب قيس بن مسعود الشيباني :

فلا تحسبنا كالأعمور وجهنا
فمن بيت الله أدنى إلى عمرو^(٤)
وقول درهم بن يزيد في تهديده لمالك بن العجلان في خصومة بينهم ، لما قتل
رجل من بني عمرو بن عوف جاراً لمالك وأبوا أن يدفعوا الدية كاملة بحجة أن
الحليف له نصف الدية :

إني لعمرو الذي يسبح له الناس
س ومن دون بيته سرف
يمسح برأيه بالله مجتهد
يحلف إن كان ينفع الحلف
لا نرفع العبد فوق سنته
ما دام منا يطننها شرف^(٥)
وحلف زهير بالكعبة التي يطوف بها العرب :

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله
رجال بنوه من قريش وجرهم
يمينا لنهم السيدان ووجدتما
على كل حال من سحيل ومبرم^(٦)
ب - وأستندوا إليه سبحانه وتعالى الثواب والعقاب والمنع والنفع ،
والضرر . قال عبد يفيث يدعو الله أن يعاقب قومه وحلفاءهم لأنهم تخلوا عنه
في الحرب فأسر :

(١) الفضليات ١٦٣/١

(٢) القنائص ٢٣ للمليد : رجل ألقده نقيم يوم قشاة

(٣) الفضليات ١١٩/٢

ثم تقم من فدره الملبد .

(٤) شرح القوائد المعرف لثبيرزي

(٥) الأغانى ٢١/٣ الدار

(٦) الفضليات ١١٩/٢

جزى الله قومي بالكُلاب علامة صريتهم والأشعرين المواليا^(١)
وفي التصديده نفسها ينادي الناس مستحسراً على أنه قد حرم من سماع أناشيد الرعاة
التي تتجاوب وتتردد ، فيبصر عن تقاطعهم بأنهم عباد الله :

أحقاً عباد الله أن لست سامعاً نشيد الرعاة المزمين المتأليا^(٢)
والله سبحانه وتعالى هو الرافع والحافض ، قال مَقَّاسُ الدَّهَّانِيُّ يدعو الله أن يرفع
من قدر بني شيبان :

إِذَا وَضَعَ الْمُرَاهِمُ آلَ قَوْمٍ فَرَادَ اللَّهُ آلَكُمْ ارْتِفَاعاً^(٣)
ولما أجاز الأوس مَخْلَدُ بْنُ الصَّامِتِ السَّاعِدِي ، قال أبو قيس بن الأسلت :
أَجْرْتُ مَخْلَدًا وَدَفَعْتُ عَنْهُ وَعِنْدَ اللَّهِ صَالِحٌ مَا أَتَيْتَ^(٤)
وفي استعطاف عدى بن زيد العبادي للنهجان وقد حبسه قوله إن الله قد فضلكم
على المسيحين جميعاً :

أَجَلٌ نَعَمِي رَبِّهَا أَوْلَكُمْ وَدَنَوِي كَانَ مِنْكُمْ وَاصْطَبَارِي
أَجَلٌ إِنْ اللَّهُ قَدْ فَضَلَكُمْ فَوْقَ مَنْ أَحْكَمَا صُلْبًا بِإِزَارٍ^(٥)
والله هو المعين على الانتصار ، قال أبو قيس بن الأسلت (صفى بن عامر الوائلي
الأوسي) :

وأحرزنا المنانم واستبجنا رَحِي الأعداء والله المعين^(٦)
والله هو الذي يقبض الدنيا ويبسطها ، ويعلم السر والنجوى ويحازي ، قال
ذو الإصبع الندواني في شكواه من ابن عمه :

إِنَّ الَّذِي يَقْبِضُ الدُّنْيَا وَيَبْسُطُهَا إِنْ كَانَ أَعْيُنُكَ عَنِّي سَوْفَ يَغْنِيئِي
اللَّهُ يَعْطِيكَ وَاللَّهُ يَعْطِيئِي وَاللَّهُ يَجْزِيكُمْ عَنِّي وَيَجْزِيئِي

(١) الغضائيات ١٠٥/١ (٢) المرجع السابق ١٥٥/١

(٣) الغضائيات ١٠٥/٢ المرَاهِمُ : المروء .

(٤) البيان والتبيين ٢/٢٨٥ أحكاماً : عدد وعقد

(٥) البيان والتبيين ١٧/٣

لولا أرواحُ قُرْبِي لَسْتُ تَحْفَظُهَا وَرَهْبَةُ اللَّهِ فِي مَوْلَى يَهَادِيهِ
إِذَا بَرَيْتَكَ بَرِيًّا لَا انْجِبَارَ لَهُ إِنِّي رَأَيْتَكَ لَا تَمُتُكَ قَبْرِي فِي (١)

وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْوَاقِعُ مِنَ السَّمَاءِ ، قَالَ أَفَنُونَ التَّنْبُلِي :
لِعَمْرِكَ مَا يَدْرِي أَمْرٌ وَكَيْفَ يَتَّقِي إِذَا هُوَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ اللَّهُ وَأَقِي (٢)

وَهُوَ الْمَاخِ الْجَمَالُ ، قَالَ قَيْسُ بْنُ الْخَطِيمِ فِي غَزْوِهِ :
قَضَى لَهَا اللَّهُ حِينَ صَوَّرَهَا أَلَّا خَلَقَ إِلَّا بِكُنْهِنَا سَدَفٍ (٣)

وَهُوَ قَاسِمُ الْأَرْزَاقِ وَالْحَظُوظِ بَيْنَ النَّاسِ ، قَالَ لَيْدِي فِي مَعْلَقَتِهِ :
فَاقْتَحِبَّ بِمَا قَسَمَ الْمَلِيكَ فَأَنْعَمَا قَسَمَ الْخَلِائِقَ بَيْنَنَا عَلَّامَهَا (٤)

وَقَالَ عُبَيْدُ بْنُ الْأَبْرَصِ إِنَّ اللَّهَ عَمُو الْمُعْطَى الَّذِي لَا يَخِيبُ سَأَلَهُ :
مَنْ يَسْأَلُ النَّاسَ يَحْرَمُوهُ وَسَأَلُ اللَّهَ لَا يَخِيبُ (٥)

وَهُوَ الَّذِي يَبَارِكُ ، قَالَ عُبَيْدُ بْنُ أَبِي رَيْثٍ فِي مَدْحَةِ مَاءِ نَائِقَتِهِ :
بَارِكْ فِي مَائِهَا الْإِلَهِ فَمَا يَبِيضُ مِنْهُ كَمَا أَنَّهُ عَمَلٌ (٦)

وَهُوَ الَّذِي يُثَبِّتُ عَلَى الْمَعْرُوفِ ، قَالَتْ هِنْدُ بِنْتُ الْحُسَيْنِ فِي مَدْحَةِ الْقَلَسِ ، وَكَانَ
سَيِّدًا مِنْ سَادَاتِ كِنَانَةَ ، وَحَكِيمًا مِنْ حِكَمَاءِ الْعَرَبِ وَكَاهِنًا ، مِنْ كَهَانِهِمْ ، وَكَانَ يَفْسَأُ
الشُّهُورَ فَيَجْعَلُ حَرَامَهَا وَيَحْرَمُ حِلَّهَا :

إِذَا اللَّهُ جَازَى مَنْعَمَا بِوَفَائِهِ جَازَاكَ عَنِي يَا قَلَسٌ بِالْكَرَمِ
وَهُوَ الْمَاخِ لِلْقَبِيلَةِ مَكَاتِهَا وَسَمَاحَةَ أَخْلَاقِهَا ، قَالَ سُوَيْدُ بْنُ أَبِي كَاهِلٍ الْيَشْكُرِيُّ :

كُتِبَ الرَّحْمَنُ وَالْحَمْدُ لَهُ سَعَةً الْأَخْلَاقِ فِينَا وَالضَّلَعُ (٧)
وَاللَّعْشَى يَتُّ قَدْ يَكُونُ صَالِحًا لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ قَدْرِي :

(١) الأغانى ١٠٥/٣ ، الأمانى ٢٥٥/١

(٢) المفضليات ٦١/٢ (٣) الأغانى ٣٣/٣ الأدر

(٤) المعلقات المشرقة ٩٦ التنبلي

(٥) ديوان عبيد القصيد الأولى Lyall (٦) ديوان عبيد القصيد ٣

(٧) المفضليات ١٩٥/١

استأثر الله بالولاية وبالسيادة ل ولى الملائمة الرجسلا
 وسئل يحيى بن متى رابوية الأعشى - وكان نصرانياً عبادياً محمراً ، وكان يرى
 أن الأعشى قَدْرِيٌّ - : من أين أخذ الأعشى مذهبه ؟ قال : من المباديين نصارى
 الحيرة ، كان يأتهم يشتري منهم الخمر فلقتوه ذلك (١)

ح - وقصروا علم الغيب على الله سبحانه وتعالى ، وأقروا بأنهم لا يستطيعون
 أن يعرفوا ما وراء المشاهد المحسوس من تساريف القضاء .

قال زهير إن الله يعلم السر والنجوى :

ألا أبلغ الأحلاف عنى رسالة وذيان هل أنقسمت كل مقسم
 فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم ليخفى ومهما يُعصم الله يعلم (٢)
 وقال المرقش الأكبر إن الرمن أحداً تأشيتى ، وإن الله هو الذى يعلم الولود من
 العقيم ، فبذنه يكثر أولادها ، وعنده عقيم لا ولد لها :

ليس على طول الحياة ندم ومن وراء المرء ما يعلم
 يهلك والد ، ويختلف مولود ، وكل ذى أب يقم
 والوالدات يستفدن عنى ثم على المقدار من يعقم (٣)

وقال لبيد إن طرق الحصاد وزجر الطير لا يكشف عما فى علم الله :
 لمرك ما تدرى الطوارق بالحصا ولا زاجرات الطير ما الله فاعل

وقال طرفه إن الله كتب فى اللوح ما يلقي كل شخص :
 إذا ما أردت الأمر فامض لوجهه ونخل المويثا جانباً متناثياً
 ولا يمننك الطير بما أردته فقد خط فى الألواح ما كنت لاقياً (٤)
 والأعشى يدين بأن الله علام الحقائق وخفايا النفوس :

(١) الأغانى ٧٦/٨ - سبى

(٢) المقاتل السابع ٨٠ - الروزني

(٣) المقضييات ٣٩/٢

(٤) حاسة البخارى ٢٥٨

فإني وما كلفتموني بهوأسكم ويعلم ربي من أحق وأحر بابا
لكالكور والجني يضرب ظميره وماذنيه إن عافت الماء مشربا^(١)
وحاتم يقسم بالله يعلم السر ويحي العظام ، أنه كان يؤثر ضيوفه على نفسه :
أما والذي لا يعلم السر غيره ويحي العظام البيض وهي رميم
لقد كنت أختار القرى طاوى الحشا محافظة من أن يقال : لشم^(٢)
وهم بشر لا وسيلة لهم إلى استشفاف ما وراء حجب الغيب ، قال أحيحة
ابن الجلاح :

وما يدرى الفقير متى غناه وما يدرى الضئى متى يميل ؟
وما تدرى وإن ألقحت شولا أتلقح بصدك أم تحبيل ؟
وما تدرى إذا ذمرت سقبا لغيرك أم يكون لك التفصيل ؟
وما تدرى وإن جمعت أمرا بأى الأرض يدرك المقيل^(٣) ؟
وقال الخليل السعدي :

وتقول عاذتي وليس لها بقدر ولا ما بعده علم^(٤)
وقال :

وما أدرى إذا يمت أرضا أريد الخسير أيما يلين
أالخير الذى أنا ابتغيه أم الشر الذى هو يبتغينى^(٥)
وقد علق المثقب العبدى على إرادة الله ومشيئته فى قوله بصف ناقته :
وأيقنت - إن شاء الإله - بأنه سييلفنى أجلاؤها وقصيدها^(٦)
وكان طرفه بأن التضاء بيد الله ، قال فى معلقته يخاطب مالمسكا بن عامر :

(١) حاسة البحرى ٣٥٢

(٢) الحاسة ٣١٢/٢

(٣) جهرة أشعار الرب ٧٥٥ بابل : بغير . الشول : الناقة

المرى نطلب اللقاح . ذمر : جس ولد الناقة . السقب : ولد الناقة (٤) حاسة البحرى ١٤١

(٥) حاسة البحرى ١٨٦ (٦) المضايبات ١٤٩/١ . أجلادا : جسمها ، نصيدها : مخ

عظامها ، يريد أنها سئلته غايه مايجت فيها قوة

فلو شاء ربك فإني لن أطردك ولو شاء ربك لعذبناهم بآيات كثيرة إنهم لا يرجعون
فأصبحتُ ذا مالٍ كثيرٍ وزارني بنونٌ كرامٌ سادةٌ لمسود^(١)

و— والله سبحانه وتعالى هو الخي الباقى الذى يرث الأرض ومن عليها. قال الممزق العبدى داعياً إلى التهورين من شأن المال، لأن المال لا بد أن يرثه الله الباقى: هَوْنٌ عَلَيْكَ وَلَا تَوَلَّعْ بِاِشْتِنَاقٍ فَإِنَّمَا مَالُنَا لِلْوَارِثِ الْبَاقِ^(٢) وقال لييد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وحكك نعيم لا بحالة زائل
هو - وهم يؤمنون بيوم القيامة حيث تجزى كل نفس ما عملت، وقد ذكرنا طرفاً من عقيدتهم في أن الله تعالى هو المالك للسكون المتصرف فيه، ولكن صرح بعضهم بذكر يوم البعث كما صرح أمية بن أبى الصلت، قال علاف بن شهاب التميمى إن الله سيثيب عباده يوم الحساب على أعمالهم القلبية:

ولقد شهدت الحضم يوم رفاقة فأخذت منه خبطة المختال
وعلمت أن الله جازر عبده يوم الحساب بأحسن الأعمال^(٣) وقال لييد:

وكل امرئ يومئذ سيعلم سعيه إذا كُشِفَتْ عَنَدَ الْإِلَهِ الْحِصَالُ
ولإنهم بالبعث حلهم على الاستعداد له، ومن عدتهم هذا التخيل المعجيب الساذج: كانوا إذا مات الرجل شدوا ناقته إلى قبره وجعلوا رأسها إلى الوراء، وخطوه بوليبة (ردعة)، وتركوها حتى تموت أو تنفك، فإذا انفكت لم يردوها عن مام ولا مرعى، وبزعمهم أنهم إذا فعلوا ذلك حشرت مع الميت فيركبها في الميعاد^(٤)، فإن لم يفعلوا ذلك حشر حافياً.

(١) شرح الفوائد العشر للبرزى (٢) المغضيات ١٠٠/٢ (٣) بلوغ الأرب ٣٠٤/٣

(٤) سبع الأعمى ٤٠٤/٤ ومحاضرات الأدباء ٧٤/١

ويورد الألبسي معنى آخر يتأخر هذا في أنهم يتركون البلية في صغيرة لا تطعم ولا تشرب حتى تهلك، ويقول إنهم ربما أحرقوها بعد موتها، وربما سلخواها وعلسوا جلدها ثماما، وكانوا يزعمون أنه من مات ولم يُبَلَّ عليه حشر ماشياً، ومن كانت له بلية حشر راكباً عليها^(١). ويوافقه الفيروز آبادي فيعرفها بأنها الناقة يموت ربهما فقتل عند قبره حتى تموت، كانوا يقولون إن صاحبها يحشر عليها، ومن لم يفضل له ذلك حشر راجلاً، وهذا مذهب من يقول بالبعث من العرب وهم الأقل^(٢).

ويذكر صاعد الأندلسي أن الناقة كانت تنحرف على قبر المتوفى ليحشر راكباً لا ماشياً^(٣).

قال جريرة بن الأشيم الفقيسي^(٤) لابنه، طالباً أن يحبس ناقته على قبره ايركبها يوم الحشر:

يا سعد إما أهلكن^٥ فإني أو صيك، إن أعما الوصاة الأقرب
لا تتركن^٦ أباك يحشر راجلاً في الحشر يصرع للدين وينسكب
واحمل أباك على بعير صالح وتق الخطيئة إنه هو أقرب
ولعل لي بما تركت^٧ مطية في القبر أركبها إذا قيل: اركبوا^(٨)
وقال عمرو بن زيد يوصي ابنه أن يلو ناقته:

أبني زودني إذا فارقني في القبر راحلةً برجل قاتر
للبعث أركبها إذا قيل: اظعنوا متوثقين محساً حشر الحاشر
من لا يوافق^٩ على عثرته فاحللق بين مدفع أو عائر^(١٠)

وهذه عقيدة كانت مسيطرة على من يدينون بها، ولذا أكثروا من الوصاة بحبس

(١) بلوغ الأرب ٢/٣٤٠ (٢) القاموس المحيط مادة (بلى) وجمادته (٣) طبقات الأمم ٤٤

(٤) القاموس المحيط مادة (جرب)

(٥) الملل والنحل فحشر ستان على حاشي النصل لابن حزم ٣/٢٣٠ وطبقات الأمم لصاعد الأندلسي ٥٤

وذكر أن اسمه مغرية

(٦) المرجع السابق ٣/٢٣٠ ارجل القاتر: القطيف المتكمن من الظاهر.

البلية على قبورهم، واقترعوا بكثرة البلايا التي تركوها على قبور الأحياب، قال
عمر بن الخطاب:

أبني لا تنس البلية، إنها لأبيك يوم نشوره مركوب،
ونفر أعرابي بكثرة ما ترك على القبور من بلايا، يريد أنه غنى يمتلك النوق،
وأنه لا يبق عليها، وأنه حتى بأهله معني يبعثهم ركبانا يوم القيامة:

نجيبة قوم شادما الفت والنوى بسرب حتى نيا متظاهر
فقلت لها: سيرى فما بك علة منامك ملحوم ونابك فاطر
فتلك أو خيرا تركت ززية قلب عينا إذا مر طائر^(١)
وشبه أبو زيد الطائي بالبلايا رجلا أثر فيهم النزو فقال:

بدل النزو أوجه القوم سودا ولقد أبدوا وليست بسود
في ثياب عماد من رماح عند جوع يسمو سمو الكبود
كالبلايا رءوسها في الولايا مانحات السموم سفع الحدود^(٢)
و - وأما شعائر اليهودية والنصرانية فقد ترددت في شهر كثير منهم:
(١) على سبيل الخلف:

حلف عدى بن زيد بالله وبالصليب، قال يخاطب النعمان:
سنى الأعداء لا يألون شرا عليك ورب مسكة والصليب
وحلف الأعشى بمسوح الرهبان والكعبة:

حلفت بشوقى راهب الدير والى بناها قصى والمضاض بن جرهم^(٣)
(٢) على سبيل التشبيه والتصوير واستمداد المعاني:

وصف لبيد رجلا غلبه التعاس فشبهه باليهودى المصلى:

يلس الأحلاس في منزله يسديه كاليهودى المصلى

(١) البيان والتبيين ٣/ ١٨٥ الف: نبات جاف ترماه الإبل. الن: الضعم. فطر: ظاهر. ززية: بلية.
(٢) جبهة أشتار العرب ٢٩٠ وجهرة الأشمال لأبي هلال ١٩٢

أى يطلب الأكسية الرقاق التي توضع على ظهر البعير تحت الرجل ، ويتحسسها يديه وهو لا يحس بها من غلبة النوم .

وشبه أوس بن حجر منان روجه بمصباح يوقده رئيس النصارى يوم الفصح :

عليه كصباح العسرين يشبهه بفصح ويحشوه الذبالب المفتلا

وشبه عدى بن زيد زجاجة الخمر التي صبح بها ضيفانه بتدليل الكنيسة المجلو

المنير في عيد الفصح :

بكرُوا عليَّ بِسُحْرَةٍ فَصَبَّحَتْهُمُ يأناء ذى كرم كقعب الخالب

بزجاجة له اليدين ، كأنها فتدليل فصح في كنيسة راهب

وتصور امرؤ القيس وضادة وجه حبيته مصباح راهب :

أضىء الغلام بالعشاء مكانها منارة تسمى راهب متقبل

وشبه ضوء البرق بمصباح الرهبان التي أميلت فتألقها لأماريا بالزيت :

أصباح ترى برقاً أربك وميضه كأسع اليدين في جبي مكلل

يضىء سناه أو مصابيح راهب أمال السليط بالذبالب المفتل^(١)

وقد وصف مزرد بن ضرار الندياني البيضة والخلق المتصل بها الذي يطرح على

الظهر لستر العنق ، فقال إن بيضته يمنية سلسلة منسأة لينة تزلق الحجارة عنها ، وشبه

لعانها في شعاع الشمس بمصابيح الرهبان تلعب :

وتسبح في تركة حميرية دلأمصه ترفض عنها الجنادل

كأن شعاع الشمس في حجراتها مصابيح رهبان زهنا التنادل^(٢)

وشبهوا بتواقيس الكنائس ، قال المرقش الأكبر إن أصوات البوم في هدأة

الليل تشبه قرع النواقيس :

(١) داويان امرئ القيس

(٢) المفصليات ١/٩٦ . تسبحه : زرد مشتبه الحافات متصل بالبيضة بطرح على الظهر لستر العنق .

تركة : بيضة مستديرة . دلأمصه : سلاله لينة . حجرات : جوانب

وتسمع ترقاةً من اليوم حولنا كما ضربت بيد المهدوء التراقيس (١)
ويقول جواس بن القليل إن الشعري تاللاً كالتناديل في الكنائس :

وأعرضت للشعري العبور كأنها معاني قنديل غلته الكنائس (٢)
وهم شبهوا اللسان بدمى الكنائس ، قال عدي بن زيد العبادي :

كدمي الماج في الحاريب أو كالد يمين في الروض زهره مستنير (٣)
وشبهوا بالصلبان ، قال بشر بن أبي خازم :

لله در بني سدهاء من نهر وكل جار على جيرانه كلب
إذا عدوا وعصى الطلح أرجلهم كما تنصب وسط البية الصلب (٤)
أي أنهم عرج ، ولذا تشبه أرجلهم عصى الطلح ، وهي دائماً معوجة .

(٣) الكواكب

وكان منهم عباد الشمس يسجدون لها إذا أشرقت وإذا توسطت السماء وإذا غربت ، ولذا نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة في هذه الأوقات . وقد عبادتها حمود ، ثم عبادتها تميم ، يقول بروكلمان عن سبجاح : « حتى إذا جاءها نبأ وفاة النبي سارت مع عدد كبير من أتباعها إلى أنسابها من قبيلة تميم ، الذين كانوا يحكم بدأوتهم الخالصة على مستوى ثقياني أدنى من مستوى غيرهم من العرب ، فهم يؤطون الشمس على الخصوص » (٥) .

وعبادها أيضا عرب من حير قبل أن يشهدوا ، ومنهم بلقيس : « وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله » .

وبعض قبائل من كنانة عبادت القمر ، وعبادت تميم الدبران ، وعبادت لحم

(١) المفضليات ٢٥/٧ (٢) المؤلف والمختلف ٧٤ (٣) البيان والتبيين ١/٤٤
(٤) البيان والتبيين ٣/٥٢ (٥) العرب والإمبراطورية العربية ٢٧

بجذام المشتري ، وعبدت طيبي سبيلا ، وعبدت قيس الشمري السبور ، وعبدت
أسد عطاردا^(١) .

يرمن عباد الكواكب الصابئة ، وهم يستعدون في الأنواء اعتقاد المتجمين في
السيارات ، فلا يتحركون ولا يسكنون ولا يسافرون ولا يقيمون إلا بنوء منها .

ومن آثار عبادتهم الكواكب أنهم سموا بأسماء مضافة إليها بالعبودية ، كعبدشمس
وعبد المشتري وعبد الشارق .

وسموا الشمس إلهة ، قال الشاعر :

تَرَوْحَنَا مِنْ الْعِبَادِ عَصْرًا وَأَعْبَلْنَا الْإِلَهَةَ أَنْ تَتُوبَا^(٢)

وكان النلام إذا سقطت منه فذف بها إلى الشمس قائلا : « أبدأيني بها سنا أسمن
منها ، ولنخبر في ظلها أياتك ، أو إياؤك ، والكلمتان معناهما شعاع الشمس ، وزعموا
أنه إذا فعل ذلك أمن على أمنائه العوج ، وما زال الصنار يقبلون ذلك إلى الآن
غير متأثرين بعبادة الشمس . وفي هذا البريق الذي تجريه الشمس في الأسنان يقول
طرفة وأصفها بخر محبوبته : إن أمناتها براقه سقاها شعاع الشمس ، وهي أسنان
صحيحة غير مثلية ، لأنها لم تضغط على شيء يثقلها ، ولثها وشفتها فيهما محورة ، كأنها
ذر عليها كحل ، والسرب يستملحون حورة الشفة واللثة :

سقته أياً الشمس إلا لثاته أسف - ولم تكدم عليه - يا أيمن^(٣)

وقال شاعر آخر :

وأشرب واضع عذب الثنايا كأن رضابه صفى المدام

كسته الشمس لونا من سناها فلاح كأنه برق النمام

وقال طرفة في الأسنان :

(١) طبقات الأمم لصاعد الأندلسي ٤٣

(٢) تروحنا : رجعت . العباد : اسم مكان . أعبلنا : سبنا

(٣) ديوان طرفة ٢٢

بدلت الشمس عن وجهه برداً أبيض، مصقولاً الأشر^(١)
وقال آخر :

بذى أشرٍ تذهب المفاقر تفردت به الشمس حتى عاد أبيض نامدا

(٤) النار

وعبد بعضهم النار ، ولعل هذه العقيدة سرت إليهم من الفرس المجوس .
وعباد النار يفضونها على التراب ، ويصوبون رأى إبليس في استكباره أن يسجد
لآدم ، ورؤى أن بشار بن برد كان على هذا الذهب لقوله :
الأرض ساذجة من داء مظلمة والنار مبهودة مذ كانت النار
وربما كان مذهب إعراف الموقى بالنار إلى الآن اشتداداً للمذهب القديم الذي
كان يتقرب إلى النار بالنفس والبولد .
وقد تمت عباد النار في هذه المظاهر :

١ - حلفوا بها فكانت لهم نار باليمن لها سدة ، فإذا تفاقم أمر بين قوم حلفوا
بها انقطع ما بينهم من تعاد ، وسموها الحولة والمهولة ، وكان سادتها إذا أتى برجل
هيه من الحلف بها ، ولها قيم بطرح فيها الملح والكبريت ، فإذا وقع فيها استشاطت
وتفضت ، فيقول له : هذه النار قد تهدتلك . فإن كان مذنباً نكل ، وإن كان بريئاً
حلف^(٢) وقال الطبري : « وكان باليمن فيما زعم أهل اليمن نار تحكم بينهم فيما يختلفون
فيه ، تأكل الظالم ولا تضر المظلوم »^(٣) .

قال أوس بن حجر :

إذا استقبلته الشمس صد بوجهه كما صد عن نار المهول حالف^(٤)

(١) ديوان طرفة ٦٥

(٢) أبيات المنان (٢) تاريخ الطبري ١٦/٢ (٣) البيوان ١٦ والبيان والتبيين ١/٣

وقال الأول :

حطفت بالملح والرماد وبالك
حتى يظل الجوارح منتظراً
سار ربانك تسلم الحاققة
وتغضب النبي عمرة الوردية^(١)
وقال آخر :

حطفت لهم بالملح واشمع شهيد
وقال أفزون النبي .
وبالنار وثلاث التي هي أعظم^(٢)

لو أنني كنت من عاد ومن إرم
لما قدوا بأحبيهم من مهولة
ربيت فيهم ولقبان ومن جدن
أخا السكون ولا يباروا عنى السنن^(٣)
وقد أشار إليها السكيت في العصر الأموي :

كهولة ما أوقد المخطفون
لدى الخائفين وما مؤلوا^(٤)
وقال :

هم خوفونا بالعسى موهة الردى كما شب نار الخائفين الموهول
- ونحالفوا على النار كما تحالفوا على غيرها بما أمينا في الحياة الاجتماعية
(الخلف والجوارح) يذكرون عند مخالفة منافع النار ويدعون إلى الله عز وجل
بالحرمان والمنع من هذه المنافع على الذي ينقض عهد الخلف ويتخيس بالهدم ، ويقولون
في الخلف : الدم الدم ، الهدم الهدم . ز أي ما هدم لسكم من بناء أو شأن فقد هدم
لنا ، وما أريق لسكم من دم فقد أريق لنا) لا يزيده طلوع الشمس إلا شداً ، وطول
الليالي إلا مداً ، وما بل البحر صوفة ، وما أقام رضوى في مكانه - إن كان جبلهم

(١) البيان والتبيين ٦/٣ وفي الأغانى ١٣٩/٢٠ أن الشعر للأعشى :

حطفت بالملح والرماد وبالك - سارى وثلاث تسلم الحاققة
حتى يظل المهام منجد لا ويقرع التبسل طرفة الدرة

(٢) للرجيم السابق ٧/٣

(٣) للضبيات ٦٢/٢ أخا السكون أسير من قبيلة السكون الخبية كان عند قوم أفزون

(٤) البيان والتبيين ٦/٣

رضوى .. وظل قوم يذكرون جيلهم أو المشهور من جيلهم ، وربما ذنوا منها حتى تكاد تحرقهم^(١)

وربما سرى ذلك إليهم من الجوسية الفارسية القائمة على عبادة النار . وابن عبد ربّه يفسر قول الأعشى في مدح الحلق :

رضيى لبان ندى أم تصالفا بأسمع داح عوَض لا تفرق
بأنهما تصالفا على الرماد كما يفعل الفرس . وإذا كان التصالفا على الرماد من تأثير
الفرس ، فالتصالفا على النار نفسها أحق بأن يكون من تأثيرهم ، على أنى أفصل
تفسير الأسمع بدم الخلف كما نص القاموس واللسان .
ح .. واستمطروا بها :

كانوا إذا أكدت السماء فأجدوا استمطروا يربط السَّلْع والبُشْر بأذئاب البقر
وأضرموا فيها النار .

ويذكر الجاحظ أنهم كانوا يجمعون ما يتقدرون عليه من البقر ، ثم يعتقدون
في أذناها وبين عراقيها السَّلْع والبُشْر ، ثم يصعدون بها في جبل وعر ويشعلون فيها
النيران ويضعون بالدعاء والتضرع ، ويرون أن ذلك من أسباب السقيا^(٢)
ويتأبها الألوسى فيذكر أنهم كانوا يدعون الله ويستسقونه^(٣)

ولكن لا علاقة بين إحراق البقر على هذه الصورة وبين دعائهم الله تعالى ، فهل
لهذا الصلح علاقة بعبادة النار ؟ ما أظن هذا ، إذ لو أن لها صلة لاشتملوا نارا
ودعوا حولها مثلا .

وعلى بعضهم لذلك بأن الهدد تعبد البقر ولها عندهم حرمة ، ولهم بها تبرك فربما
حذا العرب حذوهم^(٤) ، ولكنى لا أرى ذلك صحيحاً ، لأن بعض الهنود يعبدون
البقر ويمرصون على سلامتها ، وشتان بين هذا وإحراق العرب لها في استمطارهم .

(١) الحيوان للجاحظ ١٥٠/٤ وأيمان العرب للنجيرى السكاكب مطبوع

(٢) الحيوان ١٥٠/٤ (٣) بلوغ الأرب ٣٣٣/٢

(٤) بلوغ الأرب ٣٣٤/٢

والذي أراه أنهم كانوا يتفألون بالنار طلبا للبرق ، أو أنهم كانوا يحاكون عبادة
قديمة تقرب الأبقار قربانا للآلهة .

وقد سجل أمية بن أبي أسلم هذه الحرافة في شعره :

ترى الميضاه فيها صريرا	سنة أذمة تخيل بالناس
قبل لا يأكلون شيئا فطيرا	إذ يسقون بالمدقوق وكانوا
مهازيل خشبة أن يسورا	ويسوقون بأقر السهل للطود
عمدا كما تهبج البحورا	عاقدين النيران في شكر الأذئاب
ثم هاجت إلى صبير صيرا	فاشموت كلها فهاج عليهم
وأسمى جنابهم مطسورا	فأرأها الإله قرشم بالقطر
منه إذا وادعوه الكيبرا	فماها نشاطه واكف الثبت
عائل ما وعالت البيقورا ^(١)	تلع ماوشله عشر ما

وسخر أعراي آخر هذا العمل ، وذكر أن المطر بيد الله ينزله متى شاء :
شبهنا بيقور إلى هائل الحيا
فصدنا إلى رب الحيا فأجارنا
وقال آخر :

لاكسونا الأرض أذئاب البقر بالسلع المعقود فيها والعشر
وعجب الوردل الطائي من الذين يستمطرون بهذه الأبقار المحروقة ، ويحملونها
وسيلة بينهم وبين الله تعالى :

يستمطرون لدى الأزمات بالعشر	لأدر دُر رجال خاب معهم
ذريعة لك بين الله والمطر؟ ^(٢)	أجعل أنت يبقورا مسلعة

(١) ديوان أمية ٤٥ Fridrick Schulthets والميوان ١٥٠/٤ تخيل بالناس : تفرعهم . الغضاه :
جمع عضاه أعظم الشجر أو الحمض أو كل ذات شوكة . بالر ويقور : البرق . شكر الأذئاب : جمع شكير
الشعر في الليل . الصبير : الحياطة البيضاء أو الكشافة . منه : بالغ الغاية . هائل : عظيم أو كاف وقائم .
عالم : أقل ، ويروي عال بمعنى أمك

والتبوية طائفة من الزنادقة ، قال ابن قتيبة^(١) إنهم أخذوا الزنادقة من الخيرة وهم
المتقدمون بالتبوية ، أو الثنائون بإله النور . وإله الظلام ، وهما إلهما الخير والشر ،
وكانت هذه العقيدة في تميم ، ومنهم زرارة بن عدس وابنه حاجب ، وقد تزوج حاجب
بنته كما قيل ثم ندم ، ومنهم الأقرع بن حابس الذي أسلم وحسن إسلامه .

(٥) الملائكة والجسور

وقد قال من العرب عبدوا الملائكة والجن ، وقد حكى القرآن الكريم حالهم : « ويوم
نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة : أمثؤا إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك ،
أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون . » وهم الذين
عجبوا أن يكون الرسول بشر أمثلهم وأرادوا أن يكون ملكا ، قال تعالى : « وما منع
الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا : أبعت الله بشرا رسولا ؟ »
قال أمية بن أبي الصلت يتبرأ من عبادة الجن :
حنانك إن الجن كانت رجاءهم وأنت إلهي ربنا ورجائنا^(٢)

(٦) الشجر

وقد عبد بعضهم الشجر كما عبدوا الصم ، وهم في هذا وذاك يعتقدون أن قوة
إلهية حلت في المعبود ، كما اعتقد قدماء المصريين في العجل أيس . فكان الإله
عشتر يعبد في الأصل لا بوصفه إله الزهرة بل بوصفه إله أرضيا ، إله سقى البخل
وجنى الثمار والخصب والتناجج ، وهذا ظاهر مما ورد في النقوش المصنية من ألقاب
ونعوت ، كان يوصف بها فمن ذلك أنه كان يدعى واهب الماء وجاني الثمار وجامع الخصب ،
فهو من أقدم الآلهة التي عبدت في جزيرة العرب ، وقد انتقلت عبادته إلى جميع أنحاء
العالم الصامي ،^(٣)

(١) المعارف (٢) ديوان أمية ٣٨

(٢) النظم السياسية والاجتماعية ١٢٥ - ١٢٦

بسمه الإله عشر في صورة مؤنث، بل أنه إله لا إله، فكانت عشر إلهة الحصب
والساج مائة في النخل، والله، وقد ورجت بهذا الإله في التقوس الحصبية، وكانت تكبر
في البابلية متبعية المنفرة والنبات، وقد قرئت بمبادة النخل والأشجار عند الساميين
بند عدم الزمان، حتى كانوا يظنون أنها على كل صنم من صنوع من حصب، كما ورد
من آراء في التوراة. وكانت تمثل عادة يجمع شجرة فصلت عن الأخصان، وكان
الساميون يعتقدون أن هذه الإلهة وما شاكلها تكبر جذع الأشجار، وأن أرواحها
قادرة على البطش والانتقام وقد مثل هذا الاعتقاد إلى ظهور الإسلام^(١)

وقد سميت في شمالي الجزيرة بأسماء أخرى، منها المرّي، وقد اعتقدوا أن المرّي
شيطان، وأن ثلاث سموات يطن نخلة، فلما اقتنع النبي صلى الله عليه وسلم مكة بمت
خالده بن الوليد فقال له: إيت بطن نخلة، فإنك تجد ثلاث سموات، فاعضد الأولى،
فأنا ما فعضدها، فلما جاء إليه قال: هل رأيت شيئا؟ قال لا. قال: فاعضد الثانية،
فأنا ما فعضدها، ثم أتى النبي عليه الصلاة والسلام فقال: هل رأيت شيئا؟ قال لا.
قال: فاعضد الثالثة، فأنا ما، فإذا هو ببشيرة نافضة شمرها واضمة يديها على عاتقها،
فصرف بأنيابها، وخلفها دية بن حريمي الشيباني - وكان سادتها - فلما نظر إلى
خالده قال:

أَعْرَأُ شَدَى شَمْدَةَ لَا تَسْكُنُهُ، عَلَى خَالِدٍ أَلْفِي الْحِمَارِ وَشَمْرِي
فَأَنْتَ إِلَّا تَقْتَسِلِي الْيَوْمَ خَالِدًا تَبَوُّي بَدَل عَاجِلًا وَتَنْصُرِي

فقال خالد: يا عز كفرانك لا سمعانك، إن رأيت الله قد أهانك ثم ضربها
ففارق رأسها فإذا هي حُمَّة، ثم عضد الشجرة وقتل دية السادن، ثم أتى النبي صلى الله
عليه وسلم فأخبره، فقال: «تلك المرّي، ولا عزى بعدها للمرب، أما إنها لن تعبد
بعد اليوم»^(٢)

(١) النظم السياسية والاجتماعية ١٣٣ - ١٣٥

(٢) الأصنام ٢٥ - ٢٦

ولست أورد هذه التفهنة موقفاً بتفاصيلها : وإنما أذكرها لبيان الأثر الذي كان للمري في نفوس السرب .

وفي وثاء ذبّية يقول أبو خراش المنذلي .

ما لذيبة عند اليسوم لم آره وسط الشروب ولم يُلِيمْ ولم يَطْفِئِ
لو كان حيا لفاداهم بمترعة من الروايق من شيزي بنى القناب
ضمخ الرماد ، عظيم القدر جفنته حين الشتاء كحوض المنهل اللقّب
أسمى سقام خلاه لا آتيس به إلا السباع وسر الرّيح بالقرّف (١)

ولم تسكن هذه السمرات إلا من الطلح الشائك ، لا يظن ولا يشمر ولا ترعاه الإبل إلا إذا عصها الجوع ، لأنها تسقم منه ، ولكن سلطانها ظل إلى ما بعد الإسلام ، يدل على ذلك قول المعري في رسالة النفران : وذات أنواط شجرة كانوا يعظمونها في الجاهلية . وقد روى أن بعض الناس قال : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط .

وقد ذكرها المعري في شعره للدلالة على أثر الحظ في الحياة :

والجُدُّ يدرك أفواجا فيرقمهم . وقد يُنال إلى أن يُعبد الحجر

وشرفت ذات أنواط قبائلها ولم تباين على علائها الشجر
وقال ابن الأثير في سبب تسميتها : إنها سميت بذلك لأن المشركين كانوا ينوطون بها سلاحهم ويكفون حولها .

وكان أهل نجران قبل اعتناقهم المسيحية .. يعبدون نخلة طويلة طامعيد في كل سنة ، فإذا كان العيد علقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه ، وحلى النساء ، ثم خرجوا إليها فكفوا عليها يوما (٢)

(١) الأسماء ٢٤ الشروب : القوم بشريون . الشيزي : الأبنوس أو خشب الجوز . بنو الحظف : من كنانة أو من أسد وهم أول من تحت الحفان . اللقّب : الحوض الذي لم يحكم بناؤه فتهور من أسفله أو يحفر وهو مملوء فيجمل عليه الماء فيجفده . القرّف : ورق الشجر أو الثمام أو مادام أخضر

(٢) سيرة ابن هشام ٣٢/١

ولم ينزرد السرب بعبادة الشجر ، فقد كان الإسرائيليون يتقدمون أن الشجر
يتعلق ويتكلم ، ويفعل ما يفعله الإنسان ،^(١)

(٧) الدهريون

وكان منهم دهريون ، حكى الله تعالى عقيدتهم بقوله : ما هي إلا حياتنا الدنيا
نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، فهم ينكرون الخالق والبعث والجزاء ويرون
أن السما لا ينزرب ولا بيد ولا كان مخلوقاً مبدعاً^(٢)
قال تاملهم :

منع البقاء تفلُّ الشمس وطلوعها من حيث لا تسي
وظلوعها حمراء صافية وغروبها صفراء كالورس
تجربى على صكبد السماء كما يجربى حمام الموت فى النفس
اليوم أعلم ما يجيى به ومضى بفصل قضائه أمس^(٣)

وقال شداد بن الأسود بن عبد شمس برئى كفار قريش يوم بدر :

يحدثنا الرسول بأن سنحيا وكيف حياة أصداء وهام ؟

والصدى الطائر الذى يطير بالليل ، والحامة جمجمة الرأس ، وهى التى يخرج منها
الصدى بزعمهم ، وزعموا أن روح القتيل الذى لا يدرك بئاره نصير هامة فتزقو وتقول
اسقوفى ، وإذا أدرك بئاره طارت فذهبت .
وقد عبد الأسديون الخليل بالبحرين^(٤)

وعبدت طيء الجمل الأسود ، فقد وفد زيد الخثير (الخليل) بن مهلهل على رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، وسعه عدة من طيء ، فلما رأهم قال لهم : إني خير لكم من
من الهزرى ومن الجمل الأسود الذى تعبدونه من دون الله عز وجل^(٥)

(١) سفر القضاة إسحاح ٩ آية ٨ عن النظم الساسية والاجتماعية

(٢) طبقات الأمم لمساعد الأندلسى ٤٤ (٣) بلزغ الأرب ٣٤٢/٢

(٤) فتوح البلدان للبلاذرى ٨٥ (٥) الأغاني ٤٧/١٦

الباب الخامس

العبادات والمعتمدين

من البيعة

لشعوب أوهمام وخرافات تجافي التفكير والعلم ولسكنها بنوع لطماً نينة مستقيها
وسمادتهم ، وإذا كان العلم قد كشف نوره عن زيف الخرافات العامة ، فإنه لا شيء
يستطيع أن يعيد لنا تلك الأوهام التي فرت أمام نوره ،^(١) . ولا غنى لشعب عن
الأوهام لأنها بنات الغرائز^(٢)

وقد سيطرت الأوهام على الناس قروناً على ماها من مخالفة قواعد المنطق الأولى،
حتى أن المثقفين والممتازين برجاحة العقل رسفوا في قيودها التي عام وكان أختاب
المعقول النيرة كثيرين في القرون الوسطى و زمن النهضة ولكن لم يهد أحدهم إلى ما في
أوهامه من الشطط^(٣) ، وهذه الأسم الأوربية قد دانت لأقاصيص واعتمدت أنها
حق لا شك فيه نحو خمسة عشر قرناً كأقاصيص مولوخ . وهكذا بقي العالم قروناً
وهو لا يفقه تلك الخرافة الرائجة القائلة بأن إلهاً أذاق ابنه عذاب الهون انتقاماً من
عصاه من خلقه^(٤)

وإنما تشيع الأوهام في الشعوب لأن الناس يتشابهون فيها يرجع إلى اللاشعور
والغرائز وإن اختلفت طبيعتهم ، فهم يتشابهون في الوجدان والشهوات والمشاعر .
وإذا كانت الفلسفة قد سارت إلى الأمام شوطاً بعيداً فإنها مع تقدمها لم تهيم للجماعات
شيئاً لا يلد لها ، والجماعات لا غنى لها عن الأوهام .

وفي الجماعات نزعات ، تتيح للخرافات والأوهام أن تذيب ، ذلك بأن الجماعة سريعة
التصديق والاعتقاد ، وأخصص للتخيلات من الأفراد ، وكثيراً ما تخطيء الجماعة في

(١) روح الاجتماع . جوستاف لوبون ١٥ (٢) روح الاجتماع . ١٤٥

(٣) روح الاجتماع ١٤٤

(٤) روح الاجتماع ١٨٨ . مولوخ : إله عبدة السكندانيون وأهل قرطاجة وكانوا يحرقون أطفالهم
قرباناً له ويصدقون أنه يمد ذراعيه دائماً ليتلفها .

تفكيرها وتعلقها بقياسها ، وهذه أمور سهلت على الأوهام العربية الجاهلية أن تنتشر . فاهو إلا أن ينتقل الوهم أو الخرافة من رجل إلى آخر ومن امرأة إلى أخرى حتى يعم تصديقه بتأثير العدوى . وكان تكرير الشعراء لهذه المستقدات ناشراً لها ومؤكداً ، حتى ظلت قرراً ذات سلطان على النفوس ، بل ظل بعضها قوى الأثر إلى اليوم . وسماعنا في هذا الفصل صلة للشعر الجاهلي ببعض العادات كالخمر والميسر ، ثم بكثير من المستقدات المؤسسة على وهم وخرافة ؛ لنرى أنه سجل صالح لتصوير هذا اللون من ألوان الحياة .

ولست أشك في أن بعض ما أوردته في الباب السابق ككبس البلايا والقرايين للأصنام مردّه إلى الوهم والخرافة ، ولكني جماعته من الحياة الدينية لأنه وثيق الصلة بالدين ومنبعث عنه ، فهو نوع من العبادة ، أما هذا الباب فيدر على المعتقد الخرافي والعادة .

(١) الخمر

لماذا أولعوا بها ؟ مظاهر ولعهم بها . مجالسها . أثرها . المحرمون لها

١ - لماذا أولعوا بها ؟

١ - أعزب بها العرب متحضرين ومتبدلين ، ففربوها ، واقتخر الشعراء بمعاقرتها وبذل الأموال في سبيلها .

أولعوا بها ليزجوا فراغهم الطويل المل ، ولتزيدهم حمية وحماسة في الحرب فإنهم كانوا يشربون الخمر لتزيدهم جرأة وشجاعة^(١) وحتى بعض المسلمين قد اصطبغوا بالخمر يوم بدر لتزيد حماسهم اشتعالاً^(٢) ، وقد كان الفرس يحتمسون الخمر قبل أن يخوضوا المعارك . ثم إنها تولد خيالات سارة وتبعث في القلب جرأة .

يقول حسان بن ثابت في جاهليت :

ونشرها ففترصتنا ماوكا وأسدنا ما ينهيننا اللقاء
ورأوا أنها باعثة على الكرم ، يقول عمرو بن كلوم :

ألا هي بصنعك فاصبينا ولا تبقي نخور الأندرينا
مششمة كأن الحس فيها إذا ما الماد خالطها صبغينا
تجور بذي اللبابة عن هواه إذا ما ذاقها حتى يليننا
نرى الدهر الشمعج إذا أمرت عليه لساله فيها مهيننا^(١)

٢ - ثم استهانوا بالحياة لسكثرة حروبهم ، وتوقعهم الفجعة في أنفسهم وأحبائهم
فانسكبوا على لذات الحياة يمارون سها وينهون ، وهذه خلة ما زالت إلى الحرب القرينية ،
وكانت في كل حرب حتى قالوا إن أنهار الدماء وأنهار الخمر كانت تجري في الثورة الفرنسية .
ثم هم بين غالب ومغلوب : غالب سبي وغنم وظفر ، فيسب الخمر بهجة ونشوة
وعجلة الزهو المضاعف ، ومغلوب كسر ، وسلب ماله ، وأسرت ذماؤه ورجاله ووقع
في أحبائه ، فأظلمت حياته ، وضاق بالدنيا وضافت به ، فيأخذ بالخمر يتناسى بها همه
ملاوة من الزمن .

قال أبو حفص القويهي إنه قد هجر النبيذ مذ اقتنى المعزى ، وشرب لبنين
المذيق ، فوجه يوجه بطنه ، ووجد النبيذ كان صديقه ، لأنه يحقق له في الخيال
ما يشتهي ، ويسل الأحران من النفس في رفق :

قد هجرن النبيذ مذ هن عندي وتمزّت رساهن مذبقا
فوجدت المذيق يوجه بطني ووجدت النبيذ كان صديقا
يسدّ النفس بالمشي منهاها . ويسلّ الهموم سلا رقيقا^(٢)

(١) شرح الصائغ المعسر التبريزي ٢١٨ . أشدرين : قرية بالنام قريبة من حلب . مششمة : رقيقة
من الصبر أو اللوز . الحس : الورس . صبغينا : إنما حال من الماء ولما قل بمعنى كرمنا . اللعز : البخل اللعيب
(٢) البيان والتبيين ٣/٤٠٦ تمزّت : تمصت . مذيق : ابن مزوج بلقاء .

وقال المنخل البشكري :

فإذا انقضيت فإني رب الخورق والسدير
وإذا صحسوت فإني رب الشؤمة والبير^(١)

٣ - وهم يرون الموت يتخرم الأعمار ، ويختطف الأحباب ، ويذرى الآمال ،
فليس متمرا في حياتهم القصيرة بما يمكن قبل أن يتخوهم التراب ، وقد عبر طرفه
إن السيد عن هذه الزئجة خير تيسير :

وما زال تشرابي الخور ولذني
إلى أن نعامتي العنيرة كلها
رأيت بنى غبراء لا يسكرونني
ألا أيها الزاجري أحضر الوضي
فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي
ولولا ثلاث من عيشة الفتى
فنهن سبق العاذلات بشربة
ويبي وإفناق حريق ومُتلدي
وأفردت أفراد البصير المهدي
ولا أهل هناك الطرف الممدد
وأن أشهد اللذات هل أنت مُتلدي؟
فدعني أبادرها بما ملكت يدي
.. وجهدك - لم أحقل متى قام عودي
كفيت متى ما تعل بالماء تزيد^(٢)

وذكر الحافظ أبيتا لشاعر قديم تمثل الاتجاه نفسه ، اتجاها إلى الشيع من لذات
الحياة والخمر قبل أن يدركه الموت :

قومي اصبحيني فما صيغ الفتى حمرا
قومي اصبحيني فان الدم ذو غير
اليوم خمر ، ويبدو في غد خبر
فاشرب على حدّان الدهر مرتفعا
لسكن رهينة احبجار وأرماس
أفنى لقيما وأفنى آل هرماس
والدهر من يوم إنعام وإياس
لا يصحب اللحم قرع السن بالكاس^(٣)
ويرى مسجيم بن وثيل الرياحي أن الخمر هي الثناء والتمنار ، وأن المال لا يكفل

(١) مجمع الشعراء ٣٨٧ والخمسة ١/٢١١ (٢) اللغات العبر . التنبطى ٧٤

(٣) البيان والتبيين ١/١٦٤ هرماس : نهر نصيبين . أرماس : فيور

أه الخلود فابتغى فيها ، ولولا الخمر ما حرص على الحياة وما نالم من أن يضمه لحد ،
لأن الخمر هي الحياة واللهم والمتعة ، وليست زوجة ولا ماله ولا أولاده تمتد :

تقول حذراء ليس فيك سوى أختي سر محاببي بعيني أحد
فقلت أخطأت ، بل معاقرت الخمر سر وبذلي فيها الذي أجد
هو الثناء الذي سمعت به لا سيد مخدني ولا لبد
ويحك لولا الخمر لم أحفل باليد شئ ولا أنت يضمني لحد
هي الحياة والحياة واللهم ، لا أنت ولا ثروة ولا ولد (١)

٤ - ثم هم شغفوا بالخمر في مجامعهم الفرحية في الأعراس والأعياد ، وفي مجامع
التعاطف ، وقدموها قرى للضيفان .

قال الأسود بن يعفر النهدي :

ولقد هوت .. والشباب لثاظة .. بسلاقة مزجت بماء غوادى
من خر ذى نطف أعن منطلق واتي بها لدراهم الإسجاد
يسمى بها ذى تومتين مشمر قنات أنامله من الفرساد (٢)

وكانت الخمر على ما أحسوا لها من آثار نفسية وجسمية مفضرة من مفاخر
القادرين عليها ، يجمع الرجل ندماه فيسقيهم وينصر لهم ، قال البرج بن مسهر بن الجلاس :

وتدمان يزيد الكأس طيبا سقيت إذا تعرضت النجوم
رفعت بكأسه وكشفت عنه بمصرقة ملامة من بلوم
فلما أن تنشى قام خرق من الغيتان مخلوق هضميم
إلى وجناء نارية فكأست وصحى العرقوب منها والصميم
فأشبع شربه وجرى عليهم بإيريقين صكأسهما رذوم

(١) البيان والتبيين ٢/٣٠٥

(٢) المقاليات ١٨/٧ الغوادى : السحب الناشئة غدوة . نطف : جمع نطفة بتعنين وهي القرط .
منطلق : غلام عليه نطاق . الإسجاد : السجود ودراهم الإسجاد هي دراهم الأكسرة كانت عليها صور
يسجدون لها . تومتين . أولؤتين . قنات . اشتدت حرمتها حتى مالت إلى السواد . الفرساد : الثوب

تراها في الإناث لها سُمياً قُبَيْنا مثل ما قَوَّسَحَ الأدمي
 فبَيْنا بين ذاك وبين سَمَك نِيا عِيباً لعيش لو يدوم^(١)
 وكان شربها عند الملوكة مضخرة كبرى ، لأن الذين ينادمون الملوكة هم الطبقة العليا ،
 قالت خرق في رثاء زوجها بشر بن عمرو الذي قتله بنو أسد في يوم قُلاب :
 فسَمَ بِقُلاب من أوصال خرق أشي أمة ، وجهجة فليق
 نداهي للسلوك إذا لقوهم جَبُوا وَسَقُوا بِكأسهم الرحيق^(٢)
 ه - وتقديم الخمر للضيف كرم بلغ النهاية ، وجمع الفتيان لشربها مضخرة . روي
 أن أبا براء عامر بن مالك بن جعفر جمع قومه عند ماء النظيم ليصلح بينهم ، فحضروا
 وتظف عامر بن الطفيل ، فقال منه علقمة بن علاثة وشتمه - وكان يئمه - وسمع
 عامر مقالته ، فجاء وقال في الجمع : « لِمَ تُقَرُّون شتمى بئدكم ؟ . . وما حبسني عنكم
 إلا خمر قديم بها ، فسبأها ، وجمت لها شباب الحى ، خشيت أن أدهم فينفرقوا ،
 حتى أنفدتها »^(٣) .

ب - مظاهر ولعهم بها

١ - اقتنح عترة في معلقته بشرب الخمر بعد اشتداد الحر ، في قدح بجلو منقوش ،
 أو اشتراها بدينار بجلو منقوش ، وشربها من زجاجة صفراء مخططة ، ومعها إبريق
 أبيض مسدود الفوهة بالفسيدام (المصفاة) وأنه يستهلك ماله في سكره حفيظاً على
 عرضه ، يَكْرُم سكران ويكرم مُفقيقا :

ولقد شربت من المُدامة بعد ما رَكَدَ الهواجر بالمشوف المُعَلَّم
 بزجاجة صفراء ذات أُسرة قُرِنت بأزهر بالشمال مُقدَّم

(١) معجم الشعراء ٦٢ والزئنف والمختل ٦٢ خرق : سخن طريف . فلتاق : نام الخلق معدله .
 ناوية : سميعة . كاست : شمت على ثلاث قوائم وهي معرفة . ذوم : منكة تقيس . قم : أحر
 (٢) ديوان خرق ١٦ مخطوط بدار السكتب
 (٣) مقدمة ديوان عبيد وعاصم Lysal ١٩

فإذا سكرت فإني مستهلك مال ، وعرضي رافق لم يكلم
وإذا صحت فما أقصر عن ندي وكأ عدت شمائل وتكرى^(١)
واقنخر الأسود بن يعفر بمبادرته إلى شربها :

وقهوة صهباء باسكرتها بجمعة ، والديك لم يتعب^(٢)
واقنخر المرقس الأكبر بأنه قد ير على امتلاك الحسان ، وعلى احتساء الخمر
الروية الجيدة التي يشترها بماله : قال لحبيته خويلة .

يا نخول ما يدريك ربّت حرة نخود ككريمة حيا ونساتها
قد بت مالكها وشارب رية قبل الصباح ، كريمة بسباها^(٣)

وقال لبيد في معلقته يخاطب حبيته : أنت لا تعلمين كثرة ليالي الطيبات التي
استلذذت فيها لهوى ومنادمتي للسكرام ، وأنت لا تعلمين كم من راية
خمار قصدتها حين نصبت ، واشتريت الخمر غالية لنداماي ، من كل زق مقير
أو غاية مقيرة ، قد فض ختامها فتاللات ، وإني لأصطحبها قبل أن يصحو الدجاج :

بل أنت لا تدريين كم من ليلة طلق لذيد لهوها وندامها
قد بت ساهرها ، وغاية تاجر واقبت إذ رفعت وعز مدامها
أعلى السباء بكل أدكن عائق أو جوفه قدحت وفض ختامها
بادرت حاجتها للدجاج بسحرة لأعل منها حين هب نيامها^(٤)
وهذا طرفه بن العبد يحاهر في معلقته بولعه بالخمر ، ويفخر بأنه سيد يشترك
مع قومه في مهامهم ، وخير حلس خنارة وخنار :

فإن تخني في حلقة القوم تلقني وإن تلمسني في الحوانيت تصطد

(١) للمقاتل المشر ١١٦ المعروف العالم : الدينار المجلو أو الكأس . ذات أسرة : ذات خلوط .
أزهر : إبريق من فضة . مقدم : سدود بخرقة أو عليه مسفاة .
(٢) ديوان جبران السود النبري ١٧ جبهة بضم الجيم : ثمانون بعباً أو نحوها وبفتحها بقة سواد الليل
(٣) الفضليات ٣٤/٢ (٤) المقاتل المشر ٩٣

ثم لا يزال في حبه الخمر أنها أفدت ماله كله ، وأنها جرت عليه اجتناب المشيرة له
فصار كالبحير الأخرى ، ولذاته راض ؛ لأن الفقراء لا يتكروا إحسانه وإنعامه ،
ولأن السراة من أمثاله لا يتعافونه ، فهم رفقاؤه ونداماه :

وما زال تشرب الخمر والنتى ويبيى وإففاق طريقي ومثلدى

إلى أن تخامتنى المشيرة كلها وأفردت أفراد البعير المعبد

رأيت نبي عمراء لا ينكروني ولا أهلَ هناك الطرف الممدد

ويعلم أنه يخر من على الحياة ثلاث لذات ، الخمر أولاً من :

ولولا ثلاث هن من عيشة الفنى وجدك لم أحفل متى قام عردي

فهن سبى العاذلات بشرية كمنيت متى ما تمل بالماء تزيد^(١)

ويكرر في موضع آخر أن أصدقاءه وأقرباه أكثروا عن لومه وعدوه شريراً

لأنه مستهتر بالخمر ، ونصحه أن يتجنبها :

وما زال شربى الراح حتى أشرفنى صدديق وحتى سامنى بعض ذلك

وحتى يقول الأقربون نصيحة ذرا الجهل واصرم جيلها من حبالك^(٢)

واصرق القبس يعلم أنه ودع الصبا إلا أربع لذات الخمر أولاً من :

وأصبحت ودعت الصبا غير أنى أراقب خللات من العيش أربعا

فهن حولى للنسداى ترقوا يداجون نشأجا من الخمر مترعا

٢ - وبلغ من غرامهم بالخمر أن أوصى حاتم الطائي امرأته أن تنضح قبره

بالخمر ، وهذا خيال لانجده إلا فى العصر العباسى ، وفى شعر عمر الخيام :

أماوى إمامت فاسمى بنطفة من الخمر رياً فانضمن بها قهبرى

فلو أن عين الخمر فى رأس شارقى من الأسدور دلاعتلجنا على الخمر^(٣)

(١) ديوان طرفة ٢٨ - ٣٠ . كبت : غر فيها سواد وحرمة . قل بالله : صب عليها . تزيد :
تلوها رغوثة (٢) ديوان طرفة ٥٥
(٣) الديوان ٦٠ وشمراء النصرانية ١٣٧/١

٣ - ورتوا الميت بأنه صاحب نهر وندامى ، قال أوس بن حدير :

ليتك الشرب والمدامسة والفتيان طراً وطامع طمعاً

٤ - وأى دليل على ولوعهم بالخمر وإرتخاضهم فيها كل غال من أن يرهن الرجل

امرأته على شراب فيضاق الرهن ويترك زوجته ؟

روى أبو الفرج أن عروة بن الورد سبى سلمى النفسارية ، وكانت ذات جمال

فولدت له أولادا ، وكان شديد الحب لها ، وكان ولده يعيرون بأهم ويسمرون

بني الأخيذة - السبية - فقالت : ألا ترى ولدك يعيرون ؟ قال : فإذا ترين ؟ قالت :

أرى أن تردنى إلى قومى حتى يكونوا هم الذين يزوجونك . فرضى مقاتلتها ، فأرسلت

إلى قومها أن يلقوه بالخمر ثم يتركوه حتى يسكر ويشمل فإنه لا يسأل حينئذ شيئاً إلا

أعطاه ، فلقوه وقد نزل في بني النضير ، فسقوه الخمر ، فلما سكر مألوه سلمى فردها

عليهم ، ثم زوجها له بعد .

ويقال إنه جاء بها إلى بني النضير - وكان صعلوكا يغير - فسقوه الخمر ، فلما

انتشى منهوه ولا شيء معه إلا زوجته فرهنها ، ولم يزل يشرب حتى غلبت ، فلما

قال لها : انطلي ، قالت لا سبيل إلى ذلك ، قد أغلقتنى ، فصارت عند بني النضير فقال

في ذلك :

سقوني الخمر ثم تكنفونى

وقالوا : لست بعد فداه سلمى

فلا والله لو ملكتُ أمرى

إذا نصيتهم في حب سلمى

فيا للناس كيف غلبت أمرى

على شيء ويكرهه ضميرى^(١)

٥ - وشبهوا ريق المحبوبة بها ، كما قال عبيد بن الأبرص :

(١) الأغانى ٣٧/٣ الدار . حرك : حقد وهداوة

إذا ذقت فأما قلت طعم مدامة شمشعة ترخي الإزار قدسح
بماء سحاب في أباريق فضضة لها ثمن في الباقعين ربيع^(١)
وقال المسيب بن علس إن ريق حبيته كالخر التي مزجت بماء جدول على حافيته
التصب لأنه دائم الجري :

ومها يرّف سكّانه إذ ذقته عانيّة شُجّت بماء يراع^(٢)
وقال الأسود بن يضر إن ريق حبيته بعد نومها طو عذب طيب الرائحة ، كأنها
شربت عشاء خمرأ صرفاً تخيرها الخارون من دن لثامه وسداده فقو وريحان :
كأن ريقها بعد الكرى اغتقت صرفاً تخيرها الخارون خروما
سلافة الدن مرفوعا فصائبه مقلد القغو والريحان ملوما^(٣)
ويعتد بنا القول إذا ذكرنا كثيراً مما قيل في هذا المعنى ، وحسبنا أن نورد قول
المرقس الأصغر : إن فم حبيته إذا ما ارتشفه ليلا أذ وأروى من الصهباء المضرة ،
كالمسك قد ثوت في الدن عشرين عاما وقد طلى بالقرمذ ، وقد اشتراها رجال
مولعون بالخر من تاجر يبيع فيها كثيراً :

وما قهوة صهباء كالمسك ريحها تعل على التاجود طورا وتزوح
ثوت في سواد الدن عشرين حجة بطان عليها قرمس وترووح
سبهاها رجال مدمنون تواعدوا بجيلان يديتها إلى السوق مريح
بأطيب من فيها إذا جئت طارقا من الليل بل غورها أذ وأنضح^(٤)

٦ - وأولع بها الحضركا أولع بها البدو .
أولع بها أهل الخيرة لقرهم من الفرمس والروم ، وكانت في الخيرة

(١) الديوان القصيدة ٨

(٢) اللقضايا ١/٥٩ مها : باور شبه قفراها به اصفاهه . عانيّة : خر منسوبة إلى عانة بلد بالعراق .
شجّت : كسرت ومزجت . يراع : قصب أي بماء جدول على حافيته التصب

(٣) اللقضايا ٢/١١٨

(٤) جبهة أشعار العرب ٢٦١ و اللقضايا ٢/٤٢ التاجود : إناه الخزر

حانات كثيرة قامت إلى طائفة الإسلام من طوابع . كانوا يسكرون فيها ويفخرون ، وكانت فيها أديرة العبادة واحسان الخمر ، وقد أكثر الشعراء القول في خمرها وغلبتها وأزهارها وأعيادها . قال أبو الفرج في در الأبح : « كان النعمان يركب في كل أحد إليه ، وفي كل عيد ، معه أهل بيته غاسية ، من أهل المنذر ، ومن يتادمه من أهل دينه ، عليهم حال الديق المذمبة ، وعلى رؤسهم أكاليل الذهب ، وفي أوساطهم الزنابير المحلاة بالذهب ، المنصعة بالجواهر ، وبين أيديهم أعلام فوقها صلبان الذهب ، ، فإذا قضاوا صلاتهم انصرف إلى مستشرقه على النجب ، فيشرب فيه بنية يومه إلى أن يمسي ،^(١)

ولهم ساقيات وقينات ، وهم يمزجونها بالماء فتعلوها فقاعات ، قال عدى بن زيد :

ثم نادوا إلى الصبح فقامت قينسة في يمينها إربيق
قدمته على عقار كمين الدب سلك صفي سلاقها الراويق
مزة قبل مزجها ، فإذا ما مزجت لند طعمها من يذوق
وظفت فوقها فقاقع كالدر صفار يشيرها التصفيق

وأولع بها أهل الطائف ، وفي الطائف كروم حُلب تعرش على جوانب الجبل ، وتكتنف البيوت ، وبلغ من كثرة زيبها أن سليمان بن عبد الملك لما حج مر بالطائف فرأى يبادر الزبيب ، فقال : ما هذه الحارار ؟ (حجارة نخرة سود بركانية) فقالوا : ليست حاراراً ولكنها يبادر الزبيب . ولما حضر الرسول عليه الصلاة والسلام الطائف وامتنعت عليه ، أوعز إلى أصحابه أن يقطبوا أعتاب ثقيف ، فشرع المسلمون يقطعون حتى رجا بعض القرشيين الرسول أن يكف عنها ، وناشدوه صلة الرحم فكف^(٢) . وكانت بها حانات كثيرة قبل الإسلام ، فلما حرم الإسلام الخمر تهادى التقفيون في شرهم ، وضاق بهم عمر نهما وحداً ، فأضرم النار في الحانات والمعاصر . يقول أبو مجين الثقفي :

وماها أمير المؤمنين بحضرتها تظلماتها يكون حول المعاصر
 وأبو عبيد بن جراح هذا شاعر يحضر ، استهتر بالخر في جاهليته وإسلامه ، وحده
 عمر بن الخطاب مرات ، فلما لم يزد جبرته ، ولسكنه حرب ولحق بسعد بن أبي وقاص ،
 أبلى بلاء حسناً في موقعة القادسية ، « فطمع المشركين ، وكان سبب الهزيمة . . . »
 فقال له سعد : لا ضربتلك في الخمر أبداً ، فقال أبو عبيد : وأنا والله لا أشربها أبداً ،^(١)
 ومن خبراته هذا الحيات الحضرى البعيد ، يريد أن يدفن في أصل كرمه لتتضح
 جذورها عظامه ، ويخشى أن يدفن في القبلة فتحرم عظامه نطاف الخمر :

إذا مت فأدقني إلى أصل كرمه تُروى عظامي في التراب عروقها
 ولا تدقني في القبلة فإني أخاف إذا ماتت ألا أدوقها

وشفتت الخمر أهل المدينة ، ففي المدينة وما حولها مثل خير ثروة ونخل وزرع ،
 وبها يهود ذوو صناعة وثروة وطرب لا يدعون حتى في وقت الحج ، فسبو التضير
 كانوا وهم يجالون عن المدينة معهم الدفوف والمزامير والقيان يعزف خلفهم .
 وكان أهل المدينة يصنعون خمرهم من التمر والبسر كما يقول ابن قتيبة ، وكان
 اليهود يحملون إليها خمر الطائف والشام يتاجرون فيها ، وكثرت الخمر بالمدينة حتى
 قال أنس : « إنها جرت في سلك المدينة حين حرمت . »^(٢)

وكانت الحروب ديدن سكانها : فشربوها ليشجعوا ، وشربوها في السلم لتزجية
 الفراغ واللبو ، وورد على حاناتهم بدو البادية يرتون من خمرها ، وتجر الكأس
 الكأس حتى ينفد ما معهم ، روى أن عروة بن الورد - وكان صعلوكا يتعشى من
 الغارة - جاء بنى التضير فسقوه الخمر ، حتى إذا انتشى منعه ، وليس معه شيء إلا
 امرأته سلى ، فرهنها ، ولم يزل يشرب حتى غلقت فتركها وانصرف ، وهو يقول :
 سقوني الخمر ثم تكفوني عداة الله من كذب وزور
 فلا والله لو ملكت أمري ومن لي بالتدبير في الأمور

(٢) نهاية الأرب ٤/ ٨٠

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ١٠٦

إذا لعصيتهم في حب سألني على ما كان من صلتي الصدر
وقد ضربوا المثل في الجور إذ يفرح بابل ، قال عبيد بنعتك عن وقوفه على
رسوم دار حبيته :

ظَلْتُ بِهَا دَسَكَاتِي مُدَارِبٌ نَسِيْبًا نَمَا عَجَّتْ بِأَبْلِ (١)
ح - بِالسَّبَا

وقد شربوها في أواسق ، ذكر ما القال ، منها القمَر - القدح الصغير - والقعب
- أكبر منه - والصحن ، والرقد - القدح العظيم - الخ ... (٢)

وشربوها في أباريق من الفضة ، قال عبيد بنعتك ريق محبوبته :

إِذَا ذُقْتُ قَاهَا قُلْتُ طَعْمُ مَدَامَةٍ مُشَعَّشَةٍ رُخِي الْإِزَارَ قَدِيبِجِ
بِمَاءِ سَحَابٍ فِي أَبَارِيقِ فِضَّةٍ لَمَّا تُنْمَى فِي الْبَاتِعِينَ رِيحِ (٣)

ولقد يفتقد فوق عظام الإبريق إكليل من الريحان ، قال عبدة بن الطيب :

وَالْكُوبُ أَزْهَرُ مَعْصُوبٍ بِقُلْتِهِ فَوْقَ السِّيَاحِ مِنَ الرِّيحَانِ إِكْلِيلِ (٤)

وقال الأسود بن يعفر إن الدن مرفوع على نصاب ، وقد طابت رائحته بما عليه
من طيب وريحان :

كَأَنَّ رِيْقَهَا بَعْدَ الْكِرَى اعْتَبَّتْ صِرْفًا خَيْرَهَا الْخَانُونَ خُرْطُومًا
سِلَاقَةَ الدَّنِّ مَرْفُوعًا نَصَابِيهِ عَقْلَدَ الْفَخْرِ وَالرِّيحَانِ مَلْثُومًا (٥)

وتحدثوا عن السمانة والكتوس والنداحي ، والغناء المصاحب للخمر ، وقد
أوردنا كثيرًا من شعرهم المتصل بالخر والغناء في (نشأة الوزن والقافية) .

ولعبدة بن الطيب أبيات جواد يصور فيها غدوه مبكرًا - وسواد الليل يجلل

(١) ديوان عبيد القصيدة ٢٦

(٢) الأمل ٧/٢٠ و ٣٠٣/٧ (٣) ديوان عبيد القصيدة A Lyall

(٤) الفضليات ١٤٢/١ أزهر : أبيض . قلته : أعلاه . السباح : الطلاء . ويريد بالكوب هنا

لميريق الخمر .

(٥) الفضليات ٢١٨/٢ اقتبعت : شربت ليلا . الخانون : المهارون . الخرطوم : أول ما ينزل من

الدن . نصابه : ما يرفع الدن فوقه . الفخر : نبت طيب الرائحة . ملثوما : عليه لثام

قرن الشمس ، والديك يصيح لوقوف الدجاج - إلى الثمارين ، وبعده رغبتي يشاركه
 في الشراب ، وهو رفيع مختال حسن الخلق كالسيف ذو تماثيل حسان ، ظريف كريم ،
 ذو طمو لا يرعوى لعذل ، ومثالك جلسا على فراش مزين بالوشى والألوان المختلفة
 والصور المنوعة من دجاج وأسود وغيرها ، والحانة مربعة أفق بناهيا في تشبيدها
 وتزيينها ، وينيرها مصباح قوى الفضية . وجلسا أمام دن مقطوع الرأس كأنه جنم
 هدمته الإبل المزدحة عليه ، وأمام إبريق أبيض مطلى وفي فوهته إكليل من الريحان ،
 وبين الأصبغ والإبريق جرة ضخمة مملأى بالماء ، والسكوب مترج بالخمر وقد طفا
 الزبد فوقه ، وقطع اللحم من السكبش منطومة في السئود ، ويسعى عليهما بالخمر خادم
 سريع في وسطه حزام ، وعلى الخوان صحاف فيها نخل وأبراز وتوابل .
 هنالك اصطبح عبدة خمر أترعد شاربها ولم يشربها أحد قبله ، وهي خمر صرف ،
 ومزوجة ، وهنالك طرب لانه سمع نالقية تفتى بشعر جيد جميل كأنه وشى مقارب ؛
 ووصف المغنية بأنها طويلة الجيدة مؤنسة حلوة النغم ، فهم يظربون لها فيعطونها الهبات
 ويخلعون عليها البرود والدرابيل :

وقد غدوت وقرن الشمس مُتَفَتِّقٌ	ودونه من سواد الليل تجليل
إذا شرف الديك يدعو بعض أسرته	لدى الصباح وهم قوم مسايل
إلى التتجار فأعسدي بلذته	ريخو الإزار كصدر السيف مشمول
خرق يجمد إذا ما الأمر جد به	غخالط اللهب واللذات ضليل
حتى اتكأنا على فرش بزبينها	من جدد الرقم أزواج تماويل
فيها الدجاج وفيها الأسد مخدرة	من كل شيء يرى فيها تماثيل
في كعبة شادها بان وزينها	فيها ذبال يفضى الليل مقتول
لنا أصبغ كجندم الحوض قدده	وطه العيراك لديه الرق معلول
والسكوب أزهر معصوب بقلته	فوق السباع من الريحان إكليل
مبرد بمسراح الماء بينها	حُب كجوز حمار الوحش مبول

والسكون ملائذ مالت فرقة زيد
يسمى به منتصف عجلان مشتق
ثم اصطبحت كيتا قرقةً أنفاً
صرفاً مزاجاً وأحياناً بملنا
تذرى حواشيه جيداً آنسة
تقدو علينا تلمسنا وتصفدها
وما تبقى السكبش في السنود مخلول
فوق اشوان وفي الصاع التواويل
من طيب الراح واللذات تمليل
شعر كذبة السمان محمول
في صوتها لساع الشرب تزيل
تأتي البرود عليها والسرابيل^(١)

وهذا وصف بارع ورائع لمجلس الشراب ، لا يقل في شيء عن أبدع ما جادت به
قريحة أبي نواس من بعد .

و _ أثرها

وعلى كثرة الشعراء الذين أغمروا بها ، وعلى كثرة ما أداروا من شعر حولها ،
فإنهم اتجهوا إلى تصوير الخمر وبجالسها تصويراً مادياً ، عنوا فيه بوصفها ووصف
زقاقها وكثوسها ، والفخار باحتماسها ونبالة الندامى ... الخ ولم يتجهوا إلى تصوير
آثارها في النفس والحيال ، وإن كان قليل منهم صور أثر الخمر في نفسه ، وفترات
السكر ، وأطرافه ، مثل قول المنخل البشكري :

فإذا انقضت فإني رب الخورنق والسدير

(١) المفضليات ١٤١/١ تجليل : كأنه منقطع بجلال من سواد الليل . همازيل : عزل من السلاح .
التجار : الحمارون . أعماني : أماني . رخو الإزار : يمر إزاره غنيلة . مشمول : حلو الشمال . غرفى :
ظريف كريم . ضليل : لا يرجع لسئل . رهم : وشى . أزواج : أنماط وهي البسط . تماويل : ألوان
شني . عنبرة : في شعرها . كنية : بت مريم . أصبى : دن مقطوع الرأس . أزهر : أبيض . السياج :
العلاء . الملب : المرأة الضخمة . الجوز : الوسط . ميزول : مثقوب . طابق السكبش : نصفه أو عضو
منه . مخلول : مشكوك في السقود . منتصف : خادم . الصاع : صفة فيها خل وأبراز مخلوط . فرقف :
تصيب شاربها رعدة . آف : مستأفة لم تشرب . يملنا : يلمينا . السمان : وشى مقارب . محمول : مروى
مشهور . حواشيه : أطرافه . تذرى فرقه أو تفسق حواشياً غائبها نظرياً وترجيحاً . جيداً : طويلة الجيد .
آنسة : منبسطة معتدلة . نصفدها : نظيتها . السرابيل : الثياب

وإذا صحوت فإني رب الشسوية والبهير^(١)
وقول حسان :

ونشرها فتركنا ماوكا وأسدأ ما ينهنا القمام^(٢)
وقول لقيط بن زرارة :

شربت الخمر حتى خلعت أني أبو قابوس أو عبد المدان
أمشى في بني عسدي بن زيد رعى البكال منطلق اللسان
وقول الأعشى :

وشراب خسرواني إذا ذاقه الشيخ تنني وأربص^(٣)
وقال امرؤ القيس إنه يشرب هو وندمانه حتى يفقدوا صوابهم فيحسبوا الخيل
صغار ضأن ، ويظنوا الأبيض المسود أو الأسود المبيض أشقر :

ونشرب حتى نحسب الخيل حولنا نقاداً ، وحتى نحسب الجون أشقرا^(٤)

ه - المحرمون لها

وبعض العرب حرموا الخمر في الجاهلية فلم يحتموها . ذكر أبو القاسم عبد الرحمن
السعدي الأندلسي في كتابه (مساوى الخمر) كثيراً عن صدوا عن شربها في الجاهلية ،
منهم السكندى عم الأشعث بن قيس ، وقال في ذلك : إنه لن يشرب خمرأ ولن
يصاحب شاربها ، ويتبين من أقواله أن آباءه وأخواله صدوا عنها أيضاً :

فلا والله لا ألقى وشرباً أنازعهم شراباً ما حبيت
أبي لي ذاك آباء كرام وأخوال بعزم ربيت^(٥)

ومنهم قيس بن عاصم التيمي وهو القائل :

لعمرك إن الخمر ما دمت شارباً لسالبة مالي ومذهبه وعقلي

(١) الحماسة ٢١١/١ ومعجم الشعراء ٣٨٧ (٢) الديوان ٨

(٣) ديوان امرئ القيس ٧٥ (٤) بلوغ الأرب ٣٢٥/٢ والأمال ١٠٥/١

وتاركني من الضحاف قوام ومورثي - عرب الصديق بلائيل^(١)
 وكان قيس هذا كلنا بالخر في الجاهلية ، يأتيه تاجر خر فيبتاع منه ، ولا يزال
 الخار في جواره حتى ينفذ ما عنده ، ولما عرفت عن الخرو قال :

وتاجر فاجر جاء الإله به كأن عشوته أذئاب أجبال
 جاء الخبيث ببيساية تركت حبي وأملى بلا عقل ولا مال

وآلى ألا يذوق حمرة أبدأ^(٢) . وله قصة تدل على بفضه للخمر^(٣) . وقد صد عنها
 غير قيس بن عاصم التيمي صفوان بن أمية بن عمرو الكنانى ، وعفيف بن
 معد يكره الكندي . وحرم بعضهم على نفسه الزنا والخمر :

سألت قومي بعد طول مضاضة والسلم أبقى في الأبور وأعرف
 وتركت شرب الراح وهى أميرة والمومسات وترك ذلك أشرف
 وعففت عنه يا أميم تسكرما وكذلك يفعل ذو الحجما المتعفف^(٤)
 ومن اعتصموا منها تسكرما وصيانة لأنفسهم عامر بن الظرب ، القائل :

سألت الفتى ما ليس في يده ذهابه بمقول القوم والمال
 أقسمت بالله أسقيها وأشربها حتى يفرق ترب الأرض أوصالى
 مورثة القوم أضفان بلا إحن ثمزية بالفتى ذى النجدة الخالى^(٥)

وآلى صفوان بن أمية ألا يشربها وألا يداوى بها سقيها :

رأيت الخمر صالحة وفيها مناقب تفسد الرجل السكرما
 فلا والله أشربها حياق ولا أشفى بها أبدأ سقيها^(٦)

وذكر أبو علي التالى عن حر موهها وقالوا شعراً فى تحريمها عفيف بن معد يكره

وسويد بن عدى^(٧)

(١) الأمل ٢٠٤/١ والبيت الثانى كذا بالأصل

(٢) المقدم الفريد ٣١٣/٣ والأغانى ١٤٥/١٢

(٣) الأغانى ١٤٨/١٢ (٤) المثل والنحل للشهرستانى ٢٢٩/٣

(٥) الأمل ٢٠٤/١ (٦) الأمل ٢٠٥/١ (٧)

وذكر ابن قتيبة في كتاب الأشربة أن كثيراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حرموا الخمر على أنفسهم في الجاهلية لتعلمهم بسوء مصرعها وكثرة جناباتها ، وقالت عائشة رضي الله عنها : « ما شرب أبو بكر خمرأ في جاهلية ولا إسلام » ، وقال عثمان رضي الله عنه : « ما تغنيت ولا تننيت ولا شربت خمرأ في جاهلية ولا إسلام » .^(١)

(٢) الميسر

طريقته . المرض منه . القخر به . الملح به . الرب خير الأدم غرمان من اليسر .

١ - عادة متأصلة شاعت في الأغنياء ، وطالما افتخروا به لأنه ضرب من المقدره والسكرم ، حيث يضمون الخاويج ما ربحوه وخاصة أيام الشدة وانقطاع اللبن ، وأيام الشتاء والجذب .

وكانت طريقته أن يجتمع الموسرون ويشقوا جزوراً يقسمه الجزار عشرة أجزاء ، ثم يجاء بالقداح ، فيأخذ كل من الأيسار على مقدرته ، ثم يسلمونها إلى أمين يدفنها في الرمل أو يضعها في خربطته ، ويدخل يده ويخرج قدحاً وهكذا .

وأوضح ما كتب في المياسرة وطريقتها ما أورده الألويسي في بلوغ الأرب ، وخلاصته بالاستعانة بقايل مما ذكره غيره أن يجتمع عشرة من اللاعبين ويحضروا جزوراً يضمون ثمنها لصاحبها ، ويدفع الثمن بعد المياسرة الغارمون وحدهم ، وتجعل القداح العشرة في خريطة وتجال وتحرك فيها ، ثم يخرج الخريضة^(٢) أول قدح باسم أحدهم على ترتيب لانهليه - فربما كان بحسب جلوسهم أو أسنانهم أو تراضيمهم - ويكون هذا القدح هو نصيبه ، فإن كان رابحاً عرف مقدار ربحه وبقى القدح خارج الخريطة لا يعاد إليها ، ثم يخرج قدحاً باسم الثاني ويعرف مقدار ربحه وهكذا إلى العشرة .

(٢) الخريضة : الحسك عنهم .

(١) الأشربة ٢٧

وكل راجح يأخذ ما يخرج له ، والثلاثة الذين تخرج لهم القداح التي لا نصيب لها هم الذين يمسرون من الجزر فيقسم عليهم أثلاثاً^(١)

والقداح الراجعة هي الفذ والتوم والرقيب والخلس والثانوس والمسبل والمعلّى ، ولكل منها نصيب كترتيبه ، فالفذ نصيب واحد وللمعلّى سبعة ، فمجموع أصبتها ثمانية وعشرون . والقداح الغارمة هي المنيج والسفيح والوغد .

وقد عرض الزمخشري لطريقة المياسرة في تفسير قوله تعالى : « يسألونك عن الخمر والميسر » ونقل عنه الفخر الرازي وإسماعيل حقي صاحب روح البيان ، والألوسي مؤلف روح المعاني ، وعرض لها مؤلف نهاية الأرب في فنون الأدب^(٢) والقلقشندي في صريح الأعمى^(٣) ولكن ما أوردوه مبهم لا يكشف عن حقيقة هذه المقامرة .

ب — وكانوا يمسرون ليلاً حيث يوقدون النار وقد عقروا ناقة ، وعلى مقربة منهم فقراء المشيرة ينتظرون ما يرى به الأيسار من أنصبتهم التي حرموها على أنفسهم كرها وأنفة . والتصدق بالاحم هو الضع الذي ذكره القرآن الكريم : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيها إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمها أكبر من نفعها » . ولكن القرآن الكريم حرمه في آية بعد ، لما ينشأ عنه من عداوة وبغضاء بين المتياسرين ، ولأنه استيلاء على مال الناس بغير حق ولا طريق مشروع ، وحتى السكرم الذي في الميسر ليس خالصاً كما يكرم الشخص من ماله الصرف عن قصد ورغبة .

ج — وهم أشادوا بقدرتهم على المياسرة فأخبرين ومادحين :

قال الشاعر مفتخراً بأنه بقامر إذا جف اللبن في الضرع ، وبأنه يتخبر
القدح التالي :

وإذا تَمَدَّتِ السواعد والتوت جمال المَقْدَى وَسَطَهَا المَضْبُوحُ

(١) بلوغ الأرب ٣/٦٥

٨٢٥/١(٣)

١١٩/٣(٢)

أَغْلَى بِهِ رِيحُ الْإِزَارِ مُسْتَلٌّ فَخَذَا يُسَارُهُ دَمٌ مَسْفُوحٌ^(١)

وقال ليبي في مملته إنه طالما دعا ندماه إلى نحر الجزور حيث يلعبون بأزلام
مشابهة ، ينحرون الناقة عافرآ .. لأنها أسمن .. أو مطنلا .. لأنها أغلى .. وهو يكسب
فيطعم الجميع لحمها ، حتى إن الجيران والضيغان يشبعون وينعمون كأنهم في وادي تباله
المختصة سهوله :

وَجَزورِ أيسارِ دعوتُ الحنفا بمضائقٍ عتابة أجسامها
أدعوت لعاقر أو مطفل بذاتٍ بجيران الجميع لحامها
فالضيف والجار الجنب كأنما هبطا تباله مختصبا أهضامها^(٢)
وافتخر الأعشى بالمقارة :

وجزور أيسار جزرت إلى الندى ونياط مقرة أخاف ضلالها
وكان الشتاء فصل الجذب والشفق ، فالمياسرة فيه دليل على الثروة والقدرة ، قال طرفه
لنهم أصحاب فداح الميسر منذ القدم ، منذ لقمان بن عاد صاحب النور السبعة التي
آخرها ليد ، وهم يقامرون وإن صعب الشتاء على القادرين المشاركة في القداح ، ثم هم
لا يلحفون في طلب الدين الذي لهم على رقيق في المياسرة ، ويدخلون معهم في اللعب
ذوى المعصرة :

وهم أيسار لقمان إذا أغلت الشتوة إبداء الجزر
لا يأنحون على غارهمسهم وعلى الأيسار تيسير العسر^(٣)
وقال سنان بن أبي حارثة إنه لعب الميسر والرياح الباردة قد اضطرت التوق إلى
الرواح ، وإنه قد أطعم أهل الحى من جيران وعفاة :
وقد يَسْرَتْ إذا ما ما الشول رَوْحها بَرْدُ العشى بِشَفَانٍ وُصْرَادٍ

(١) بلوغ الأرب ٥٦/٣ السواعد : مجازى الإيهب في الشرع . القدي : القديح التتالي . المسفوح :

المقوم بالنار . أغلى به : أهلاه

(٢) ديوان طرفه ٧٤ - ٧٤

(٣) اللقعات . الزوزنى ١١٣

قُسِّتْهُ الْهَيْمَةُ، زَادَى - خَيْرٌ مَدَّ نَبْرًا - أَشْلُ الْخَطَّةَ مِنْ جِبَارٍ وَعَنْ جِبَادٍ (١)
 وكان بعض المتأخرين يأخذ ما بقي من القنداح إن لم يعترض من الأيسار،
 ويقول للأيسار قد تمسكتم^(٢)، وقد افتخر أئباؤه بأنه تمسك الأيسار :
 إني أتمم أيساري وأمنهم شقي الأيادي وأكسر الجففة الأدماء^(٣)
 وأشاد عمرو بن لثة بنظمة قومه فقال : إذا اشتد البرد وانعدم البرق ، واحي
 السحاب من السماء فلا ترى فيها غيمة وإن رأيت نسرمان ما تنقشع ، ولقد يشترق
 الغمام في السماء كأنه نفال بالية بانث منها سيورها ، وفي هذا الوقت تهزل اثوق فلا
 ابن - حينئذ نلأ قدورنا ضامنا وتقدمها فيسرع إليها الضيوف والغرباء كما تسرع
 صغار الإبل قمرتها ككبارها ، وذلك بأننا نياسر بأقداح كاسية وتقدم ما كسبنا
 طعاما للناس :

والم يك برق في السماء يليها	إذا النجم أمسى مقرباً
ولا هبوة إلا وشيكا مصوحها	وغاب شعاع الشمس في غير جلبة
تقبيلة نعلل بان منها سرىها	وهاج غمام مقشعر كأنه
قدور كثير في القدور قدسها	إذا عدم المسلوب عادت عليهم
كما رد دهادة القلاص نصيحها	يشور إليها كل ضيف وجانب
يعود بأرزاق العباد نصيحها ^(٤)	بأيديهم مقرومة ومغالتق

- (١) الفضليات ١٥٠/٢ يبرت : فامرت : الثول : الإبل التي قصت ألبانها - الشفان والعراد :
 ريع باردة - جاد طالب العطية (٢) بلوغ الأرب ٦٢/٣
 (٣) شقي الأيادي : أن يأخذ القسم مرة بعد مرة أو من الأضواء التي كانت تبقى من الجوزور
 في اليسر فيضربها ويصلها .
 (٤) بلوغ الأرب ٨٠/٣ النجم : الثريا وأشد البرد عند طلوعها ، رائب : مرتفع ، يليها :
 يظهرها ويضيئها . الجلبة القطعة من القم . المصوح : الذهب . الهبوة : النيرة . القبلة : رزمة النعل
 والخف . السريع : جمع سريعة وهي السير الذي نشد به النمل . القديع : المعسوف والجمل . الجانب :
 الثريب . الدهداه : صغار الإبل . التنيح : القدي شرب حتى روى . القرومة : سهام اليسر عليها علامة .
 المغالقي : سهام اليسر أو السهام التي تقوز . نصيحها : ممنوحها أو كاسبها . قبيل بمعنى مفعول أو فاعل ،
 وليس التنيح هنا هو القديح الذي لا سهم له

٥ — وقد مدحوا من يلعب الميسر لأنه كريم مبین للبال ، وعابوا من لا يبسر ،
 وحموه انبهم ، قال متمم بن نويرة يرثى أخته مالكا : إنه مولع بالميسر إذا قمع الجلد
 اليابس من شدة البرد ، وإنه كقيل بأخذ ما يبتقى من القداح ، وله غنمه وعليه غرمه ،
 ولا يحصى نصيبه أن يتقسمه الفقراء :

ولا برما تهدي النساء لمرسه إذا القشع من حس الشتاء تقمعا

إذا جرد الترم القداح وأوقدت لهم نار أيسار كفى من تصعبها
 وإن شهيد الأيسار لم يلف مالك على الفرث يحى اللحم أن يتمرعا^(١)

ومدح الشاعر قوما بأنهم أعداء النوق العظيمة السنم ، لأنهم يتعرونها فترغو
 صغارها ، وهم لا يفرحون إذا فازوا ، ولا يباليون بالترم إن كانوا في عسرة ، أسخياء
 كلفون بالميسر إذا ما عجز غيرهم عنه :

أعداء كرم الثرى ترغو أجتتها عند المجازر بين الحى والحجسر
 لا يفرحون إذا فاز فازهم ولا تضيق عليهم أربة العسر
 هم الحضاوم والأيسار إن ندبوا إذ لا تجبل قداجعا واحتايسر^(٢)

ولا تبرأ أمة قديمة أو حديثة من المقامرة ، على اختلاف طرقها . وإذا كان
 العرب قد أولعوا بها مباحة ومفخرة وعظفاً على المحايج فإن بعض الأمم كانت أشد
 من العرب ولوعاً بانتهار ، ولم تقصد منه إلى إطعام جائع أو محتاج ، فقد ذكر تاسيتوس
 أن قدماء الجرمان كانوا يتقارون على كل ما يملكون ، فإذا نفذ تقامروا على حربتهم
 فيصير المغلوب عبداً للغالب ، وكان الرومان واليونان كافرين بالمقامرة . ولكن العرب
 تفردوا بالفرض النبيل من لعب الميسر .

(١) المنذبات ٦٥/٢ - ٦٧ ومجزة أشعار العرب ٢٩٢ تهدي النداء امرسه : ليس ممن تعطر
 النساء وزوجها في الشتاء . القم : القرية الباسية . تضجع : تسكس . الفرث : ما بالسكرش
 (٢) بلوغ الأرب ٥٩/٣ أربة : شدة ونهط .

(٣) المجلس

أسورهم لها ، تسكها ، ساكها واستعادتهم بها . معبذ وزواج . فتيهم التسول . الجن في الأدب اليوناني .

١ - قصورهم للجن

عاش هذا الشعب الفطري في صحراء رحبية جديية مابئة بالقيعان والأغوار والوهاد والتجاد والتلال ، يقل سكانها والجاناؤون فيها ، ويسدل الليل ستائرہ فينمر التلام والسكون والوحشة كل شيء ، فتسلط الأوهام وتتجسم المخاوف والأحلام ، فيدعى كثير من العرب أنهم رأوا الجن وخالطوها وصادقوها وخاصموها ، ونسوا منها .

وكل حديثهم في هذا خرافة ، ولكنها خرافة لم تقتصر على العرب ، فإن كثيراً من الآميين وضعاف العقول ما زالوا يؤمنون بهذا في العالم المتحضر .

وقد علل الجاحظ لذيوع الشعر المتصل بالجن تعليلاً حسناً بقوله : « وما زادم في هذا الباب وأفراهم به ومدَّ لهم فيه أنهم ليس يلقون بهذه الأشعار وهذه الأخبار إلا أعرابياً مثلهم ، وإلا فبما لم يأخذ نفسه قط بتمييز ما يوجب التكذيب والتصديق والشك ... ولما أن يلقوا رواية شعر أو صاحب خبر ، فالرواية عندهم كلما كان الأعرابي أكذب في شعره كان أظرف عندهم ، وصارت روايته أغلب ، ومضاحك حديثه أكثر ، فلذلك صار بعضهم يدعى رؤية القول أو قتلها أو مراقبتها أو تزويجها ،^(١) على أن فعله صالح لانتشار هذه الأكاذيب ، ورواجها ، أما السبب في نشأتها فهو ما أسلفته .

وقد خصوا بعض أصناف الجن بالتحدث عنها كالغيلان والسعالى . وأطلقوا

الغول على كل شيء من الجن يعرض السقمار ويتأرون في ضروب الصور والخياب
ذكر آكان أو أقي، إلا أن الأكثر على أنه أقي . والسحلاة اسم لواحدة من فساء
الجن تتناول لثنتن السقمار ، قالوا : وإنما هذا منها على العبت ، أو لعلها تفرغ إنساناً
فيستغير عقله .^(١)

وزعموا أن خلق الذول كالإنسان ولكن رجلها رجلان .
وزعمون أن الغول تتناول لهم في الخنازير ، وتظهر لخواصهم في أنواع الصور
فيخاطبونها وربما ضيفوها . وكانت تترامى لهم فيقتبعونها فتقبهم ، ولذلك كانوا
يصيحون بها إذا مارأوها :

يا رجل عزز انهي نهيقاً لن تنزلي السليل والطريقا
لأنهم يزعمون أن رجلها رجلان عزز .

وأكثر كلامهم على الأني من الغيلان . قال أبو المطراب :

ومالفي الوحوش على الوفاء ونحتت عهدهن وبأالبعاد
ورغولا فقرة ذكراً وأشي كأن عليهما قطع البجاد^(٢)

وقد زعم تأبط شراً أو زعموا له أنه رأى الغول وضربها في جراحة ضربة واحدة
فقتلت عليها ، وسند ذكر قوله في موضع آخر ، ولكن يفتينا هنا تصويره لها بأنها
صغيرة الرأس مشقوقة اللسان ، يشبه لسانها لسان الكلب ، مشوهة الساق ، تلبس
ثوباً من جلود بالية :

إذا عينان في رأس دقيق كراس الهر مشقوق اللسان

وساق مخدج ، ولسان كلب ونوب من عباء أو شنان^(٣)

ونسبوا إلى أبي الغول الطهوي أنه لقيها فقتلها أيضاً ، وصور شكلها تصويراً
يكاد يكون تصوير تأبط شراً لفظاً ومعنى ، ولذلك أرجح أن الشاعر واحد :

(١) الحيوان للجاحظ ٤٨/٦ (٢) مروج الذهب ٢٥٢/١ - ٢٥٣

(٣) سبج الأعتى ٤٠٥/١ وبلوغ الأرب ٣٧٩/٢ والأغانى ٢٠٩/١٨ ومعجم البلدان ٤/٢٣١

إذا عيَّنان في رجسه قبيح
بمعنى مَبْهُوتَةٌ وشِوَاةٌ كَأَنَّ
وقد استمدوا من هذا التصور للجن بصوراً شتى ، فمثلاً شبه الخفاني -جد جري-
النوق السائرة في الليل ترفع أعناقها وتهز رؤوسها بألجن التي تمد أعناقها ، وقالوا إنه
سمى الخفاني لقوله هذا :

يرفعن بالليل إذا ما أسدفا
وعنقاً باقى الرسيم خيطافاً^(١)

وكذلك شبه امرؤ القيس بن عمرو بن الحارث بن معاوية الأكبر خيلهم بالسعالى :
سمونا لهم بالخيل تُرْدِي كأنها
وقار عمرو بن الأهم التتالي في وصف الخيل أيضاً :
وتراهن شُزْباً كالسعالى يتطالعن من فغور نقاب^(٢)
ويقى هذا التخيل في الشعر الإسلامى على سبيل المحاكاة ، قال الأشتر النخعي إن
خيله كالسعالى :

بقيت وفرى وانخرقت عن الملا
إن لم أشن على ابن هند غارة
خيلاً كأمثال السعالى شُزْباً
تعدو ببيض في السكرية شُوس^(٣)

ب - تشكلها

وروا كثيراً من الأفاصيص عن تشكل الجن لهم بصور شتى ، منها أن عبيد بن
الأبرص سافر في ركب من بني أسد ، فينأ هم يسرون ، إذا هم بشُجاع يتممك على
الرمضاء فاتحاً فاه من العطش ، وكانت مع عبيد فضلة من ماء فزل فسقى الشجاع حتى

(١) المؤلف والمختاب ١٦٣ القرأ : سم فزوة وهى الجبة التي شُر كماها .
(٢) البيان والتبيين ٢٨٣/١ والمبوان ٥٣/٦ المنق : سم شديد . الرسم : أشد منه الخيط : السريم
(٣) المؤلف والمختاب ١٠ (٤) الأملى ١ / ٤٤ النقاب : سم نقب وهو الطريق .
شزب : ضوامر
(٥) الأملى ٨٥/١

رؤى واستعشر ، فانساب في الرمل . فلما كان الليل ونام القمر نذت رواحطهم ، فقام كل واحد يطالب راحطه ، فغرفوا ، فبينما عبيد كذلك وقد أيقن بالهلكة والموت إذا هو جهنم يهتف به :

يا أيها السارى المضلُّ مذهبه دونك هذا البصكر منا فاركبه
وبكرتك الشارد أيضا فاجنبه حتى إذا الليسـل تجنى غيبه
حُط عنه رحله وسيله

فقال له عبيد : يا هذا المخاطب نشدتك الله إلا أخبرتني من أنت ؟ فأنشأ يقول :

أنا الشجاع الذى ألفتُه رِمَضا فى قفرة بين أحجار وأعتاد
بُجِدت بالماء لما ضـرـ حامله وزدت فيه ولم تبخل بإنجماد
الخبر يبقـ وإن طال الزمان به والشر أخبث ما أوعيت من زاد
فركب البكر وجنب بكره أهله مع الصبح ، فنزل عنه وحل رحله وخلاه
فغاب عن عينه ، ثم جاء إخوانه الذين سلبوا بعد ثلاث ليال^(١)
وهذا الخبر وأمثاله بين الافتعال والوضع ، والغرض منه الترغيب فى عمل الخير ،
وقد نقله أبو الفرج عن كتاب عن ابن الكلبي عن أبيه وقال : هـ وهو خبر مصنوع
يقين التوليد فيه هـ :

وزعموا أن النول سميت بذلك لأنها تقول لهم أى تلون وتشكل بصور شتى ،
أو لأنها تغناهم ، قال كعب بن زهير فى وصف تلون المرأة :

فما تدوم على حال تسكون بها كما تلون فى أثوابها النول^(٢)
وادعوا أن الجن تشكل أحيانا فى صور حيات ، من ذلك ما أورده الدميرى
من قصة الفتى الذى قتل حية ثم اضطربت عليه فقتلته لأنها جنية^(٣) وطبعى ألا يصدق

(١) الأغاني ١٩/٨٩ سامى . أعتاد : كشيان رمل . (٢) جمرة أشعار العرب ٣٠٨

(٣) حياة الحيوان . الدميرى ١/٣١٩ نولاق

أحد هذه المزاعم ، وقد سبق تعليق أبي الفرج على قصة عبيد مع الثعبان . وهذا تعليق ابن هشام على بيت كعب بن زهير : إن العرب أموراً تزعمها لا حقيقة لها ، منها أن الغول تترامى لهم في القنارات ، وتتلون ، وتضلمهم عن الطريق ، وإلى ذلك ذهب أبو عبيدة ، فقد ماله رجل عن قوله تعالى : طلعبها كأنها رموس الشياطين ، كيف ذلك ؟ وإنما يقع الوعد والوعيد بما قد عرف مثله ، وهذا لم يعرف : فأجابته بأن الله تعالى كلم العرب على قدر عقولهم ، أما سمعت امرأة القيس يقول :

أيقنتني والمشرقي مضاجعي ومسئونة زرق كأياب أغوال ؟
وهم لم يروا الغول قط ، ولمكن لما كانت تمولهم أوعدوا بها ^(١) .

فالغول أو الجني المتشكل وهم وتخييل ، ولذلك سموا الغول الخيتمور ، وهو كل شيء لا يدوم على حال واحد ويضمحل ، كالسراب وكالطباشير ، قال الشاعر :

كل أثنى - وإن بدا لك منها آية الحب - حبها خيتمور

وعلى المسعودي لهذا الوهم تعليلاً حسناً مقبولاً في قوله : وقد تنازع الناس في الهواتف والجنان . . . وإن ما تذكره العرب وتنبئ به من ذلك إنما يعرض لها من التوحد في القفار والتفرد في الأودية والسلوك في المهامه الموحشة ؛ لأن الإنسان إذا سار في هذه الأماكن رُوعٌ ووجل وجبن ، وإذا هو جبن داخلته الظنون الكاذبة والأوهام المؤذية السوداءوية الفاسدة ، فصورته له الأصوات ، ومثله الأشخاص وأوهمة المحال ، كما يعرض لذوى الوسوس . . . لأن المنفرد المتوحد يستشعر المخاوف ، ويتوهم المتائف ، ويتوقع الختف ، لقوة الظنون الفاسدة على فكره ، وافتراسها في نفسه ، فيتوهم ما يحكيه من هتف الهواتف به واعتراض الجان له ، ^(٢)

ح - مساكنها واستحاضتهم بها

١ - وقد اعتقدوا أنها تتخالطهم في كل مكان ، ولذا استعاذوا بها واحتموا وقد

أخبر القرآن الكريم بذلك : « وأندكأل رجال من الإنس يعرفون بهآل ابن الجن
فردوهم رفقآ » .

وقد أفاض الشعراء في ذلك قال بعضهم :

قد بت ضيفآ لعظيم الوادى المناس من سيطرة الأعادى
وأحطيت في جهاره وزادى

وقال آخر :

أعيرذ من شر البلاد البير بسيدٍ عظيمٍ بجيسد
أسبح بأوى بلوى زرد ذى عزة وكامل شديد^(١)

وقال ثالث :

يأجن أجزاء اللوى من عالج حاج بكم سارى الظلام الدالج
لا ترهقهوى جوى دالج

وقال رابع :

هيا صاحب الشجرآ هل أنت مانى فانى ضيف نازل بفنائكا
وانك للمينان فى الأرض سيدٍ ومثلك آوى فى الظلام الصعالكا

واستعاذ رجل ومعه ولده بجنى عظيم فى واد ، فأكل الأسد ولده ، فقال :

قد استعذنا بعظيم الوادى من شر ما فيه من الأعادى
فلم يبجرنا من هزبر عاد

٢ - وإذا مرض أحدهم وطالت علته حسبوا أن الجن مسته عقوبة له على

قتله حية أو يربوعا أو قنفذاً أو غزالاً أو أرنباً ، وهى من مراكب الجن وأحبها ،^(٢)

فقدموا الدية للجن جوالات ملاء بالحنطسة والشعير والتمر على جمال من طين ،

(١) الاوى : الرمال اللينة أو المتعطفة . زرد : موضع (القاموس مادة حبر)

(٢) بلوغ الأرب ٢/٢٩٤

ورضعوها بجانب جسر إلى جهة الغرب وقت الغروب ، فإذا أصبحوا ووجدوا الجنان على سائلا قالوا : إن الندية لم تقبل ، فزادوا فيها ، وإن رأوها قد تساقطت وتبدد ما عليها من سب قالوا : قد قبلت ، واستبشروا بشفاء المريض ، وفرحوا ، وضربوا بالدف ، قال بعضهم :

قالوا - وقد طال عنائى والسقم - اجعل إلى الجن جمالات وضم
قد فعلت والسقام لم يُرمم - فبالذى يملك برئى أعتسم
وقال آخر يتبرم بسقمه ، وقد قدم الميرة للجن غير واثق بقدرتها على شفائه
ولسكنه مئى نفسه وبعلها :

فيا ليت أن الجن جازوا بحالى - وزحزح مئى ما عنائى من السقم
وبا لينهم قالوا : أنطنا كل ما حوت - يمينك فى حرب غمأس وفى سلم
أعلل قلبى بالذى يزعمونه - فيا ليتنى عوفيت فى ذلك الزعم^(١)
وذكر غيره أن الجن غضاب عليه ، ولا جريرة له ، وعجب من طلبهم الندية التى
لا حق لهم فيها ، وتساءل كيف ينتصف منهم وهم متوارون عنه ، ولو أنهم ظاهرون
له ما خشيم :

ألا إن جنان النورية أصبحوا - وهم بين غضبان على وآصف
حلت - ولم أقتل - لإبهم حاملة - تسكن عن قاب من السقم تالف
ولو أنصفوا لم يطلبوا غير حقهم - ومن لى من أمثالهم بالتناصف
تغطوا بشوب الأرض عنى ولو بدوا - لأصبحت منهم آمناً غير خائف
وكانوا إذا اشتروا داراً أو بنوها أو تجروا عيناً ذبحوا عندها ذبيحة وسموها
ذبيحة الجن حتى لا ينالها شؤم^(٢) .

وكان القنفذ من مراكبهم كما قلنا ، قال شاعر فى قنفذ رآه ليلاً إنه يصعب من
اختيار الجن إياه مركبا ، ويدهش من تركهم الخيل والأسود والنوق :

(١) أنطنا : أعطنا . غمأس : شديدة .

(٢) المخصص ١٣/٢٥

فأيسرُجُ الجنان منك .. عَدَّتْهُمُ - وفي الأسد أفراس لهم ونجائب
 أيسرُجُ يربوع ويلجُمُ قنـد ؟ لقد أعوزتْهم .. ما علمتُ .. النجائب
 ونسبوا إلى الجن شمراً في مراكبهم .
 وكل المطايا قد ركبتنا فلم نجد
 ومن عَضْرُفُوطٍ عن لي فركتبته أبادر سرباً من عَضْرُفٍ قوارب^(١)
 ٣ - ومسكنها الفلوات ، وقد أكثروا من القول إنهم سمعوا عزيضا هناك ،
 ولعل الذي غيبل ذلهم ذلك زَجَجُ الأصوات ، وصدى الريح المتناوعة ، والرمود
 القاصفة ، والوحوش المصوتة في بيضاء كلها وهاد ونجاد ، قال الأصمعي : وإنما
 العزف من الريح على الرمل فَنَسْمِعُ له صوتا ، والجن لا تعزف ولكن الأعراب
 قالوه بحولهم ،^(٢)

قال الشاعر :

ويهماء تعزف جِئَانِهَا مناهلها آجِنَاتُ سُدُم^(٣)
 وقال آخر :

وبلدة مثل ظهر الترس موحشة للجن بالليل في حافاتها زَجَل
 وقال بشر بن أبي خازم إنه اخترق الفلاة التي تعزف عنها ، وتهدر ريجها :
 وخرق تعزف الجنان فيه فيأفبه نَحْنُ بها السَّهَامُ^(٤)
 وقال أعشى باهلة في رثاء أخيه المنتشر إنه كان جريثاً يمشى في اليد التي لم تطأها
 قدم ، فلا أثر فيها لغير الجن :

من ليس في خيرهِ من بَكَدِرِهِ على الصديق ولا في عَفْوِهِ كَكَدِرِ
 يمشى بهيذاء لا يمشى بها أَحَدٌ ولا يَحْسُ .. خلا الخافي .. بها أثر^(٥)

(١) العضر فوط : ذكر الفظاه أو هو من راكب الجن . العفاء : جمع عفاة : دوية مثل سم أبرس

(٢) ديوان جبران النود الحميري ١٩

(٣) سدم : معلومة .

(٤) الفضليات ١٣٤/٧ السهام : الريح الحارة (٥) جمرة أعمار العرب ٢٨٠ الخافي : الخبي

وضرفة بن العبد استطاع اختراق القياف التي تعرف الجن فيها :
وركوب تعرف الجن به قبل عسكنا الجيوس من عهد أيد
قد تطننت بطرفي هيكل غير مرياه ولا جأب مكك^(١)
والمثقب العبدى قد اجتاز بناقته موماة تعرف جنها :
في بلدة تعرف جناتها فيها خنطليل من الرود^(٢)
وقد ظل هذا التخييل إلى ما بعد العصر الجاهلي ، فجران السرد الفيرى يقول في
قصيدة غزلية قصصية :

هلن جران السرد حتى وضعه بطيأة في أرجائها الجن تعرف^(٣)

و - صحبة وزواج

راجعت قصص زواج الإنس بالجن في الأدب العربي ، ولعل هذا الزواج يائد
إلى زواج السحر والحفاه ، ورواج ما كان يتحدث به السحار والرواة من غرائب
تسوق السامعين .

وقد أفرد ابن النديم في الفهرست ثلثاً بأسماء عشاق الإنس للجن وعشاق الجن
للإنس ، وعلق عليها بقوله : « وكانت الأسحار والحرافات مرغوباً فيها مشتمة
في أيام خلفاء بني الصباس لا سيما في أيام المعتذر ، فصنف الوراقون وكتبوا ، فكان
من يقتل ذلك رجل يعرف بابن دلان وأسر يعرف بابن القطار » .^(٤)

١ - وقد أكتروا من ذكر صحبتهم للجن ، وعاشرتهم ومخالطتهم مفانرة
بشجاعتهم وقسوتهم على ما يعجز عنه الناس ، قال عبيد بن أيوب العنبري أحد
لصوص العرب :

(١) ديوان طرفه ٤٤ أهد : قديم وأضيفت نسخة إلى الموصوف . مرياه : تقبل في شبه . الجأب :
الغليظ . مكك : يكد بالساق والسرط . (٢) البيان والتميين ١ / ١٧٨ [بل خنطليل : متفرقة .
الرود : الذهب إلى المرعى (٣) ديوان جران السرد ١٩ (٤) الفهرست ٤٧٨

تقول وقد ألمت بالأمس لمةً مخضبة الأطراف خرس الخلاجل
أهدنا خدين العون والذئب والذي بهم بربات الحجال المراكل ؟^(١)
وقال إنه رأى نارها التي كانت توقدها للتعرب المتعفر فيأنس ويهدى :
فله در الغول : أرى رقيقةً لصاحب قهر في المهامه يُذعر
أرئت بلحن بعد لحن وأوقدت حوالى نيرانا تلوح وتزهر^(٢)
وتباهى في حديثه لحبيته بأنه ألف الضلان والسطل :

وساخرة منى ولو أت عينها رأت ما ألقىه من الهول جنت
أبيت وسعلاة وضول بقفرة إذ الليل وارى الجن فيه أرئت^(٣)
ونسبوا إليه كثيراً من الشعر المنصل بالفيضان : كما نسبوا إلى تأبط شرا ، ولعلمهم
لاموا بين حياتهما القائمة على التعفر والصلصلة والفتك وبين هذا التخييل العجيب .
وروى الجاحظ لمسهم أو سمير بن الحارث الضبي أنه أوقد ناره بالصحراء فطرقه
الجن ، فدعاهم إلى الطعام فأبوا :

ونار قد حصّات بُعيد وهن بدار لا أريد بهما مقاما
سوى تجليل راحلة وعين أكاثها مخافة أن تناما
أنوا نارى فقلت : متون ؟ قالوا سراة الجن . قلت : عموا ظلاما
فقلت إلى الطعام ، فقال منهم زعيم : تحمد الإنسان الطعاما^(٤)

وإختلف الشراح في معنى الحمد هنا ، وأحسن ما قيل أنهم لا يأكلون ما يأكل
الناس وإن كانوا يشتهونه .

وشبهه هذه القصة ما نسبته جندع بن سنان الغساني إلى نفسه أو ما نخله القصاص
إياه ، فيه تفصيل لوفود الجن على ناره وتحتيه لهم وأنه رأيهم ملاح الوجوه ، فنحروهم .

(١) الميوان ٥١/٦ المراكل : جمع مركلة أو مركوة أو مركيل : المسنة الجمدة والحاق والشية .
ويرى (السكوني)
(٢) الميوان ٤٧/٥ ، ٥٠/٦ و مروج الذهب
(٣) الميوان ٤٥/٦ و مروج الذهب ٢٥٧/١ (الشعر لأبي الطراب)
(٤) الميوان ١٥٣/٤ و ٦٠/٦

أتوا ناري فقلت : منون أنتم ؟ فقالوا : الجن . قلت : عمو صباحا
 نزلت يشجب وادي الجن لما رأيت اللسلسل قد نشر الحنابحا
 أتيتهم واللاقصداد حشم تلاق المرء صباحا أو رواحا
 أتيتهم غسريا مستضيئا رأوا قتلى — إذا فعلوا — جناحا
 أتوني سافرين فقلت أمسلا رأيت وجوههم وسمّا صباحا
 نحررت لهم وقلت : ألا هللسوا كلوا عما طويت لكم سماحا
 ، وكلا الشعرين أكدوبة من أكاذيب العرب لم تقع قط ، (١) .

٢ — وتمادوا في تحفيل الصعبة والمشرة حتى زعموا أن عمرو بن ربوع تزوج
 الغول ، وأولدها بين ، ولذا سُمّوا بني السمللة ، قال شاعرهم :
 يا قحج الله بني السمللة عمرو بن ربوع شراد الثأت
 ليسوا بأبطال ولا أكيات (٢)

ويزعمون أن تأبط شرأ لقي الغول فراودها عن نفسها فأبت فقتلها .
 فطالبها بعضهم فالتوت فكان من الرأي أن تقتلا (٣)
 وحدث عبيد بن أيوب الضبيري عن نفسه أنه تزوج الغول :
 علام ترى ليلتي تعذب بالني أضا فقرات كالتب بالذئب يأنس
 وصار حليل الغول بعد عرارة صفيًا ، وربته الفقار البسابس (٤)
 وذكر الجاحظ عن أبي زيد أن رجلا تزوج السمللة ، وأنها كانت عنده زمانا
 وولدت منه حتى رأته ذات ليلة برقا على بلاد السعالي فطارت إليه فقالت :
 رأيت برقا فأوضع فوق بكر فلأيا ما أسال وما أعاما

(١) شرح أدب السكاك لابن السيد

(٢) الثأت : الناس . أكيات : أكياس (٣) الأغاني ١٨ / ٢٠٩

(٤) الحيوان ٥١/٦ المرأة : النساء بلدن الذكور . البسابس : الفقار الحليّة .

فمن هذا الشئ المشترك وهذا الخلق المركب بنو السعلاة من بني عمرو
ابن يربوع^(١).

وإلى هذا أشار أبو العلاء في ذكره حين الإبل إلى البرق :

إذا لاح إيماض سترت وجوها كأنى عمرو والمطى سمالي
هـ - قتلهم القول

والعامة تزعم أن القول إذا ضربت ضربة واحدة ماتت ، فإن أعاد الضارب
ضربة أخرى قبل أن تموت فإنها لا تموت ، قال الشاعر :

فقتبت - والمقدار يحرس أهله - فليت يميني قبل ذلك سُلت
وأنشدوا لابن البلاد الطهوى :

لما ن على جبينه ما ألقى من الروعات يوم رسا بطان
لقت القول تسرى في ظلام بسبب كالعباية صمصحان
فقلت لها : كلانا نضو أرض أخو سفر فصدى عن مكاني
فصدت وانتحيت لها بعضب حسام غير مؤتشب ، يمانى
فقدت سراتها والبرد منها نقرت للبدن وللجران
فقال: زد . فقلت : رويد إني على أمثالها ثبت الجنان
شدت عقالها وحططت عنها لأنظر غُدوةً ماذا دهاني
إذا عينان في وجه قبيح كوجه الهر مشقوق اللسان
ورجلا مخدج ولسان كلب وجلاد من قراب أو شنان

وأبو البلاد الطهوى هذا من شياطين الأعراب ، وهو كما ترى يكذب وهو يعلم
ويطيل الكذب ويحيزه .^(٢)

فهذا الشاعر يدعى أو يدعى له أنه لقي القول في الظلام بفلاة واسعة مستوية ،

(١) الحيوان ٦٠ / ٦

(٢) الحيوان ٧٢ / ٦ صمصحان : أرض مستوية . سبب : فلا . خدج : ناقص الخلق . شنان :

قرب بالية . الجران : مقدم عنق البعير من مذبجه إلى منخره .

نقدتها بقوله إن كلاً منهما نزل من الرجال فابتعدت عنه، ولكنه أنحى عليها
 بيمينه التامع فقد ظهر ما وثوبها ثفرت صريعة، فهبت أن تحدهه كما خدعها فقالت له
 زدني ضرباً، فلم يضربها لثلاثاً، وفي الصباح نظرها فرأى شكها العجيب .
 ولكن هذه القصيدة المنسوبة لأن البلاد الطهوى تشاد هي نفسها تكون
 منسوبة لتأبط شراً، ولأبي الغول الطهوى . قال تأبط شراً :

ألا من مبلغ فتيات فهم	بما لاقيت عند رحا بطان
بأني قد لقيت الغول تهوى	بسبب الصحيفة خصصان
فقلت لها: كلاتنا نضو أرض	أخر سفر، فغلي في مكان
فشدت شدة نعوى فأهوت	طما حكني بمصقول يمان
فأضربها بلا دهش، فثرت	صريعاً للدين والجران
فقالت: ن. قلت لها: رويدا	مكانك إنني ثبت الجنان
ولم أنفك مضطجعاً لديها	لأنظر مضعها ماذا دهاني
إذا عشتان في رأس دقيق	كرأس الحر مشقوق اللسان
وساق مخدج ^١ ولسان كلب	وثوب من عباء أو شنان ^(٢)

والقصيدتان قصيدة واحدة بها تغيير يسير .

ولا تخرج الآيات التي عزيت إلى أبي الغول الطهوى عن ذلك^(٣) .

ثم هم ينسبون إلى تأبط شراً أبيتانا آخر يصف فيها لقاءه للغول وأنه راوردها
 عن نفسها فأبت قتلتها :

فأصبحت الغول لي جارة	فيا جارتا لك ما أهولا
فطالبتها بضعها فالتوت	على وحاولت أن أقملا
فن كان يسأل عن جارتي	فإن لها باللوى منزلا ^(٤)

(١) الأغانى ٢٠٩/١٨ ومجموع البلدان ٢٣١/٤ وصبح الأعشى ٤٠٥/١ وبلوغ الأرب ٣٧٩/٢

(٢) اللؤلؤ والمخفف ١٦٣ (٣) الأغانى ٢٠٩/١٨

وروى حكماً :

«أنت يا بنيتها فالتوت فكان من الرأي أن تقتلا
تطلبها مرصفاً سارماً أبان المرافق والمنسلا

و ... الجن في الأدب اليوناني

ولم يشد العرب بتخليهم الجن وتصورهم لشكلهم وادعائهم أنهم يخاطبونهم ،
فإن الأدب اليوناني مليء بهذا التخييل ، والميثولوجيا الإغريقية حافلة بالأقاصيص
عن آلهة اليونان وأنساب الآلهة ، وعرائس البطار والفتيات وبنات الملأ .
ومن عجرات سكان الأولب القدرة على التشكل بهيمة إنسان أو حيوان أو
نبات أو جماد ، فليس عجباً أن يمثل هوميروس هذه الأساطير في صور شعرية شائقة ،
وليس عجباً أن تعبر أساطيرهم بأقاصيص الغرام بين الآلهة والبشر في ثنابا الإلبانة
والأوديسة ، وفي شعر هسيود وروايات سوفوكليس وپوربيدس . وما قصة غرام
أفروديت بأودونيس إلا صورة من قصة الجنية العاشقة في تصوير شعري رائع .

(٤) شياطين الشعراء

عبقور . شيطاننا الشعر . شياطين بعض الشعراء . شياطين شعراء الإفرنج .

العقل الباطن

١ - الشعر وحى وفيض وإلهام ، وهو إذا ما صدر عن عاطفة مشبوبة صادقة
فإن لا أثر للإرادة فيه ، أو أثرها فيه أضعف من أثر التلقين والطواعية والاستعداد
من أغوار النفس واللاشعور .
وقد نسب العرب كل أمر عجيب إلى الجن ، وتخيّلوا أن عبقر وادبهم ومقامهم ،
وقالوا في الأمر العظيم عبقرى ، فلا عجب أن يصلوا الشعر بالجن ، ولا عجب أن
يتخيّلوا أن لكل شاعر شيطاناً يلهمه القريض ، ولكن للشعر شيطانين ، أحدهما مجيد
واسمه الطور ، والآخر مفسد واسمه الهوجل ، وكانت عقبتهم هذه معلومة في العصر

الإسلامي ، فقد روى أن رجلاً من تميم أتى الفَرَزْدَقَ وقال له : إني قد قلت شعراً
فاستمعه ، قال أنشدني ، فقال :

ومنهـم عُمرُ المَحمودِ نائـلُه كَأَنا رأْسُه طَينُ الخِوا تيم
فَضَحَكَ الفَرَزْدَقُ ثُمَّ قالَ : يا ابنِ أُخِي ، إنَّ للشَّعْرَ شَيطانينِ يدْعِي أحدهما الهُوبِرَ
والآخَرَ الهُوجِلَ ، فَمَنْ انْفَرَدَ بِهِ الهُوبِرُ جادَ شَعْرَهُ ، وَمَنْ انْفَرَدَ بِهِ الهُوجِلُ فَسَدَ
شَعْرَهُ ، وَقَدْ اجْتَمَعَا لَكَ فِي هَذَا البَيْتِ ، فَكَلِمَةُ الهُوبِرِ فِي أوَلِهِ فَأُجِدَتْ ، وَخَالِصَتُكَ
الهُوجِلُ فِي آخِرِهِ فَأُفْسِدَتْ (١) .

وقد سموا الشعر رُقى الشياطين ، قال جرير :

رَأَيْتُ رُقىَ الشَّيْطَانِ لَا تَسْتَفْرِدُ وَتَمَدُّ كُنْ شَيطَانِي مِنَ الجِنِّ رَاقِيَا
وقال آخر :

مَآذَا يُظَنُّ بِسَلْبِي إِذَا بَلَغَهَا مَرَجَلُ الرُّأْسِ ، ذُو بَرْدٍ وَضَاحٍ
خَزَّ عَمَامَتَهُ ، حَلَوُ فَكَاكِهِ فِي كَفِّهِ مِنَ رُقىِ الشَّيْطَانِ مَفْتَا حِ
وصرح كثير منهم في العصر الجاهلي : وفيما بعده ، بأن شياطينهم تلهمهم أفانين
القول : قال الراجز :

إِنِّي وَإِنْ كُنْتُ صَغِيرَ السِّنِّ وَصَكَانَ فِي العَيْنِ نَبْوٌ عَنِّي
فَإِنَّ شَيطَانِي أَمِيرَ الجِنِّ يَدْهَبُ بِي فِي الشَّعْرِ كُلِّ فَنٍّ (٢)
وقال حسان في جاهليته يعزو إلى شيطانه أنه قاتل بعض شعره .

إِذَا مَا تَرَعَرَعَ فِينَا الغَلامُ فَمَا إِنْ يُقالُ لَهُ : مِنْ هُوَ
إِذَا لَمْ يَسُدْ قَبْلَ شَدِّ الإِزارِ فَذَلِكَ فِينَا الَّذِي لا هُوَ
وَلِي صَاحِبٍ مِنَ بَنِي الشَّيْصَبانِ فَطَوْرًا أَقولُ ، وَطَوْرًا هُوَ

وقال جرير :

إِنِّي لِبَلِيٍّ عَلى الشَّعْرِ رُكَّ مَكْتَبِلٍ مِنَ الشَّيْطَانِ

بـ ولم يكتبوا بنسبة شعرهم إلى الشياطين : بل سموها ، فكان لكل شاعر
شيطانه المسمى شيطان الأعشى مسجول ، وشيطان قريش بن قطن جهنم . قال الأعشى :
دعوت خليلي مسجلاً ، ودعوا له جهنم بدأ للتوى المذموم (١)
وشيطان الخنبل السعدي عمرو ، قال الشاعر الإسلامي :
لقد كان جنِّي الفززدق قدوة ولا كان فينا مثل لخل الخنبل
ولا في القوافي مثل عمرو وشيخه ولا بعد عمرو شاعر مثل مسجل
وشيطان عبيد بن الأبرص عبيد ، وهو نفسه شيطان بشر بن أبي عازم ،
وينسبون إليه قوله :

أنا ابن الصلادم أدعى الهيد حبوت القوافي قري أميد
عبيداً حبوت بأفورة وأنظقت بشرأ على غير كد
ولاقى مدرك رطط الكهيت ملاذا عريزاً ويجسداً وجد
منحناهم الشعر عن قدرة فمل تشكر اليوم هذا معد (٢)
وسأله الراوي : أما عن نفسك فقد أخبرني ، فأخبرني عن مدرك ، فقال : هو
مدرك بن وانعم صاحب الكهيت ، وهو ابن عمي .
وقالوا إن شيطان امرئ القيس لا يلفظ بن لاحظ ، وشيطان النابغة الذبياني
هاذر (٣) ، ونسبوا إلى أبي نواس أنه كان يستعين بإبليس في نظم الشعر ، ورووا له
أبياتاً منها :

دعوت إبليس ثم قلت له في سَطوة والدموع تنهدر
أما ترى كيف قد بليت ، وقد أفرح جفني البكاه والسهر ؟
إن أنت لم تلوق لي المودة في صدر حبيبي وأنت مقتدر
لا قلت شعراً ولا سمعت غنياً ولا جرى في مفاصل السكر
فا مضت بعد ذلك نالسةً حتى أتاني الحبيب يعتذر (٤)

(١) رسائل أبي العلاء ١٠٥

(٢) جهرة أثمار العرب ٢٣

(٣) المدبرة ٢٢

(٤) عصر المؤمن ٢٣٣/٣

ولم يقتصروا على نسبة الشعراء للشياطين ، بل نسبوا إليهم الغناء أيضاً في الإسلام ، فقالوا إن الغريض كان يثاني غناؤه عن الجن ، وأن سمارة سمعوا وهو يغنيهم ذات ليلة عزيها عجيباً وأصواتها مختلفة أفرعتهم ، فقال لهم إن فيها صوتاً إذا نام سمعه ، ويصبح فيني عليه غناؤه ، فأصغروا إليه فإذا نغمته هي نغمة الغريض فصدقوه ^(١) . ولم يفتح أبو النجم أن يكون شيطانه كشياطين الشعراء ، فادعى أن شيطانه ذكر وشياطينهم إناث ؛ لأن الذكور أقوى من الإناث وأقدر :

إني — وكل شاعر من البشر شيطانه أنثى — وشيطاني ذكر
وروى بعضهم بيت عمرو بن كلثوم في مملقته هكذا :

وقد هرت كلاب الجن منا وشذّ بنا فتادة من يلينا ^(٢)
وقال إن الشعراء كانوا يسمعون كلاب الجن ، فالعنى أننا لبسنا الأسلحة فشرع الشعراء يذكر وتنا ويرهبونا .

ج — ولهم مع شياطين الشعراء أقاصيص ومساجلات ، ومحامكات منشورة في كتب الأدب ، نذكر بعضها للتمثيل :

قال جرير بن عبد الله البجلي ^(٣) : « سافرت في الجاهلية فأقبلت على بعيري ليلة أريد أن أسقيه ، فأني أن يتقدم ، فدنوت من الماء وعقلته ، ثم أتيت الماء فإذا قوم مشوهون عنده ، فقعدت . ثم أتاهم رجل أشد تشوهاً منهم ، فقالوا هذا شاعرهم وطلبوا منه أن ينشدني ، فانشد :

ودع هريرة إن الراكب مرتحل البيت

فلا والله ما نحرمت منها بيتاً واحداً ، حتى انتهى إلى هذا البيت :

تسمع للحلّي وسواساً إذا انصرفت كما استعان برحٍ عشرين زَجِل ^(٤)
فأهجه ، فقلت له : من يقول هذه القصيدة ؟ قال : أنا ، قلت : لولا ما تقول

(١) الأغاني ٣٧٣/٢ الدار

(٢) آكام المرجان والملقات المشرف لشنقلى ١٠٠ وشرح القصائد العشر للبريزي ٢٢٧

(٣) الأغاني ١٥٦/٩

(٤) المشرف : شعبية في أكامها حب سنيب إذا جفت فرت بها الريح سمعت لمبها خشخشة

لأخبرتك أن أعشى بن ثعلبة أشد نبيها ، أما أول بنجران ، قال : فإنك صادق ، أنا الذي ألقيتها على لسانه ، وأنا مسجل صاحبه ، ما ضاع شعر شاعر وضعه عند ميمون بن قيس .

وقد لاقى الأعشى هاجسه مسجلا وسمع منه (١) ، وقد اعترف في شعره أن مسجلا يوحى إليه ، بل إنه مصدر وجيه ولولاه ما شعر .

وما كنت شاحوذاً ولكن حسبتني إذا مسجلا يسدي لي القول أعلق
شريكان فيما بيننا من هواده صفيان : إنسي وجن موق
يقول فلا أعبا بقول يقوله كفاني ، لا عي ولا هو أخرق (٢)

وحاور عبيد بن الحارث بن جنيث بالشعر (٣)

وذكر أبو العلاء أن أبا بكر بن دريد قص على أصحابه أنه رأى فيما يرى النائم أن قائلاً يقول : لم لا تقول في الخمر شيئاً ؟ فقال : وهل ترك أبو نواس مقالاً ؟ فقال له أنت أشعر منه حيث تقول :

وحمراء قبل المزج صفراء بعده أنت بين ثوبى نرجس وشقائق
حكمت وحنة المشوق صرفا فدلطوا عليها مزاجا فأكست لون عاشق

فقال له أبو بكر : من أنت ؟ فقال : أنا شيطانك ، وسأله عن اسمه فقال : أبو زاجية ، وخبره أنه يسكن بالموصل (٤) .

و — وإذا كان العرب قد عروا شعرهم إلى الجن ، وتخيلوا أنها تلهمهم ، ونسبوا كل أمر عظيم إلى عبقر فإن الفرنجة يشبهونهم في كثير من تخيلهم .
يعبر الإنجليز عن العبقرية بكلمة Genius ومصدرها الذي اشتقت منه كلمة

(١) خزائن الأدب ٥٤٩/٣ (٢) جبهة أشعار العرب ٣٠

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤٤٨/٤

(٤) رسائل أبي العلاء ١٠٦

Genii ومنهما جن ، فبين العبقرية والجن علاقة في اللغة الإنجليزية كالعلاقة التي بين عبقر والعبقرية في اللغة العربية ، وتبيل إن أصل الكلمة لاتيني يدل على معنيين متقابلين ملك رحيم وشيطان رجييم ، يولد الواحد منهما أو يولدان معاً بولد الشاعر ، ويقصون عن بعض شعرائهم قصصاً تشبه شهاباً قويا ما روى عن شياطين شعراء العرب فثلاً بدأ الشاعر كولدج قصيدته (كوبلاخان) وأتمها له جنى والشاعر نائم . واستيقظ الشاعر ماسفيلد من نومه لينقل عن جنى قصيدته (المرأء تسكلم) . وأغرب من هذين ما يرويه ولهم بلاك عن نفسه إذ يزعم أنه مسكون ، وأن ساكنيه ملائكة وشياطين تطارده نهاراً ، وتوقظه ليلاً ، لتوحى إليه بما ينظم وسياً لا يستطيع أن يصده ولا قدرة له على تنقيح ما توحى به .

ويقول « ريلكه » إنه ظل أسير الأرواح ثلاثة أيام لم ينقطع فيها نظمته ، وأخرج ديواناً من دواوينه الروائع ، وأعجبه ، وألح الجن أن ينشره ، فرضى على شريطة أن يكون النشر بعد وفاته ، حتى لا يتحمل تبعه شعر أملاءه عليه جنى جالس قبائمه (١) هـ -- ولكن علم النفس يبرزو هناكه إلى العقل الباطن ، وقد كشفت الدراسات التي قام بها علماء التحليل النفسى عن كثير من عمل العقل الباطن عند الفنان ، وانتهوا إلى أن لإنتاج الفن يصدر غالباً عن العقل الباطن كأنه حلم يقظة .

ويروى ستيفنسن كيف بدأ هو نفسه يكتب قصته الفنية البديعة « دكتور جيكل ومستر هيد » فيقول : « إن العمل الحقيقي يقوم به مساعد غير منظور أبقية أنا داخل حجرة عليا مظلمة . . . يقوم به أولئك الناس الصغار -- في الدماغ -- الذين ينجزون لى نصف عملى وأنا مستغرق فى نومى ، وربما أجزوا النصف الباقى وأنا مستيقظ تمام اليقظة ، حيث أظن أنى أنا القائم بالعمل ، وكثيراً ما يعنى لى أن أعتبر نفسى غير فنان ، بل مخلوقاً شأنه شأن بائع الجبن أو الجبن نفسه . »

وهذا التصوير المستلح تويده إشارات من كتاب آخرين ، فهذا فولتير - وقد
جلس مرة أخرى في إحدى مقاصير المسرح يشهد تمثيل رواية من روايات - يصبح
متحجياً : أسبقاً أنا الذي كتب هذا ١٤

وجورج إيلوت - ولم تكن تعتقد في قوى نفسية غير طبيعية - تصرح أنها
قد خيل إليها وهي تكتب Adam bede أن عقلاً آخر قد استحوذ على قلبها وسيره .
ويقول جوته إنه كتب أحسن رواية له وهو في غيبوبة حاملة يشبهها بحالة النائم الماشي .
وكثير من الأدباء الأحياء صرحوا بهذا ، فثلا يروفور هو - يمان يقول في طريقة
إنتاج قصائده : أنا أظن أن إنتاج الشعر ليس عملية فاعلة Active قدر ما هي قابلة
Passive وغير اختيارية (١) .

و - التحليل النفسى يعزو إلى العقل الباطن الإنتاج الأدبى الرفيع ، وقد عبر
الشعراء العرب والإفرنج عن هذا العقل بأنه قوى خفية تلهم ، وسموها شياطين .
وإذا كان الشعراء يحققون بجنائين من الخيال فقد حُق للشعراء أن ينطلقوا مع خيالهم
فينسبوا شعرهم إلى قوى وراء حسيهم . وتصورهم هذه القوى شياطين ألصق بالخيال
وأدى إلى الشعر من التحليل النفسى الذى يرجع الإنتاج الأدبى إلى العقل الباطن
للشاعر ، أى إلى الشاعر نفسه .

لست بهذا أهم مع الشعراء ، وأجدد حقائق العلم ، وإنما أقرر أن الشعراء كانوا
موفقين في تخيلهم وفي دعواهم أن شياطينهم تلهمهم أو تمنى عليهم .

(٥) الزجر والعيافة

ما الزجر ؟ بم تشاء موا ؟ بم تقاموا ؟ إنكار كثير منهم الزجر

١ - الزجر والعيافة أن تعتبر بأسماء الطير ومساقطها وأنواتها فتسعد أو تشام ،
والعائف المستكهن بالطير أو غيرها (٢) .

(١) كيف يعمل العقل . سرل برن ٢/٢١٨ - ٢٢٠ (٢) القاموس المحيطة مادة عائف .

وقد شاع في العرب زجر الطير والوحش وإثارتها ، فأتى من عنها سموه سانحا ، وما نيسر سموه بارحا ، وما استقباهم فهو الناطح ، وما جاء من خلفهم فهو التبعيد .
واختلفوا في تفاوتهم وتشاؤمهم بها ، فمنهم من يتشاهم بالبارح لأنه لا يمكن رميه إلا بالانحراف إليه ، ويترك بالسانح . ومنهم من يرى عكس ذلك ^(١) . قال عمرو ابن العلاء : « سأل يونس ربيعة بن العجاج : ما السانح ؟ قال : ما ولاك ميامنه . وما البارح ؟ قال : ما ولاك مياسره » ^(٢) .

وحكى أبو عبيدة عن ربيعة أن البارح ما جاء من ميامنك إلى مياسرك فولاك مياسره . والسانح ما جاء من مياسرك فولاك ميامنه ^(٣) .

ونقل عن المفضل الضبي أن البارح ما يأتيك من يمينك إلى يسارك ، والسانح ما يأتي من يسارك إلى يمينك ^(٤) .

وإنما اختلفوا في الاصطلاح لأن الزجر وهم وخرافة تابع للمصادقة البحث ، فن زجر طير أو قضي لباته تغافل باتجاهها ، ومن لم يقض حاجته تشامم بهذا الاتجاه نفسه .
قال ابن دريد : أهل نجد كانوا يمينون بالسانح ويتشاهمون بالبارح . وأهل الصالية على عكسهم . وقال أبو جعفر النحاس : السنيح عند أهل الحجاز ما أتى من اليمين إلى اليسار ، والبارح عندهم ما أتى من اليسار إلى اليمين ، وهم يتشاهمون بالسانح ويمينون بالبارح ، وأهل نجد بالاضد من ذلك والسانح عند أهل نجد هو البارح عند أهل الحجاز ، وقال المبرد : السانح ما أراك مياسره فأمكن الصائد ، والبارح ما أراك ميامنه فلم يمكن الصائد إلا أن يتحرف له ^(٥) .

ب — وأصل التطير من الطير إذا مر بارحا أو سانحا أو رآه يتفلى ويتنصف ، ثم صاروا إذا رأوا الأعور من الناس والبهائم ، أو الأعصب أو الأبت زجروا

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم
(٢) الأغانى ١٥٧/٩ سلسي
(٣) بلوغ الأرب ٣/٣١٨
(٤) السدة ٢/٢٠٣ والأغانى ١٥٧/٩ سلسي

عند ذلك وتطيروا كما تطيروا من الطير إذا رأوا على تلك الحال ، فزجر الطير هو الأصل ، ومنه اشتقوا التطير ، ثم استعملوه في كل شيء (١)

فهم إذا بدوا بالطير ثم انتقلوا إلى غير الطير من الحيوان ، ثم جاوزوا الحيوان إلى ما يحدث في الجماد من كسر أو صدع مثلا (٢) .

وليس في الأرض بارح ولا تطيح ولا قصيد ولا أعضب ولا شيء مما ينشاهمون به إلا والغراب عندهم أنكد منه ، وأبشع إخباراً ، وأشنغ أخباراً ، فلماذا خصوا الغراب بهذا ؟

لعل سبب ذلك أمور راجعة إلى لونه ، وإلى عمله ، وإلى اسمه ، ونستطيع أن نستنبطها من قول الجاحظ : « تطيروا بالغراب إذا كان أسود ، ولاختلاف لونه إن كان أبيض ، ولأنه غريب لا ينقطع إليهم ، ولأنه لا يوجد في موضع خيامهم يتقمم إلا عند مهابنتهم لمساكنهم ومزابلتهم لدورهم ، ولأنه ليس شيء أشد على ذوات الدبر من إبلهم من الغراب ، ولأنه ينقب عن الدبر حتى يبلغ إلى دابات العنق وما اتصل بها من خرزات الصلب وفقار الظهر » (٣) . وقد بسط ولوعه بنقر قروح الإبل في موضع آخر إذ يقول إن العرب تسمى الغراب ابن داية ، لأنه إذا وجد دبة في ظهر البعير أو قرحة في عنقه سقط عليها ونقره وعقره حتى يبلغ الدابات ، وإذا كان في ظهر البعير دبة غرزوا في سنامه إما قوادم نسر أسود وإما خرقة سوداء لتفزع الغراب منه ولا تسقط عليه . وقد يوضع الريش علامة للجمل الملوك (٤) .

وأشار إلى التشاؤم باسم الغراب بقوله إن اسمه قد اشتقت منه الغرابة والاعتراب والغريب (٥) .

(١) الحيوان ١٣٥/٣ (٢) صبح الأعشى ٣٩٩/١
 (٣) الحيوان ١٣٦/٣ الأبقع : الذي فيه بقع كالبق في الدابة . الدبر : جم ديرة وهي القرحة .
 دابات العنق : قرحة (٤) الحيوان ١٢٩/٣ (٥) الحيوان ١٣٥/٣

لذا جازا الغراب مثلا في التشويم ، حتى إنهم إذا ذكروا غيره ذكروا الغراب معه ، وقد يذكرون الغراب وحده ، وهم يتشاهمون بينهم من وجه واحد ، أما هو فكثير المعاني في هذا الباب ، فهو المقدم في التشويم ^(١) .

وبلغ من بغضهم له أن تهرزوا من التمرجج باسمه ، فسكنوا عنه بالأعور مع أنه مشهور عندهم بقوة الإبصار وشفاء العين ، فيقال : أصح بدنا من غراب ، وأبصر من غراب ، وأصفي عينا من غراب ^(٢) .

وقد أكثر الشعراء من ذكر تشاؤمهم بنبيه وشجيته ، قال عنزة إن الغراب الأبقع قد أذرته بين أحبابه ، وإنه غراب كره المنظر مفسول الريش مولع بتفريق الأحبة ، فسكان فسكيه مقص يقطع الأواصر :

ظعن الذين فراقهم أتوقع وجرى بينهم الغراب الأبقع
حرق الجناح كأن لي رأسه جلوان . بالأخبار شمس مولع
فجرته الأبرخ ضيره أبداً ويصبح خانقا يتنصع
إن الذين نعت لي بفراقهم هم أسهروا لي ليل التمام فأوجعوا ^(٣)
وتوجس زهير أن يرتحل عنه أحباؤه لما سمع نقيق الغراب :
ألقي فراقهم في المقاتين قدى أمسى بذلك غراب البين قد نعدقا
وكذلك توجس النابغة :

زعم العواذل أن رحلتنا غدا وبذلك تنعاب الغراب الأسود ^(٤)
وبقي التشاؤم بالغراب إلى ما بعد الإسلام ، وما زال الناس يتشاهمون به وباليوم إلى اليوم ، قال عمر بن أبي ربيعة :

نعب الغراب بين ذات الدمعج لست الغراب بينها لم يشجع ^(٥)

(١) الحيوان ١٣٧/٣ (٢) الحيوان ١٣٠/٣

(٣) ديوان عنزة ١٠٣ والحيوان ١٣٦/٣ . حرق الجناح : مفسول الريش مقطعه . الجلوان : جابا الوجه . البطم : القس الكبير . يفرخ : تصير له فراخ

(٤) الأغاني ١٥٧/٩ ساسي

(٥) يشجع : يصوت . يقال شجع الغراب إذا غلظ صوته لسكبه سنه .

وقال جرير :

إن الغراب بما كرهت لمولج بنوى الأجنة دائم التفتُّح
ليت الغراب غداة يذهب دالبا كان الغراب مقطوع الأرداج

على أنهم تشابهوا بطيور أخرى ، منها الجراد ، لأن فيه معنى الجرد ، ولأنه ذو ألوان ^(١) ، والجراد من معانيه القحط والمنع والتعرية واليل ^(٢) . وسند ذكر قصة النابذة وصاحبه لما سرجا للفرس فسقطت جرادة على أحدهما فتطير ورجع ، ولم يبق الآخر فغمغمت وعباد .

وقد يتطرون بالبازي والغراب والرَّخْم والبرصه وأشياء كثيرة من جهة التسمية ويلقبون بها آخرون ^(٣) .

وكذلك تشابهوا ببعض الحيوان كالثور الأعصب - المسكور القرن - والأبتر - المقطوع الذنب - والقميد - ما أتاك من ورائك من ظبي أو طائر - والنطيح ما استقبلك من أمامك من طائر أو ظبي أو وحش ^(٤) .

قال الرماح بن أبرد :

جرى بأهبات الخيل من أم جحدري ظباء وطير بالفراق نعوب ^(٥)
وهذه حادثة تاريخية تلي عن تشاؤمهم بالسكاب ، ذكر الطبري أن السيدة عائشة سارت إلى البصرة لتشتري في موقعة الجمل ، فلما مرت على ماء الجوب نبحتها كلابه ، فقالت هي ومن معها : أي ماء هذا ؟ فقيل لها : ماء الجوب . فصرخت السيدة عائشة بأعلى صوتها ، ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته ، ثم قالت : وأنا والله صاحبة كلاب الجوب ، طرؤوا فردوني ، تقول ذلك ثلاثا . فأناخت وأناخوا حولها وهم على ذلك وهي تأتي ، فعاطوها وقالوا لها إنه ليس ماء الجوب ، حتى كان الند

(١) الحيوان الجاحظ ١٣٦/٢
(٢) الصبغة ٢٠٢/٢
(٣) الأغاني ٢٧٣/٢
(٤) الفاموس نظبط مادة جرد
(٥) المختص لابن سيده مواد السكابت

بجامها ابن الزبير قتال : النجى النجيا : فقد أدرككم والله على بن أبي طالب ، فارتحلوا (١)
ويظهر أن العرب كانوا يتشاهمون بكلاب الحروب إن نجسهم ، ويتفاهلون بها إن لم
تنجسهم ، وظل وهمهم هذا إلى ظهور الإسلام .

وأشركوا النبات مع الطير والحيوان ، فتشاهموا بالغرب - شجرة حجازية
ضخمة شائكة - والبان ، والخللاف - الصفصاف - ولعل السبب أنهم ربطوا
بين أسماؤها وما تدل عليه مادتها من غربة وبين واختلاف ، وربما نظروا إلى مرارة
طعم الريحان - وهم يتفاهلون بالريحان - فتشاهموا به (٢)

ولم يقف تشاؤمهم عند هذا ، فإنهم تشاهموا ببعض الأحداث . فإذا انسكفاً من
المرأة إثمها وصُبما فيه تشاهمت واستماذت من ذلك بقولها : دافقٌ خيرٍ . وتشاهموا
بالعطاس ، قال امرؤ القيس :

وقد اغتدى قبل العطاس بهيكل شديد منيع الجنب فعم المنطق

بقول إنه يبكر قبل أن يستيقظ الناس ، حتى لا يسمع عطاسهم فيتشاهم
ونجيب . وإذا استمع أحدهم عطاساً لا يعرفه ، قال : بكلابي أسأل الله أن يحصل
شؤمك بك لا بي (٣) .

ح - ولهم ضروب من التفاؤل أسلفت بعضها في أول الفصل ، على أنهم تفادلوا
بالهدهد إلى أبعدهم ، لأنهم زعموا أنه كان يهذى سليمان عليه السلام إلى مواضع
الماء في أعماق الأرض ، وزعموا أن الله تعالى آثره بالقزعة التي على رأسه مشوبة له
على بره بأمه ، لأنها لما ماتت جعل قبرها على رأسه ، فهذه القزعة عوض عن تلك
الرهدة ، ويروون قصيدة في ذلك لامية بن أبي الصلت أو غيره (٤) .

د - ولكن الزجر لم يكن ضربة لازبة يدين به جميع الناس ، فإنه وهم لا يستند

(١) تاريخ الطبرى ١٧١/٥ ومجمع البلدان ٣٥٦/٣

(٢) الحيوان للجاحظ ١٤٢/٣

(٣) بلوغ الأرب ٣٦٦/٢ (٤) الحيوان للجاحظ ١٦٠/٣

إلى منطق الحوادث والمقل . لذا ندد به كثير من الشعراء ، وسفهوا المشائمين خاصة ، لأن التشاؤم يدعو إلى الكف والإحجام ، أما التفاؤل ... على أنه وهم أيضا . فإنه يدعو إلى الإنجاز والإقدام .

قال المرقم :

لا يَمْنَعُكَ مِنْ بِنَا ۝ الطير تعقيد الخاتم
لا والتشاؤم بالعطا ۝ س ولا التيمن بالمقاسم
ولقد غدوت وكنت لا ۝ أزدو على واق وحاتم
فإذا الأشائم كالأيا ۝ من والأيامن كالأشائم^(١)

ونصح أفنون بن صريم التغلبي من يزمع الرحلة ألا يشبه زاجر الطير ، ولا يعوقه الغراب ولا الوعول الآتية من الخلف :

بأيها المزمع وشكّ التوى ۝ لا يَبْئُكَ الحازي ولا الشاحج
ولا وعول نجّشت ككُدسا ۝ غارجهما من غمرة والبع^(٢)

وافتخر ربيعة بن مقروم بأن مقادته إلى الله ، فلا يشبه طير سانح ، ولا يعوقه غراب ، وهو على مذهب أهل العالية في تشاؤمهم بالسانح

أصبح ربي في الأمر يرشدني ۝ إذا نويت المسير والطلب
لا سانح من سوانح الطير يئس ۝ نى ولا ناعب ۝ إذا نعبا^(٣)

وإشراكه لبيد في إيمانه بالقضاء والقدر ، وأن الغيب مفاتيحه بيد الله وحده :

لمعرك ما تدرى الطوارق بالحصا ۝ ولا زاجرات الطير ما الله فاعل^(٤)

ولم يقتصر بعضهم على إنكار التطير ورفضه ، بل زادوا على جسدكم له أنه

(١) حاشية البهري ٢٥٥ والأغاني ١٥٧/٩ ساسي . القاسم من قاسمك . الواقى : الصرد وهو طائر ضخم الرأس . الخاتم : الغراب . وروى حاتم وهو الطير .

(٢) حاشية البهري ٢٥٦ ورواهما الجاحظ للعارض بن حلزة في الحيوان ١٣٩/٣ الحازي : زاجر الطير . الشاحج : الراد به الغراب نجحت : نارت . كدسا : جمع كادس وهو الذي يجي من الخلف والربيب تشام به . غمرة : جماعة الغلاب والوعول ، يعني أن الذي يخلف عنها يدركها ربما فيلج فيها لأنه عناء

(٣) حاشية البهري ٢٥٧ (٤) بلوغ الأرب ٣٢٧/٣

شوم على من يستمده ، لأنه إن لم يبرقه عن حليته بزعر ثنته ويلبل عقله ، قال
عائمة بن عبدة :

ومن تعرض الثريان زجرها على سلاته لا بد مشوم^(١)

وروي أن النابتة خرج هو وزبان بن منظور الفزاري للغزو ، فسقطت جرادة
على النابتة فتطير وعاد ، رأما زبان فضى فظفر وغم ، فقال :

تَسَلَّمْ أَنَّهُ لَا طَيْرَ إِلَّا عَلَى مَطِيرٍ ، وَهِيَ الثُّبُورُ

بلى ا شىء يوافق بعض شىء أحياناً ، وباطله كثير
يقولها في جملة أبيات لا أقف على جملتها^(٢)

وقد ذكر الجاحظ هذه الأبيات في البيان والبيان ونسبها إلى زبان بن سيار بن
عمرو بن جابر ، ولم يشر إلى قصة النابتة ، ولكن البيت الأول فيه اسمه (زياد) :

تَحْصِرُ طَيْرَهُ فِيهَا زِيَادٌ لَتَحْبِرَهُ ، وَمَا فِيهَا خَيْرٌ

أَقَامَ كَأَنَّ لِقَانِ بْنِ عَادٍ أَشَارَ لَهُ بِحِكْمَتِهِ مَشِيرٌ

تَعْلَمُ أَنَّهُ لَا طَيْرَ إِلَّا عَلَى مَطِيرٍ وَهِيَ الثُّبُورُ

بلى شىء يوافق بعض شىء أحياناً وباطله كثير

ومن يترجح به لا بد يوماً ينجى به نعي أو بشير^(٣)

ولكنه في كتاب الحيوان ذكر قصة النابتة وزبان ، وأن الجرادة وقعت على

النابتة أو على زبان ، وأورد الأبيات^(٤)

وفي هذه الأبيات معنى جديد هو أن الطير لا أثر لها في نجية أو نجيح ، وما هي

إلا مصادقات في بعض الأحيان ، والمصادقة ليست سبباً ولا علة .

وهذا عرف بن عطية بن الخرج التيمي لا يعبأ بالطير ، يقول إنهم يقصدون

البلاد ليهمجوا وليقتنموا غير متوجسين من طير شرأ حيناً اتجهت وكيفيا طارت ،

سيان عندهم السانح منها والبارح :

(١) الفصليات ١٠١/٢ (٢) المدة ٢٠٧/٢ وزبح الأبرار لزعشري ورقة ١٢٣ مغلوطاً
(٣) البيان والبيان ١٨٤/٣ وهوئمل والشوامل (٤) المهيوان ١٣٨/٣

تُؤمُّ البلاد حُلب اللُّقاء ولا تُتقى طائراً حيث طاروا
 سديحاً ولا بارحاً إن جرى ونرجو هناك بين اليسار (١)
 واقتنر حاتم بن عدى بأنه ذو عزيمة قوية لا يثنيه عن قصده صُرد ولا غراب ؛
 وليس بهباب إذا شد رحله يقول عدنان اليوم واق وحاتم (٢)

وكان من الطبيعي أن يكون شعراء الإسلام أكثر تديباً بالزهر والزاجرين ،
 لأنه يفتر العزائم ، ويعوق عن الأعمال ، وبكل الغيب إلى غير الله تعالى علام الغيوب ،
 ومن ألفت ما قيل أبيات لآبي الشيص يرى فيها الغراب من الطيرة ، ويقول إذا
 كان الناس يتطيطرون منه لأن اسمه قريب من الغربة فأولى بهم أن يتطيطروا بالإبل ،
 لأنها مطايا الغربة والفرقة :

الناس يأنحون غرا ب البين لما جهلوا
 وما على ظهر غرا ب البين تطوى الرحل
 ولا إذا صاح غرا ب في الديار احتملوا
 ما فرق الأحباب بص د الله إلا الإبل
 وما غراب البين إلا ناقة أو جمل (٣)

وكذلك فعل شعراء إسلاميون كثيرون منهم الكهيت ، فهو على خبرته بعادات
 العرب وعقائدهم لم يحارهم في نشأؤهم :

ولا أنا ممن يزجر الطير همة أصاح غراب أم تعرض ثعلب
 ولا السامحات البارحات عشيمة أمر صحيح القرن أم مر أعضب (٤)

ومهم ضابئ بن الحارث ، فقد أعلن أن الإنسان قد يتوجس شراً من أمر
 لا ضير فيه ، والرجل الذي بوطن نفسه على تحمل رزايا الدهر إنما هو رجل
 ضعيف العزيمة :

(١) معجم الشعراء ٢٧٦ (٢) الجوان ١٣٠/٣ حاتم : هو الغراب . الروابي : المراد

(٣) المعجمة ٢٠١/٢ الرحل : جمع رحلة يضم الراء وكسرهما

(٤) المعجمة ٢٠٢/٢ ونسبهما الأوسى إلى ضابئ بن الحارث البرجمي ٣٧٧/٣

وما عاجلات الطير تُدنى من الفتى نجاحاً ولا عن ريشن يضيف
ورب أمور لا تُضيرك ضيرة وللقلب من عشماتين وجيب
ولا خير فيمن لا يوطن نفسه على نائبات الدهر حين توب^(١)
والمراد بعاجلات الطير تلك التي تمر أمام الزاجر أول ما يبصر ، فإن أبطلت
عليه وزجرها فقد رائت ، والأول محمود والثاني مذموم .

(٦) عقر الإبل على القبور

كانوا يعقرون على قبر الميت ، واختلف في الباعث على العقر ، قال ابن السيد
فيما كتبه على الكامل للبرد : قال قوم إنما كانوا يفعلون ذلك مكافأة للبيت على ما كان
يعقره من الإبل في حياته لضيفانه ، واحتجوا بقول زياد الأعجم يرثي المغيرة بن المهلب
(وقيل إن الشعر للصائتان العبدى) .

إذا مررت بقبره فاعقر به كوم الجِلاد وكل طرفٍ ساج
وافضح جوانب قبره بدمائها فلقد يكون أحم دم وذباح^(٢)

وقال آخرون إنما كانوا يفعلون ذلك إعظاماً للميت كما كانوا يذبحون للأصنام .
وقيل إنهم فعلوه لأن الإبل كانت تأكل عظام الموتى إذا بليت ، فكأنهم يثأرون لهم
منها ، وقيل إن الإبل أنفست أمواتهم فكانوا يريدون بعقرها أنها قد هانت عليهم لعظم
المصيبة . وقد أبطلت الشريعة ذلك بحديث : لا عقر في الإسلام ، .
وأنا أميل إلى أن العقر كان تكريماً للبيت ، وإشهاراً لفضله بين الناس ، وتباهياً
بما نحر بنوه على قبره من ذبائح لإطعام الفقراء ، وإذا كانوا قد تيسرا لتوزيع لحم

(١) تهذيب السكامل للبرد ٢/٢٥٨ وبلوغ الأرب ٣/٣٢٦ والأصمعيات من مجموع أشعار العرب نشرها
ولم بن الورد البروسي ١٦
(٢) السكامل وحاسة الخالدين ٣٩٨ مخطوط وصهاث وأشعار يزيدى . مخطوط بمعهد المخطوطات .

الذبايح عنى الخاويج ، فهم يعفرون على القبور لإطعام الخاويج ، ثم لم يكن الذبح موقفاً على النوق ، بل كانت تذبح الخيل أيضاً ، والبيت الأول لزيادة الأبحم مع أنه في العصر الاسلامي بقر هذا .

ولعل هذا الفرض الذي ذهبت إليه هو الذي حمل جريرة بن الأشيم الفقهسي أن يوصي ابنه أن يعقر على قبره ، ودعا عليه أن يفتقر إن لم يعقر :
إذا صت فادفني بجرأه ، ما بها سوى الأصرخين ، أو يفوز ركب
فإن أنت لم تنقر على عطبي فلا قام في مال لك الدهر حالب
ولا تدفني في صسوي ، وادفني بديومة تزو عليها الجناب
ويظهر أن النوق كانت تنهب الذبح إذا مارأت قبراً ، لأنها نظرت غيرها يذبح عليه أو لأنها تنهب الدم ، أو أن الشاعر تخيل هذا وصوره ، قال شاعر مر على قبر ربيعة بن مكرم :

نقرت قلوبى عن حجارة حرّة بُيت على طلق البدن وهوب
لا تنفري ياناق منه ، فإنه شرّيبُ نخر ، مسمرٌ لحروب
لولا السفار وبعدُ خرق مهمه لترصكتها تحبو على الصرقوب (١)

ويبرز هذا التحليل أن بعض الناس ما زالوا إلى اليوم يعفرون الذبايح على عمبة الدار أو على المقبرة ، ويوزعون اللحم على الفقراء ، ثم إن الرعاة في أرتريا إذا مروا بمقابر أقاربهم حلبوا البقرة وألقوا ببعض لبنها على القبر ذا كبرين اسم الراحل . (٢)

(٧) الهامة والصدى

وهذه خرافة مبعثها ولوعهم بالنار ، وأى تحريض على النار أقوى من زعمهم أن القنيل الذي لم يؤخذ بثأره يخرج من هامته طائر يسمى الهامة ، فلا يزال يقول :

(١) القند الفرید ١٣٦/١ نسب هذا الشعر إلى حفص بن الأخبف ولد عمرو بن شبيب والى كرز ابن حفص بن الأخبف وفى الأغاني ١٢٦/١٤ ساسى أن الشعر لرجل من بني الحارث بن فهر ، أو لضراد ابن الخطاب بن مرداس أحمد بنى محارب بن فهر أو لحسان بن ثابت أو لكرز بن حفص بن الأحنف وفى تهذيب السكامل ٢٥٨/١ أنه لحسان بن ثابت (٢) فى بلاد التجانى الدكتور كامال مراد ٨١ سلسلة أفرا

أسقوني أستقوني ، حتى يقتل قاتله فيسكن ؟ (١)

ويقول المسعودي : إن من العرب من يزعم أن النفس طائر ينسط في الجسم ، فإذا مات الإنسان أو قتل لم يزل بتليف به مستوحشاً يصاح على قبره ، ويزعمون أن هذا الطائر يكون صغيراً ، ثم يكبر حتى يكون كضرب من البوم ، وهو أبدأ مستوحش ، ويسكن في الديار المنقطلة ومصارع القتلى والقبور ، وأنها لم تزل عند ولد الميت لتعلم ما يكون بعده ، فتخبره به (٢) .

قال شداد بن الأسود بن عبد شمس في رثاء كفار قریش يوم بدر :

يخبرنا الرسول بأن منحياً وكيف حياة أصداء وهام ؟
وقال أبو دواد الأيادي :

ساط الموت والمنون عليهم ظلمهم في صدى المقابر هام (٣)
وقال شاعر لابنه يوصيه أن يثار له إن قتل حتى لا تنادي هامته بالسقيا ، لأن أي عطش إنما هو بأبيه لا بالهامة ، وإسهال الثأر مصيبة كبرى يبيض الرأس منها :
ولا تزقون لي هامة فوق مرخب فإن زقاء الهام للراء غائب
تنادي : ألاسقوني ، وكل صدق به وتلك التي تبيض منها الذوائب
وقال ذو الاصبع العدواني مهدداً ابن عمه المبيض له :

يا عمرو إلا ندع شتمى ومنقضى أضربك حيث تقول الهامة أسقوني (٤)
وامتعطف سعيد بن الأبرص حنجرأ لما طرد بني أسد إلى تهامة بقصيدة قال فيها
إن الزديان ملاء بتو جميع المنسكوبين وآهات المحروقين وأصوات الهام :

في حكل واد بين يذ رب فالقصور إلى اليمامة
قطرب عان أو صيا ح محرق أو صوت هامة (٥)

(٣) مروج الذهب ١/٢٥١

(٢) مروج الذهب ١/٢٥١

(١) الأمل ١/١٢٩

(٤) المقشبات ١/١٥٨ والأمل ١/١٢٩

(٥) ديوان عبيد القصيدة ٢٩

وفد عيروا بترك النار ، وعبروا عن ذلك بأن الهامة تطالب بتأري القتل ،
فإن مفسس الفقهى :

وإن أحاكم ... قد عادت مكانه بسنح قبا - تسيق عليه الأعاصر
له هامة تدعو إذا الليل جنبها بنى عامر هل للهلالي^(١) نائم؟^(٢)
أما الصدى فمن معانيه أنه طائر يخرج من رأس القتل إذا بلى ، كما يزعم العرب^(٣) ،
ويظهر أنهم أطلقوه على غير القتل فيما بعد كما يوضح من النصوص .
قال ساتم :

أماوى إن يصبح صداى بقفرة من الأرض لا ماء لدى ولا خر
ترى أن ما أنفتت لم يك ضرى وأن يدي مما بخلت به صيفر^(٤)
وقد ظل هذا من تخيلات العرب بعد الإسلام ، مما يدل على أصالته فى نفوس
العرب ، قال توبة :

وئر أن ليل الأخلية سلمت على ودونى جندل وصداخ
لسلمت تسليم البشاشة أو زقا إليها صدئى من بجانب القبر صاخ
وقال قيس بن الملوخ :

ولو تلتقى أصدأونا بعد موتنا
لظل صدئى رمسى وإن كنت رمة ..
ومن دوننا رمس من الأرض أنكب
لصوت صدئى ليلى يهش ويطرِب
وقال جميل بن ميمر :

يهواك ما عشت النواد فإن أمت يتبع صدائى صداك بين الأوبر
وذكر الجاحظ أن الصدى طائر يخرج من قبر الميت فينبى إليه ضعف ولية
ويجزه ، وهذا كانت العرب تقول فى الجاهلية ، وأورد للنمر بن تولب :

(١) المرأة العربية ١٣٣/١ قبا : موضع قرب المدينة وآخر بين مكة والبصرة

(٢) القاموس المحيط مادة صدئ (٣) شعراء النصرانية ١١٠

أعاذل إن يصبح سداى بشفرة بعيداً فأنى صاحبي وقربي
ترى أن ما أقيت لم أك ربّه وأن الذى أفتقت كان نصيبي^(١)

(أ) شق الرداء لتقوية الحب وتأكيده

وكانوا يزعمون أن المتحابين إذا شق كل واحد منهما ثوب صاحبه دامت مودتهما ولم تفسد . وقال أبو عبيدة : كان من شأن العرب إذا تجالسا مع الفتيات للنزول أن يتعابثوا بشق الثياب لشدة المعالجة عن إبداء الخشاش . وقبل : إنا يغفلون ذلك ليدكر كل واحد منهما صاحبه به ، وقال العيني : كانت عادة العرب فى الجاهلية أن يلبس كل واحد من الزوجين برد الآخر ثم يتداولان على تخريته حتى لا يبقى فيه لبس طالبا لتأكيد المودة .^(٢)

وأيا ما كان الباعث على هذا الشق العجيب فإن شعرهم قد صوره ، ونستطيع أن نفسر به قول عبيد يغوث بن الحارث :

وأحمر للشرب الكرام مطيبي وأصدع بين القبتين ردايا^(٣)

فهو فى القصيدة يتحسر على حريره المسلوبة وماضيه الجميل السعيد ، فيقول إنه كان ينحر مطيئه للندامى ويوطد حبه للثنتين اللتين تطربانه ؛ على أن نستطيع أن نذهب مذهبا آخر هو أنه جيشاش الشعور طروب ، إذا ما سمع غناء القبتين شق ردايه إعجابا وفورة .

ويبقى هذا الوم إلى ما بعد العصر الجاهلى ، فهذا سحيم عبد بنى الحساس يشير إلى شق الرداء والبرقع وإن كان يشك فى نفعه :

فمك قد شققنا من رداء منير على طفلة مكورة غير عانس

(٢) خزاعة الأدب . البغدادى ٣٨١/١

(١) البيان والتبيين ٢٣٢/١

(٣) الفضليات ١٥٦/١

إذا شق برد شق بالبرد برقع دواليك حتى كنا غير لابس
نروم بهذا الفعل بقاءً على الهوى وإلف الهوى يُسرَى بهذى الوساوس^(١)
وعجب شاعر آخر من فتور الحب وزواله بعد ما شق برقع حبيبته وشقت رداه :
شقت رداي يوم بركة عاج وأمكشني من شق برقعك السحفا
فما بال هذا الورد يفسد بيننا ويمحق حبل الوصل ما بيننا محقا^(٢)

(٩) وطه المقللة دم الشريف

زعموا أن المرأة التي لا يعيش لها ولد إذا وطئت دم الشريف عاش ولدها ، أو
هو خاص بالشريف القليل^(٣) سواء قتل غدرأ أو قودأ ، وقال ابن الأعرابي :
يمرون به ويظنون حوله ، وقال أبو عبيدة : تنخطاه المقللة سبع مرات ، وهذا معنى
وطئها له^(٤) . وشيبه ما تفعله بعض النساء الجاهلات في مصر من تخطين القليل
للبرء من العقم .

قال بشر بن أبي خازم :

تظل مقاليت النساء يطأنه يقان : ألا يلقى على المرء مئزُرُ
وقال السكيت متأثراً بهذه العقيدة ، أو لعلمها ظلت إلى عهده ، في مدحه الحسين
ابن علي عليهما السلام :

وتطيل الرزآت المقاليت إلى القعود بدد القيام
وقال آخر :

تركن الشمعين برمل حبت تزورهما مقاليت النساء
وقال آخر :

بنفسى الذى تمشى المقاليت حوله بطأن له كسحاً ههنا ممشياً

(١) خزانة الأدب ١/٣٨٢ وربع الأبرار للزمخشري ورقة ٣٦ مخطوط بمكتبة تيمور

(٢) صبح الأعشى ١/٤٠٦

(٣) السحق : الرقيق

(٤) بلوغ الأرب ٢/٣٥١

وقال آخر :

تباشرت المقاتل حين قالوا ثوى عمرو بن مرة بالخمر

(١٠) تهليل الخليل والجلجل على اللديغ

كانوا يلقون الخليل والجلجل على اللديغ ، زاعمين أنه يفتق ، وذلك لأنهم أرادوا شغله بمصاها حتى لا ينام فيسرى السم فيه فيهلك على زعمهم ، قال القتيبي : كانوا يجعلون الخليل في يد الملبوغ ويحركونها لتلا ينام فيذب فيه السم ، وقيل لبعض الأعراب : أتريدون أن يسهر ؟ فقال : إن الخليل لا تسهر ، ولكنها سنة ورتناها (١) أو لأنهم زعموا أن حلي الذهب تبرئه ، وحلي الرصاص أو الرصاص يميت . قال عويمر النبهاني :

فبت معنى بالهجوم ككأني سقيم نفي عنه الرقاد الجلجل

وقال آخر :

كأني سليم سهد الخليل عينيه فراقب من ليل التمام السكواكبا (٢)
وقال النابغة :

فبت كأني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السم نافع
نُسمد من نوم العشاء سلميها حلي النساء في يديه قعاقع (٣)

وشبه بعض بني عذرة أثر الحب في نفسه بالسليم الخلي :

كأني سليم ناله كلم حية ترى حوله حلي النساء موضعا

وازدري بعضهم هذه العقيدة فقال :

وقد علوا بالبطل في كل موضع وغروا كما غر السليم الجلجل

وأشار بعض الشعراء الإسلاميين إلى هذه العادة ، قال جميل إذا كان الخليل يبرى

(١) بلوغ الأرب ٢/٣٣٦

(٢) ليل التمام : ليل الشفاء الطويل

(٣) المغنى ٤/٤١

اللدنيغ فإن حليك سقام لي ، يريد أن زيتها وجمالها وحلاها تزيد بها نيا :
إذا ما لدنيغ أبرأ الحلل دامه غليك أوسى يا بئينة دائيا

(١١) إذا ضاقوا دخول قرية

زعموا أن الرجل إذا أراد دخول قرية تخاف جنبها أو وباءها فوقف على مدخلها
وعشراً - نيق عشرا - كما ينهق الحمار ثم دخلها لم يصبه شيء (١) ، وزاد الألوسى :
و ثم علق عليه كهب أرب كان ذلك عوذة له ورقية من الوباء والجن ، (٢) .
وروا أن عروة بن الورد خرج في رفقة إلى خيبر ليمتاروا ، فلما قربوا منها
عشروا ، واستنكف عروة أن يفعل فعلمه ، وقال :

وقالوا أحبُّ وانيق لا تضرك خيبر وذلك من دين اليهود وكوع
لعمرى لئن عشتُ من خشية الردى نفاق الحمير إنني لجزوع (٣)
ورأى شاعر آخر أن التعشير وغيره لا ينجى من القضاء .

ولا ينفع التعشير في جنب جريمة ولا ددع يفتى ولا كعب أرب (٤)
ومثله قول الأخر :

لا يتجنيك من حمام واقع كعب تعلقه ولا تعشير

(١) صبح الأعشى ٤٠٨/١ والميوان للجاحظ ٣٥٨/٦ طبعة هارون

(٢) بلوغ الأرب ٣٤٨/٢

(٣) الميوان ٢١ وجمع البلدان ٣٠٩/٤ والميوان للجاحظ ٣٥٩/٦ ولوع : كذب . أحب :

من حبا يحبو (٤) الميوان للجاحظ ٣٥٨/٦ نشره هارون . الجريمة : العلةمة من النخل . ددع :
كلية كانوا يقولونها عند النار

(١٢) إذا حَسَّسَ لِرَأْسِ فِي فَلَاحِ

وكانوا على درجتهم ، وبصيرتهم بالصحراء قد يضنون ، فإذا ضل الرجل في فلاة
قلب قيضه ، وصفق يديه كأنما يرى " إلى إنسان لهديه ."
ولم يذكر أحد تعليلاً لهذا العمل ، ولعل منشأه أن الرجل يريد أن يسئ نفسه
بسماع صدى يديه ، أو يتوهم أن إنساناً يسمع تصفيقه فيسرع إليه ليعينه .
وأما قلب القميص فللتناؤل بتغيير الحال ، وقد جاء نحوه في الشريعة الإسلامية
في الاستسقاء . وقد ذكر القلقشندي أن الرجل كان يحبس ناقته ويصيح في أذنها
كأنه يوسى إلى إنسان ، ثم يحركها ويزعجها أنها تهتدي إلى الطريق " ، ولكن الشعر
المروى ليس فيه ذكر الناقة ، وإنما فيه قلب الثوب والتصفيق .
قال أعرابي :

قلبت ثيابي والظنون تجول في ونرى برجلي نحو كل سبيل
فأبأ بلائى ما عرفت بجائلي وأبصرت تصدأ لم يصب بدليل

وقال أبو العباس الضائي :

فلو أبصرتني يلوى بظان أصفق بالبنان على البنان
فأقلب تارة خوفاً ردائي وأصرخ تارة بأبي فلان
لقلت أبو العباس قد دهساه من البنان خالعة العنان

وقال الشاعر :

وآذن بالتصفيق من ساء ظنه فلم يدر من أى اليدين جواها

(١٣) كفى السليم ليصبح الأجر ب

ومن عجائب معتقداتهم أنهم يكوون الجمل السليم ليصبح الأجر ب .
وقد أكثر الشعراء من التشبيه بهذا العمل الجائر ، قال التميمي :

وكأفنتي ذنب امرئ وتركته كذى العريس كوى غيره وهو راع^(١)
وقال آخر :

فألزمتي ذنباً وغيرى جره حنانك لا تنكو الصحيح بأجرها
وقال بعض الأعراب :

كن يكوى الصحيح بروم برءاً به من كل جرباء الإهاب
ذكر الجاحظ أنهم كانوا إذا أصاب إبلهم العر كواوا السليم ليدفعه عن السقيم
فأسقموا الصحيح من غير أن يبرئوا السقيم^(٢) .
وقال ابن السيد : في هذا العمل خمسة أقوال :

١ - إنه من أعمال جهال العرب ، كانوا إذا وقع العر في إبل أحدهم اعترضوا
بغيراً صحيحاً منها فسكروا مشفره وعضده ونخذه ، ويرون أنهم بذلك يبرئون الإبل
من العر ، كما كانوا يعاقبون على أنفسهم كعوب الأرايب خشية العطب ، ويفقهون
عين لخل الإبل لثلاث تصيبها العين ، وهذا قول الأصمعي وأبي عمرو وأكثر اللغويين^(٣) .

٢ - قال يونس : سألت ربيعة بن العجاج عن هذا ، فقال : هذا ، وقول الآخر :
كالثور يضرب لما عافت البقر ، شئ كان قديماً ثم تركه الناس .

٣ - كانوا يكوون الصحيح لثلاث يتعلق الداء به ، لا يبرأ السقيم ، وحكى ذلك

ابن دريد .

(١) حاشية البهري ٣٥٢

(٢) الحيوان للجاحظ ١٧/١ طبعة هارون

(٣) شرح أدب السكاك وبزارة الأدب للبغدادي ٢٠٩/٢

٤ - قال أبو عبيدة : هذا لم يكن ، وإنما هو مثل لا حقيقة ، أي أخذت البرية وتركت المذنب ، فسكنت كمن كوى البعير الصبيح وترك الدقيم لو كان هذا بما يكون . قال : ونحو هذا قولهم : يشرب عجلان ويسكر ميسرة ، ولم يكونا شخصين موجودين .

٥ - قيل أصل هذا أن التفصيل كان إذا أصابه العر لفساد في لبن أمه عمدوا إليها فسكروها فتبرأ ، وبرأ فصلها ببرئها لأن ذلك الداء سرى إليه من لبنها . فأى هذه التعليلات نرتضى ؟

نعتقد أن الرأي الرابع أجودها وأحقها بالموافقة ، فليس بمقول أن يكوى العر البعير السليم ليبرأ الأجرى وهم بتمارينهم السكيرة يعرفون جرائر الجرب ويعرفون علاجه ، ويقرون السليم حتى لا تنتقل إليه العدوى .

وإنما هذا مثل لبيان سوء التصرف وعباية الظلم . وقد وانقضى على هذا الشيخ الحجازي الكبير الخبير بحياة البادية وأدبها الشيخ محمد جبر ، وقال إن من أمثالهم إلى اليوم : « يخطئ السفراء بالسفراء » ، وليس لهذا المثل حقيقة وإنما هو تخييل لسوء الفعل .

(١٤) ضرب الثور إذا عافت البقر الماء

كانوا إذا أوردوا البقر فلم تشرب إما لسكدر الماء أو لقلة العطش ، ضربوا الثور ليقتحم الماء ، لأن البقر تتبعه كما تتبع الثور الفحل ، وكما تتبع أنثى الوحش الحمار . فقال في ذلك عوف بن الحرير :

تمت طيء جهلا وجينا وقد غاليتم فأبوا بخلائي

هجوئي أن هجوت جهال سئلي كضرب الثور للبقر الظماة

وقال في ذلك أنس بن مبرك في قتله سليل بن السلعة :

إن وقتلي سليكا ثم أعقبه كالثور يضرب لما عافت البقر

وقال الحبيبان الفقيهي :

كما ضُرب اليسوب أن عاف باقر وما ذنبه إن عافت الماء باقر^(١)
ولما كان الثور أمير البقر وهي تطيحه كطاعة إماء النحل اليسوب سماه باسم
أمير النحل .

وقيل إنهم كانوا يزعمون أن الجن هي التي تصد الثيران عن الماء حتى تمسك
البقر عن الشرب حتى تهلك .
وقال في ذلك الأعمش :

فإني وما كلفتموني - وربكم - لأعلم من أمسى أعتق^(٢) وأحوبا
لسكالكور والجنى يضرب ظهره وما ذنبه أن عافت الماء مشربا
وما ذنبه إن عافت الماء باقر وما إن تعافت الماء إلا ليضربا^(٣)
كأنه قال : إذا كان يضرب أبدا لأنها عافت الماء فسكأنها إنما عافت الماء
ليضرب .

وقال يحيى بن منصور النهشلي في ذلك :

لسكالكور والجنى يضرب وجهه وما ذنبه إن كانت الجن ظالمة
وقال نهشل بن حري :

أترك عارض^(٤) وبنو عدى وققرم دارم وهم براء
كذاب الثور يضرب بالهراوى إذا ما عافت البقر الظماء^(٥)
وقال نهشل بن حري :

كذلك الثور يضرب بالهراوى إذا ما عافت البقر الظماء^(٦)

(١) معجم الشعراء ٤٨٩

(٢) حاسة البعزى ٣٥٢ والحيوان ٥٣/٦

(٣) الحيوان للجاحظ ١٨/١ - ٢١ طبعة مارون

(٤) حاسة البعزى ٣٥٣

وعجب النايفة الذيأى من أن تلقى عليه جريرة لم يفترفها ، وشبه حاله بحال الثور المظلوم يضرب لأن البقر لا ترد الماء :

أترك معشراً قتلوا هذيلاً وتُمنى بما فعلت جُذام
كذلك يُضربُ الثور المعنى إذا ما عافت البقر الحيام^(١)
وأشار بعض الشعراء إلى ذعر البقر من الماء ، وإلى ضرب الثور وهو غير متعمس على الورود :

فلا تجعلوني كالبيير وغلها يكسر ضرباً وهو للورد طائع
وما ذبه إن لم ترد بقراته وقد فاجأها عند ذاك الشرائع
فهل لذلك من سبب ؟

قيل إنهم زعموا أن الجن تصد البقر عن الماء ، وإن الشيطان يركب قرني الثور ، فكأنهم يضرب الثور بطردون الجن ، ولكني لا أرتضي هذا التعليل ، وأرى أن البقر - شأنها شأن إناث الحيوان مع ذكرانه - تقتدى بالثور وتحاكيه ، فإذا ورد الماء وردت معه .

وقرب من هذا التعليل قول الشنقيطي : إذا امتعت البقر من شرب الماء لا تضرب لأنها ذات لبن ، وإنما يضرب الثور لتفرغ هي فقشرب ،^(٢)
ولكن الذي لا تعليل له ما قيل من أنهم كانوا يضربون الثور بعد ما ورد الماء وشرب لفشرب البقر عند ضربه ، وأرجح أن هذه مبالغة من قصاص العادات أو مجازاة لفهم النصوص .

(١) الوقاية من العين والجن

يتفشى في الأمم البدائية والشعوب الجاهلة ربط المسميات بغير أسبابها الطبيعية ، فيؤمن الناس بالسحر ، ويعتمدون على التائم في جلب النفع ودفع الضر ، وقد دان

العرب بالتمام ونوعها ، قال رفاع بن قيس الأمدى :

أحب بلاد الله ما بين منجج إلى وسلمى أن يصبوب سخابها
بلاد بها حل الشباب تماخي وأول أرض مس جلدى ترابها^(١)

ومن تماخيهم :

١ - تعليق كعب الأرنب :

كانوا يعلقون على أجسامهم كعب الأرنب ، ويعتقدون أنه وقاية من السحر ،
وأن الجن تنفر من الأرنب ، لأنها تبيض^(٢)

قال ابن الأعرابي : ه قلت لزيد بن كثوة : أنتقلون إن من علق عليه كعب أرنب
لم تقر به جنان الدار ولا عمار الحلى ؟ قال : إى والله ، ولا شيطان الخاطلة ، ولا جار
العشيرة ، ولا غول القفر^(٣) . قال امرؤ القيس :

أيا هند لا تسكحي بوهة عليه عقيقته أحببا
مُدسحةً وَسَطَ أرباعه به عشم يبتئى أربنا
ليجعل فى مسافه كعبها حذار المنية أن يصبأ^(٤)

ب - تعليق سن الثعلب وسن الهرة ، وحيض السمرة :

رزعوا أن الصبي إذا خيف عليه نظرة أو خطفة فعلق عليه شيء من هذه سلم ،
وأن الجن إذا رأته لم تقدر عليه ، قالت امرأة تصف ولدأ :
كانت عليه سنة من هرة وثعلب ، والحيضُ حيض السمرة^(٥)

(١) الأمالي ٨٣/١

(٢) صحيح الأعمش ٤٠٦/١ (٣) بلوغ الأرب ٥٨/٢ . العيار : الجن التي تسكن مع الناس .
الجملة : شجر شبيه بالسدرة ، أو كل شجر لا شوك له ، أو كل شجر له شوك . العشيرة : تصغير
العشيرة : شجرة جيدة النار (٤) حاسة البعثرى ١٨٩ البوهة : الرجل الأحق . العقيق : فرقة
الصبي وشعر كل مولود من الناس والبهائم . الأحسب : من أبيض جلده من ذاه فصار أبيض وأحمر وهو
والأبرس . اللسعة : القيم في داره لا يبرحها . الدمس : بئس يصبب مفصل الرسغ فتعوج القدم والسكف

(٥) صحيح الأعمش ٤٠٦/١

وتمدحهم الخرافة إلى زعمهم أن جنية أراحت صبياً فلم تقدر عليه ، فلامها الجن في ذلك ، فقالت تمدح إليهم :

سكان عليه نفرة ه تعالب وهسرة
والجنس هيمن السمرة^(١)

تعني أنه كان يحمل ما يتفرها من التعرض له .

ح — تعليق الأقدار النجسة :

واعتقدوا أن تعليق الأقدار النجسة وقاية من العين والجن والأرواح الخبيثة ، وأنشدوا للبرق العبدى :

ولو كنتُ في بيت تُسدُّ حصَّاهُ حوالى من أبناء بكرة مجلس
ولو كان عندى حازيان وكاهن وعاقى أنجاسا على المنجس
إذا لآتني حيث كنت مني يخبُّ بها هاد إلى مفرس^(٢)

وزعموا أن التنجيس يشفي إلا من العشق :

يقولون عاقى — يالك الخير — رمةً وهل ينفع التنجيس من كان عاشقاً ؟
ولسكن القضاء لا بد واقع ، ولا بد أن يخلف بعض الظنون ، فمعدت امرأة
على ولدها نجساً فلم يقم من الموت :

نجسته لا ينفع التنجيس والموت لا تقوته النفوس
ولم تخل البيته العربية من عقلاء يسخفون هذه العقيدة ، قال المرقيم :

لا يمتنعك من بضاً الخير تعقيد التمام^(٣)

وقال آخر :

ولا ينفع التعشير إن حم واقع ولا ودع يغنى ولا كعب أرب

(١) بلوغ الأرب ٢/٣٥٨ السورة : من شعر الطاج . وحيفها شيء يسيل من الدر كدم الغزال

(٢) حسنة البغوى ١٣٩ . الحازى : الخبير بالأمور والمراد هنا الطبيب الحاذق . مفرس : غالب

(٣) حسنة البغوى ٢٥٥

وما زال لمدته الخرافات أشباه يدين بها بعض الجاهلات في عصر ، فيطلقن على الصبي تماًم فيها ناب ذئب ورأس كلب . الخ
 و - وكانوا يحصنون الإبل من الحسد إذا بانبت ألفاً بأن يفتشوا عين الفحل ، فإن زادت فتشوا الأخرى ، وهذا هو المنقأ والمعنى (١) . وكان بشامة بن القدير كثير المال ، وكان ممن فتأ عين بعير في الجاهلية ، وكان الرجل إذا ملك ألف بعير فتأ عين قلبها (٢) وقد أشار الشعراء إلى هذا :

فتأت لها عين الفصيل تيفاً وفيهن رَعْلَاءُ المسمع والحامى (٣)
 وقال آخر :

رهب لنا وأنت ذو امتنان تفتأ فيها أعين البُران
 وقال آخر :

فكان شكر القوم عند المن كى الصحب حات وفقه الأعين (٤)

(١٦) الرتم

كان الرجل إذا عزم على سفر عقد خيطاً في غصن شجرة أو ساقها ، فإذا عاد ووجد الخيط على حاله علم أن زوجته حفظت غيبته ، وإن لم يجده أو وجدته محو لا قال إنها خانته ، وهذا العقد يسمى الرتم : (٥) .

وقيل الرتم نبت معروف كان يعقده الرجل إذا سافر . (٦)
 والقيروزي أبدي يذكر أن من أراد سفراً كان يمد إلى شجرة فيعقد غصنين منها ، فإن رجع وكانا على حالهما قال إن أهله لم تخنه وإلا فقد خانته وذلك الرتم والرئمة (٧)

(١) البيان والتبيين ٦٦/٣ والحويان ١٧/١

(٢) ابن سلام ٢١٥ (٣) رعلاء : مطقولة الأذن لسكرها الفحل : الفحل السكرم للنجيب . تيفاً : كهانة . الحامى : الفحل من الإبل يضرب عشرة أبطان بحمى ظهره بأن يترك ولا ينفع منه شيء ولا ينم من ماء ولا مرعى (٤) البيان والتبيين ٦٦/٣

(٥) جهمرة الأمثال لأبي هلال ١٩٦ وبلوغ الأرب ٣١٩/٣ (٦) صبح الأعشى ١/١٠٨

(٧) القاموس المحيط مادة رتم

ولكنني أعانف هؤلاء جميعاً وأختار للرتم معنى آخر ورد في المادة نفسها هو
أن الرِّثْمَ خيط يمتد في الإصبع للتذكير ، وجمع الكلمة رَثَمٌ ، فالرتم كالرثيمة واحدة
الرثام والرثام (١).

والنصوص التي وردت لا يجافي هذا الرأي ، بل كلها صالحة لأن تفسر به .
قال الشاعر :

خاتنه لما رأت شيئاً بمفرقه وغرّه حلقها والمقد للرتم
وقال آخر مستهيناً بهذه الرثام :

لا تحسبن رثاماً عَقَدْتُمَا تنبيك عنما باليقين الصادق
وظرف شاعر في قوله إن فلانا يعلم أن عليه مُسْتَحَلٌّ ، ولكنه يخدع نفسه
ويعللها بالرثام :

يعلل عمرو بالرثام قلبه وفي الحى ظبي قد أحلت بحارمه
وقال آخر لاحقاً على رجل من العرب أخذ يوصى قبل سفره ويعتقد في الرتم :
هل يفتنك اليوم أن همت بهم كثرة ما توصى وتعقاد الرتم ؟ (٢)
فالرثمة في هذه النصوص الخيط الممقود في الإصبع للتذكير ، وهذا فعل المحبين ،
يمتد كل منهم في إصبع الآخر خيطاً ليذكره دائماً .

(١) القاموس المحيط وهاشيه

(٢) مجمع الأمثال للبدياني ٢٠٢/٧ وجمهرة الأمثال لأبي هلال ١٦٦ ومجمع البلدان ٤/٢٧٥

المراجع

على حسب الترتيب الهجائي

- ١ - الإتيان في علوم القرآن . السيوطي
- ٢ - أخبار النساء . ابن قيم الجوزية . مطبعة التقدم العلمية بمصر
- ٣ - أخبار مكة . الأزرق . المطبعة الماجدية
- ٤ - الأدب المقارن . الأستاذ نجيب العميق
- ٥ - أديان العرب . الأستاذ محمد نعيان الجارم
- ٦ - الأساس في الأمم السامية ولغاتها . الدكتور علي الغناتي والأستاذ ليون محرز والأستاذ محمد عطية الإبراشي .
- ٧ - الأسرة والمجتمع . الدكتور علي عبد الواحد وافي
- ٨ - الأسلوب . الأستاذ أحمد الشايب
- ٩ - الأشباه والنظائر المعروف بحماسة الخالدين . مخطوط بدار الكتب ٢٧٠٩ أدب
- ١٠ - الأشربة . ابن قتيبة .
- ١١ - الأصنام . هشام بن محمد الكلبي بتحقيق أحمد زكي باشا
- ١٢ - أصول النقد الأدبي . الأستاذ أحمد للشايب
- ١٣ - أعجب السجع في شرح لامية العرب . محمود الزنخشري
- ١٤ - الأغاني . الأصفهاني . طبعة دار الكتب وساسي
- ١٥ - الأمل . القائل . طبعة دار الكتب
- ١٦ - أمالي السيد المرتضى . مطبعة السعادة
- ١٧ - أنيس الجلساء في شرح ديوان الخنساء . الأب لويس شيخو اليسوعي
- ١٧ - إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون ، المعروف بالسيرة الحلبية .
برهان الدين الحلبي

- ١٨ - أيام العرب . الأستاذة محمد أحمد بياد المولى وأبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي
١٩ - آيمان العرب . التجري . مخطوط بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية
ف٦٩١ (١٦٨) .
٢٠ - بلاغات النساء . أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور . مطبعة والده
عباس الأول .
٢١ - بلال داعي السماء . الأستاذ عباس محمود العقاد .
٢٢ - بلوغ الأرب في أحوال العرب . السيد محمود شكري الألويسي . مطبعة
دار السلام ببغداد .
٢٣ - البيان والتبيين . الجاحظ . تحقيق حسن السندوبي . طبعة ثانية . وطبعة مارون
٢٤ - تاريخ آداب العرب . مصطفى صادق الرافعي .
٢٥ - تاريخ آداب اللغة العربية . جرجي زيدان .
٢٦ - تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي . السباعي بيومي .
٢٧ - تاريخ الأمم والملوك . محمد بن جرير الطبري . المطبعة الحسينية .
٢٨ - تاريخ الإسلام السياسي . الدكتور حسن إبراهيم .
٢٩ - تاريخ تمدن الإسلامى . جرجي زيدان .
٣٠ - تاريخ اليهود في بلاد العرب . إسرائيل ليفسون .
٣١ - تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان . النيسابورى .
٣٢ - تفسير الطبري . مطبعة بولاق .
٣٣ - ثلاث رسائل (أولها في الرد على النصارى) . الجاحظ . نشرها يوشع فنكل
المطبعة السلفية .
٣٤ - الجامع لأحكام القرآن . القرطبي . طبعة دار الكتب .
٣٥ - جامع البيان في تفسير القرآن . الطبري . مطبعة بولاق .
٣٦ - الجامع الصحيح . البخاري . مطبعة بولاق .
٣٧ - جمهرة أشعار العرب . أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي . المطبعة الرحمانية .

- ٣٨ -- جوهرة الأمانال . أبو هلال العسكري . طبعة بمبي ، طبعة على هامش
أمانال المبدئي .
- ٣٩ -- مضارة العرب . جوستاف لوبون . ترجمة عادل زعيتر . الطبعة الثانية .
- ٤٠ -- الحماسة . البهتري . المطبعة الرحمانية .
- ٤١ -- حياة الحيوان . الدميري . طبعة بولاق .
- ٤٢ -- الحيوان للمجاهد . طبعة سامي وطبعة هارون .
- ٤٣ -- خزانة الأدب . البغدادي . طبعة دار المعصور .
- ٤٤ -- الخصائص . ابن جنبي . طبعة دار الكتب .
- ٤٥ -- خلاصة تاريخ العرب . ميديو . مطبعة محمد مصطفى بمصر ١٣٠٩ هـ .
- ٤٦ -- دائرة المعارف الإسلامية . الترجمة العربية .
- ٤٧ -- دراسة الشعراء . المرصفي .
- ٤٨ -- ديوان الحماسة لأبي تمام . شرح التبريزي وشرح المرزوق .
- ٥٩ -- ديوان الخرتق . مخطوط بدار الكتب رقم ٨ ش أدب .
- ٥٠ -- ديوان المتنبي . شرح البرقوق . المطبعة الرحمانية .
- ٥١ -- ديوان المتلمس . مخطوط بدار الكتب ٥٩٨ أدب .
- ٥٢ -- ديوان امرئ القيس . شرح السندوفني .
- ٥٣ -- ديوان المثقب العبدى . مخطوط بدار الكتب ٥٩٥ أدب .
- ٥٤ -- ديوان أمية بن أبي الصلت . نشره المستشرق فون سردريك شلتير .
- ٥٥ -- ديوان أوس بن حجر . نشره المستشرق رودلف جيبير . فيينا ١٨٩٢ .
- ٥٦ -- ديوان حاتم الطائي . طبعة بيروت .
- ٥٧ -- ديوان طرفة بن العبد . شرح الشنقيطي .
- ٥٨ -- ديوان عامر بن الطفيل . المستشرق ليال .
- ٦٩ -- ديوان عميد بن الأبرص . ليال .
- ٦٠ -- ديوان عمرو بن الورد . طبعة بيروت .
- ٦١ -- ديوان عنتره . شرح عبد المنعم شلبي .

- ٦٢ - ريغ الأبرار لفرحشورى . مخطوط بمكتبة زيور ٥٦٢٢ أدب .
٦٣ - رسائل أبي العلاء .
٦٤ - رسائل إخوان الصفا . طبعة بمصر .
٦٥ - روح الاجتماع . مؤلف لويون . ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا .
٦٦ - زهر الآداب المصرية .
٦٧ - شرح نهج البلاغة . ابن أبي الحديد . مطبعة الباني الحلبي بمصر .
٦٨ - شرح أدب الكاتب . ابن السيد البطيوني . طبعة بيروت .
٦٩ - شرح الأشعري على ألفية بن مالك .
٧٠ - شرح الملققات السبع . الزوزنى .
٧١ - شرح القصائد العشر . التبريزي .
٧٢ - شرح بانث سعاد . ابن هشام .
٧٣ - شرح ديوان جبران الخوري . أبو جعفر محمد بن حبيب .
٧٤ - الشعر والشعراء . ابن قتيبة تصحيح مصطفى السقا الطبعة الثانية .
٨٥ - الشعر المعاصر . مصطفى السحرني .
٧٦ - شعراء النصرانية . الأب لويس شيخو اليسوعي .
٧٧ - الصاحي . ابن فارس . المطبعة السامية .
٧٨ - صحح الأعشى . الفلغشندي . طبعة دار الكتب .
٨٩ - الصناعتين . أبو ملال العسكري . الطبعة الثانية . صبيح .
٨٠ - طبقات الأمم . صاعد الأندلسي . تحقيق الأب لويس شيخو اليسوعي .
المطبعة الكاثوليكية بيروت سنة ١٩١٢
٨١ - طبقات الشعراء . محمد بن سلام الجمعي . مطبعة السعادة بمصر .
٨٢ - طهارة العرب . أحمد بن الأمين الشنقيطي .
٨٣ - العبر وديوان المبتدأ والخبر . ابن خلدون . طبعة بولاق ١٢٨٤ هـ .
٨٤ - العرب قبل الإسلام . جورجى زيدان .
٨٥ - العرب والإمبراطورية العربية . بروكلان . ترجمة الدكتور نيه أمين فارس
ومتر البعلبكي . بيروت .

- ٨٦ — محضر المأمورين . الدكتور فريد رفاهي
- ٨٧ — محضر ما قبل الإسلام . ميرزا نافع
- ٨٧ — العقد الفريد . ابن عبد ربه . لجنة التأليف والترجمة والنشر
- ٨٩ — العمدة في صناعة الشعر ونقده . ابن رشيق . مطبعة أمين عثمانية
- ٩٠ — عبون الأخبار . ابن قتيبة . طبعة دار الكتب
- ٩١ — بحر الإسلام . أحمد أمين
- ٩٢ — فقه اللغة . الدكتور علي عبد الواحد وافي
- ٩٢ — الفن ومذاهبه في الشعر العربي . الدكتور شوقي ضيف
- ٩٤ — الفهرست . ابن النديم . طبعة ليزج
- ٩٥ — في أصول الأدب . الأستاذ أحمد حسن الزيات
- ٩٦ — في الأدب الجاهلي . الدكتور طه حسين
- ٩٧ — القاموس المحيط . الفيروز آبادي
- ٩٨ — القرى لقاصد أم التري لمحج الدين الطبري . نشره الأستاذ مصطفى السمعا
مطبعة الباب الحلبي بـمصر ١٩٤٨ م
- ٩٩ — قواعد النقد الأدبي . لامل كرومي . ترجمة الأستاذ محمد عوض
- ١٠٠ — السكامل في التاريخ . ابن الأثير . طبعة ليدن
- ١٠١ — السكامل . المبرد . طبعة المستشرق ريت بمدينة ليزج
- ١٠٢ — السكرام . أبو هلال العسكري
- ١٠٣ — السكشاف عن حقائق غوامض التنزيل . محمود بن عمر الزمخشري . المطبعة
البيية المصرية
- ١٠٤ — كيف يعمل العقل . سرل برت . ترجمة الأستاذين محمد خلف الله وفؤاد جلال
- ١٠٥ — لسان العرب . ابن منظور . طبعة بولاق
- ١٠٦ — المؤلفات والخلاف . الأمدى . نشره وصححه المستشرق الدكتور فريتس
كرنكر . مكتبة القديسي بالقاهرة
- ١٠٧ — مجالس ثعلب . أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون

- ١٠٨ — مجمع الأمثال . الميداني . المطبعة العربية المصرية
١٠٩ — مجموعة رسائل الجاسط . طبعة سامي
١١٠ — محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية . محمد الحفصى بك
١١١ — مختصر تاريخ البشر . أبو القداء . طبعة القسطنطينية
١١٢ — المخصص . ابن سيده . مطبعة بولاق
١١٣ — المرأة العربية . عبد الله عفيفى بك
١١٤ — المرأة في مختلف العصور . الأستاذ أحمد خاكي
١١٥ — المرأة في التاريخ والشرائع . جميل بيهم
١١٦ — مرآة شواعر العرب . الأدب لويس شيخو
١١٧ — مرث وأشعار . اليزيدى . مخطوط . بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية
في ٨١٦ (٣٩٣)
١١٨ — مروج الذهب ومعادن الجواهر . المسعودى . مطبعة بولاق ١٢٨٣ هـ
١١٩ — مسائل فلسفة الفن المعاصرة ج. م . جويو ترجمة ساي الدروي
١٢٠ — معجم البلدان . ياقوت الخوى . مطبعة السعادة بمصر
١٢١ — معجم الشعراء . المرزبانى . أخرجه المستشرق الدكتور سالم الكرنكوى
١٢٢ — المزهرة . السيوطى . طبعة صحيح
١٢٣ — المعارف . ابن قتيبة . طبعة المستشرق وستنفلاذ بمدينة جوتنجن
١٢٤ — معنى اليب . ابن هشام . المطبعة الأزهرية بمصر
١٢٥ — مفتاح دار السعادة . ابن القيم
١٢٦ — المفضليات . الضبي . شرح الأستاذين شاكر وهارون ، وطبعة السندوي
١٢٧ — مقدمة ابن خلدون . المطبعة الأزهرية بمصر
١٢٨ — مقدمة الحضارات الأولى . جوستاف لوبون . ترجمة الأستاذ
محمد صادق رستم .
١٢٩ — مقدمة ترجمة الإلياذة . البستاني
١٣٠ — الملاحى للضبي . مخطوط بدار الكتب . فون جميلة ٥٣٣

- ١٣٢ - الملل والنحل . الشهرستاني . علي هامش الفصل لابن حزم المطبعة الأدبية
بمصر ١٣٤٠ هـ
- ١٣٣ - مهذب الأغاني . محمد الحضري بك
- ١٣٤ - النابغة الذبياني . الأستاذ عمر الدسوقي
- ١٣٥ - النقائض بين جرير والفرزدق . طبعة بريل . ليدن ١٩٠٧ م
- ١٣٦ - النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية . الأستاذ
محمود جمعة
- ١٣٧ - نقد النثر . قدامة بن جعفر . مطبعة لجنة التأليف
- ١٣٨ - نهاية الأرب في فنون الأدب . النويري . طبعة دار الكتب
- ١٣٩ - الهوامل والشوامل . لأبي حيان التوحيدي ومسكويه نشره الأستاذ
أحمد أمين بك والأستاذ السيد صقر . مطبعة لجنة التأليف ١٩٥١
- ١٤٠ - وفيات الأعيان . ابن خلكان . مطبعة بولاق
- ١٤١ - Literary History of the Arabs. by Reynold A. Nicholson. London. 1907. -

فهرس الشايب

صفحة

٥-٣

المقدمة

١٥١-٨

الباب الأول

بحوث تمهيدية

١٦-٨

الأدب و تطورده

معناه في الجماهلية و صدر الإسلام ، اشتقاق الكلمة ، دلالتها الخلقية ، مناقشة آراء في اشتقاق المعنى الخلقى ، معناه في العصر الأموى ، دلالة الثقافية ، رأى في اشتقاق المعنى الجديد ، معناه في العصر العباسى الثانى ، ضيق الدائرة الثقافية ، دلالة أخرى للكلمة أحياناً في العصر العباسى .

١٨-١٧

تاريخ الأدب

معناه ، قيمته ، ثقافة مؤرخ الأدب .

٢٩-١٩

اللغة العربية

اللغات السامية ، اللغة العربية سامية ، أضرار رقيها و تهذيبها ، عوامل التقريب بين اللهجات ، أثر قریش في وحدة اللهجة . أثر الأسواق . موقع سوق عكاظ .

٥٠-٣٠

اللغة العربية واللهجات

لغة الشمال و لغة الجنوب ، اختلاف اللهجتين طبيعى ، اللغة واحدة وإن اختلفت اللهجة ، لماذا لم يظهر هذا الاختلاف في الشعر الجاهلى ؟ بعض الشعر المروى يسجل اللهجات ، القراءات واللهجات ، رحلات القحطانيين إلى الشمال قديمة و ثابتة ، معنى كلمة أبى عمرو بن العلاء .

صفحة

١٠٨-٥١ اتصال العرب بغيرهم
صلاتهم التجارية بالأهم : العراق وفارس ومصر والحبشة والهند . أثر ٥١-٥٧
هذا الاتصال .

٧٥-٥٧ اتصالهم السياسي والحسري بالفرس ، قبل إنشاء إمارة الحيرة ،
عن طريق الحيرة ، عن طريق اليمن ، عن الحروب . آثار الاتصال .

٨٤-٧٦ اتصالهم السياسي والحربي باليونان والرومان ، حملة عربية رومانية إلى
اليمن ، دولة الأنباط ، دولة تغمر ، إمارة غسسان ، حضارة الفساسنة
ومكاتبهم ، أثر اليونان والروم في اللغة والأدب .

٨٩-٨٥ اليهودية ، وفرد اليهود إلى يثرب ، قبائلهم ، القبائل العربية التي خاطبهم
في يثرب والحجاز ، اليهود في اليمن ، تأثير اليهود في العرب ، تأثيرهم
بالعرب ، السبب في ضعف تأثيرهم .

٩٦-٩٠ النصرانية . انتشارها في بلاد العرب . آثارها في العرب ، عجمها عن
اكتساح الرئية العربية .

١٠٨-٩٦ اتصالهم السياسي والحربي بالحبشة ، غزوات الأحباش لليمن وكندة ،
تأثير الأحباش في اللغة والأدب عن طريق مباشر ، وعن طريق اليمن
نواحي هذا التأثير ومظاهره المختلفة .

١١٧-١٠٩ شاعرية العرب
عوامل شاعريتهم ، إعزازهم للشعر والشعراء ، أمثلة على مكانة
الشاعر وقيمة الشعر ، كثرة ما خلفوا من شعر ، ضياع كثير مما خلفوا .

١٢٣-١١٨ أولية الشعر العربي
أول شعر قيل مجهول : الشعر الذي وصل إلينا ليس هو أول الشعر
هو شعر ناضج ومنقح ، تسمية بعض الشعراء بما يدل على عيزاتهم ،
وتسمية بعض القصائد بما يدل على عيزاتها ، في الشعر الجاهلي نفسه ما يثبت
أنه مسبق ، تنازع القبائل في أولية الشعر .

- مقدمة
١٢٤ - ١٤٢ نشأة الوزن والقافية
نشأة الوزن والقافية نشأة بحرية شافية ، الأبنية على ذلك ، رأى
ابن رشيق في نشأة الوزن ، الرد عليه ، رأى في نشأتهما - مراسل هذه
النشأة : السجع ، الغناء ، السجع ، بلاتمة الشعر ، البناء ، مناهج هذه
العلاقة ، نشوء الوزن والقافية ، تمييز رأى أبي حيان هذه النظرية .
رأى جويو .
- ١٤٢ - ١٥١ المدخلات
ما هي ؟ الخلاف في عددها ، السبب في تسديدها ، مناقشة القائلين
بتعليقها على الكعبة ، رأى الذى أرفضه .
- ١٥٤ - ٢٢٨ الباب الثامن
الحياة الاجتماعية من الشموس
(الصلوات الأسرية)
١٥٤ - ١٥٨ مكانة المرأة في الأسرة والمجتمع
إعزاز الرجل لها ، إظهارها على مفاخره ، الانتساب إليها ، مشاركتها
في الخبز وفي السلم ، استشارتها في زواجها .
- ١٥٩ - ١٦١ الزواج
نظامه الشائع عندهم ، أصحاب الرايات ، تزويجهم بالسبايا ، دفاع
الشعراء السود عن سوادهم ، زواج القرىبات مضعف للنسل .
- ١٦١ - ١٦٢ الطلاق
الطلاق بيد الرجل ، وأحياناً بيد المرأة ، لم ينفرد العرب بالطلاق .
- ١٦٢ - ١٦٣ تعدد الزوجات
شيوخه بينهم وبين غيرهم من الأمم .

مقنة

١٦٨-١٦٢

الأولاد

تربيتهم ، تسميتهم ، الرأد وبواعثه ، حب بعضهم للنبات ، إحياء
المورودات .

(الصلوات القبلية)

الحرب

بواعث الحروب ، طريفة المقاتلة ، الحرب ذوو خطط حربية ،
زمن القتال ، أدوات الحرب ، الأسرى والسبايا ، معاملتهم ، فداء ١٦٦٩-٢١٠
الأسرى ، الزواج بالسبايا ، الصلح ، التنفير من الحرب .

٢١٧-٢١٠

النار

كفهم بالنار ، امتناعهم عن اللذات حتى يثاروا ، النار من الأقارب ،
اثر البيئة في أهمية النار ، النساء والنار ، قبول المدينة عار .

الحلف والجوار

مخالفات بين الفرد والفرد وبين القبيلة ، وبين القبائل ، لماذا نشأ
الحلف ؟ توثيق الحلف ، التحالف على الدم ، لعق الدم ، توثيقه بسوائل ٢١٧-٢٢٥
أخرى ، غمس أيدي المتحالفين في الطيب ، التمسيح بالسكبة ، التحالف
على النار ، إعزازهم الحليف والجار وحماتهم له ، تشنيصهم بالغانر .

٢٢٨-٢٢٥

الغنى والفقير

مظاهر الغنى ، مظاهر الفقر ، سحق بعض الفقراء ، نشأة الصعلكة
والصعاليك ، حياة الصعاليك ومذهبهم في الحياة ، أدب الصعاليك .

٢٤٠-٢٩١

تليها ثالث

الحياة الليلية من الشعر

٢٤٠-٢٥٢

السكرم

بواعثه ، مظاهره ، أوقاته ، أنوارته ، بداية الضيف . نقر بالسكرم
ومدح به .

٢٥٢-٢٥٨

البخل

بعض الرجال بخلاء ، بخل النساء ، لومين الرجال على السكرم ، لماذا
بخلت المرأة ؟ صدق الشعر في تصوير السكرم والبخل .

٢٥٨-٢٦٧

الشجاعة

بواعثها ، مظاهرها : القتل مضجرة والموت حثف الأنف معرفة ،
افتخروا بصبرهم عند اللقاء العنيف ، لا يفخر الشاعر بقومه إن لم يكونوا
شجعانا ، عدم مبالاة بعضهم بأن يقتل ، النساء لا ينحن على قتيل في الحرب ،
شهد العرب لأعدائهم بالشجاعة ، إنصاف الأعداء الشجعان .

٢٦٨-٢٧١

الحسين

اعتراف بالجبن والفرار ، تدلس بعضهم المعاذير ، إقرار بعضهم
بالجبن ، تحمس بعض الفارين وندمهم ، صدق الشعر في تصوير الشجاعة
والجبن .

٢٧٢-٢٧٣

الطيش وسرعة الانفعال

نشأة هذا الخلق وأسبابه ، بعض دلالاته ، التهمك بالخلع ، حسنة هذا
الخلق في البيئة الجاهلية .

٢٧٣-٢٧٦

الحسليم

قلة الخلاء ، الحلم على القريب والصديق ، قصص عن بعض حلماهم .

٢٧٦-٢٨١

الحرية والإباء

طبيعة في العرب منذ القدم ، رفض الضيم حتى من الملوك والفاطمين ،

مقدمة

أسباب الحرية والعزة ، الفخار بالقفرة ، الفخار بالتمالي على الملوك ، فساد فهمهم لعنى الحرية ، أثر هذا الفهم في تفرقهم .

٢٨٥-٢٨١

الوفاء

الكلمة التي ينطقها العربي بعد عليه ، السمورل مثل أعلى في الوفاء ، وكذلك هانيء بن مسعود ، وفاؤهم الموتى ، وللمذاهب المضطربة ، وفاء الزوجة لزوجها . غدرهم أحيانا .

٢٩١-٢٨٦

العفة والغيرة

حرصهم على العفة ، طرد الخلعاء ، الفخر بالعفة ، هي حلية القادرين ، عفة نسائهم ، غيرتهم على النساء ، أمثلة من غيرتهم .

٢٩٤-٢٤٥

الباب الرابع

الحياة الدينية في الشعر

٢٩٤-٢٠٢

تمهيد

هل عجز الشعر الجاهلي عن تصوير الحياة الدينية ؟ مناقشة هذا الرأي : ضياع شعر كثير ، تناسى كثير من شعر الوثنية وأديان الجاهلية ، اليهود يفضون عن شعرهم في أصنامهم ، الشعراء لا يحفظون بالدين كثيراً ، الباقي من الشعر الجاهلي يصور الحياة الدينية ، الأدلة على صحة هذا الشعر ، ضعف الوثنية في أواخر العصر الجاهلي ، أمثلة وأدلة على هذا الضعف .

٣٠٣-٣٢٠

الأصنام

تعدد المعبودات ، كيف نشأت عبادة الأصنام ؟ ما نرمن إليه بعض أصنامهم ، أصنامهم المشهورة ، إخلاصهم لها ، الأصنام في الشعر : القسم بها ، ذكرها ، الاستقسام عندها ، الدوار بها ، قرابينهم لها .

٣٢٠-٣٢٦

التوحيد

تمهيد ، التوحيد في الشعر ، أمية بن أبي الصلت نموذج للشاعر الديني ، عدى بن زيد ، شعراء آخرون ، مظاهر توحيدهم : القسم بالله ، إسناد

سجدة

الثواب والعقاب إليه ، هو علام الغيوب ، هو الباقى ، يوم القيامة ، علاقة
البلايا باليمن ، شفاقر اليهودية والنصرانية على سبيل التشبيه والتصوير
واستمداد المعاني .

الكواكب

٢٢٦—٢٢٨

عبادة الشمس ، عبادة القمر وسهيل وعطار والزهرا ، مظاهر عبادتهم لها .

٢٢٨—٢٤٢

النار

نشأة عبادتهم لها ، مظاهر عبادتها : الخفاف بها ، التحالف عليها ،
الاستمطار بها .

٢٤٢

الملائكة والجن

قليل منهم عبد الملائكة والجن ، تبرؤ أمية بن أبي الصلت من
عبادة الجن .

٢٤٢

الشجر

نشأة عبادتهم له . عثر إله الخصب والتاج . العزى

٢٤٥

الدهريون

عقيدتهم ، وإنكارهم البيت

٢٤٨

الباب الخامس

٢٢٤—٤١٤

العبادات والمعتقدات من الشعر

٢٤٨—٢٤٩

تمريد

٤٢٩—٣٦٥

الخمر

لماذا أولعوا بها ؟ مظاهر ولعهم بها ، بحالها وأدواتها ، أثرها ،
المحرمون لها .

٣٦٥—٣٦٩

الميسر

طريقته ، الفرض منه ، الفخر به ، المدح به ، العرب خير الأمم
غرضاً منه .

صفحة

٢٧٠-٢٨٢

الجن

تصورهم لها ، تشكّلها ، مساكنها ، استعادتهم بها ، عصيتهم لها ، زواجهم بها ، قتالهم العول . الجن في الأدب اليوناني .

٢٨٢-٢٨٩

شياطين الشعراء

عبر ، شيطانا الشعر ، شياطين بعض الشعراء ، أقاصيصهم عنها ومساجلتهم لها وتلقيهم منها ، شياطين شعراء الإفرنج ، أقاصيصهم عنها واستيحاؤهم منها . العقل الباطن .

٢٨٩-٣٩٨

الزجر والعيافة

ما الزجر ؟ بم تشاهموا ؟ بم تظالموا ؟ اختلافهم في الاصطلاح ، رفض بعضهم للزجر .

٣٩٨-٣٩٩

عقر الإبل على القبور

لماذا عقروها ؟ آراء في ذلك ، الرأي الذي أميل إليه .

٣٩٩-٤٠٢

الهامة والصدى

ما الهامة ؟ مبحث هذه الحرافة . الصدى ، بقاء هذا التخيل إلى الإسلام .

٤٠٢-٤٠٣

شق الرداء لتقوية الحب

ماذا فعلوا ذلك ؟ بقاء هذه العادة إلى الإسلام .

٤٠٣-٤٠٤

وطء المقلاة دم الشريف

الغرض منه ، ذكر الشعراء لهذه العادة .

٤٠٤-٤٠٥

تعليق الحللى والجلجل على اللدينغ

لماذا علقوها ؟ زراية بعضهم بها ، بقاء العادة إلى الإسلام .

٤٠٥

إذا خافوا دخول قرية

ماذا يفعلون ؟

٤٠٦

إذا ضلوا في فلاة

ماذا يعملون ؟

٤٠٧—٤٠٨ كنى السليم ليصبح الأجرى
[كثرت الشعراء من التشبيه بهذا العمل الجائر ، هل فعلوا ذلك ؟ الآراء
فيه . التعليق الذى أرفقته .

٤٠٨—٤١٠ ضرب الثور لتشرب البقر
لماذا فعلوا ذلك ؟ استمداد الشعراء صروراً من هذا العمل .

٤١٠—٤١٣ الوقاية من الجن والعين
النائم ، تعليق كعب الأرنب ، تعليق سن الثعلب والهمرة وحيض
السمره ، تعليق الأقدار النجمية ، زراية بعضهم بهذا ، تحصين الإبل إذا
بلغت ألفاً بفقء عين غلها .

٤١٣—٤١٤ الرتم
ما المراد به ؟ رأيي فى معناه .

كتب مطبوعة للمؤلف

١ - وحي الفسيب في شعر شوقي

٢ - فن الخط

٣ - الحياة العربية من الشعر الجاهلي

٤ - العزل في العصر الجاهلي

٥ - مع ابن خلدون